صفوة الاعتبار

بمستودع الأمصار والأقطار

تأليف

محمد بيرم الخامس التونسي

دار صادر
بيروت

٢

صفوة الاعتبار

بمستودع الأمصار والأقطار

٤-٥

تأليف

محمد بيرم الخامس التونسي

دار صادر
بيروت

الجزء الرابع من كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار تأليف الفاضل المحقق والاستاذ المدقق قدوة العلماء وصفوة الاذكياء وحيد عصره وفريد دهره الشيخ محمد بيرم الخامس التونسي نفعنا الله به وبعلومه آمين

﴿ طبعة أولى ﴾

﴿ بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣ هجرية ﴾

ماشاء الله كان

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* الباب الخامس فى قطر الجزاير

الفصل الاول فى سفرى اليه

* قد تقدم انى لما رجعت المرة الاولى من فرانسا كان رجوعى بحرا مارًّا على بلد بونه المعروفة بعنابه وهى احد فرض الجزاير فارست بها البابور صباحا فى مينا صناعية واسعة متينة تصل البوابر فيها الى الرصيف فى البر ويصل الرتل بطريق الحديد الى حذو وجهة هاته المرسى الصناعية لكنه رتل للسلع خاصة وبهاته المرسى كثير من السفن والبوابر منها نحو ثلاثة بوابر لشركة معدن الحديد الموجود بقرب عنابه فهذا المعدن هنالك غنى ويستخرج بكثرة ويحمل فى قوافل طريق الحديد وهى توصله الى ذات البوابر التى تحمله الى مرسيليا وفى كل يوم تخرج من المرسى بابورة مشحونة به وتدخل أخرى

خاوية

خاوية وفي مرسيليا يصفي ويشغل لانهم وجدوا ذلك أرخص مصروفا من جلب معمل التصفية في محله ولما ارسينا رأينا البلاد من جهة الغرب متصاعدة في جبل وحول المرسى أبنية حسنة من النوع الاوروباوي ثم نزلنا الى البر فوجدنا عجلات الركوب للكراء لكنها رديئة وسخة فذهبت لداخل البلد فاذا فيها قرب المرسى بطحاء وطريق متسع وحواليه أبنية جميلة وقهاوي ومنازل للمسافرين وحوانيت لبيع الحلويات والتحف الظريفة وفي وسط البطحاء حديقة صغيرة متنزها للمارة وفي وسط البلد بطحاء أخرى صغيرة يحيط بها اسرادقات تحتها حوانيت وفي هاته البطحاء الجامع الكبير فذهبت الى الحمام الذي هو قرب الجامع حيث كان فرضي التيمم في السفينة اذ لا حمام بها ولما دخلت الى البلد وجب الحمام فاذا هو على نحو حمامات تونس وسائر بلاد المشرق غير انه غير متقن النظافة وليس فيه بيوت منفردة للتطهير للانسان وحده وانما يتطهر الانسان بعد التنظيف في محله فيقع الحرج من التحفظ على كشف العورة أمام المغتسلين ولذلك كان أكثرهم مكشوف العورة وهي مصيبة عامة في أغلب البلاد الاسلامية التي رأيتها على خلاف تونس فان حماماتها لها بيوت صغيرة ذات أحواض صغيرة لغرف الماء منها ولها أنابيب للماء الحار والبارد وللبيت باب يغلق وينفرد الانسان للتطهير وحده بلا مشقة ولذلك كنت أختار الحمامات الافرنجية في أكثر اسفاري ولو في البلاد الاسلامية لانها أبعد عن الحرم من كشف العورة وان حصل فيها تعب من جهة الاغتسال المعتاد وذلك ان هيئتها بيت صغير فيه حوض كبير يحمل الانسان وله أنابيب للماء الحار والبارد وفي البيت متكأ ومصطبة ومعلاق للثياب وأرض البيت مفروشة بزربية فلا يمكن اخراج الماء عن الحوض وانما ينغطس الانسان في الحوض ويغتسل فيه بالصابون اما بنفسه او بخادم من الحمام ثم يجذب سلسلة من قعر الحوض لجذب سدادة فيخرج ما فيه من الماء ثم يجدد له ماء ثانيا او يأتي بمناديل من الكتان مسخنة نظيفة بعدا يتنشف بها الانسان وهو منفرد وبابه مغلق لا يدخل عليه أحد الا باذنه فاذا أراد الانسان التطهير يزيل ما على بدنه من النجاسة في بيته ان امكنه والا عند اتيانه الى الحمام يأمر الخادم بأن لا يملأ الحوض بالماء ولما ينفرد يقف في الحوض ويأخذ الكاس الموضوع في البيت لاجل الشرب فيملؤه بالماء الحار والبارد من الانابيب ويزيل ما عليه من النجاسة ويغسل رجليه ويخرج من الحوض ثم يفتح له منفذ خروج الماء منه ويفتح أنابيب اندفاع الماء ويطهر أرض الحوض بالغسل ثم يسد منفذ الخروج ويملأ الحوض

ماء على قدر ما يكفيه ويغتسل ويتطهر فيه وهو سائغ على مذهبنا لان الماء لا يصير
مستعملا الا بعد انفصاله عن جميع البدن والبدن كله في الاغتسال عضو واحد (واما)
على مذهب المالكية فهو أيسر وقد اضطررت في ذلك الحمام الى استئجار احد خدمته
ليستر زاوية من الحمام بمسك ازار في يديه حتى تيسر لي تطهير ما تحت ازاري وهنالك
صعوبة أخرى وهي بعد الماء بحيث ان كل مغتسل يأتي اليه بنحو عشرة مما يسمى برميل
مملوءة له ليتطهر بها بعد التنظيف ثم خرجت من الحمام وأتيت الجامع واذا هو نظيف
عروس قائم الادوات مفروش بالحصير من السمار على نحو ما هو بتونس ولما كنت
لابسا النعل كالخف مما يصح المسح عليه وهو نظيف دخلت به المسجد وصليت به وكان
هنالك بعض الناس فرأيتهم ينظرون الي شزرا منكرين الدخول بالنعل الى المسجد
لكن لم يقل لي أحد منهم شيئا فلما فرغت من الصلاة خاطبني من بجنبي فقال لي أنت مسلم
ولم تدخل المسجد بنعلك فقلت له هل تعرف الفقه قال نعم قلت ما هو مذهبك قال
مالكي فانظر في مختصر الشيخ خليل في كتاب الطهارة فانك تجد فيه مسألة المسح على
الخفين وان المسافر يمسح عليهما ولا ينزعهما ويصلي فيهما وأنا مسافر وحتى المقيم أيضا
له لبسهما والمسح عليهما والصلاة فيهما وقد فعل ذلك النبي صلى الله عليه وسلم وهو
مذكور في كتب الحديث وكان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يدخلون المسجد
بنعالهم بعد تفقدها وتطهيرها ان كان بها نجاسة فهذا جائز شرعا وليس في نعلي نجاسة
ولا وسخ فرضي بذلك وأخبر الحاضرين جهرة بأن الرجل مسافر وعارف بالحكم ثم خرجت
من هنالك وتطوفت في البلد وقد فطرت فيها في حانوت لطباخ مسلم أكلا عربيا
واستلذذته للغاية كيفما كان لاشتياقي للمعتاد سيما وقد كانت تلك السفرة هي أول
سفراتي والاشياء الغير المعتادة تصعب على النفس أولا وأحسن ما في البلد سوق الخضر
فانه على النحو المتقن في أوروبا من كونه واسعا ذا قبة من الزجاج محمولة على قطع حديد
مرفوعة على أعمدة حديد والحيطان أيضا مثل ذلك مع النظافة وحسن التقسيم ولكن
ليس فيه حوانيت وانما كل بياع يجلس في جهة ويضع مبيعه أمامه وبخارج البلد آثار
قديمة للرومان من البناء والدهاليز تقصد للتفرج وبخارجها أيضا بستان عمومي ويباع
منه الاشجار الصغيرة وليس هو بمتقن والحارات القديمة في البلد وديارها على نحو ديار
تونس وحاراتها الضيقة الطرق غير ان أبواب دورها بابه بدفة واحدة وبناء الباب مقوس
قليل الارتفاع وبخارج البلد أيضا جهة شاطئ البحر بعض من البساتين وحمامات من

الخشب

الخشب على ماء البحر تقدم بها الناس في الصيف وحولها سواق وأوى تجري في الصيف الغث
والسمين وسافرنا من هاته البلدة بعد الغروب قاصدين تونس وعدت اليها في سنة ١٢٩٥
في سفرتي الى فرانسا ذهابا وايابا وأقمت فيها في الاياب أسبوعا وكان الزمن صيفا وهي
لصغرها وعدم وجود الحركة الكثيرة بها لا ينشرح المسافر فيها وفي هاته السنة أيضا
مررت في الاياب على مدينة الجزائر قاعدة هذا القطر وهي لها مرسى على نحو ما تقدم
في عنابه والبلد أكبر من السابقة ومنظرها من جهة المرسى أبهج وأضخم وقد انشئ بها
طريق للترمواي يخترق البلد من جهة المرسى ويذهب الى قرية تسمى مصطفى جهة
الشرق من الجزائر وأبنية البلاد على نحو ما ذكر في عنابه وهي أيضا متصاعدة في جبل
وليس بها عيون غزيرة بل الماء له خزنة في الجبل تجتمع فيها مياه الامطار من جهات
الجبل ولذلك كانت الطرق الواسعة في الصيف محتاجة الى الرش لقلة ما ترش به وبها
أربعة جوامع للخطب اثنان مالكيان واثنان حنفيان والجوامع نظيفة مستقيمة وبقية
ما كان بها من الجوامع هدمت وبدلت وبها حصون متينة وهاته البلد هي مقر الحاكم
العام لقطر الجزائر ومنظر البلد من جهة البحر جميل لكثرة الديار والبساتين في الجبل
محفوف به درج يصعد فيها من أسفل البلد الى أعلى الجبل كما ان به طرق صناعية قليلة
الانحدار يصعد بها في العجلات الى قمته وأمام دار الحاكم بطحاء صغيرة منتظمة والدار
من نوع أبنية الاهالي قديما وأمامها محل لطائفة من الجند حرسا وفي خارج البلد وداخلها
مقامات للاولياء والعلماء محترمة منها مقام سيدي عبد الرحمن الثعالبي رضي الله عنه
خارج البلد في الجبل في مكان منشرح نزه ولضريح الشيخ مهابة ووقار قلبي وحوانيت
البلاد على نحو ما ذكرنا في تونس وبساتينها تسقى بالآبار يستقى عليها بالدواليب وأغلب
القصد منها الانتفاع بالغلال وأكثر ذوي اليسار يسكنون في بساتينهم في الصيف وتنور
البلد ليلا بفوانيس الغاز وبخارجها بستان انتزاه عمومي قليل الجدوى وبقربه سبيل
قديم لا زال قائما وحذوه قهوة على النحو العربي لكنها قذرة يقتات بها بعض الناس ومنازل
المسافرين بالبلد جيدة على النحو الاوروباوي وقد أقمت بهاته البلدة ليلتين ثم سافرت
بحرا قاصدا عنابه ومنها الى تونس فمررت بدلس وهي قرية صغيرة على البحر لم نستطع
الدخول اليها لشدة هيجان البحر وعدم مرسى أمينة بها ثم مررنا على بجاية ثم جيجلي
ثم اسكيكده وكلها قرى صغيرة الجديد منها مبني على النحو الاوروباوي والقديم على
عادة أهل القطر والاهالي أغلبهم فرنساويون ارتحلوا الى هنالك وأما اسكيكده فالبلاد

القديمة قد خسفت بها الارض والعياذ بالله وقد بني على شاطئ البحر قرية جديدة منتظمة الطرق واسمها على نحو النوع الاوروباوي ولم أشاهد تفاصيل هذه القرى لان الباخرة لا ترسي فيها الا قليلا واجمال حالهم يندمج فيما سيأتي ان شاء الله تعالى ومن القرى التي رأيتها قرية قالمة البعيدة عن عنابه نحو أربع ساعات في طريق الحديد في الجهة الجنوبية الشرقية منها وهي قرية مستحدثة يغلب على طبع أهلها البداوة وهي منتظمة البناء والطرق قليلة الماء وبها جامع وقاض وحاكم فرانساوي وعساكر وحصن وكنيسة وحديقة صغيرة للعامة

الفصل الثاني

«في التعريف بالجزائر»

هذا القطر واقع على شط أفريقية الشمالي ويحده جنوبا الصحراء الكبيرة وشرقا تونس وشمالا البحر الابيض وغربا مراكش وهو قطر متسع ذو جبال شاهقة وانهر عديدة وعيون دافقة وبه معادن غنية من الحديد والفضة والآن مشتغلون باخراجها سيما المعدن الذي أصله تابع الى تونس قرب حدودها في القالة وبها معادن أخر عديدة منها المستعمل كالقصدير ومنها الذي لم يزل في زوايا الخمول وأما هواؤه وحيواناته ونباته فهو مثل تونس في عموم ما ذكرناه فيها والجهات الشمالية هي ذات الخصب والاشجار العظيمة والغابات ومدن هذا القطر وبلدانه أشهرها قاعدته الجزائر ثم وهران ثم تلمسان ثم قسنطينة ثم بونه وغيرها كثير لا يبلغ مبلغ ما ذكر ومراسيها المهمة هي المدن المذكورة غير قسنطينة لان هاته متوغلة في البر على قمة جبل وينقسم القطر بالنظر الى طبيعة الارض والسكان والادارة الى ثلاثة أوطان كبار (أولها) وطن الجزائر وهو في الوسط ويمتد من الشط شمالا الى الصحراء جنوبا (وثانيها) وطن وهران غربي السابق ممتد معه كذلك (وثالثها) وطن قسنطينة شرقي الاول ممتد معه كذلك ولكل وطن قاعدة هي المدينة المنسوب اليها وله فروع على حسب الاحتياج وعدد سكانه نحو مليونين وسبعمائة ألف وستون الفا والمسلمون منهم مليونان وخمسمائة ألف والنصارى مائتا ألف ونيف واليهود نحو الثلاثين ألفا وقاعدة الجميع هي الجزائر عدد سكانها نحو خمسة وسبعين ألفا منهم ثمانية عشر ألفا مسلمون وتسعة آلاف يهود وثمانية وأربعون من النصارى من أجناس مختلفة وأكثرهم الاسبنيول والسكان المسلمون أصلهم من البربر

وهم

وهم أكثر سكان الجهات الجنوبية والجبال وباقي الجهات سكانها من نسل العرب والمختلط منهم ومن البربر وبعض من نسل الترك الذين استوطنوا هنالك وكذلك الاندلسيون الذين هاجروا بعد استيلاء الاسبنيول على بلادهم (واما النصارى) على العموم فاكثرهم فرانساويون انتقلوا الى هنالك بعد استيلاء الفرانسيس سيما بعد حرب المانيا معهم سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م وأخذها الاقليمي الالجاس واللورين فارتحل من أهالي ذينك الاقليمين نحو المائة والسبعين الفا سكنوا الجزائر واعانتهم دولتهم باعطائها لهم الاراضي الخصبة التي اخذتها من الاهالي الاصليين عقابا لهم على الثورات وغيرها واغلب هؤلاء الفرانسيس سكنوا جهات الشطوط وانشؤا فيها قرى (واما المسلمون) فاغلبهم على مذهب أهل السنة في العقيدة وعلى مذهب الامام مالك في الفروع ونسل الترك على مذهب الامام أبي حنيفة وبعض السكان على مذهب الاعتزال كبني مزاب ثم ان أهل السنة في المدن والقرى يكثر فيهم معرفة احوال الديانة وان حصل الآن من كثير منهم تهاون كثير بالشعائر (وأما البوادي) فيغلب عليهم الجهل بالاحكام لكنهم لازالوا متصلبين في العقيدة الاسلامية سيما أهالي الجهات الجنوبية والوسطى

الفصل الثالث

﴿في اجمال تاريخ الجزائر﴾

﴿مطلب في التاريخ القديم﴾ اعلم ان احوال هذا القطر التاريخية في القديم كانت في الاغلب متحدة مع تونس وطرابلس والمغرب فما بيناه في احوال تونس كان شاملا لهذا القطر حتى في زمن الفتح واستقرار الحكومات الاسلامية لانه في أغلب الاعصار تابع لتونس لما كانت هي مقر الحاكم العام الاسلامي لافريقية ثم لما انفرد المغرب عن تونس كانت الجهة الغربية من الجزائر تابعة له ثم اتحد الجميع تحت دولة بني حفص ومن تقهقرها وانفراد المغرب انتشأت بعض حكومات منفردة في الجزائر كمملكة بني زيان من زناتة التي مقرها في تلمسان ثم لما اشرفت الدولة الحفصية على الاضمحلال واستولى الاسبنيول على عدة جهات من شطوط افريقية وكانت الفرق المنقسمة اليها الجزائر غير قادرة على مدافعة دولة كبيرة مثل الاسبنيول اذ ذاك وكانت الدولة العثمانية رافعة علم الحماية لاهل الاسلام واساطيلها تجوب البحار تحت عدة امراء وارست فرقة من هذا الاسطول تحت امرة خير الدين بربروس باشا واخيه عروج على

شطوط الجزائر للبحث عن حالة الاندلس مع الاسبنيول ضج الى هذا الاسطول اهالى الجزائر وطلبوا من الامراء حماية هذا القطر الاسلامى مادام فيه رمق قبل هجوم الاسبنيول عليه وذلك أحق من تتبع الاسبنيول فى الاندلس اذ لم يبق فيها مسلم فاجابوا طلبتهم بعد تصميمهم للاتفاق ومن ذلك التاريخ استقرت الحكومة للدولة العثمانية وذلك فى حدود سنة ٩٤٠ وجرت اعمال الدولة فى الجزائر على نحو ما قررناه فى تونس لان المراد هو حماية البلاد الاسلامية واتحادها وجرى من الولاة الترك أولا الاستقامة والعدل ثم لما تهورت العساكر الينكشارية فى جميع الجهات حصل منهم أيضا فى الجزائر ما ضجرت منه الاهالى وطغوا فى النصب والعزل للولاة من هؤلاء العساكر حسب الشهوات وقوة العصبية ولم يحسن من هؤلاء الولاة الامتثال لاوامر الدولة العثمانية الى ان ولى حسين باشا الذى كان سببا فى دخول الفرانساويين الى البلاد والحكم لله رب العباد

* ﴿مطلب فى تاريخ الجزائر الجديد﴾ اعلم ان الدولة الفرانساوية لما ترقت فى المعارف والقوات سيما فى الاعصر الاخيرة لازمها حب الظهور وعدم تحمل الهوان وكانت الدولة العثمانية فى شغل الشاغل من اعمال الينكشارية وحروب الروسية وثورات اليونان وضم الى ذلك طغيان ولاة الاقاليم وعدم امتثالهم للاوامر وكان حسين باشا والى الجزائر مستبدا ظلوما مرتشيا قليل التدبر وحصل منه اهانة لقنسل فرانسا وذلك على ما فى تاريخ ابن الضياف أحد التجار اليهود الاغنياء الجزائريين الملقب بيقرى أبو حناح له خلطة مالية مع تجار من الفرانسيس وتداعوا فى خسائر من الجهتين وانتصر حسين باشا لرعيته بالالحاح على قنسل فرانسا فى انصافه وآل الامر الى صلح يدفع على مقتضاه التجار الفرانساويون الى التاجر الجزايرى مالا وافرا واضمر حسين باشا أخذ المال لنفسه لما رآه ذريعة او راجعا الرعيته وتلك عادة الفوها ولما قرب دفع المال واذا بتجار أخر فرانساويون قاموا على بقرى المذكور بدين اوقفوا عليه المال الذى يريد قبضه فاستاء حسين باشا من ذلك وطلب من القنسل رفع الايقاف وقال ان ارباب الدين الفرانسيس الطالبين لرعيته يتبعون ذمة المدين بعد قبضه للمال بحيث لا يكون للطالبين حق فى المال الذى يدفعه الفرانساويون فامتنع من ذلك القنسل مستندا الى ان المال المرقل مال المدين والغرماء لهم حق فيه الا اذا ضمنه من يرضون بذمته وكان المدين نفسه مغريا بهذا التدبير خوفا على ماله من الضياع باستيلاء الباشا عليه

فاعرض

فاعرض الباشا عن القنصل وكاتب دولة فرانسا فى غرضه فارسلت المكتوب الى القنصل وامرته بالجواب عنه ولما قدم القنصل الى الباشا لبعض ما ترب خاطبه الباشا فى استبطاء جواب مكتوبه المشار اليه الى دولة فرانسا فقال له القنصل ان المكتوب ارسلته الدولة الى وامرتنى بالجواب عنه فسأل عن سبب عدم اجابة الدولة له فاجابه بما فهم منه احتقاره وكانت بيد الباشا منشة يطرد بها الذباب فضرب بها وجه القنصل وطرده وبقى اسفا على ما فاته من مال بقرى وتهددت فرانسا الوالى المذكور على اهانة نائبها وألحت عليه بان يطلب منها الرضى ويعترف بالخطا فابى واصر مع امر الدولة العثمانية له بذلك ومن النصائح المتتابعة له من الدول الاجانب وخواص الاهالى وقد كانت فرانسا فى شغل من داخليتها فى ذلك الوقت حسبما هو مثبت فى تاريخها لان ذلك كان اثر حروب نابليون الاول وكانت ايضا متوقية المشاحنة مع العرب ومع الدولة العثمانية حتى رضيت فرانسا بان يكلف الباشا اى انسان كان فى باريس بطلب الترضية لكى تندفع عنها المعرة ولا تلحقه هو مذلة بارسال احد من متوظفيه الى القنصلاتو ولا الى باريس وكان قصدها بذلك كله اجتناب الحرب ما امكن لاشتغالها بحروبها واخوابها الداخلية فاصر الوالى على رأيه وارسلت فرانسا اسطولها وحاربت بلد الجزائر واستولت عليها وحمل ذلك الوالى الى باريس ثم مات فى اسكندرية وقد نسب المؤرخ المذكور منشأ اعمال الباشا المشار اليه الى كونه لا غيرة له على الوطن من حيث كونه لم يكن من ابناء ترابه ولذلك نظر به الى ذلك الحد مع علمه بالضعف والانحلال عرى عصبيته ونفرة الاهالى من جوره الخ والحق ان مثل ذلك التعليل تاباه الشريعة على ما سيأتى ايضاحه فى الخاتمة ان شاء الله تعالى فالجنسية الاسلامية واحدة ثم المشاهدة تناقض مقاله ايضا فكم شاهدنا وسمعنا من التاريخ ما يثبت غيرة الوافدين على الاقطار ووفاءهم لها بشكر نعمائها واداء واجبات الديانة فيها من التحسين والتحصين وكم شاهدنا وسمعنا ايضا ضد ذلك من ابناء الاقاليم ومن دعيين فيها فتحقيق السبب هو ان الله اذا اذن فى امة باضلالها فسدت اخلاق اكابرها ففسقوا فيها او من فسوقهم اسناد الامر الى غير اهله فحق عليها القول وسلط عليها ما يدمرها وذلك هو الدال عليه القرآن الكريم والحديث الشريف وهو المشاهد بالعيان والمعلوم من التواريخ فى اضمحلال الدول وتقهقرها وحذاق الناظرين فى احوال الدول ينسبون نكباتها لاصول منشأ الفساد وان طال الزمان ويكون الذى انحل بيده الامر ظهر السكامن الداء الزمن وهو مع ذلك مسؤل لله ولعباده

اذا كان يمكن له توقيف المرض فيعوض ذلك بزيادة هيجان بحراناته فيكون أشد على الامة من وقع الصواعق اذ الجسم العليل يتأثر بما لا يتأثر منه السليم. كفاه خزيا فى الدنيا والآخرة ان كان مظهرا للشرور وفداء الجزائر قد ابتدأ منذ انخرم امر الينكشارية فى القسطنطينية التى هى مقر الدولة العامة ونشأ عنه ما نشأ من فساد الادارة والولاة الى ان اصيبت عدة جهات وباء حسين باشا فى الجزائر باتم الظلم والخراب والتهور الذى كان أعظم النكبات وانتقلت حالة الجزائر بل وحالة السياسة فى شطوط افريقية الشمالية الى طور آخر وكان مبدأ استيلاء فرانسا على الجزائر سنة ١٢٤٦ فى مدة كارلوس العاشر ملك فرانسا وتمكن الفرانسيس أولا من القاعدة وما حولها لكن بقية الجهات اصروا على الامتناع من الطاعة لفرانسا لانها انما ارادت الانتقام من الوالى حسين باشا وقد حصل فالجهات الشرقية من القطر انفرد بالحكم فيها الحاج احمد باى قسنطينة والجهات الجنوبية والغربية تشتتت تحت رؤساء القبائل ورام الفرانساويون محاولة تطويعهم بالرفق بان يتولى الامر فى وهران والى تونس بارسال أحد عائلته أو احد موظفيه فارسل والى تونس واحدا من جهته ومعه شرذمة من الحرس فلم ينفذ امره فى مدينة وهران فضلا عن خارجها ورجع من حيث أتى ثم اجمعت الجهات الغربية والجنوبية على مبايعة الرجل الوحيد سلالة النسل المطهر الامير سيدى عبد القادر بن محى الدين الحسنى وقام لله حق القيام وصحبته النصرة الالهية فى كثير من الوقائع الى ان كان فى بعضها ما هو خارق للعادة من الكرامات كظفر فرسه الازرق به ستين مترو حيث احاطت به العساكر الفرانساوية كالحلقة وراموا مسكه باليد فطفر به فرسه على رؤس العساكر وأسلحتهم ذلك المدى ونجا راكضا الى منعته ودام محاربا لهم نحو سبع عشرة سنة واستقامت له حكومة ضرب فيها السكة باسمه وانشأ المدافع والبنادق ونفذ أمره وخشيته فرانسا ودعا الحاج احمد باى ليتحدا ويكونا يدا واحدة فامتنع تجبرا وطغيانا وخذل الامة الى ان وهن امره واستولى الفرانساويون على ما كان تحته وبقى الامير سيدى عبد القادر مدافعا ومهاجما الى ان سولت الغلطات النفسانية المخالفة للديانة الاسلامية لسلطان المغرب الاتحاد مع الفرانسيس على محاربة الامير المشار اليه وقطع عنه سلطان المغرب خط التجائه جهات الصحراء فاضطر الامير الى التسليم للفرانسيس فاقتبلوه بالرحب والاكرام وحملوه الى باريس تحت المراقبة فيها وكان اذ ذاك نابليون الثالث مقبوضا عليه هنالك فحصلت منه مودة للامير ويقال

انه

انه وعده بالمساعدة لو يفضى ملك فرنسا اليه وعندما استقر نابليون الثالث فى منصب الامبراطورية لم تساعده رجال دولته على انجاز قصده من تولية الامير المشار اليه على الجزائر فاهدى اليه رسالة فى محاسن الشام وخيره فى انتخاب محل لاقامته فاختار الامير سيدى عبد القادر ارض الشام وقدم من فرانسا أولا الى الاستانة وأكرم مقدمه السلطان عبد المجيد وأقام مدة فى بلاد الترك ثم استقر فى دمشق الشام أدام الله بركته للانام وحاطه بالأمن والسلامة فى نفسه وفى آله الكرام وبعد خروج الامير المشار اليه من الجزائر خف الخطب على فرانسا لكن بقى جبل الزواوة ثائرا عليها تحت امرة كبرائه فطوعته اخيرا بمثل ما فعلته فى أغلب الجهات من انخداع الرؤساء بالمال وتسلط بعضهم على بعض كما انها حاربت فى الجزائر أيضا دولة المغرب بجيوش كثيرة خالية عن التدبير والتدريب الحربى فلم تفد شيأ سوى ضياع ما حملوا معهم وكان البوادى المنضمين الى الفرانسيس أشد على المغاربة من نفس الفرانسيس وذلك سبب الخذلان ولا زالت تتوالى الثورات فى الجزائر على الفرانسيس منذ دخلها الى الآن تارة مشتدة وتارة خفيفة ولله عاقبة الامور

﴿ مطلب فى كيفية اجراء السياسة الداخلية فى الجزائر ﴾ اعلم ان ادارة الجزائر فى الحقيقة مناطة بارباب الامر والنهى فى باريس على ما هى قاعدة الفرانسيس من ارجاع كل الامور فى ممالكهم ومستعمراتهم الى باريس من غير التفات الى بعد المستعمرات أو قربها ولا الى الجهل بأحوالها وأخلاق أهلها وعوائدهم فيضطر أصحاب الحكومة الى اعتماد أقوال المباشر فى المستعمر المبحوث فيه فيؤل الامر الى ما تقتضيه حالة ذلك المباشر من الانصاف أو ضده مع أنه فى نفس الامر غير مسؤل عما يقع الا فى الاجراء فلا يلزمه الاحتراس اللازم للمسؤل ومع ذلك فالاحكام والادارة كلها فى الجزائر كانت استبدادية بحتة تحت الحكم العسكرى فما هى الا اجتهادات من المباشرين بلا تعقب لحكمهم لان الدولة منعت الاهالى من الحرية السياسية ومنحتهم بعض الحرية الشخصية من التصرف فى دياناتهم وأشخاصهم وأموالهم كيفما أرادوا فيما لا يضر بالدولة ولا بأحد فى نظر الحكام والدولة تنتخب حاكما عاما من أهل المناصب العالية من الفرانسيس ويولى حاكما عاما على الجزائر جميعها ويستقر فى مدينة الجزائر وهى أيضا تنتخب ثلاثة حكام آخرين كبار الفرانسيس تناط بأحدهم ولاية الجزائر وبالآخر ولاية وهران وبالآخر ولاية قسنطينة ويرجعون فى النظر لحاكم الجزائر العام وعلى كل قبيلة قائد

والاغلب ان يكون من بنى القبائل و يلقب كبراء هؤلاء القياد بالاغه و يتصرفون حسب
اجتهادهم وحسب ما يلقنون به من الاوامر من الولاة وفى كل بلدة قسم من العساكر
ولكبرائهم نفوذ كبير فى الاهالى وفى كل بلدة أو قرية حاكم فرنساوى والرسوم الظاهرية
فى الجباية وان كانت محدودة مقوننة بأخذ الاعشار من المزروعات والزكاة على الحيوانات
فكثيرا ما تمتد الايدى الى المكاسب من غير الثقات من المتوظفين على أوجه شبيهة بالسرقة
حيث انه ليس عليهم احتساب حقيقى ثم للمتوظف مخلص عندما تقع به الشكاية بان ينسب
المأخوذ منه الى الثورة أو السعى فيها ويبادر فى قول فى ذلك تثبت التهمة وانتسابها وقوف
على القرائن لدى الحاكم المستبد وكل من ثبت عليه شئ من ذلك يؤخذ جميع كسبه
للحكومة زيادة عن عقابه البدنى الشديد ولا معقب لتلك الاحكام وقد ابتدأ ذلك العمل
منذ دخلوا الجزائر فان حمدان بن عثمان خوجه الذى هو من الاعيان العلماء الاغنياء *
العارف بالالسن الاجنبية اتهم بانه كانت الحكومة السابقة أمنت عنده أموالا فأخذ ماله
وسافر هو وشكا الى دولة فرانسا فأحالته على مجلس شوراء الدولة المسمى كونسيل دى تا
ووكل أشهر العارفين باحكامهم وعكف منتظر الحكم ثلاث سنين صارفا أوقاته
فى مطالعة الكتب وتأليف كتابه باللغة الفرانساوية المسمى مرآة الجزائر الذى أودعه
أخلاق القبائل وحالة سيرة حكام الترك وما آلت اليه من مظالم الفرانساويين ما لم يكن
يظن صدوره عن أمة متمدنة وقد قبل هذا التأليف فى فرانسا بالاعتبار لكن حكام
الجزائر استاؤا منه وزادوا نكالا بكل من له علاقة بالمؤلف المذكور وبعد ما مر عليه ما مر
صدر الحكم من المجلس المشار اليه ان حمدان المدعى محق فى دعواه لكنها المعارضة الى
المجلس بعد صدور أمر الدولة بان لا تقبل دعاوى تلك السنة التى حصلت عليه فيها
المظالم فلا حق له حينئذ فالتجأ واستجار بالدولة العثمانية واستقر بعدها فى الاستانة وكان ابنه
على باشا من أعيان رجال الدولة وعلى نحو ذلك العمل تجرى الادارة السياسية فى الجزائر
الى الآن فترى فى صحيفتها الرسمية المسماة بالمبشر على الاستمرار صدر الامر بثقاف
أملاك فلان وهى كذا وكذا وأملاك فلان الخ لكن منذ سنة ١٢٩٥ أدخلت
المدن وبعض قرى تتبعها تحت الحكم المدنى القانونى لكنه خال عن الحرية اللازمة
والمساواة وأهون من الحكم العسكرى الاستبدادى لبعض أقسام الناس وأما كثير من
البادية وجهال العامة فانهم يريدون الحكم السابق العسكرى ويرونه خيرا لهم لما يأتى
بيانه مجموع ما تقدم ذكره مع التخالف فى الديانات بين الاهالى والدولة المتسلطة

دامت الثورات وتعاقبت عند كل فرصة وعذرهم على ذلك منصفوا الفرانسيس حتى
سمعت من كثير منهم مساكنى الجزائر يتشكون من الادارة ومازالت صحفهم تطلب
انصافهم واستقامة ادارتهم واعطاءهم الحرية المناسبة بل ويطلبون المساواة مع فرانسا
فى جميع قوانينها وعلى هذا الرأى قسم وافر من أهالى فرانسا أيضا بل ان نابليون
الثالث نقر عن أسباب الثورات وذهب بنفسه الى الجزائر مرتين ثانيتهما للتسكين ثورة
وقعت هنالك وعلم ان أعظم أسباب ذلك من سوء معاملة الاهالى من الحكام فسعى
الى شكايتهم وأزال عنهم كثيرا من المظالم وساعفهم الى مطالبهم فسكنت الثورة بدون
سفك للدماء ولا تشفى فى الثائرين كما صرح بذلك الامبراطور نفسه فى خطبته عند
رجوعه الى فرانسا وكان توغل فى دواخل الجزائر وأواسط القبائل الجسيمة ذات السطوة
منفردا عن الجامية الفرانساوية معتمدا على وفاء العرب وصدقهم وقد تعهدوا له بذلك
وقاموا له حق القيام من عامتهم وخاصتهم وفرحوا بقدومه لهم ومالوا اليه والى انصافه
وأظهروا له من الطاعة والتعظيم ما عاد به مسرورا منهم موقنا بانصاف مطالبهم ومحبا
خالصا وعاطفا حنوا عليهم واختص منهم فى باريس قسما من العساكر لحراسة ذاته وأكرم
مقامهم ورفع من شأنهم واتخذ قسما من الفرسان فى مصاحبته فى ركوبه بملابسهم العربية
وكذلك العساكر يلبسون العمامة ويسمون بالزواف وقد حاربوا فى الدفاع عن
الفرانسيس فى حرب سنة ١٢٨٧ هـ ١٨٧٠ م بحمية أكثر من حمية الفرانسيس
أنفسهم وشهد لهم بالشجاعة والصبر والمعرفة والجرأة كل من الفرانسيس والالمان ولما
وقع انكسار الفرانسيس اثناء تلك الحرب حركت الدسائس أهالى الجزائر الى الثوران
فامتنعوا وفاء بعهدهم مع الامبراطور نابليون الذى أحكم معهم الصلة ووعدهم بمزيد
المساعدة والنجاح قبيل تلك الحرب الى ان علموا انخلاع الفرانسيس له فثار بعضهم اذ ذاك
لكنه لم يجد نفعا لتفرغ فرانسا من حرب خصمها ولعدم اتفاق الكلمة بين الجزائريين
ولا زال أهل الجزائر يثنون على نابليون وعائلته لما شاهدوا منه من انصافهم واعتبار
حرمتهم حتى قال فى خطابه الرسمى انى امبراطور الفرانسيس كما انى امبراطور العرب
وكان ذلك هو الذى أوجب للكثير ترجيح الحكومة العسكرية ظنا منهم انها لا تسير
الا على نحو ما تركها عليه الامبراطور بخلاف غيرها ممن لا يراعى لهم ذمة حتى ان
العساكر مع ما مر ذكره لم يسمح لاحد ضباطهم ان ينال رتبة رفيعة فى العسكرية فذلك
هو سبب الملل الذى لا يبرح من نفوس الاهالى وان جعل منهم بعض أعضاء فى المجالس

الذي يدعوه الحاكم للتشاور في المصالح لكنهم أعضاء صورية لان أغلب الاعضاء من الفرانساويين مدافعون عن حقوق الفرانساويين المستوطنين هنالك وهؤلاء يرون انفسهم مظلومين بالنسبة لامثالهم في فرانسا مع عدم الداعي الى ذلك لانهم قد تحققوا ان الاهالي اذا نالوا انصافهم وتسويتهم في الحقوق يكونون اهلا لنيل سائر المنح الحائز لها الفرانساويون وأهالي الجزائر الآن يعتبرون انهم في حماية الفرانسيس لان لهم الجنسية الفرانساوية والفرق بين هذين هو ان من له الجنسية ينال سائر المنح الفرانساوية وعليه ما على أفراد الفرانسيس من القوانين من الدخول في العسكر واجراء أحكام الزواج المدني والتوارث على مقتضى القانون الى غير ذلك وأما صاحب الحماية فيجرى أحكام ديانته فيما ذكر ولا يدخل للعسكر الا برضاه نعم يتخذ منهم نوع من العسكر الخيالة يسمون بالسبايس دون رتبة العسكر وللافراد ان يدخلوا في الجنسية باختيارهم بحيث لا غصب فيها وقد دخل فيها كثير بعضهم للشهوات وبعضهم تملقا كاليهود وبعضهم طمعا في الرتبة العالية العسكرية وهو وان نال شيئا منها لكنه مهان في اعتبار النفوس لما يوجب ذلك من امتهانه لديانته في نظر العموم ولو من الفرانسيس ولبانته. ثم لم يكن للاهالي المساواة في الاعتبار بينهم وبين الفرانسيس ويظهر ذلك حتى يشاهد العين في المعاملات التكريمية والتوقير وترى اليهود أحرز للحرية في معاملة الفرانسيس وضباطهم من المسلمين

(مطلب في السياسة الخارجية للجزائر) ليس للجزائر سياسة خارجية اذ السياسة انما هي لفرانسا ولا ترى في قاعدة الجزائر ولا غيرها من اعتبار او ذكر لقناسل الدول الاجنبية وما هم فيها الا كامثالهم في احدى مدن فرانسا

الفصل * الرابع

«في بعض صفات الاهالي وعوائدهم»

أغلب عوائد الاهالي وصفتهم في الجزائر هي مثل ما في أهالي تونس في السلام والحياء غير ان الجيل الجديد في المدن تخلق أغلبه باخلاق مخضرمة بين العادات الاصلية وبين عوائد الفرانساويين ومن المعلوم ان النفوس مائلة الى التشبه بالغالب غير انها أول ما تسري اليها الاخلاق الشريرة أما الحامدة فانها مما يحمل عليها العقل بالكلفة ولهذا فشت قلة الحياء في كثير حتى سرى ذلك الى أبناء الفرانسيس الذين نشؤا هنالك وقد

صاحبني في الفابور من الجزائر الى عنابة امرأة حاكم بلاد قالمة مصاحبة لابنائها الصغار *
وهم ثلاثة دون البلوغ كانوا يتعلمون الفنون في مكتب بلاد الجزائر ولما أرست البابورة
على مرسى حجبلي صعد اليها نائب لجنة تلك البوابير متفقدا وكان حضر اذ ذاك وقت الفطور
فجلس مع الركاب على المائدة وكان من جملة الحاضرين الابناء المذكورون وبعد الاكل
أتى بالقهوة ومن عادة الافرنج الاتيان بقنينة فيها نوع من المشروبات الروحية المسمى
بالكنياك ومعه كيسان صغار لمن يريد الشرب من ذلك مع القهوة فأخذ منه من أخذ
وامتنع من امتنع فعمد أولئك الصبية الى المشروب وأخذ كل منهم كأسا ووضعه أمامه
فتبسم كبار الحاضرين متعجبين من ذلك وأمهم فار عليها العرق من الحياء ولم تكلمهم
بشيء وبعد هنيهة أخذني نائب اللجنة الى ناحية منفردة وقال لي أرأيت ما وقع قلت ما هو
فقال لا تهزء بي لو كان أولئك أبنائي لألقيتهم في البحر فقلت لماذا وهو عندكم ليس
بممنوع قال كلا فانه وان كان الخمر عندنا مباحا لكن انما هو ما يؤخذ منه مع الاكل *
من نوع ماء العنب بمقدار لا يفعل نشوة أما هذا فانه لا يستعمل الا بعد الاكل لمجرد
النشوة والصغار يمنعون من ذلك بمقتضى التربية الحسنة ولكن نحن قد خرجنا عن
طورنا وفسدت أخلاقنا وأفسدنا أخلاق غيرنا وهؤلاء أبناء أحد حكام البلاد على هذا
الطور فما بالك بغيرهم الخ وكان منشأ هذا الفساد هو ان الحرية في الفرانسيس قد فطروا
عليها بقسميها أعني الحرية الشخصية والحرية السياسية لكنهم تحملوا في بلادهم الحرية
السياسية على التخلق بمحامد الاخلاق على قدر مستطاعهم وادراكهم وأما في الجزائر
فقد حرموا في أنفسهم من الحرية السياسية وكذلك الاهالي أطلقوا لهم الحرية
الشخصية وحرموهم من الاخرى فانبعثت القوات كلها الى الاولى مع ملائمة الطبائع
النفسانية فأتوا على كل ما يمكنهم التوصل اليه من الفسوق وقبائح الكلام والتزوج بين
كل متراضيين من غير نظر لديانة ولا صحة شرعية بل يقع حتى لبنات مسلمات الفرار من *
آبائهن الى رجال من الافرنج أو غيرهم ويصاحبنهم بدون زواج أو به ولا مانع عندهم من
ذلك وأضف الى ما تقدم من السبب ان الحكام لما كانوا من العساكر مستبدين فتراهم
يشتمون بالكلام الفاحش وكأنه هو أول ما يتعلمونه بالصدفة من لغة الاهالي ثم ان
السيرة العسكرية الاستبدادية معلومة في ان الغالب على الضباط الصغار فمن دونهم هو
الميل الى الشهوات الطبيعية والانهماك فيها ولا ينفكون عنها الا بوازع الحكمي
أو العادي كما في بلادهم في فرانسا بالنظر للعادة وهاته العادة منتفية في الجزائر لعدم

اعتبار عادات الاهالى حتى الاعتبار فنشأ فى ذلك القسم زيادة الاخلاق وقلدتهم صغار الاهالى على قاعدة الناس على مذهب امرائهم ومع هذا فلا زال فى ذوى البيوتات واصحاب الاصول مكارم الاخلاق الاسلامية وفضائل الطباع العربية وان كانوا بالاصالة قليلين فى المدن واما اهالى القبائل من البادية والمتوغلين فى الجنوب ودواخل القطر فالاكثر منهم على الطبائع والعادات الاصلية والقليل الذين لهم علاقة بالحكام والتداخل معهم تغيرت عاداتهم الى نحو ما وقع فى الكثير من اهل البلدان ومن الاخيار الذين اجتمعت بهم ونحو فى فضائل اخلاقهم النحرير العالم الشيخ على بن الحفاف المفتى المالكى بقاعدة الجزائر وهو من تلامذة علامة القطر الافريقى الشيخ ابراهيم الرياحى كما اخبرنى بذلك عن نفسه وله فضائل كاملة وتقوى وسكينة واطلاع والسعة فى الفقه والحديث وذاكرنى فى الهجرة فذكرته بان مثله قليل الوجود فى ذلك القطر وان بقاءه فيه لتعليم الناس دينهم انفع للعامة وله عند الله من خروجه برأسه وابقاء تلك الامة المسلمة خالية من مثله بل وربما حمل خروج غيره ممن هو على شاكلته على الخروج فتبقى العامة بلا تعليم لديانتهم وتضمحل منهم الديانة شيئا فشيئا والعياذ بالله بخلاف ما اذا بقى هو وامثاله فانه تنتشر تعاليم العقائد والفقه وتبقى الديانة ان شاء الله محفوظة فى الاهالى وذلك هو المنصوص عليه فى كتب فقهنا حتى ان الاسارى اذا لم يمكن فداؤهم جملة فيؤخذ منهم العلماء ومن الاخيار ايضا الاصيل الفهامة الشيخ احمد ابو قندورة المفتى الحنفى بالقاعدة المشار اليها وهو ذو تبحر فى المعارف السياسية ومتقن للغة الفرانساوية وصاحب حمية فى المدافعة عن اهالى وطنه وهو عضو ايضا فى مجلس الوالى وله مشاركة فى الفقه والحديث وكل من الشيخين المومى اليهما امام وخطيب فى جامع بالقاعدة المشار اليها وقد زرت كليهما فى مقصورة جامعه ودعانى ثانيهما لوليمة اتخذها اكراما لى جازاه الله احسن الجزاء وتوجهت معه الى بستانه فى الجبل وهو بستان ظريف جامع للشكلين العربى والاوروباوى وبناؤه ظريف لطيف على النحو العربى المتقن ومن اكارم من اجتمعت به صفوة الخيرة سيدى قدور الشريف نقيب السادة الاشراف صاحب شمائل تليق بجلالة نسبه ومنهم العالم المتفنن الشيخ على بن موسى نقيب زاوية سيدى عبد الرحمن الثعالبى رضى الله عنه وهو صاحب ورع وديانة كان ولى فى احدى المناصب الحكمية ولما لم يمكنه الامتناع استعفى واعتذر باعذار فاعفى ومنح نقابة الزاوية المذكورة فبقى ساكنا هنالك معتكفا على العبادة والمطالعة وله

اشعار

أشعار جيدة ومنهم الوجيه السيد الشريف الصفصافي وغيرهم من الاعيان كما اجتمعت بثقات من كبار موظفي الفرانسيس كالجنرال شبريز حاكم وهران ونائب الحاكم العام في الجزائر عند مغيبه في وقت قدومي الى هنالك وهذا الجنرال زيادة على معارفه العسكرية التي توصل بها الى رتبة الفريق فانه منصف عاقل عارف بأحوال سياسة الوطن والسياسة الخارجية صدوق في الكلام بدون محاباة ويا ليت سائر كبار موظفيهم هنالك مثله والذي أعانه على معرفة مصالح الاهالي هو معرفته لغتهم ومنهم أميرال البحر الكماندان دي سان اندري وهو شيخ مسن منصف في السياسة وممن لاقيته في غير القاعدة الفقيه النبيه الشيخ السيد بن شتاح قاضي بالمقالة وهو مشارك في الفنون الآلية وله اطلاع حسن في الفقه مع عفة واستقامة ثم ان الاهالي على العموم في طبعهم نوع من الحدة والنشاط وذرية البربر في لونهم شقرة وصهوبة ولهم ولوع بالفروسية والملاهي في المدن على نحو ما في أوروبا وفي بقية القرى والبوادي على نحو ما ذكر في تونس

﴿مطلب في التجارة بالجزائر﴾ التجارة مع خارج القطر أغلبها بيد الفرانسيس ثم الاسبنيول والطليان ثم غير كالبعض من الاهالي والانكليز والنادر من غيرهم وفي دواخل القطر مقسمة بين الاهالي والفرانساويين وهي على نحو التجارة بتونس اذ لم تحدث بها معامل ولا كبير حركة تجارية سوى بعض معادن كما تقدم في معدن الحديد بعنابه ومعدن فضة في القالة على ان تصفيتها وصناعتها تكون في فرانسا وأصول التجارة الجارية على نحو الاصول الفرانساوية وعلى ما فيها من المعاهدات مع الدول وأما البريد براً وبحراً فهو بيد شركات فرانساوية وفي الجزائر دار صرف تسمى بانكة الجزائر لها أوراق مالية مثل البنوك المعتبرة في أوروبا ولتسهيل طرق التجارة وان شئت قلت لتسهيل الحركة العسكرية قد امتدت طريق الحديد بين الجزائر ووهران وتلمسان ثم اخرى بين عنابه وقالمه وسوق هراس وقسنطينه واسكيكده وهم بصدد وصلها بطريق تونس ووصل البقية ببعضها والمذاكرات جارية في مد طريق الحديد الى دواخل افريقية والصحراء حتى تجمع بين شطوط افريقية الشمالية الشرقية من جهة الجزائر وتونس وبين شطوطها الغربية من جهة سانيغال وتمر على ممالك السودان ولا يخفى ما في ذلك الربح الباهظ

﴿مطلب في الاحكام بالجزائر﴾ الاحكام الشخصية منقسمة الى قسمين فما يرجع الى الوقف والنكاح والطلاق والارث عند المسلمين له قضاة مسلمون على مذهب مالك

وفى بعض المدن مفتون حنفية والقضاة معين لهم الحكم بكتاب مختصر الشيخ خليل
ويجلس مع القاضى عدلان للشهادة على الخصوم وينوبها أكبرهما عند مغيبه وأما ما يرجع
الى سائر المعاملات والجنايات فله مجلس مركب من ثلاثة أعضاء فرانساويين و يحضر
معهم عضو مسلم وهذا المجلس على نحو مجالس الاحكام فى فرانسا غير ان القانون الذى يحكم
به ممتزج بين ما ترجم من مختصر الشيخ خليل وبين القانون الفرانساوى فاذا كان الخصمان
من المسلمين والدعوى من أنواع المعاملات الاختيارية فلهما الاختيار بين فصلها
فى هذا المجلس أو لدى القاضى المشار اليه وأما اذا كانت الدعوى من قبيل الجنايات
أو بين مسلم وغيره فلا تفصل الا بالمجلس كما ان للمجلس حق التحقيق على القاضى فيما يحكم
به فى نوازل المعاملات وذلك جار فى كل بلدة (وأما القبائل) فحكامهم القواد والاغوات
والقضاة ثم لما كان أعضاء المجالس فى الاغلب غير عارفين بلغة القوم لزم احضار مترجم
مع مراقبة العضو المسلم ومع هذا فلا يحصل الانصاف المعهود فى محاكم فرانسا الا من حيث
الاعضاء الفرانساويين فانهم يتحرى فى انتخابهم استكمال الصفات والاستقامة لكن
يحصل أطوارا عدم احسان الترجمة جهلا أو عمدا مع عدم جدارة العضو المسلم فلا يجرى
الانصاف وأغلب ما يكون ذلك فى الحكم الذى لا يقيم المحكوم عليه وكيلا عارفا باللغة
الفرانساوية ومتضلعا بمعرفة الاحكام وقد حضرت يوما متفرجا فى مجلس الحكم بعنابة
الذى هو فى الهيئة على نحو ما تقدم فى باريس فأتى برجل فى دعوى جنائية وبينما هو
يتم فى كلامه واذا بالمترجم تكلم للحكام كأن الرجل تمم مقاله فصدر الحكم حالا
بسجنه وما أخرج من بيت الحكم الا ولاقى من اللكم واللطم والسب من أعوان المجلس
ما تعجبت من صدوره من فروع الامة التى كنت أشاهد فى اعتدالها فى فرانسا وأولئك
الاعوان هم من الاهالى غير الثقات ومنهم أيضا أعوان للضابطية ويتجسسون على من
يقدم من خارج وربما يهيج الاعراب اذا توجه اليهم وبمجرد التهمة يسافر من البلد وهم
لا يحسنون لا التجسس ولا الخطاب لعدم الاهلية فى الانتخاب وعلى هذا النحو فى عدم
الجدارة جميع من قضاتهم فلا يتقون الارتشاء ولا يحسنون حفظ ناموس المنصب حتى
شاهدت قاضيا فى عنابة يتلاطم ويتعانق مع الخصوم ويجلس فى حانات الاراذل مما
يتنزه عنه أعضاء مجالس الحكم وكان ذلك فى أصل القصد من عدم التحرى فى الانتخاب
لتنفر الاهالى من أحكام القضاة ويفضلون أحكام المجالس بل وربما أدى ذلك التسامح

زيادة

زيادة جهل العامة الى اعتقادهم الاختلال فى الشعائر الدينية لما يرون من سوء حالة القضاة وأحكامهم واعتدال المجالس وانصافهم

﴿مطلب فى المعارف بالجزائر﴾ المعارف فيها على قسمين الاول علوم الديانات والثانى علوم الرياضيات فالاول قسمان أيضا الاول ما هو مختص بالديانة الاسلامية وله مدرسون فى الجوامع يقرؤن النحو والفقه وفى خصوص الجزائر من هؤلاء عشرة مدرسين والفقه هو المالكى وقليل من الدروس فى الحديث أو غيره وأكثر الاجتهاد فى هاته العلوم فى بلد قسنطينة ثم تلمسان وفى الجهات الجنوبية يقرؤن العلوم فى زوايا الطرق ولاهالى هاته الجهات اعتناء بأخذ العلم فيرحلون اليه الى فاس وتونس وقليل منهم يرحل الى مصر فلذلك لم ينقطع فى تلك الجهات من له اطلاع حسن ومشاركة جيدة وقليل من يتضلع حقيقة التضلع لانه ليس فى أوطانهم علماء فحول وانما يقرؤن صغار الكتب وأكثر الانكباب فى الفقه المالكى على حفظ مختصر خليل وتفهمه ومن تمهر فى العلوم فى احدى البلاد الخارجية فقلما يرجع الى وطنه وفى كل تلك العلوم مدرسون فى الجوامع لهم مرتبات من قبل الدولة الفرانساوية وهى القائمة بمصاريف اقامة الجوامع وما فيها من قراءة الاحزاب أو كتب الحديث لانها استولت على جميع الاوقاف والمساجد واقتصرت فى كل بلد على عدد مخصوص من المساجد تقوم به وغيره تصرفت فيه بما ناسبها وحرمت المستحقين من مالهم كاوقاف الحرمين والقسم الثانى ما يختص بالديانة النصرانية ولا دخل للدولة فيه وانما القسيسون لهم مدارس لتعليم ديانتهم وقد كان نوع من القسوس يعرف بالجوزويت أنشأ مدارس للتعليم حتى للعلوم الرياضية مع الديانة ولهم اتقان فى كيفية التعليم والتربية وقد كانوا فى حدود نيف وثمانين ومائتين والف احتازوا بكثير من أولاد الاعراب وغيرهم المسلمين بناتا وأطفالا ونصروهم وذلك عند ما وقعت مجاعة شديدة بالقطر ولما بلغ مجلس النواب فى فرانسا ذلك العمل شدد قسم منه النكير على الدولة فى اطلاق القسوس على ذلك العمل لكنها لم تمنعهم وعند ما كبر البعض من أولئك الاولاد وعلموا بان أهلهم مسلمون فروا الى أهاليهم ثم لما منعت الدولة الجوزويت من التعليم فى فرانسا واستولت على مدارسهم ومكاتبهم فى سنة ١٢٩٨ ه ١٨٨١ م عممت ذلك فى الجزائر أيضا ونفذته من كل عمالاتها لكنها أوصت بهم نوابها فى الممالك الاسلامية بان يحموهم فى حريتهم أى اذا ارادوا ابتناء مدارس والتعليم فيها فليس للدولة الاسلامية منعهم وان منعوهم تعارضهم نواب فرانسا مع ان

الدولة الفرانساوية الآن جمهورية وتطلق الحرية فى كل شئ غير انها سلبت حرية الجزويت فى ممالكها ولم يتيسر لهم حاجاتهم فى ممالك أوربا الا فى اكثرها فعل بهم مثل مافعلت هى فكيف يسوغ مضادة ذلك فى الممالك الاسلامية مع اختلاف الديانة فيها وأما فى فرانسا فان ديانتهم متحدة لان الجوزويت نصارى من أتباع الكنيسة الكاتوليكية الخاضعة للبابا غير انهم لهم مذهب فى دقائق الديانة والتأويلات والفلسفة فيها جعل لهم نوع انفراد عن بقية القسوس بيد ان الدولة الفرانساوية تستند فى منعهم من التعليم بانهم يمزجون فى تعليمهم الاحوال السياسية على الاصول الاستبدادية مما لا يوافق سياستها وتخشى من فشوه فى الناس مع المكاتب التى يتخذونها تصير كالعسكرات تحدث منها الثورة ويأوى اليها الثائرون (وأما القسم الثانى) من أصل المعارف وهو سائر المعارف الرياضية وهاته لها مكاتب من الدولة فى البلدان المتمدنة وهى على نحو المكاتب الفرانساوية غير انها قاصرة عن العلوم العالية فبعد اتمام التلميذ فيها معارفه ينتقل الى باريس التى هى مركز سائر العلوم العالية والمكاتب بالجزائر فيها ماهو للولدان وفيها ماهو للبنات وقد حضرت بالاستدعاء فى امتحان البنات بعنابة ووقع الامتحان فى اللغة الفرانساوية وفى الكتابة وعزف البيانو وأنشدت المديرة خطبة فى تحسين التعليم وأغلب المعلمين نساء فى هذا المكتب كما حضرت امتحان مكتب الولدان من مسلمين وغيرهم وحضر كلا من الامتحانين وجوه البلد وحكامها

﴿مطلب فى الصنائع وغيرها بالجزائر﴾ الصنائع بها أحسنها الفلاحة وقد اتقنت فى الجهات الشمالية على نحو ماهى فى فرانسا (وأما بقية الصنائع) فانها على نحو ما بتونس مع الانحطاط فى الدرجة لا فى الكمية ولا فى الكيفية عما فى تونس الا بعض أنواع من البرنس فلهم فيه مزيد اتقان كالمسمى بالعباسى (وأما هيئة المساكن والطرقات) فان الجديد على نحو ما فى فرانسا والقديم على نحو ما فى تونس لكن الطرقات معتنى بتنظيفها وتنويرها على كل حال كما فى فرانسا (وأما اللبس) فالرسمى فرانساوى وقواد الاعراب الكبار يلبسون قفطانا طويلا مطرزا بالملك الفضة المذهبة وبقية لبس الاهالى على نحو لبس التونسيين سوى عموم لبس الرداء المسمى بالحرام حتى فى المدن ويجعلون العمامة فوقه وكلهم يدخلون رؤسهم فى فوهة البرنس ولباس النسوة أحسن سترة منهن فى تونس لانه متدلى وكذلك الاكل والمراكب على أنواعها فانها نحو ما فى تونس الا

الذين

الذين لهم مزيد اعتناء بتقليد الاروباويين فقلدوهم فى أشياء كثيرة وقد رأيت من العادات القديمة انهم لا يدخلون ديارهم بنعالهم بل كل من وصل الى السقيفة نزع نعله ولبس نعلا خاصا بالدار أو دخل حافيا تحفظا على النظافة والطهارة ولهم أنواع ظريفة متقنة فى الاكل سيما المتخذ من ورق العجين حلوا ومالحا (وأما اللغة) فهى أيضا عربية محرفة على نحو ما فى تونس غير أنهم أقل فصاحة فى النطق ببعض الاحرف مع وجود كلمات غير معروفة فى تونس كقولهم أدرولك بمعنى انظر أوما قاربها وفى جهات ذرية البربر لم تزل لغات أسلافهم مستعملة كما فى زواوة وبنى مزاب

الباب السادس فى انكلاتيره

﴿الفصل الاول فى سفرى اليها﴾

قد تقدم انى أقمت فى باريس سنة ١٢٩٦ نحو شهر وحيث كنت علمت أغلب ما فيها ولزمنى انتظار أشياء يتوقف عليها رجوعى الى تونس أحببت أن أقضى بعض أيام فى رؤية انكلاتيره لشهرتها مع قربها من باريس فركبت الرتل السريع صباحا وذلك فى رمضان الموافق لتموز الاعجمى واستمر الرتل سائحا بسرعة يقطع بها نحو الخمسة والاربعين أو الخمسين ميلا فى الساعة فرأيت من منظر شمال فرانسا ما يربو عن الجهات الشرقية والجنوبية انتظاما وعمرانا الى أن وصلنا الى بلد كلى التى هى مرسى على أضيق خليج بحر المنش بين فرانسا وانكلاتيره ولها عدة أسوار وخنادق متينة حصينة للغاية ودخل الرتل بين سورين الى أن وصل الى محاذات الباخرة اللاصقة بالرصيف وكنا أخذنا ورقة الكراء الى ذات لندره فانتقلنا من الرتل الى الباخرة وصادفنا باخرة عجيبة الشكل اذ هى مؤتلفة من باخرتين متلاصقتين عرضا وسطحهما متحد ولكل آلة بخارية وبها بيت جلوس واسع جدا ذو اتقان بليغ وبها أيضا بيوت صغار لمن يريد الانفراد لكنه يزيد نحو عشرة فرنك فى الكراء عن الطبقة الاولى وفى الباخرة جميع ما يحتاج اليه المسافر لكنه له ثمن زائد عن الكراء والداعى لجعل الباخرة كذلك هو صعوبة ذلك الخليج وشدة اضطرابه لانه مضيق بين بحرين ويمر فيه التيار بسرعة فبادنى ريح يشتد اضطرابه مع تطلب الراحة للمسافر فاخترعوا ذلك النوع من البواخر لكى لا يحصل فيه الاضطراب بكثرة عرضه فلم يفد واخترعوا نوعا آخر فيه أيضا وهو أن يكون بيت الجلوس منفصلة عن الباخرة من جميع الجهات ومعلقة فيها

على هو الفوانيس بحيث اذا مالت الباخرة لا يميل البيت حيث كان معلقا فيتبع ثقل المركز فلم يفد أيضا لانه اذا اشتد الميلان يلاطم بعض أجزاء السفينة حائط البيت ويتبعه في الميلان فحاولوا أن يخترقوا طريقا تحت قعر البحر ووضعوا لذلك رأس مال قدره أربعة ملايين فرنك بين الفرنسيس والانكليز للتجربة أعني تجربة معرفة الطبقة السفلى من أرض البحر هل هي صلبة قابلة للاستمساك أم هي رخوة أما أصل امكان النفاذ فقد جربوه تحت نهر التيمس كما سيأتي ذكره ولازال العمل جاريا في هاته التجربة وذكروا أنهم وجدوا الارض صلبة بان حفروا في شطي البحر بئرين أعمق من أعمق محل في ذلك البحر فوجدوا طبقة الارض صلبة فاجتهاد الجهتين متوال في احداث هذا الطريق وهذا يشبه من عزائم الامتين في العمل والمال ولا يبعد حصول المقصود في وقت قليل ثم أقلعت بنا الباخرة ولم تحمل الا الركاب والبريد وما خف من البضائع ورحل الركاب وأنعم الله علينا بان كان البحر في نهاية السكون ولله الحمد فكنا في غاية الراحة غير أنا لا ننظر الا ما قرب من البحر للباخرة لكثرة الغيم في الشطين وبعد سير ساعة وأربعين دقيقة وصلنا الى مرسى دوفر من انكلتيرة التي هي أقرب مرسى في مقابلة مرسى كالى ووصلت الباخرة أيضا الرصيف ونزلنا الى الرتل الذي هو على أهبة السفر بلصق الباخرة فسألني خدمة الرتل الى أين توجهي فقلت الى لندره فقالوا أي جهة منها فتعجبت هل هؤلاء لهم محلات يوصلوني بها الى محل نزلي مع اني لم أتخذ منزلا وانما كنت كتبت لاحد معارفي فيها ليتلقاني في المحطة فاعدت لهم اني ذاهب الى لندره الى محطة سكة الحديد فقالوا أي محطة فتذكرت ما كتب لي المتلقي الي في المحطة من انه ينتظرني في محطة فكتوريا وعلمت اذ ذاك فائدة تنصيصه على اسم المحطة وحينئذ ذكرت لهم اسم المحطة فعينوا لي الحافلة التي نركبها وكان ذلك بعد تعب في التفاهم من الجهل باللغات حتى كان الذي فرج الحال رجل يعرف الفرنساوي ثم قفل الرتل مسرعا سائحا بسرعة أزيد مما هي في فرانسا حتى لا يمكن الناظر من رؤية الاشياء القريبة وكان الرتل يطفر طفرا من تقارب مقاطع قضبان الحديد الجاري عليها من سرعة السير اذ هو يسير ستين ميلا أو أزيد الى الثمانين في الساعة الواحدة وكنت أرى على بساط الارض آجاما من بعد من شجرة الدينار التي يضم ورقها الى ماء الشعير المتخذ سكرة المعروفة بالبيرة ونرى أكواما كالقرى المنثورة من الآجر المصنوع حتى تعجبت من كثرته وكثرت معامله ولكنني عند ما شاهدت بلدانهم زال التعجب لان

الآجر

الآجر وحده هو مادة البناء لسائر مبانى لندره واذا انبساط الارض على نحو مد البصر
كانه شبكة صياد بقضبان طرق الحديد المتفرعة الى جميع الجهات والرتل واردة صادرة
كالنمل الساحب فوصلنا الى المحطة وتلقانى المنتظر الى ونفس عن ملالى بكلامه العربى
وهو مسترامى وفى أحد ابناء الشام انتقل الى هنالك وسكن بلندره محترفا بصناعة التعليم
للسان العربى وكان دخله من التعليم كافيا له بمصرافه والاسفار وكانت مدة السفر من
باريس الى لندره تسع ساعات وثلاث ارباع الساعة بين السير فى البر والبحر وسكنت فى
الحارة المعروفة بهيت بارك وأقمت بلندره يومين منفصلين وثلاث ليال واليوم الوسط
ذهبت فيه الى بلد ابريتن صباحا ورجعت منها مساء حيث انها على شاطئ البحر ويقصدها
أعيانهم صيفا وهى من اعظم متنزهاتهم وابنيتها مثل أبنية لندره وأحسن ما فى هاته البلد
ثلاثة أماكن (أولها) قصر الملك وبستانه فالبستان جميل اجمالا (وأما) القصر فقد بناه
ملكهم وليم الثالث المتولى سنة ١٦٨٩ الذى كان محبا بالصيد والخلاعة محبا
للانفراد فبنى قصر بريتن وكان مغرما بأحوال الصينيين فجعل بهاء ذلك القصر بعيدا عن
القاعدة لهنى عيشه بالانفراد ثم أنشأ القصر على نحو قصور ملوك الصين وجلب اليه من
هنالك سائر الادوات والمفروشات وغاية الفرق بين هذا البناء والبناءات المعهودة انه
لا يشتمل الا طبقتين والقباب كلها على شكل مخروط الوسط والحيوط والابواب كلها
منقوشة مزخرفة بالاشكال الصينية وألوانها وتصاويرها والدرج ذات شكل غريب
مرتاح وظاهر القصر مزخرف وعلى زواياه وأبوابه شرافات وصوامع جيدة مزركشة وقد
باعت الملكة فكتوريا المتولية الآن هذا القصر لجمعية أهلية ليبقى منتدى للعموم فى
خطبهم واجتماعهم وقد انتدبوا اليه عقب شرائه من سائر أقطار انكلاتيره ومازال
هكذا مباحا للمتفرجين وقد شنعت صحف أخبارهم على شح ملكتهم ونهمتها فى المال
ببيعها لذلك القصر للأهالى وكان ينبغى لها أن تهديهم اياه واظن ان الثمن لم يبلغ
المليونين فرنكا (والمكان الثانى) فى البلد هو محل معرض انواع السمك فى أحواض
من الزجاج وراءها الضوء مركوزة فى الحيوط ينزل اليه بدرج على الشط وحوله مطاعم
أنيقة وحدائق وفوقها قهوة وفى بيوت هذا المعرض بيوت عديدة جميع حيوطها
أحواض زجاج فيها أنواع الحيوانات البحرية مما الله به عليم ويستفيدون من ذلك كيفية
حياة الحيوانات وتوالدها (والمكان الثالث هو دكة) على البحر طولها نحو نصف ميل
مصنوعة من خشب متين مرفوعة على أعمدة متينة من الحديد عالية عن سطح البحر

وحول الدكة وفوقها مقاعد ومنازه وقهاوى وذلك هو منتدى المتنزهين واللاعبين والمتسابقين فى البحر وبقية البلد ليس فيها ما يستغرب وانما هى حسنة قليلة النظافة الطرق ولم تزل الاشغال جارية فى احداث حارات جديدة فيها ثم لما رجعت الى فرانسا بت ليلة فى مرسى دوفر لان الباخرة تسافر بالبريد مبكرة فآثرت الذهاب اليها عشية لكيلا اتعب بالركوب فى الرتل ليلا للوصول اليها وتطوفت فيها فاذا هى مرسى حربية وحشة متينة الحصون كثيرتها ومبانيها ردية وطرقها وسخة ومنزل المسافرين الذى بتنا فيه حسن متقن وطعامه ردىء وليس فى البلد ما يبسط النفس فركبنا منها بكرى الصباح ورجعنا الى فرانسا فى باخرة فرانساوية اعتيادية وكان البحر ساكنا مع الضباب الكثيف وحول شاطئ فرانسا كان الجزر حاصلا حتى تخشى السفن من مصادمة الارض وكان قعر البحر يرى فى بعض الجهات

الفصل الثانى

لما كانت هاته المصر المتمصرة هى قاعدة انكلترة وفيها انموذج سائر المملكة يلزم ان تفرد بالذكر غير انه لا يخفى ما للعادات من المعادات وقد ذكرنا من أوصاف باريس وتفاصيلها ما يغنى كثيرا منه عن اعادته فى صفة لندره فلنقتصر على ما تنفرد به هاته عن تلك وهكذا نسلك فى سائر المباحث بحيث نقتصر على ما يفيد وما يشترك فيه الجميع يعلم حاله مما سبق فى الابواب السابقة فنقول ان لندره أكبر مصر فى أوروبا وسكانها على ما تحرر سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م ٣٤٨٩٠٠٠ نسمة منهم ١٦٣٣٠٠٠ ذكورا و ١٨٥٦٠٠٠ اناثا ويخترقها نهر التيمس الذى يحمل السفن الكبيرة وعليه جسور عديدة ضخمة جدا منها البناء ومنها الخشب ومنها الحديد الذى لا أعمدة له يقوم عليها فى النهر وانما طرفاه على العدوتين ووسطه معلق بقضبان وسلاسل ممتدة الى طرفيه حيث يوجد أبنية ضخمة مرتفعة تمر فى أعلاها تلك السلاسل والقضبان ثم تنزل الى الارض بحيث تكون على شكل مثلث زاويته الوسطى قائم فيها ذلك البناء وتلك السلاسل أربع فى كل جهة من طرفيه اثنان وبعض هاته الجسور تمر عليها طريق الحديد وبعضها عليه جسر آخر تمر عليه طريق الحديد وقد نقروا تحت النهر نفقا تمر فيه الرتل أيضا وطول النفق ألف ومائتا قدم وكان انشاؤه سنة ١٨٢٥ ثم طمى عليه الماء ثم جدد سنة ١٨٤٣ وكانت مصاريفه ١٥٣٥٠٠٠٠ فرنك بحيث ترى الطرق

عند

عند نهر التيمس في بعض جهاته على أربع طبقات فالرتل تحت الماء والسفن على الماء والعجلات والدواب والناس على الجسر والرتل أيضا على جسر فوقهم والطرق أكثرها في عرض عشرين ذراعا والقليل أزيد من ذلك أو أقل حتى ان منها الضيق الذي لا تمر فيه عجلة والطرق قليلة النظافة حتى ان منها ما فيه الوحل من الطين بمقدار لا تستطيع معه العجلات على سير الخبب وبعض الطرقات مبلط بقطع من الخشب في شكل الحجارة ذات الشبر التي يبلط بها وذلك لقلة الوسخ من الخشب مع قلة الدوى وفقدان قرقعة العجلات وذلك انما هو في الطرق الكثيرة مرور العجلات (وأما غيرها) فعلى النحو المعتاد والبنايات غالبها من الآجر الا قليلا من أبنية خاصة ضخمة متخذة من الحجارة وقليل أيضا من أساسات بعض الابنية فهاته تنحت لها الحجارة على شكل مستوى جميل المنظر وكثير من الديار عند أبوابها اسطوانات من المرمر محمول عليها رواشن أو سرادق وعامة البناء ذو ثلاث طبقات والرابعة السفلى وكل دار تسكن عائلة فقط ولذلك كان منظر باريس أبهج الا بعض حارات بنيت على نحو باريس فلم يستحسنها الاهالي وبقيت مهجورا من سكناها وكل دار تجد على بابها روشن خارج عن حائط الدار وفي البلاد عدة حدائق رحيبة جدا أعظم مما في باريس منها حديقة هيت بارك ولكل حارة تقريبا حديقة صغيرة خاصة بأهلها وأعظم مكان في لندره هو الجهة المعروفة بالسيتي وهو طريق عظيم مشتمل على دار صرف الدولة وعلى دار حاكم البلد وهو مركز اشغال التجارة الكبرى ومحط ادارات أعيان التجار فترى فيه من الازدحام ودوى العواجل والحوافل والمحافل والركاب والساع ما يحير العقل والنظر والالباب مع ان ابنيته وتحسيناته ليست مما يذكر وعادة أهالي لندرة ان حارات الاشغال والحوانيت والمخازن لا يسكنها الا الصنف السافل من الناس وحارات السكنى تكون خالية عن جميع ذلك حتى يتعب الساكنون في جلب ضروريات لولا التيسير الكثير في اسباب الانتقال من مكان الى مكان على نحو ما مر في باريس وتزيد لندره بان خط طريق الحديد يطوقها بدائرتين احداهما أوسع من الاخرى وبالجملة فقد انفردت لندره بما رأيت يوسعمت من مدن العالم بكثرة الحركة وهول الجد في الشغل والاخذ والعطاء والسفر والرجوع ويرى أثر ذلك في محطات طرق الحديد كما أشرنا الى ذلك سابقا من رؤية براح شبكة القضبان مبسوطة عدة أميال ويحار العقل كيف لا يغلط مسير المزججات وحراس مفاتيح الطرق بذهاب الرتل الى غير قصده ففي لندره ثمان محطات على نحو

ماذكرنا فى محطة فكتوريا وقد احصى فى احدالها عدد الداخل والخارج من الرتل فى مدة نصف ساعة فكان اثنى عشر رتلا ولبقس على ذلك وقد نظرت يوما من قصر الزجاج دخان الرجيات الصادرة والواردة جارة للرتل فاذاهى مثل الجراد المنتشر فى كل الجهات (واما بقية) الاحوال فهى دون باريس فى نظارة الحوانيت و بهجة البناء وعدم ✽ وجود محل للبول أو كنف فى الطرقات وفى النظافة والتنظيم والتنوير ولنذكر بعض محلات لم نر مثلها فى باريس فمنها قصر الزجاج وهو قصر عظيم جدا متخذ من قضبان حديد مرصف بينها قطع الزجاج وقد انشئ أولا مركزا للمعرض العام فى لندره وهو أول معرض فى اروبا وبعد انقضاض المعرض نقل ذلك القصر الى ربوة حذو لندره واتخذ سوقا للبيع تحف وسلع ظريفة ولوضع عجائب وآثار دهريه وصناعية للفرجة والتنزه وحوله حديقة انيقة ذات فوارات وقهاوى وعلى كل داخل ان يدفع شيأ زهيدا من المال لمجرد الدخول والفرجة ومايشترى فهو بثمنه وطريق الحديد يصل الى هذا القصر من جهتين وهوذو ثلاث طبقات ومقسم على عدة اقسام (وفيه) ملهى (وفيه) محل للرمايه (وفيه) حديقة (وفيه) عدة فوارات (وفيه) عدة مطاعم (وفيه قسم لمثال حمراء غرناطة بالاندلس اعنى مثال بعض جهاتها الشهيرة كوسط الحمراء والبيوت الكبيرة متقن التمثيل اعنى تمثيلا مجسما بحيث يدخل الانسان الى قصر هو على شكل الحمراء فيما تقدم وفى كيفية طلى البيوت وتمويهها بالذهب وما فيها من الكتابات الانيقة بالخط الكوفى وذلك القصر هو على نحو الابنية العربية لكنه فائق الاتقان والصنعة والتأنيق والتزويق وفى القصر الزجاجى (قسم) لاحوال الصينيين وصناعاتهم وأشكال اناسهم مجسمة بتصاوير من الشمع وهيئة المكثرين منهم لاستعمال الافيون وتأثيره القبيح فى عقلهم وذاتهم (وقسم) مثلة لتاريخ بلاد بلمبى من ايطاليا تاريخا بالمشاهدة لصورة أطوارها وقسم منه لحيوانات غريبة منها الغول المسمى بالكوريلا الذى هو نوع من القرد الكبير وقد مرذكره فى باريس وأنواع أخر من القردة صغار شبيهة بالانسان الزنجى وفى القصر الزجاجى أيضا (قسم) لبيع التحف والبضائع الرقيقة وقد رأيت فيه نحو سبعة رجال من العرب من أهل الشام ومصر والمغرب متخذين محلات لبيع تحف بلدانهم والعطريات (والحاصل) ان هذا القصر الزجاجى جامع لاشتات الظرف والنزاهة (ومن الاماكن الشهيرة) فى لندره أيضا التربيعة المعروفة ترافلكر وفيها عمود دياسون المبنى من المرمر ارتفاعه ١٧٦ قدما انقليزى وعليه تمثال وحوله شرافات من النحاس اتخذت من

مدافع أخذت من الفرانسيس وحول العمود فوارتان بالماء أمامهما صورة الملك شارلس الاول وكان نصب العمود (سنة ١٨٤٣ ومنها أعمدة) أخرى (ومنها) الملاهى المتعددة وقد شرعوا فى بناء أكبرما هى فى أوروبا وأكثرها تأنقا مباهاة لملهى قران اوبرة فى باريس لكنه لم يتم الى الآن وأعجب مارأيت فى ملاهيها فى محل التشخيص من الالعاب انها ترتفع فى الهواء الى السقف وتغيب فيه وتارة لما ترتفع الى نحو نصف الفضاء تذهب فى الهواء طائرة الى جهة اليمين من المتفرجين من غير أن يرى لها ماسك أو شئ تعلق به وقد خاضت صحفهم فى ذلك ولم يقفوا على قول حقيقى فى صورة ذلك غيرانى شعرت بأنهم يقللون الضوء عند ارادة تلك اللعبة (ومنها) دار الامتحانات العلمية (ومنها) قصر الندوى وهو أعظم بناء فى هاته البلاد ويمكن ان يقال فى أوروبا أيضا عدا قصر الفاتيكان بروما فهذا القصر بلندره يشتمل على ١٢٦ مدرجا أو ازيد للصعود اليه وأكثر من ١١٨٠ حجرة و ١٩ ايوانا (منها) ايوان الاجتماع الرسمى الرحيب ويشتمل على اسرة ومقاعد ومطاعم وقهاوى بحيث ان أعضاء الندوة اذا احوجهم الحال الى اقامة ايام هنالك فلا يحتاج أحدهم الى شئ سوى الملبوس يأتى به من محله ولما كان ليلهم طويلا ويقضون أشغالهم فيه فكان فى القصر من التنوير ما يتعجب منه الناظر وكذلك أمر تدفئته (ومنها) المتحف البريتانى الشامل للآثار العتيقة والذخائر الغريبة وعلى نحوه ودونه عدة متاحف أخر (ومنها) دار الصرف اى البنك الدولى وهو أعجب بنوك أوروبا كبرا وغناء اذ فيه من الذهب فقط عشرات آلاف الملايين مخزونة قطعا كبيرة وصغيرة للدولة ولمن يؤمن ماله فضلا عن المصوغ والفضة وللخزنة محل حصين محاط بالمياه خشية الحريق (ومنها) البورس أى محل اجتماع التجار (ومنها) مجامع التجار العديدة (ومنها) قصر الهند أى محل ادارة الهند المؤنق (ومنها) دار شيخ البلد (ومنها) الحصن العظيم المسمى توراف لندره (ومنها) منزل للمسافرين المسمى رتيش مانت وهو خارج البلاد على ربوة مطل على غياض ومرج ونهر ويقتابه الناس للاكل بكثرة وللسكنى بقلة وأكله أحسن من غيره (ومنها) بستان الملك وقصره خارج لندره أيضا المسمى همبتون كورت وليس به من الغرائب الا عريشة عنب واحدة مغروسة فى بيت من الزجاج لوقايتها من البرد حيث ان شدة برد انكلاتيره يمنع من نبات العنب بها فكانت هاته الشجرة معتنى بها منذ ازيد من قرن وقد عظمت جدا حتى ملأت أغصانها جميع البيت التى طولها نحو الاربعين ذراعا وصارت تثمر آلافا من العناقيد ولا يخرج منها

عنقود الابنذكره من عند ذات الملكة تهادى بها من تحفه من الاقارب والاعيان وعلى تلك الشجرة قيم خاص وخدمة وتقصد للتفرج بانفرادها (والحاصل) ان لندره لا تؤنس الوارد بنظرها الاجتماعى ومحاسنها مخبئة يروق بها الاعالى من الناس ومن أكرمه معهم حتى انها ليست بها قهاوى كما فى سائر أروبا وليس فيها الاحانات لا يدخلها الا السفهاء أو حوانيت تبيع الحلويات لمن يدخلها واقفا ومنها عمود مصر المسمى بالمسلة موضوع على عدوة نهر التميس الحاوية للقصور الملكية وسائر مهمات لندره وقد صرف على جلبه من اسكندرية أموال باهظة تجاوزت عدة ملايين من الفرنك وأنشئ لجلبها سفينة خاصة بخارية وصاحبتها المراقبة سفينة أخرى وتلقيت عند الوصول الى لندره باحتفال وركزت فى موضعها غير ان هذا الموضع وما حوله ليس مما يذكر وبينه وبين مركز المسلة بباريس بون بعيد وكان الانقليز انما قصدوا الاسم ووضع مسلة بقاعدتهم لا انهم أرادوا جمالها وبهاءها (ومنها تمثال) زوج الملكة الحالة المتوفى سنة ١٨٦١ فاقيم له تمثال فى غيضة هيت بارك من أعظم الهياكل بناء ورونقا واتقانا من أنواع المرمر الملون المزخرف بقناطير الذهب وصرف عليه عدة ملايين من الفرنك (ومنها) المكتبات العديدة الحاوية لملايين الكتب واحداها شاملة للكتب التى غنمت من ممالك الهند التى استولى عليها الانكليز استيلاءا باتا وهاته المكتبة ليس بها قاعات وأواوين كبيرة كغيرها وانما هى عبارة عن قصر ضخم كقصور السكنى الكبيرة فى باريس وفيه عدة طبقات وكل يشتمل على بيوت بها نوع من الكتب والفنون وعلى كل نوع مدير تحته عدة قيمين والكتب المجلوبة من الهند فى أعلى طبقات القصر فى عدة بيوت ضيقة غير مرتبة ولا نظيفة والغبار على أكثرها ووضعها فى الخزائن على ترتيب وضعها فى دفتر قيد أسمائها وهذا الدفتر انما رتب منذ عهد قريب لان الكتب أتى بها من الهند فى أزيد من أربعين صندوقا كبيرا وبقيت متروكة على حالها زمانا طويلا ثم لما فتحت الصناديق وجدت ملآنة بالكتب وضعت هنالك زمانا طويلا من غير ترتيب ثم كلف بتنضيدها وكتب فهرس لها أحد المستعربين من جهات سورية فرتبها على حسب حروف المعجم فى أسمائها من غير نظر لموضوعاتها ومعانيها فتجدها مجموعة ولا جامع الا حروف أسمائها ولم يتمها كلها بل قيد منها ألفا وخمسين مجلدا وبقى غيرها غير معروف ثم ان الكتب المزخرفة والاوراق المذهبة جمعت فى صناديق من الزجاج للناظرين فترى ورقة من مصحف كريم وبازائها ورقة من تصاوير الصينيين

الى

الى غير ذلك وتشتمل هذه المكتبة على كتب غريبة قليلة الوجود أو غير معروفة وقد طبع ما تم من فورسها وأعطيت منه نسخة وليس هو مجرد اسم الكتاب بل يذكر اسمه وطالعته وخاتمته ومؤلفه وكاتبه وسنته بالعربي مع الترجمة للانكليزي ومما رأيت به نسخة من التلويح بخط جيل صحيح أظنها بخط المؤلف حيث قال في آخرها كتبت هذه النسخة للشاب العزيز مني وأنا العبد المذنب الغريب الموسوم بسعد التفتازاني غفر الله ذنوبه وستر عيوبه وهو المحترم المكرم صاحب المروءة والكرم علاء الملة والدين بلغه الله أقصى ما يتمناه اه وعلى ظاهر هذه النسخة ختم مدغم كأنه ختم تيمورلنك والله أعلم

الفصل الثالث

﴿في وصف انكلاتيره﴾

تسمى هاته المملكة جزيرتان كبيرتان احداهما أكبر من الاخرى واقعتان في البحر الشمالي من أوربا تبتدئ من دقيقة ٥٧ ودرجة ٤٩ شمالا الى دقيقة ٥٠ ودرجة ٦٠ وفي الطول الغربي معتبرا من باريس من دقيقة ٣٤ ودرجة ١ الى دقيقة ٠٠ ودرجة ١٢ ويحدهما من ثلاثة جهات المحيط الشمالي ومن الجهة الرابعة الخليج المسمى بالمنش الفاصل بينهما وبين فرانسا ثم يفصل بينهما في ذاتهما خليج ماربرس وبحر ارلانده وأكبر هاتين الجزيرتين يسمى انكلاتيره وجهاتها الشمالية تسمى اسكوتسيا والجزيرة الصغيرة تسمى ارلانده ولهذا كانت هذه المملكة معتبرة ثلاثة أقسام نظرا للتاريخ القديم ويسمى مجموعها الآن بريطانيا العظمى وعلى الاجمال فأرضها خصبة جدا ذات مزارع ومراعي واسعة الا الجهات الشمالية المسماة اسكوتيا فانها لشدة بردها كانت غير صالحة للزراعة وهاته المملكة أراضيها منبسطة بها ربوات قليلة الارتفاع وكلها معمورة حسنة المنظر متقنة الصناعة (وأما الجبال) فهي منخفضة بها الا في اسكوتسيا فانها مرتفعة شاهقة وليس بها جبل بالكانى (واشهر) مكان في الجبال بجهة الشمال على البحر في اسكوتسيا المكان المعروف بممشى الجبابرة وهو أعمدة صخرية مركبة على بعضها الى علو ٤٠٠ قدم بغاية الاحكام معلقة فكانت نزهة للناظرين (وأما أنهرها) فكثيرة وأعظمها نهر ساورن الذي يصب في المحيط عند مدينة بريستل ونهر مرسى الذي يصب في بحر ارلانده عند مدينة ليفربول ونهر التيمس الذي يحمل

السفن العظيمة الى مدينة لندره وبين هاته الانهر ترع عظيمة سهلة المواصلات وكذلك نهر شانون فى ارلانده والترعة المالكية بها الموصلة بين البحرين (وأما بحيراتها) فكثيرة أيضا وهى فى اسكوتسيا أبهج ما يحيط بها من المرج والجبال ولذلك كانت منتدى الاغنياء فى الصيف وأشهرها بحيرة نس وبحيرة لومند طولها نحو ٣٠ ميلا وكذلك بحيرة نياغ فى شمال ارلانده وبحيرة أرن فيها أيضا (وأما هواؤها) فهو على العموم بارد وفى الشمال أشد وسليم موافق للصحة لكن يكثر فيها الضباب صيفا وشتاء وكذلك المطر الذى يسقى مزروعاتهم صيفا وشتاء ويوم الصحو الذى ينظرون فيه زرقة السماء يعد من حسنات الايام لان الضباب يتكاثف أحيانا الى أن يحوج الى ايقاد النور نهارا وربما كان غير مجد الا فى البيوت والمسقفات أما فى الطرق فالنور انما يقوم بنفسه ولا تخرق أشعته تكاثف الضباب وكاد المطر أن لا يفارقهم ثلاثة أيام متواليات وقد يشتد الحر فى الصيف الى أشد من أقاليم خط الاستواء سيما فى دواخل القارة حتى يموت الناس فى الطرق وذلك لانعدام النسيم وسكون الهواء سكونا زائدا فيشتد الحر الى درجة عالية للغاية لكنه لا يدوم فما هو الا يوم أو بعض يوم وتعقبه السحب والامطار والبرد (وأما نباتاتها) فهى نباتات الاراضى الباردة والجهات الوسطى والجنوبية تخصب فيها سائر الحبوب وان كانت لا تكفى السكان وأما العنب وما شاكله من نباتات الاعتدال والحر فلا يوجد منه الا ما يجعل له بيوت خاصة معالجة بالتسخين النارى ومع ذلك فتجد الارض بهجة مخضرة بالنباتات لكثرة العلاج واتقان الفلاحة وتجرية المياه وغاباتها كثيرة بها الاشجار الضخمة الصالح خشبها لانشاء السفن العظيمة فيراها الناظر معمرة لاغلب البقاع ونباتات المراعى خصبة جدا تسمن عليها الحيوانات (وأما معادنها) فالغنى منها الحديد والفحم الحجرى بكثرة فى أغلب الجهات وفيها الرصاص وغيره وهى أغنى ممالك أوربا فى المعادن (وأما حيواناتها) ففيها كل أنواع الحيوانات الموجودة فى فرانسا وايطاليا كما سبق ذكره والسباع منها منقطعة للاجتهاد فى ازالتها من قديم فان وجد شئ من صغار السباع فانما هو فى الجبال الشمالية وذلك كالدب والثعلب وما شاكلها وأول من اعتنى بافناء السباع من الملوك الملك أدغر المتولى سنة ٩٥٩ فقد ألزم رعيته فى كل سنة بأن تأتيه بثلاثمائة ذئب واستمر ذلك الى ان فنى ذلك النوع وقد كان مالكا أرضها مع خبثه الشديد لان الذئاب الشمالية كالسباع الكبيرة فى الجرأة والاذاية كالمشاهد الآن فى الروسية وخيلها جيدة للغاية وفيها من أجود الخيل العربية

لشدة

لشدة العناية بخيلها وتوليدها وتربيتها حتى فاقت سائر وباقى الخيل وكذلك غنمها أحسن أنواع الاغنام وصوفها مرغوبة للصناعات النفيسة لانها كادت ان تكون مثل الحرير (وأما مدنها فقاعدتها لندره) وقد مر ذكرها وبقية المدن كثيرة ومن أشهرها ليفربول وهى ثانية لندره (فى التجارة) واقعة على مصب نهر مرسى فى بحر ارلانده وفى مرساها من السفن ما يستغرب من كثرته ثم (مدينة) مانشستر لها من الشهرة ما يناكب السابقة وهى شرقيها على نحو (٣٢) ميلا ثم (مدينة) بيرمنهام ثم (مدينة) شفيلد (ومدينة) كدرمنستر وفى أسكوتسيا (مدينة) ادنبر (ومدينة) ابردين (ومدينة) دندى (ومدينة) كلاسكو وهاته أعظم اخواتها تجارة ومركزا ومعارفا وفى ارلانده أربع عظيمة (احداها) جهة الشمال وهى بلفاست (الثانية) جهة الشرق وهى دوبلين (الثالثة) جهة الجنوب وهى كورك (الرابعة) جهة الغرب وهى غلوه وكل من هاته الاربع قاعدة للقسم الذى هى فيه وهنالك مدن أخرى عديدة غير هاته (وأما مراسى هاته المملكة فحيث كانت هى جزائر بحرية فكادت مراسيها أن لا تعدوا كثرها محصن تحصينا جسيما حتى ان كثيرا من الحصون فى المراسى الحربية صارت الآن مدرعة بصفائح الحديد الثخين الذى لا يعمل فيه الكور من المدافع الجديدة وفى بعضها معامل للسفن المدرعة والخشبية ومن هاته المراسى ما هو مأمن للسفن بأصل الخلقة كأكثر مراسى ارلانده لان فى شطوطها تعاريج كثيرة حسنة المنظر ومنها ما هو مأمن بالصناعة وتجىء الى هاته المراسى التجارة فى السفن والبوابير من سائر الاقطار وأكثر سفن العالم إنما هو للانكليز كما يأتى توضيحه ان شاء الله تعالى وقد صار لها على شطوطها لهداية السفن ليلا أزيد من مائتى منارة (وأما تقاسيم المملكة) بالنظر للادارة فهى فى انكلاتيره الاصلية اثنان وخمسون مقاطعة وفى أسكوتسيا ثلاثة وثلاثون مقاطعة وفى ارلانده أربع مقاطعات فالجميع تسعة وثمانون مقاطعة لكل منها ادارة على نحو ما يأتى بيانه ان شاء الله (واعلم) ان هاته المملكة تتبعها جزر أخرى صغيرة حواليها كثيرة أشهرها جزيرة مان وجزائر نورمونديا وذلك عدا المستعمرات الخارجية لان ما ذكر هو قطعة من ذات المملكة (وأما أهل المملكة) فهم اثنان وثلاثون مليونا كلهم انكليزيون ديانتهم نصرانية على مذهب البروتستانت الا البعض وهم أكثر أهل ارلانده فهؤلاء على مذهب الكاتوليك ويوجد فيهم قليل من اليهود والدهريين وأفراد من المسلمين منهم من أهل المناصب العالية والبيوتات الكبيرة الملقبين باللورد كاللورد استانلى وهو من

الصادقين فى الاعتقاد الاسلامى ولله الحمد دخل اليه عن روية وبرهان نسأل الله له مزيد التوفيق والحماية وعلو الكعب والهداية ثم ان هاته المملكة لها مستعمرات واسعة فى جميع اقطار الارض حتى كانت اول دولة فى العالم فى اتساع الممالك وثانى دولة فى كثرة الرعية اذ هى تالية لدولة الصين فى كثرة الرعية لكنها الاولى فى اتساع المملكة وعلو الشأن فى اقطار الارض جميعها فاعظم مستعمراتها هو الهند وما معه وقد مر فى المقدمة تفصيل ما وصلنا اليه من أحواله ولها فى آسيا أيضا جزيرة هنكونغ فى الصين ومدينة عدن وباب المندب وجزيرة بريم فى جزيرة العرب وجزيرة قبرس فى البحر الابيض دخلتها بمعاهدة مع الدولة العثمانية سنة ١٢٩٥ وحماية على مسقط وبعض قبائل شطوط جزيرة العرب الشرقية ولها فى أروبا جزيرة الياغولاند فى بحر الشمال وجزر جرسى وغرنسى فى بحر المنش وجزائر صغيرة حول انجمد الشمالى وجبل طارق الحائل التحصين فى ارض اسبانيا على الخليج الموصل بين المحيط والبحر الابيض المسمى ببوغاز طارق لان طارق هذا هو الذى عبر البحر من افريقية واستولى على الجبل المذكور للمسلمين فسمى به ثم افتتح بقية الاندلس وكذلك لها فى أروبا جزيرة مالطه فى البحر الابيض وسيأتى تفصيل حالها ان شاء الله ولها فى افريقية شطوط من سانيقال وجبال الاسد فى كينيا العليا وارض شط الذهب فيها وراس الرجا الصالح وجزائر سنتلين وموريس ولاسانيول وشطوط فى جزيرة مدغسكار ولها نوع حماية اوسلطة على ممالك مستقلة فى افريقيا أيضا مثل الزلوس وغيرها فى ارض الكفر ونفوذ فى الزنجبار ولها فى اماريكا البريتانيا الجديدة فى شمال اماريكا وكندا وبرنزويك وسكوسيا ولابرادور وكلها توصف بالجديدة وجزيرة الارض الجديدة واراضى أخرى غربى شمالى اماريكا وجزائر المنجمد الشمالى وجزائر الانتيل الصغار وجزائر جامايك وغيان الانقليزية وما جلان ولها فى استراليا الشط الشرقى ومعظمها من بقية الشطوط وجزائر تزمانيا وزيلاندا الجديدة ونورفولك فاذا نظر المتأمل لاتساع هاته المستعمرات وافتراقها على جميع اقسام المسكونة علم مقدار اقتدار هاته الدولة وسيأتى فى فصل التاريخ ان من حسن ادارتها كانت هاتيك الممالك قوة لدولتها الاجالية لضعفها وهذا جدول لعدد السكان

٠٢٢٧٠٤١٠٨	سكان انكلاتيره
٠٠٣٣٥٨٦١٣	سكان اسكوتسيا
٠٠٥٤٠٢٧٥٩	سكان ايرلانده
٠٠٠١٤٤٤٣٠	سكان الجزر التابعة لها
٠٠٠٣٠٧١٩٨	عساكر بحرية خارجها
١٦٢٠٧٢٧١٥	سكان ممالكها بالهند
٠٠٠١٦٠٣٦٩	سكان بقية اماكن باروبا
٠٠٥١٣٣٧٢٣	سكان ممالكها بامريكا
٠٠١٨٦٠٠٠٠	سكان مستعمرات افريقيا
٠٠١٩٥٨٦٥٠	فى استراليا
٠٠٠٤٢٦٠٤٧	فى بقية الجهات
٢٠٣٤٣٠٦١١	

الفصل الرابع

﴿ فى اجمال تاريخ انكلاتيره ﴾

مطالب فى تاريخها القديم لا يخفى ان سائر اوروبا كانت فى الاعصر السالفة على جانب عظيم من التوحش فلذلك كانت تواريخها القديمة مبهمة مجهولة ومن ذلك تاريخ انكلاتيره ايضا وغاية ما يعلم من احوالها ان قوما من السكنيين اى قدماء الفرانسيس الذين مقرهم فى فرانسا بين نهر السين ونهر غارون عبروا الى اراضى انكلاتيره بقصد توسيع التجارة فلم يجدوا لهم ممانعا واستوطنوا هنالك ثم لحق بهم فرقة من اهل البلجيك وبقوا جميعا على التوحش التام بحكمهم بايدى رؤساء القبائل بل العائلات حتى ان غيرهؤلاء هم كالعبيد بايديهم وبينهم كهان لهم سلطة على الجميع بما يتعلمونه خفية من علم السيمياء والطبيعيات ليوهموا العامة بخرق العادة لهم حتى اعتبروهم كالالهة وكانوا جميعا يعبدون الاصنام حتى انهم يقربون اليها دماء الانسان بالتضحية لها وفى سنة ٥٥ قبل التاريخ المسيحى عبر الى انكلاتيره يولوس قيصر بجيوش الرومان فلم يتمكن منها لمعارضة الاهالى مع هيجان عظيم فى البحر ثم عاد اليها ثانيا واستملك منها بعض الجهات لكنه لم يستقر ملكها ايضا وفى سنة ٤٣ بعد التاريخ المسيحى اعاد

الرومان الكرة وافتتحوا الجزيرة وارسلوا رئيس عصبتها الى رومة أسيرا ثم آزداد الرومان تمكنا منها بما وقع من التخاذل بين أولئك الكهان الى ان ابادوهم غير انه كانت احدى
* القبائل مترئسة عليهم امرأة يقال لها بوديكيا فاستنهضت جميع الاهالى وقهرت الرومان وقتلت منهم (سبعين) ألفا ثم اعادوا الكرة وانتقموا من الاهالى حتى قتلوا منهم ثمانين ألفا وزادوا عليهم العذاب المعروف من الرومان ثم عدلوا فيهم وكل اخضاعهم بالعدل أحسن من السيف لكنهم شغبهم اهالى اسكوتسيا الساكنون فى الجبال بغاراتهم المتتابعة فبنوا بينهم سورا ثم آخر أعظم منه طوله ثمانون ميلا وذلك فى حدود سنة ١٢١
* مسيحية وفى سنة ٦٨٧ استبد على الرومان احد قوادهم بميل الاهالى اليه وصار ملكا على انكلاتيره ثم عادت الى الرومان بلا حرب لتكاثر الانقسامات الداخلية ودامت ولاية رومانية الى القرن الخامس وفى مدة استيلاء الرومان التى هى أربعة قرون حصلت الاهالى على معارف جمة مما كان عند الرومان حتى كانت ذات مدن وحضارة
* وصنائع وتجارة لما فى الاهالى من النشاط الى الكد ثم فى سنة ٤٢٠ اضطر الرومانيون الى تسليم انكلاتيره لاهلها ورفع جيوشهم منها لما وقع فى ايطاليا من الحروب الاهلية والخارجية فكان حفظ قاعدتهم أولى لهم من حفظ المستعمر غير ان أهالى انكلاتيره وان حصلوا على حظ من التمدن بسبب التسلط عليهم فقد فقدوا ما يوازى ذلك من الحرية والشجاعة للهوان الذى حملوهم اياه فلم يستطيعوا الاستقلال بانفسهم لمهاجمة أهل
* الشمال من جبال اسكوتسيا فاذ ذاك استنجدوا قبيلة من الالمان مقرها على مصب نهر الالب من أوروبا الشمالية تسمى السكسونية لما كان بينهم من المودة والمخالطة وطلبوا منهم الاعانة على دفاع الاعداء فأنجدوهم لكنهم استأثروا عنهم بفائدة النصر فجعلوا الاهالى كالعبيد لهم وتملكوا عليهم وعندما أرادوا دفاعهم شتتوهم واستقلوا هم بالبلاد ورحلت فرقة من أهالى انكلاتيره فارة بحياتها الى أراضى فرانسا وسمى المكان الذى استعمروه منها باسم برنيطانيا نسبة اليهم حيث كانوا من أهالى برنيطانيا وكان مبدأ
* استملاك السكسونية من سنة ٤٤٣ ميلاديه ثم قسموا انكلاتيرة الى سبع ولايات تسمى باسماء أعيانهم ولكل منها أمير ويرجع الجميع الى ملك هو أحدهم ونشأ عن ذلك منازعات فى هاتيك السيادة دامت بسببها الحروب الداخلية وعندما فاز بها ملك ولاية كنت أحد السبع المذكورة دخلت فى الاهالى الديانة النصرانية وذلك سنة ٥٩٦ وامتدت الهوينا فيهم الى أن عمتهم وفى سنة ٨٢٧ زال استقلال سائر الولايات بدخولها

جميعا

جميعا تحت تملك ملك واسيكس وهو اغبرت وهو اول مستقل حقيقة بالجميع واول ملك لانكلاتيره جميعا من العائلة السكسونية وتوارثت الولاية أولاده وفى مدتهم هجم عليهم أهالى الدانيمرك وتملكوا أولا عدة جهات ثم عمت ولايتهم لكنها لم تطل واسترجع منهم الفريد الملك الاصلى من العائلة السكسونية بعض الجهات ثم عقد معهم صلحا ومعاهدة على الذب والاقدام واشترط عليهم الدخول فى النصرانية ثم التفت الى اصلاح البلاد من جهة التمدن ومن جهة القوات الحربية وأدمل جراحاتها ورقاها الى أوج حسن ومع ذلك كان منكبا على التأليف والترجمة فافاد أمته فوائد جسيمة وفتح لهم بابا من الحرية حتى كان من جملة حكمه التى جرت عندهم مثلا الى الآن قوله يجب ان يكون الانكليز احرارا مثل أفكارهم ولمثل ذلك لقب هذا الملك بالفريد الكبير وكانت وفاته سنة ٩٠٠ ومن مشاهير ملوك هاته العائلة حفيد المذكور اتلستان الذى أتم استخلاص المملكة من بقية الدنمرك ورقى قواته الحربية الى أن رغب فى موالاته غالب الملوك من أروبا فعقد الصلح مع فرانسا وصاهر باخته ملكها وباخته الاخرى ملك المانيا ومن مشاهيرهم أيضا ادغرتوا استولى سنة ٩٥٩ فانه أبلغ القوات البحرية الى درجة لم تعهد لهم فى ذلك التاريخ حتى صارت سفنه أربعمائة سفينة وكان يتفقد بنفسه المملكة مرة فى السنة وهو الذى قطع الذئاب منها كما رآ نفاومنهم أيضا الملك اتريلد الذى كان سبب استيلاء الدنمرك على المملكة بقتله جميع من كان فيها منهم فافتتح وها بحر وبذريعة ذلك ملك منهم على انكلاتيره ثلاثة ملوك أشهرهم الملك كانوت الذى عم العدل والراحة حتى استطاع السفر منها لزيارة البابا فى رومية وكتب الى عماله بما نصه اعلموا جميعا انى نذرت حياتى لله وأن لا احكم فى ممالكى الا بالعدل وأن لا أفعل فى كل أمر الا المستقيم فان كان صدر منى وانا فى عنفوان شبيبتى وعدم مبالاتى ما يناقض ذلك فها أنا ذا قد عزمت بحول الله على تعويض ما فرط منى ولذلك أرجو وآمر كل من قلدته شيئا من الامر ويريد خلاص نفسه وبقاء طاعته لى ان لا يظلم أحدا سواء كان فقيرا أو غنيا ولتسووا بين الاشراف وغيرهم فى انالة حقوقهم على مقتضى الشرائع التى يجب حفظها ولا يحولكم عن ذلك الخوف منى ولا تطلبوا رضاء الاشراف ولا الميل الى ملء خزائنى المالية فانى لا أحب مالا جمع بظلم اه وبعد وفاة هذا الملك ثارت الفتن بين أعقابه وأعقاب العائلة السكسونية الى ان استولى منها اثنان فى ارتباكات متوالية حتى انقرض الجميع سنة ١٠٦٦ وبينما كانت الاهالى فى نزاع فيمن يملكوه عليهم واذا باحد امراء ولاية نورمندية التابعة

لفرانسا فدهمهم عليهم وقهرهم جميعا واستقر ملكا عاما على انكلاتيره وعلى نورمنديه ومع انه حصلت له حروب في انكلاتيره حملته على الانتقام بالقتل لاهلها وافساد الزرع حتى نشأت عنه مجاعة مات فيها نحو مائة ألف نفس ثم ثار عليه ابنه الذي خلفه في نورمندية وحاربه وانتصر عليه وبعد موته خلفه ذلك الابن في كل من المملكتين مع حروب دائمة فيه وفي خلفه حتى استولى هنرى الاول من احفاده وحاربته فرانسا في مدة لويس السادس عشر لاستخلاص ولاية النورمندية وغلبها ونازع البابا في حق اعطائه وظائف الديانة واستقل هو بها مثل سائر الوظائف ثم تعاقبت الثورات والحروب تارة داخلية وتارة مع الولاية النورماندية في استخلاص نفسها ونزاع في التملك الى ان ولى هنرى الثاني أول العائلة البلانتاجينية وهو اسم حشيشة كانوا يصنعونها في قلانسهم فنسبت العائلة اليها وذلك سنة ١١٥٤ فاعمل هذا الملك حزمه في ازالة تعصبات الجهات وأزال ما فيها من الحصون وخضد شيئا من شوكة الاعيان وأجرى نوعا من التسوية في الحقوق فهدأت الحروب في مدته ومن مشاهير فروعه في الملك ريكاردوس الملقب بقلب الاسد المتولى سنة ١١٨٩ وهو الذى اشترك في حرب الصليب ثم أسر عند النمسا وفداه أهله وقتل وهو محاصر لاحدى القلاع في فرانسا فولى أخوه يوحنا الموسوم باختلال العقل حتى خسر مستملكات الانكليز في فرانسا وقتل ابن أخيه فثارت عليه الاعيان وألزموه بما يأتي خبره وانتقلت حالة المملكة الى طور آخر

﴿مطلب في تاريخ انكلاتيره الجديد﴾ اعلم ان مبدأ ظهور الحرية في جميع أوروبا على الاصول المعروفة هي انكلاتيره ولذلك كانت هي أسبق ممالك أوروبا الى ذلك وحصل فيها هذا الامر على نحو ماسيأتي ولهذا اعتبرنا ذلك فهو تاريخ جديد الى انكلاتيره لانها استمرت على أصوله وزادتها ارتقاء الى الآن وان اعترت في الاثناء توقفات ومعارضات تارة تخضد شوكة القانون وتارة تزيلها لكن على كل حالة دنشدت أصوله وأدركتها العقلاء ومرت منهم الى غيرهم الموينا شأن الاصلاح في كل شئ (وحاصل هذا البناء) ان الملك يوحنا وبافتهم جان سانتير لما تصرف تصرفات أضرت بالمملكة والدولة تعصب أعيان المملكة وفرضوا قانونا سموه بالشرط الكبير وألزموا الملك بقبوله وامضائه والعمل به وذلك في سنة ١٢١٥ فلم يسعه الا العمل بذلك وملخص هذا الشرط الكبير هو ان الملك التزم في حق نفسه وحق من يأتي بعده بمنح الحرية الى جميع الانكليز وان فرض الضرائب على الامة لا يكون الا برضاء مجلس مركب من الاساقفة ورؤسائهم

وأهل

وأهل الخطط الدينية والاعيان من الامة أصحاب القاب البارون والكنت والمتوظفين في الدولة وان ذلك يجري أيضا فيما اذا اقتضى الحال جعل اعانة مالية على مدينة لندره مع بقاء حريتها القديمة وان مجلس الحكم العام لا يلزم انتقاله الى حيث ينتقل الملك وان المكترين للاراضي لا يلزمهم العقاب المالي لاجل هفواتهم وانما يكون العقاب على الجناية ولا يؤخذ لاجلها الامايزيد على القدر الضروري للجاني وهكذا الباعة والسوقة لا تمس رؤس أموالهم ولا تعطل حركاتهم التجارية ولو لجناية وكذلك الفلاحون الذين تحت تسلط الملك أو أصحاب الاملاك لا توضع عليهم ضرائب العقاب عند الذنب الا بقدر الطاقة بحيث لا تتعطل أشغالهم وان جناياتهم الملزمة لذلك لا تثبت الا بشهادة اثني عشر نفسا ممن يرضون للشهادة مع اليمين وان يبطل عمل التسخير بأخذ حيوانات الاهالي وعجلاتهم لحمل اثقال الملك وان يتحد عيار الكيل والوزن والقيس في سائر المملكة على عيار لندره وان لا يمس حق لانسان مطلقا في كل ما يرجع لذاته وماله وعرضه ولو من الملك الا بمقتضى القانون وحكم المجالس به وأن لا يمنع أحد من السفر الى أي مكان اراده برا وبحرا ولا يمنع من الرجوع متى اراد مع التزام الطاعة على مقتضى القانون (الخ) فمن تأمل ما لخصناه من ذلك الشرط يعلم ما كانت عليه الحالة سابقا مما يناقض الشروط المشار اليها ثم خلف ذلك الملك ابنه هنري الثالث ودام في الملك خمسا وخمسين سنة مع كونه غير جدير بالتصرفات وانما عضد ابقاء العمل بذلك الشرط وزاد تأكيدا بالقانون المسمى بتقريرا كسفورد نسبة الى البلد المنعقد بها وملخصه ان مجلس البارلمان أي مجتمع البارونات هو الذي يعين أعيان المتوظفين والحكام الذين يتبدلون في كل سنة ويحرس قصور الملك ويجتمع ثلاث مرار في السنة ويبقى في بقية السنة لجنة منه مركبة من اثني عشر عضوا يتفاوضون دائما مع مجلس الملك ويوظفون في كل مقاطعة أربعة أعضاء لقبول الشكاية من الاعيان والمتوظفين ويعرضونها على البارلمان عند أول اجتماع (الخ)

ثم ولي ادوردالاول الملقب بذي الساقين سنة ١٢٧٢ وفتحت في مدته بلاد والس تحت انكلاتيره وولد ابنه بها ولهذا صار لقب ولي العهد برنس والس وبرنس دي قال نسبة الى المكان المولود به من الاسمين المذكورين ثم ولي ابنه ادوارد الثاني سنة ١٣٠٧ بعد حروب طويلة في مدة الملكين أفضت بالثاني الى الموت في السجن واستولى بعده ابنه ادوارد الثالث سنة ١٣٢٧ وهو ابن اثنتي عشرة سنة وهو المبتدي لحروب المائة سنة مع فرانسا بدعوى استحقاقه تاجها لانه من ذرية البنات الاقرب من فليب غالوا ملكها

واستولى على كالى وبردو وبايون مع مستتبعاتها من فرانسا بعد حروب هائلة وفى مدته

* ظهر مذهب البرتستانت الذى انتشأ فى انكلاتيره من رجل فاسق متدين بالنصرانية ولازال يتقوى فيهم ذلك المذهب والحروب مستمرة تارة للديانة وتارة لجور الملوك الى أن استولى الملك هنرى الرابع سنة ١٤٠٠ وهو أول العائلة المسماة لانكستر نسبة الى دوك ولاية تسمى بذلك الاسم ودامت الحرب فى أيامه الى أن خلفه ابنه هنرى الخامس سنة ١٤١٣ الذى جمع تاج انكلاتيره وفرانسا بافتتاحه للثانية وعند موته تتوج ابنه فى حضن مرضعته بمدينة باريس بالتاجين معا لانه ابن تسعة أشهر ولقب بهنرى

* السادس غير انه ضعف امره بانقياده لامر زوجته عند شبوبيته فانقسمت انكلاتيره الى قسمين أحدهما تابع لهذا الملك والآخر لاثنين من العائلة السابقة واتخذ الاهالى شعارا دالا على التبعية فأتباع الملك شعارهم وردة حمراء والآخرون شعارهم وردة بيضاء ولهذا تسمى حروبهم تلك التى دامت ثلاثين سنة بحروب الورد وخرجت فى مدتها فرانسا واستقلت وكشفت الحرب عن رجوع الملك الى العائلة السابقة بمكائد وفظائع من الملك ادوارد الرابع الذى تسبب فى ذلك ولم يطل الملك فى عقبه عند وفاته سنة ١٤٨٣ وغايته انتزاعه من ابنه الصغير الذى تحت وصاية عمه فاغتنم العم الامر الى نفسه بقتل الموصى

* عليه وأخيه معا واستمد هو سنة ١٤٨٥ متلقبا بهنرى السابع واشهر مآثره تأسيس ادخال أواسط القوم فى ادارة المملكة بان ينتخب الاهالى منهم نوابا فى مجلس للمفاوضة فى مصالحهم وأن لا تشهر حرب الا بعد تعذر اطفائها ولو بتوسط أجنبى وسلم لفرانسا فيما بقى لانكلاتيره بها من ايالة برتينيا نيا بعوض قدره أربعمائة الف ليره واغتنم من الاموال خزائن عظيمة حتى قيل انه خلف فى خزائنه الخاصة عشرة ملايين ليره وارتقى الى المملكة بعده ابنه هنرى الثامن سنة ١٥٠٩ وكان شديد البطش لكنه نفع المملكة بالاصلاحات التى أجراها وهو أول من تمذهب بالمذهب البرتستانت وتعصب له حتى أمر بقتل كل من لا يقبله وفى مدته دخلت ارلانده تحت انكلاتيره وصارت مملكة واحدة

* وعلى عكسه ابنته المتولية بعد أخيها وهى مريم حتى لقبت بالدموية لقتلها أهل ذلك المذهب بل حرقتهم أيضا وخضدت شوكة القوانين ومجلس البارلمان بعزلها من عارضها وتوليه من يوافقها وخسرت مدينة كالى من فرانسا لمحاربتها اياها انتصارا لزوجها ملك اسبانيا ثم لما خلفتها أختها سنة ١٥٥٨ رفعت الاضطهاد الدينى وزاد مذهب البرتستانت انتشارا لما نال الاهالى من الحرية فى سائر أطوارهم وحصلوا على

درجات من التقدم بالصنائع والمعارف ممن هاجر اليهم من المانيا وفرانسا وغيرهما من أهالى المذهب البروتستانت لما وجدوا هنالك حريتهم من القتل لهم فى أوطانهم وفى مدتها عرف الشاى عندهم وعرفت الساعات وفى سنة ١٦٠٠ تشكلت جمعية الهند التى تقدم بيان أعمالها فى المقدمة وحيث لم يكن لها وارث عهدت الى أحد قرابتها وهو ملك اسكوتسيا الملقب جمس استوارد وبه اتحدت المملكتان وهو أول عائلة استوارد استولى سنة ١٦٠٣ وكانت أيامه على نوع من التقدم لانفكاكه من الحروب وكاد فى مدته أن يحرق مجلس البارلمان بمن فيه بدسائس الباپا فوضع تحته لغم لكنهم تفطنوا له وولى بعده سنة ١٦٢٥ ابنه كارلوس الاول وتفاقم الخلاف بينه وبين الامة فى حدود سلطته اذ أراد أن يبقى مجلس الندوة المسمى بالبارلمان صوريا وهو يتصرف كيف يشاء ويحمل المسؤلية على المجلس لاخضاع الامة وتبرئة نفسه فلما عارضه المجلس عزل أعضاءه وانتخب آخرين لكنه كان كلما انتخب اناسا كانوا على نمط سلفهم فى معارضته حتى تفاقم الخلاف واشتهرت الحرب بين الامة والملك وكان من حزبه أغلب الاعيان وكبراء البيتوتات لما نالهم من الحظ من اطلاق الملك لانه كلما أطلقت يده أطلقت أيديهم أيضا فالحظ يقتسمونه بل يكون لهم منه القسط الاوفر حيث ان كلا منهم يجتهد فى خصوص مرضات الملك وحواشيه بشئ من التملق والتعظيم الباطل الذى يحضر منه العاقل و يضيف الى ذلك جزءا من الاموال التى ينتهبها ارشاء لاولئك الافراد ثم يطلق عنان شهواته فى ملايين من الناس على حسب ارادته يستعوض منهم كلما دفعه من المال والاعمال بل وربما أنفذ أغراضه فى أقرانه لما وقع بينهم من التحاسد والتشاحن فشاه والان يرضى تلك الشرذمة وينتقم من ضده بالقتل على أوجه لا تحصى منها الجهرى بدعاوى من الزور وحكم مجالس صورية تلقن ماتقول من الليل ومنها السرى بالتسميم وغيره من أنواع الغدر أو يحصل التنكيل بدون القتل كالتغريب والسجن مع أخذ المال كل ذلك باحتيالات صورية على ظاهر الاعين ليقال انهم لم ينقضوا القوانين حتى لا تثور العامة وأما متولى كبر حزب الامة فهو البعض من الاعيان والكبراء وجمهور الاوساط والرعاع فأما الباعث لهذا الجمهور على ذلك فهو واضح لانهم هم موضوع الاغتيال الواقع فيه المنافسة وقد كان نواعلوا من السابق ما كانت عليه حالتهم ثم ما آلت اليه بعد تأسيس القوانين والاحتساب عليها وأما الباعث لبعض الاعيان والكبراء فربما اشكل مع ماقررناه فى حق اغلبهم لكنه فى الواقع بين وهو ان هذا القسم

عاقل يتطرق الى العواقب ولا يستغنى بالعاجل عن الآجل فعلم ان الزخرفات التى تحصل بالتسلط لا تدوم لانها اما تؤول الى انقراض الامة وضعفها فتهجم عليها امة أخرى قوية وتصير أولئك الاعيان كالسوقة (كما قال تعالى) وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون وزعيا عاضد السوقة وهم الجمهور ذلك الهاجم للاستراحة مما هم فيه وأيضا فان تلك الزخرفة التى يحصلونها أى الاعيان بتسلطهم مع قلة مدتها هى فى نفس الامر غير هنية لعدم الامن معها وعدم الاطمئنان عليها لما أشرنا اليه من كونها موقوفة على رضاء شخص تتلاعب به أهواء حاشيته والمقربين اليه لمجرد أغراض شهوانية و بعضها معها عرضة للاضمحلال متى ما اراد الملك فلا يأمن المقرب من طبيعة الملك المفسدة للاخلاق فربما غضب عنه مقربه اليوم لشئ كان يرضى به عنه بالامس وأيضا لا يأمن دبيب سعايات أقرانه وحساده الغافلين عن كونها تجرى عليهم مثلما جرت على صاحبهم كما قيل (من حلقت لحية جار له فليسكب الماء على لحيته) ولهذا انضم القسم حتى عقلاء حاشية الملك والبعض من رجال الدولة اذ تيقنوا انه لا خير لهم فى نعيم لا أمن معه لا على الدم ولا العرض ولا المال ولا الحريم ولا الذرية فاى نعيم يحصل لهم وهم على شفا جرف هار وكان مقدام هذا الحزب رجلا من أعيان البيتوتات اسمه اوليفر كرومويل ذا بسطة فى المال والعقل والشجاعة وجرت حروب هائلة كشفت عن خلع الملك وحبسه ثم قتله بحكم مجلس على انه خائن للامة واستولى اوليفر رياسة الدولة بعد ان تلقب بجنرال وكان يوم دخوله بالعسكر منتصرا الى لندره تلقاه الجم الغفير بالهناء والترحيب فقيل له ألم تر هذا الاحتفال من العامة بك أيها الحامى عن انكلاتيره وجعل ذلك اقسه فقال ان هؤلاء الرعاع لا يلتفت لا الى تعظيمهم ولا الى تحقيرهم فهم تبع للغالب اذ لو كان هذا اليوم أخرجت فيه الى القتل لكانوا خرجوا الى التفرج على مثلما خرجوا الى لقائى الآن وبه يعلم ان تلك الخلة جارية فى سائر الامم على السواء اذ هاته أمة الانقليز التى قيل فى المثل فيها يجب ان تكون حرة مثل أفكارها اذ قال فيها زعيمها المذكور ما سمعت وبقيت الدولة الانقليزية جمهورية بضع سنين الى وفاة الجنرال المذكور واستيلاء ابنه من بعده واستعفائه فى مدة قليلة فارجعوا ابن الملك السابق سنة ١٦٦٠ ولقبوه بكارلوس الثانى وجارى على نحو ما كان يريد أبوه وخرق سياج القانون باستبداده على البارلمان متسترا باقامة خمسة من أكابر الاعيان لتدبير الامور وانفاذها بدون مراجعة الندوه وحارب هلاند واخذ منها مدينة نيورك من أمريكا ثم عقد معها ومع السويد محالفة على

فرانسا

فرانسا ثم اتحد مع فرانسا على هلاند ثم خضع للندوة وبقي مضطربا الى ان مات وخلفه
اخوه جمس سنة ١٦٨٥ فزاد الامر ارتيابا كان ايثاره للمذهب الكاتوليكي الى ان خلع
ونودي باحد امراء هولانده لتزوجه بابنة مليك انكلاتيره الاسبق ولقب بويلم الثالث سنة
١٦٨٩ فاحيا اجراء القوانين واتبع اشارة الندوة وارتاح في نفسه حتى لقب بالصياد
لاشتغاله براحته وحبه الانفراد بما هنالك به السياسة وذاته والمملكة وزادت الندوة
احكاما في شروط القوانين منها ان لا يتولى الملك الامن كان على مذهب البرتستانت
واحتاجت الدولة الى اموال لاصلاح داخليتها في ايامه فاستقرضت من الاهالي وهو اول
دين على الدولة وتشكل لاجله بنك انكلاتيره اي محل اجتماع الاموال من اناس كثيرين
لاجل الشركة في التجارة بذلك المال اولاجل ان يقرض المال على شروط وذلك البنك هو
المعروف الى الآن وذلك سنة ١٦٩٤ وهو دليل على اجراء القوانين بعدم غصب الاموال
من الرعية وترقت المملكة في ايامه بالصنائع والمعارف بزيادة من هاجر اليها من فرانسا
لاجل ما وقع سابقا من الاضطهاد المذهبي ثم خلفه الملكة يوحنا سنة ١٧٠٢ وفي مدتها
استولت انكلاتيره على جبل طارق من اسبانيا واشتدت الحرب مع فرانسا وكان معاضد
الفرانسا بافيرة واسبانيا ولانكلاتيره النمسا وهولانده ثم انقرضت العائلة بموت تلك
الملكة اذ لم يكن فيها من تتوفر فيه الشروط فنادى الاهالي باحد قرابة العائلة وهو امير من
الهانوفر من المانيا ولقبوه جورج الاول سنة ١٧١٤ وهو اصل العائلة الموجودة الآن
واستقرامره بعد حروب مع فرانسا لارادتها تمليك ابن من العائلة السابقة كاثوليكيا
وبعد استقرار جورج المذكور لم يسكن في انكلاتيره وانما لازم بلاده والتصرف
بيد الوزراء والندوة ثم خلفه ابنه جورج الثاني سنة ١٧٢٧ ونشأت في مدته عدة حروب
منها الداخلية لاجل الملك من بقايا العائلة السابقة ولم ينجحوا (ومنها) الخارجية واعظمها
مع فرانسا حيث كانت الحرب قائمة بين ابروسيا والروسيا والنمسا لاجل الاستيلاء على
بولونيا وكانت فرانسا ضد البروسيا معاضدة لخصمها فحالفت انكلاتيره بروسيا لاجل
زيادة اشغال فرانسا فاحتاجت فرانسا لجلب قوتها من مستعمراتها باماريكا لتقوية
نفسها في اوروبا وعند ذلك هجمت انكلاتيره على مال فرانسا من امريكا وضمته الى
تملكاتها حتى صار لها اذ ذاك جميع مالها الآن في اماريكا مع جميع الممالك المتحدة
الآن وذلك بعد حروب هائلة ثم خلفه ابنه جورج الثالث سنة ١٧٦٠ واستقلت في
مدته امريكا اعني الدول المتحدة وذلك لان دولة الانكليز لما امتدت املاكهم هنالك

وتكاثرت فيها الخلائق المهاجرون اليها رغبة في الغنى لما فيها من الخصب واتساع الاراضي الجديدة فقسمت الدولة تلك المملكة الى ولايات وجعلت عليهم ولاة انكليز يرون انهم احق بها مستبدين في التصرف ففحش ظلمهم للاهالي فاشتكوا منهم الى الدولة وبينوا لها اعمالهم فعزلتهم واولت ولاة من الاهالي بانتخابهم غير ان الانتخاب لم يكن حقيقيا بالرضى ولذلك اتفق في هؤلاء الولاة اثر اسلافهم فتمكن الحقد على الدولة ثم انها زادت عليهم الضرائب لما رأت من غناهم فنفروا منها حتى منعوا بالجبر مع اظهار الاسترحام ان تجري فيهم ضريبة الورق المختوم في صكوك الحجج فساعدتهم الدولة لكن احاطتهم غيرها فعقدوا جمعية سرية واعلنوا الحرب بالاستقلال تحت راية الجمهورية في سنة ١٧٧٦ واعانتهم فرانسا واسبانيا وهولندا لما لهم على انكلاتيره من الضغائن الحربية ودامت الحرب الى سنة ١٧٨٣ التي عقد فيها الصلح بباريس على ان ترجع انكلاتيره الى فرانسا اراضي سانيغال بافريقيا وترجع الى اسبانيا اقليم فلوريدا في امريكا وعلى ان تستقل الممالك المتحدة بامريكا الشمالية وتكاثرت الحروب في مدة جورج الثالث المذكور مع فرانسا وغيرها سيما مع نابليون الاول واشتهرت اذ ذاك انكلاتيره بالقوة البحرية والمهارة في حروبها البحرية لما اظهره الاميرال نيلسون من البراعة والشجاعة في مواقعه المتجاوزة على المائة ونيف واقعة واشهرها هجومه على حصون كوبنهاك قاعدة الدانيمرك مع ان القسم الكبير من الاسطول لم يدخل معه الى المضائق وانفرد بمن تحت امرته من الاسطول وعندما رآه الاميرال الكبير قد فقد الربع من سفنه أشار اليه بالرجوع وكان هو أعور فلما أخبر بالاشارة جعل النظارة على عينه العوراء وقال اني لم ار شيئا مما تقولون وزاد في الهجوم الى ان غلب عدوه وأجرى شروطا مثلما اراد ومع هذا الانتصار حكم عليه المجلس الحربي بالعقاب لمخالفته الامر وقد مات ذلك الاميرال في حرب سنة ١٨٠٥ ضد فرانسا واسبانيا وكانت سفنهما اربعين وسفنه سبعا وعشرين فاقتربت من سفينته سفينة فرانساوية وراقبوا شخصه الى ان اصابوه برصاصة نزع منها للنزع وكان ينتظر البشارة بالانتصار ويدعو ربه قبل الموت فما دخل عليه الا بعد قريب من ساعة مبشرا بالنصر فقال كم غنمنا من السفن قال أظن اربع عشرة او خمس عشرة لاني لم اتمالك عن القدوم اليك عند ثبوت النصر قبل عدها فقال لكني كنت أشترط على نفسي ان تكون عشرين ثم قضى نحبه وقد دام الملك جورج الثالث في الملك ستين سنة لكن كان في اغلبها لا يتصرف في شيء بل لا يدرك شيأ من مصالح الملك لاختلال في

عقله

عقله ولذلك جعل له ابنه ولى عهده نائبا عنه فى حدود سنة ١٨٠٤ ثم توفى ذلك الملك سنة ١٨٢٠ ومع ما حصل فى مدته من خروج الممالك والحروب فان انكلاتيره تقدمت فيها خطوة وسيعة فى التمدن والاعتبار والقوة حتى وصلت الى الذروة القصوى فانها احدثت فى ظرف أربعين سنة مائة وخمسا وستين ترعة وتكاثرت فيها معامل القطن والصوف الفائقة حتى راجت سلعتها على سائر ما فى غيرها لرخصها واتقانها واكتشفت واستملكت اوستراليا وغيرها وتقدمت فيها المعارف والتآليف الى نحو ما هى عليه الآن واستفادت حكما سياسية علمتها كيف تدبر مستعمراتها الواسعة فى سائر أقطار العالم وحصلت على فخر النصر على نابليون وغيره واستتبت الادارة القانونية بغير نزاع ولا دسائس ولذلك صار يضرب المثل عندهم بان حرية الانكليز اغا اهتدوا بها فى مدة ملكهم المجنون وخلفه ابنه جورج الرابع وفى أيامه وقع الغدر فى أسطول الدولة العثمانية من اسطول انكلاتيره المترأس على أساطيل الدول فى تظاهرهم على طلب تسليم الدولة العثمانية لليونان بالاستقلال من غير اعلان بالحرب لما تخللت الاساطيل ما بين أسطولها المركب من سفنها وسفن مصر وطرابلس وتونس والجزائر وهم على اطمئنان السلم والامن وأطلقت عليهم النيران دفعة واحدة بحيث لم يبق منهم باقية غدرا وشناعة لا تنمحى ومعرة لا تزال على خصوص الانكليز لانهم هم الذين بيدهم أمرة جميع الاساطيل الدولية وعندما سمعت الندوة الانكليزية بفظاعة الواقعة هاجوا وماجوا وطلبوا محاكمة رئيس الاساطيل وحكم عليه مجلس حربى بالقتل مع دفاع وزير البحر عنه بكل ما أمكن من الاعتذار وتلفيق دعوى بان احدى السفن العثمانية أطلقت النار عليهم ولم يجد كل ذلك شيئا وعندما تحقق الرئيس الحكم عليه بالقتل أسر الى وزير البحر بان التذكرة التى بخطه فى الامر باحراق الاسطول العثمانى قد نسى أن يحرقها معه مثل ما أمر (وحينئذ) تحول المجلس الى جلسة سرية ثم أطلق الرئيس وسيأتى فى الكلام على الدولة العثمانية الباعث على ذلك التحامل على المسلمين وما آله الديانة وان سياسة الدول الكبيرة فى الخارج ليست كسياستهم فى الداخلية ثم ورث الملك وليم الرابع سنة ١٨٣٠ وزاد القانون فى أيامه تحسينا ونفوذا واول سكة حديدية أنشئت فى اول سنة من ولايته والزمت الدولة عتق العبيد فى الهند وعوضت أصحابهم بأثمانهم وكانت نحو عشرين مليونا ليره واجتهدت انكلاتيره على عتق العبيد فى سائر الاقطار ترغيبا وترهيبا لا اهمالا ولا زالت على ذلك الى الآن ثم

ورثته الملكة فيكتوريا سنة ١٨٣٧ وهى الملكة الحالية وأعانت الدولة العثمانية على اخضاع مصر واسترجاع الشام منها وعلى حرب القريم فحاربت الروسيا وآلت الحرب الى معاهدة باريس وحاربت الصين بالاتحاد مع فرانسا وأخضعت الهند من الثورة الهائلة بمعاضدة افغانستان وخرج الهند من وقتئذ من تحت الشركة التجارية الى الحكومة السياسية كما مر فى المقدمة وتلقبت بامبراطورة الهند ثم استولت على الافغانستان ثم جعلتها مستقلة تحت نظارتها بعد أخذ أجزاء منها وحاربت الزلوس من بلاد الكفر بافريقيا ثم صارت تلك المملكة تحت نظارتها وتداخلت فى حرب الروسيا مع الدولة العثمانية عند عقد الصلح الى أن أفضى الى معاهدة برلين مع زيادة التقدم والغنى فى داخلية المملكة الانكليزية

﴿مطلب فى السياسة الداخلية بانكلاتيره﴾ (اعلم) أن السياسة المستقرة الآن كان استتبابها سنة ١٨٣٢ وأما أصولها فقديمة حسبما أشرنا اليه فى التاريخ وهاته السياسية مبنية على اعتبار تسلط الملك ونفوذ الاعيان واحتساب الاواسط من الناس فكل من السلطات الثلاثة مرتبطة ببعضها وينتج منها ادارة المملكة بما يرضى الجميع ولا يتجاوز كل منهم حدوده بما يضر بغيره ولهذا كانت قوانين الانكليز على نوع مغاير لبقية ادارات الاروباويين من حيث الاشتراك فى السلطة وعدم التساوى بين طبقات الرعية فى الاعتبار ونيل الرتب مع انالة الرعية غاية الحرية والامن وتفصيل هاته الادارة ومحل ارتباطها وانفرادها قد تكفل به كتاب أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك لخير الدين باشا التونسى بما يفيد بجانب أطوارهم واصطلاحهم فليرجع اليه من أراد البيان وانما نقتصر هنا على الالمام بكليات الادارة (فنقول أما القسم الاول) من ذوى السلطة فهو الملك وله حدود مضبوطة بقوانين من أهمها ان الملك وارثى فى ذرية الملك الذى هو من عائلة هانوفر من البكر الى بكره والانثى تستحق ذلك على شرط أن لا يوجد لها أخ ذكر والا فهو أحق بالتقديم وان كان أصغر منها (ومنها) التزام مذهب البروتستانت (ومنها) اذا اقتضى هذا التورات ان حاز التاج الانكليزى من له ملك أو أرض بمملكة أخرى فان الامة لا يلزمها الدفاع عن ذلك مثل ما يلزمها عما يرجع الى انكلاتيرة مالم ترض بذلك الندوة (ومنها) ان رياسة الديانة للملك بحيث يوظف مناصبها مثل ما يوظف المناصب السياسية (ومنها) رياسة سائر القوات والصلح والحرب الى غير ذلك مما مر فى ملك ايطاليا (ومنها) تلقبه بملك بريطانيا العظمى وامبراطور الهند حتى يقول فى

طالعة

طالعة مكاتيبه الرسمية ما صورته فلان بنعمة الله ملك المملكة المتحدة من بريطانيا العظمى وارلانده وامبراطور الهند محاميا عن العقيدة الخ والتلقيب بامبراطور الهند حدث سنة ١٢٩٣ بالتفاق المجالس وقوله محاميا عن العقيدة اشارة الى رياسته الدينية (ومنها) ان اجراء كل حق للملك فى التصرف انما يكون بواسطة رؤساء متوظفيه وهم رؤساء الاساقفة والوزراء (وأما القسم الثانى) وهو سلطة الاعيان فهؤلاء الاعيان هم الملقبون باللوردات وبالفرنا ويأتى فى مبحث العوائد خصوصياتهم وامتيازاتهم والذى يتعلق بهم هنا انه يتركب منهم مجلس اللوردات المشتمل (على) رؤساء الديانة (وعلى) عائلة الملك (وعلى) سائر لوردات انكلاتيره (وعلى) سبعة عشر لوردا من لوردات اسكوتسيا (وعلى) أربعة لوردات من لوردات ارلانده ولوردات المملكتين الاخيرتين ينتخبان من امثالهم فى أقاليمهم لذلك المجلس لمدة حياتهم ويناط بهذا المجلس سائر الاحتساب على التصرفات وانشاء القوانين وتغيير العادات والحكم فى المتوظفين بحيث لا يصدر عن الدولة شئ الا برضائه وليس لاعضاء هذا المجلس مرتب وعددهم غير معين وربما قد يبلغون زهاء خمسمائة ولاعضائه اعطاء الرأى فيه بالمباشرة أو بارساله مع احد امثالهم كتابة والوزراء ينتخبون من هذا المجلس ومن مجلس النواب والملك انما ينتخب رئيسهم فقط وهو ينتخب بقية الوزراء كما فى بقية اروبا وعدد الوزراء تسعة الرئيس وهو وزير المال فى الاغلب ووزير الخارجية ووزير الداخلية ووزير الهند ووزير المستعمرات ووزير رياسة المجلس الخاص ووزير الحرب ولورد قاضى القضاة وهو رئيس مجلس اللوردات وموظف الحكام القانونية ولورد المحاسبات وهؤلاء الوزراء هم المباشرون لسائر أعمال الدولة بعد اذن الملك وليس له مخالفتهم الا اذا وافقته أغلبية الندوة فحينئذ يستبدلهم بغيرهم وهؤلاء الوزراء يضم اليهم الملك أعضاء من بقية اللوردات فيتشكل منهم مجلس الملك الخاص ورؤساء ادارات الوزارات ولا يزيد مرتب الوزير عن مائتين وخمسين ألف فرنك فى السنة (ومنهم) من له خمس ذلك فقط ووظيفة هذا المجلس الخاص التدبير فى اجراآت الاعمال كما ان من حقوق الاعيان ان يكونوا هم حكام الولايات كل ولاية حاكمها من لورداتها وليس للملك عزل أحد منهم من مرتبته اللردوية (ومنهم) أيضا اعضاء المجالس العليا فى الولايات التى لها التصرف الكلى

﴿وأما القسم الثالث وهو سلطة الاواسط﴾ فهى بانتخاب الاهالى منهم نوابا عنهم

لمجلس النواب للاحتساب على تصرفات الدولة وحماية حقوق السكان وما يستقر
عليه رأيهم يجرى اذا وافقهم مجلس اللوردات كما انه يسوغ للملك أن ينتخب من هذا
المجلس رئيس الوزراء ولهذا انتخاب بعض الوزراء من بقية أعضاء هذا المجلس
ومدة انتخابهم لاعضاء المجلس سبع سنين وشرط العضو أن يكون وجيها غير محكوم
عليه بما يشين العرض ذا دخل من أملاك فى المملكة غير منقولة يبلغ مائتين وخمسين
فرنكا أو صاحب معارف له اجازة فيها من المدارس العلية ولهذا اختص هذا
الاحتساب بأواسط الناس ولم يكن للأسافل فيه حظ وعدد أعضاء هذا المجلس
بحساب واحد على العشرين ألف نسمة من السكان فكان عددهم يتردد فى زهاء
سبعمائة ومجموع هذا المجلس مع مجلس الاعيان هو المسمى بالقمرة أى الندوة
وعليها مدار سائر الاعمال فى الداخلية والخارجية ومن أصولها أن ميزان المال ليس
بمعدود على حالة واحدة دائما بمعنى أنه اذا كان الدخل الموضوع يوفى بمصاريفها
للسنة و يفضل منه يبقى الفاضل فى الخزنة أو يشترى به من ديون الدولة واذا كان لا يوفى
يزاد فى الضرائب الى أن يقع التسديد كما هو جار فى الدول الاخرى بل ان قاعدة الانكليز
هى جعل الميزان فى كل عام بحسبه فينظر الى مقدار اللازم من المصاريف وعلى مقتضاه
يجعل الدخل بحيث لا يكون للدولة فاضل ومن الاصول أيضا اعطاء الحرية لكل فرد
و جماعة فى مملكتهم بان يتكلموا فى السياسة العامة والخاصة وتصرفات المتوظفين
مطلقا واعلان آرائهم بالقدح أو بالمدح فى الصحف وفى مجامع الناس ولهم الاستدعاء
الى الاجتماع ولو اجتمع ملايين من الخلق من غير ان يتعرض لهم أحد بشئ ومن الاصول
أيضا التى استقرت الآن أنها نشأ فى الامة حزبان (أحدهما) يسمى حزب المحافظين
يعنى أنه يريد التحفظ على القوانين الموجودة والجرى عليها فى الداخلية والمساعدة على
كل ما ساعدها فى الخارجية وأن لا يتغير شئ الا ما تدعو اليه الضرورة (والحزب
الثانى) يسمى بحزب الحرية يعنى أنه يريد زيادة اطلاق الحرية فى الداخلية وفى كل
الممالك و يساعد على قطع عوائق الحرية فى أى جهة كانت بما يقتضيه حال الانكليز
ولكل من الحزبين زعماء مشهورون بما يقولون و يكتبون للاشتهار وتشتمل عليهم
الندوة ومهما مالت أكثريتها الى افكار أحد الحزبين وجب أن تكون الوزارة مركبة
من أعضاء ذلك الحزب فلا تزال تتداول الدولة بينهم ومن لازمها أنه كلما تغيرت الوزارة
يتغير معها سائر المأمورين الذين عليهم مدار الاعمال ولو من علائق ذات الملك فان كاتب

سره وحواشيه الذين يخدمونه فيما يتعلق بتصرفات الدولة يلزم تبدلهم أيضا مع الوزارة خشية من افشاء أسرارها لضدها ومن الوشاية أو التراخى من جهة ما يتعلق بالملك مما يضر بالاجراء ونشأ عن هذا عدم ثبات السياسة الخارجية على طريق واحد داعى فى الاجراء لتبدل المنهج بتبدل الوزارة وان كانت كل وزارة تولت تراعى أصل ما أسسته سابقتها لكنها تضربه فى لا يلائمها فلا يحسن الاعتماد عليه من الخارج ومن الاصول أيضا ان الخدمة العسكرية لا يدخل اليها بالغصب أو بالقرعة وانما هى بالاختيار لمن رغب فيها ولهذا تجد فى عساكر الانكليز فى الحرب كثيرا من الاجانب الراغبين فى المال الذى يبذل اليهم هذا اذا كانت الحرب خارج المملكة أما اذا هاجم العدو المملكة فيجب على كل الاهالى الدخول فى سلك العسكرية على قانون لهم فى ذلك حتى ان النساء أراد بعضهن الدخول فى ذلك وألفن فرقا للتعلم وكذلك العساكر اللازمة لحراسة المملكة يدخل اليها بالاختيار وهى عدا الضابطية التى تلزم أهالى كل جهة ومن أهم أصولها أن لا ينتخب اليها الا العفيف المرضى الشهادة حتى يكون كلامه حجة على الجانى وذلك من الاصول العامة فى أوروبا وبها تيسر استقرار الراحة لان حراسة الضابطية ونفوذهم من أهم الوسائط الفعالة فهى أهم ما يعتنى بها ومن أصول الانكليز أن لا يتولى المراتب السامية فى الدولة الا من كان على مذهب الكنيسة البروتستانت فتأمل فى هذا مع ما يأتى ان شاء الله فى أحوال تداخلهم فى بلاد الاسلام بدعوى الحرية ومن عاداتهم قبول جاه العلية منهم والاعيان فى توظيف معارفهم وأقربائهم اذا كان فيه شئ من الاهلية مع اهمال غيره وان كان أحق من المقدم ومثل ذلك الرتب العسكرية لا تنال الا للاعيان والعلية والافراد العسكرية لا يستحقون ذلك مهما فعلوا غير انه قد حصل منذ سنة ١٢٨٩ هـ ١٧٧١ م ابطال اشتراء الرتب العسكرية من ملازم الى أمير الاى بأمر من الملكة حيث ان أصل انشاء ذلك كان بأمر من الملك لا بقانون واغتاظ لذلك كثير من ندوتهم لكن المصلحة غلبت فصارت الرتب العسكرية مطلقة الاتصال الا بالاستحقاق فى المعرفة وبهذا التغيير العسكرى يعلم ما للملك من السلطة وان خالفته الندوة بناء على حق قديم له مع موافقة الوزارة اليه

﴿بحث ادارة الولايات﴾ قد تقدم فى صفة بريطانيا أنها تنقسم الى تسعة وثمانين ولاية فهاته الولايات فيها مدن ذات خصوصية بالامتياز بالشرف حسب عوائد قديمة ومدن كبيرة استحقت بكثرة سكانها ان تدعى عضوا أو اكثر فى الندوة ومدن يسكنها طوائف

من كبرائها وبلدانهم ومدن وقرى خالية عن الامتيازات المذكورة (فاما) الانواع الثلاثة الاول فان لها ادارة خاصة لا تدخل فى عموم الولايات التى هى بها (واما) النوع الرابع فهو مشمول بادارة عموم الولاية (والحاصل) فى ادارة عموم الولاية هو انها راجعة الى الوالى العام على الولاية وهو احد لوردات المتحصل على عضوية الندوة وينتخبه الملك لذلك وليس له مرتب على هاته الوظيفة وهو ينتخب اثنين من اهل ولايته الاعيان أيضا لاعانته ويوظفهم له الوزير ويلقب بقاضى القضاة وليس لهما مرتب أيضا ومدار أعمالهم حفظ الراحة ورياسة العساكر المحافظة والنظر فى الاعمال العسكرية ولهم أيضا مرجع الاحكام الشخصية والنظر فى مصالح الولاية الادارية وحفظ الطرق وانشائها الى غير ذلك من المصالح كما تنفرد البلاد الممتازة من الاصناف الثلاثة المشار اليها سابقا (ومنها) مدينة لندرة بان يكون لها شيخ وهو رئيس المجلس البلدى الذى أعضاؤه من الاهالى المنتخبين منهم والمجلس ينتخب رئيسه من أحد اعضائه كل سنة ولا مرتب له ولهاته المجالس البلدية مرجع جميع المصالح المتعلقة بالبلد ومنها ادارة الضابطية ولا دخل للدولة فيها بشئ وعلى رؤساء هاته المجالس ايضا الاحتساب على كيفية انتخاب أعضاء مجلس النواب فيما تحت نظرهم لكى يكون الانتخاب موافقا للاصول وهو الذى يرأس جمعية الانتخاب ويتصرف فى الاحكام الشخصية كتصرف قضاة الصلح الآتى بيانهم ويوم تولية رئيس هذا المجلس المسمى بشيخ البلد يكون فى لندرة موكب حافل من أعظم المواكب وله من الاحترام والتوقير كالاحد الملوك ثم ان موظفى الديانة فى كل الجهات هم مرجع عدد من يزداد أو يموت وهم المكلفون بحفظ الكنائس والمقابر والفقراء والطرقات أيضا واعانة الضابطية عند الحاجة هذا (واما) الاحكام الشخصية فان لها أدارة مخصوصة رئيسها اللورد قاضى القضاة الذى هو رئيس ندوة اللوردات ثم نائبه ثم اللوردات قضاة المجالس العليا فى الجهات الكبرى ثم حكام مجالس الولايات ومجالس الضابطية وكل هؤلاء لهم مرتب وهنالك حكام الصلح لكنهم لا مرتب لهم وكذلك حكام الجورى على نحو الممالك التى تقدم ذكرها غير ان الامر الذى انفردت به انكلاتيره هو ان احكامها لا تستند الى قانون خاص فشريعتها أصعب الشرائع لانها تستند الى مجموع أشياء وهى ما يوجد من القوانين فى بعض امور وما يوجد فى احكام سابقة صدرت من مجالس الاحكام القديمة وما فى احكام الرومان وما يقع عليه اجتهاد أصحاب الاجتهاد وهم

الاوردات أهل المجالس العليا وقاضى القضاة وقرنائه وعلماء الاحكام وهم المسمون بالابوكاتية فلذلك كان علماء الاحكام من أشهر الناس وأوجههم ومن غريب عادات المملكة انها اذا وجدت نازلة ووجد حكمها فى احدى تلك الاصول لكن أصحاب اجتهادهم ظهر لهم ان المصلحة الوقتية قضت بخلاف تلك الاحكام لاختلاف الزمان فانهم يجرون اجتهادهم لكنهم لا يجعلون ناسخا للسابق بل يبقى السابق ويبقى الحدث حتى تكون الاصول متناقضة ويبقى لاهل الاختيار عندهم الخيار وبذلك يعلم مقدار النفوذ والسلطة للطبقة العليا من الناس عندهم لانهم هم الذين يكون منهم أهل الاختيار كما يعلم به فساد اعتراض بعضهم على أحكام المسلمين بانها مشتتة باختلاف الاقوال فى كتب الفقه مع خيار القاضى فى القضاء بما يوجب لهم التحرز من الدخول تحتها لانها غير معلومة للمحكوم عليه لان ذلك الاعتراض على فرض تسليمه كما هو فهو عندهم أعظم مما يعترضون به علينا ثم ان الاحكام المذكورة لها ترتب فى تحقيقها من مجالس وراء مجالس الحكم باعتبار الخفيف منها والثقيل وما يرجع الى المعاملات وما يرجع الى الجنايات فالخفيف لا يستحق التحقيق الا اذا حصل ظلم فيقع فيه الاحتساب العام وأما الثقيل فينتقل الى مجالس تحققه الى ان ينتهى الى المجلس الاعلى بالتحت وحيث كانت الحرية مطلقة والاحتساب فى رفع الظلم ثم الى كل احد برفعه الى مجالس الاحتساب ولو كان فى حق غيره مع اباحة نشر النوازل والافكار فى الصحف الخبرية وفى اعلانات ومطبوعات تنشر متى ما اراد الناشر وفى مجامع عمومية علنية كان التعدى على الحقوق من أصعب الامور عندهم

﴿مبحث ادارة مستعمرات الانكليز﴾ اعلم ان الانكليز انما تيسر لهم اتساع مستعمراتهم فى مشارق الارض ومغاربها بشيئين (أحدهما) نفس انتظامهم فى داخليتهم المثمر للغنى المثير للقوة الحربية (وثانيهما) حسن الادارة لما يستملكون عليه بالنسبة لغيرهم من الدول سيما بعد خروج امريكا عنهم واستفادتهم من ذلك الاسباب والبواعث الموجبة للنفرة منهم فاستقر أمرهم انهم فى كل جهة من المستعمرات يجعلون مركز الوجود قوة مركزية لهم ويجعلون فيها نائبا من ثقات اعيانهم مقيد التصرف بالشورى مع اعضاء منهم ومن أهالى المستعمر ويرجع الى هذا النائب الذى هو الحاكم فى تلك الجهة الامور الكلية من الادارة السياسية وأما بقية الجزئيات والاحكام والسيرة فانها تفوض للاهالى يجرون على حسب عقائدهم وعاداتهم وأحكامهم وكذلك الاداء المرتب

للحكومة وكيفية استخلاصه وتوزيعه الى غير ذلك من غير تداخل الانكليز معهم في شئ سوى انهم يشترطون عليهم ابطال المظالم والتعدي على بعضهم وابطال بعض العوائد القبيحة بالعقل الراجعة الى ظلم الغير كاحراق الاحياء تبعا لمن يموت من قرابتهم أو رؤسائهم وكتفريق الناس لاجل ذلك أو ذبحهم مما يحصل به الخلاص منه لجمهور الاهالي ويبقى الحاكم الانكليزي بجانبه مراقبا للتكليفات وللمنافع الانكليز والاهالي حتى ان اعظم مستعمراتهم الآن وهو الهند له حكومة مخصوصة كما تقدم في المقدمة وأعظم الوظائف فيه هو الحاكم العام وهو انكليزي لكن ثاني رتبة منه وهو قاضي القضاة هو مسلم من العلماء الاعيان وجميع أحكام الهند راجعة اليه ومرتبه سنويا أربعة وعشرون الف ليرة انكليزية وعلى ذلك المنوال بقية الامور ودخل تلك الحكومة خاص بها لا تأخذ منه الدولة الانكليزية شيئا ومصاريفها كلها راجعة الى حكومة الهند وربما اذا حدث حرب بجوار الهند مع حكومتها اعانتها الدولة الانكليزية على مصروف الحرب لعود النفع اليها بواسطة بل ربما تحمل أكثر المصروف عليها كما وقع منذ قريب في حرب الافغانستان كما ان انكلاتيره تستفيد من عساكر الهند بدخولهم في أمرها عند الحاجة اذا عقدت حربا مع دولة أخرى وكثيرا ما تبقى الممالك على حالتها بملوكها وامرائها واتخذ لها عليهم مجرد المراقبة والحماية وتلزم الملوك باجراء العدل في ممالكهم واجراء الشورى وبذلك يحصل ميل العموم اليها (فان قيل) اذا كان الامر كما ذكر فاي فائدة للانكليز في هاته المستعمرات سوى تشويش البال وخسائر الاموال في الحماية او الثورات (فالجواب) ان فائدتهم عظيمة من وجوه (أولها) وهو الاهم رواج التجارة الانكليزية فان مائتي مليون من الخلق لا يتجولون الا في السلع والبضائع الانكليزية له من الاهمية ما لا يخفى وبضائع بقية الممالك اما ان تمنع بما يوظف عليها من عظيم القمرق في تلك المستعمرات أو يدخل منها ما لا وجود له عند الانكليز مما هو حاجي فاما البضائع الانكليزية فتدخل معفاة من الاداء فلن تبور لهم بضاعة ولا تقفل لهم معامل فانتجه ثلاثون مليونا من الانكليز من الصنائع يكونون مطمئنين على رواجه في مستعمراتهم كل على قدر احتياجها زيادة عن الممالك الاجنبية وكفى بذلك غنى للامة الانكليزية وأي فائدة أعظم لها من ذلك ودونك مثالا لهذا فان مستعمر الهند وحده كانت قيمة التجارة الصادرة والواردة اليه في سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م ثلاثة آلاف وخمسمائة مليون فرنك يخص الانكليز وحدهم منها ألفان اثنان مليونا والباقي مع سائر الممالك وأغلبها

الصين

الصين فهذا مستعمر الهند وحده راجت تجارتهم فيه بذلك المقدار وليقس عليه غيره (وثاني الفوائد) أشغال معلميهم في الفنون والصنائع في تلك المستعمرات الواسعة الكثيرة السكان بما يحدثونه للاهالي على وجه الارشاد والتعليم والتمدين عن طيب نفس منهم من المكاتب والمعامل وطرق الحديد وغير ذلك (وثالث الفوائد) حوز الاراضي الخالية عن المالك والتعمير لها باهالي انكلاتيره الذين ضاقت بهم جزائرهم فصاروا يهاجرون منها الى كل الآفاق التي تتيسر لهم بها المعيشة والعمل فيهاجرون الى مستعمراتهم أولى لهم حتى تنشئ منهم دولة جديدة كما وقع بالفعل في دول امريكا المتحدة اذ غالب أهلها أصلهم انكليز وكذلك ما هو حاصل الآن في استراليا (ومن أعظم فوائدهم) القوة الحربية التي تصرف فيها انكلاتيره من عساكر ذلك المستعمر مع ان المصاريف على العساكر من دخل المستعمر فاعظم بذلك من قوة للانكليز حتى ان عساكر الهند الذين تحت أمرها أضعاف عساكرها المستديمة فهاته الفوائد أعظم وأنجع لامة الانكليز من أخذهم ضريبة على سكان المستعمرات تحوجهم الى الحقد والثورة عليهم كما وقع في أمريكا وأفيد لهم أيضا من جهة السياسة فان النفوذ والرهبة والوقار الحاصل للانكليز في جميع جهات المسكونة ليس بحاصل لاي دولة كانت أوروباوية وذلك أفيد للانكليز من ان يفيدوا ألفا أو عشرة آلاف منهم باطلاق التصرف في أحد المستعمرات فيكون أهلها تحت قبضتهم ويديرون فيهم قانون الانكليز بالقدرة ويوظفون فيهم من قضاتهم ويغيرون عوائدهم وشرائعهم لما يلزم لذلك من مصاريف تكثير القوات وكون الحقد في المستعبدين حتى ينتهزوا الفرصة لفك قيودهم متى ما سنحت الفرصة ويمثل هاته السياسة ومجاراة الاهالي في مقاصدهم وعاداتهم وأحكامهم وكبرائهم ودياناتهم تيسر لها امتداد المستعمرات واتساعها وطول بقائها هانية بدون كثرة مصاريف فان الهند الذي هو أعظم المستعمرات وفيه من السكان ما ينيف عن مائة وستين مليونا انما تضبطه دولة الانكليز بعشرين ألف عسكري انكليزي فقط وان كانت حكومة الهند لها نحو ثلاثمائة ألف من العساكر تحت السلاح لكنهم كلهم من الاهالي ما عدا العشرين ألفا المذكورة وذلك ما خلا ما للملوك والامراء المستقلين بالادارة في الهند من العساكر والقوات وما ذلك الا بمجاراة الاهالي بما لا ينفرهم مع اجراء العدل فيهم والزام امرائهم وملوكهم بذلك وحريتهم في سائر أطوارهم حتى انها تعظم لهم شعائرهم الدينية كما يعظمونها في أنفسهم فالمسلمون مثلا

تطلق لهم المدافع فى أعيادهم وتمنعهم من الاشتغال فى المواسم وتعزف الموسيقى العسكرية فى أعيادهم وكذلك تفعل مع المجوس وتصرف على الجميع أموالا باهظة فى المعابد وأهل الديانة من دخل الهند وفى عيد القاء جوز الكوكو فى نهر الهند يحضر أهل الامر والحكم من الانكليز ويأخذون ذلك الجوز من أيدى الكهنة ويلقونه فى النهر مجاراة للاهالى (وحينئذ) تنشر الرايات وتطلق المدافع من الابراج والسفن هذا فالبلاد التى تحت ادارتها فضلا عن البلاد المستقلة بالادارة فالاهالى يوازنون بينما فاتهم من حالة الاستقلال وما هم عليه من المنافع التى لم تكن حاصلة اليهم مع موازنة المشقات والاهوال الحاصلة من اعلان الثورة لان الانكليز أيضا قساة وقلوبهم فظة غليظة عند الثورة يجازون بالفظائع التى تقشعر منها جلود السامعين ويقول القائل أين التمدن ورحمة الانسانية والشفقة التى تملأ صحفهم بالتنويه بهما وما هى الا سواد على بياض يأمرون بها غيرهم ولا يرون منها شيئا سوى ما يستعملونه من الغدر باغراء أقسام الاهالى للانقسام وبذل الاموال العظيمة فى ذلك فاذا حصل الانقسام وقع الانتقام من الكل على التدريج وربما حصل من بعض الاقسام لبعض أشد مما يحصل من نفس الانكليز فلذلك آثرت أهالى المستعمرات السكون والرضى بما هو عليه مستغنمى ثمرة ذلك بقدر الامكان بل ان بعضهم مكنتهم دولة الانكليز من الاستقلال وأعلنت لهم بذلك ورفضوا هم قبوله خوفا من تسلط غيرها عليهم لضعفهم وربما يعاملهم المتسلط بما لم يعاملهم به الانكليز يرون مثل ما وقع فى جهة من استراليا منذ نحو من خمس سنين ومع ما مر فقل ما يخلو وقت عن حدوث ثورة فى احدى الجهات من المستعمرات المذكورة وفى الاغلب بعد حصول الراحة بالقوة أو باللين وهو الاغلب تزيح الدولة البواعث على الثورة حتى تعود المصافاة لدى الاهالى على وجه كأنه راسخ وانما قلنا ان اللين هو الاغلب لانا رأيناها لا تستعمل القوة الا بعد انفلال حدود اللين حتى انها فى نفس حروبها مع الثائرين لا توجه عليهم قوة كبيرة من أول وهلة بل ترسل مقدارا غير كاف لاخماد النار اذا كانت مستعرة بهيجان قوى وكثيرا ما تنكسر قوتها أولا وثانيا وثالثا لكنها لا تنكص على عقبيها الا بعد بلوغ أربها اما بمداومة الحرب على النحو السابق مع تزييد القوة شيئا فشيئا الى أن تغلب أو بوقوع الصلح على ما ترضيها وترضى به الثائر على نوع ما كان ذلك لعدم وجود قوة عسكرية تحت السلاح ولا حاضرة للدعوى متى أرادت الدولة لما مر من ان الانكليز لا يدخلون العساكر الا بالرضى وليس لهم الا مقدار حفظ الراحة فاذا ثارت

جهة

جهة لزم الدولة احضار العساكر برضاهم وذلك لا يتأتى عاجلا مثل ما يأتي للدول المرتبة العساكر وايضا بعد حضورهم تلزمهم مدة التدريب ثم ان العساكر عندهم تلزمهم المصاريف أكثر من عساكر بقية الدول لان من قانونهم ان العسكري لا يخدم شيئا سوى الحركات الحربية فيلزمهم من الخدمة وحمل الاثقال ما هو أضعاف عددهم ولا يخفى ما في ذلك من المصاريف والكلفة الموجبة الى الوقت حتى ان عساكرها الذين وجهتهم على الحبشة منذ نحو عشرين سنة لزمها أن تجعل لهم طريقا حديدية وقنوات لجلب الماء كلها موقتة وكان خادم العسكر ضعف عدد العساكر وهكذا دأبها في حروبها وبناء على اتساع المستعمرات وافتراقها وبعدها عن مركز الدولة وكون الطرق اليها بحرية مع ان نفس مركز المملكة جزيرة لزم أن تكون دولة الانكليز هي اقوى دولة في البحر من حيث السفن الحربية ومن حيث كثرة السفن التجارية ووجود البواخر والعارفين بفن البحر

(مطلب في السياسة الخارجية للانكليز) اعلم ان ما تقدم من الاحوال العامة في الخارجية للدول العظيمة مما تقدم ذكره في ايطاليا وفرانسا هو ايضا جار في انكلاتيره مثل وجود السفراء والمراقبة لجهات المنافع الخ فالذي يخص انكلاتيره هنا هو بيان محلات اهتمامها في الخارج وحيث قد تقدم ان لها مستعمرات في جميع أقسام الكرة المعروفة كانت عنايتها في الخارج اوسع من غيرها من بقية دول أوروبا لكن ليست الجهات كلها سواء في الرتبة بل هي متدرجة ففي أوروبا ليس لها من النفوذ في داخلية دولها شيء سواء كانت الدول كبيرة أو صغيرة لابتناء اداراتهم على قواعد راسخة مسلمة بين جميعهم مقررة بمعاهدات فلا ترى حاكما انكليزيا ذا سلطة في برلين قاعدة المانيا ولا في مونكو والتي هي دولة مستقلة في بلدة محاطة بايطاليا عدد سكانها نحو أربعة آلاف نسمة والكل في الدخول تحت أحكامهم من رعية الانكليز سواء وانما نواب الدولة يراقبون الاحوال السياسية لا الاحكام الشخصية نعم لدولة الانكليز زيادة اعتبار في خصوص مملكة البلجيك لما اقتضته معاهدة سنة ١٨١٥ من استقلال هاته المملكة عند سقوط نابليون الاول وجعلها تحت حماية كبار الدول غير ان المراقب لتلك الحماية هي دولة الانكليز فهذا هو وجه زيادة اعتبارها هنالك ومثل ذلك حاصل في دولة البرتغال لما تسبب عن حروب سالفة مع اسبانيا وفرانسا (وأما) بقية الدول فلا فضل عندهم لانكلاتيره على مونكو في أحوالهم سوى ما تجر اليه السياسة الآتي ايضاحها (وأما) امريكا فهي أيضا على ذلك المنوال (وأما) آسيا وافريقية فعلى وجه

انحو مع دولها من حيثيتين (الاولى) سوء المعاهدات القديمة معهم التي لم يراع فيها الا الحالة الراهنة اذ ذاك مع عدم تقييد المعاهدات بمدة محدودة فبتغير الزمان وتغيرت الحالات وبقيت أحكام المعاهدات على ما هي عليه فلزم منها ان تكون لدولة الانكليز شبه دولة مستقلة في كل من هاته الممالك بحيث ان رعاياها غير داخلين تحت الاحكام مثل الاهالي بل يحكم في الخصوصيات قناصلهم وحدهم أو بحضورهم أو حضور أحد من سفارتهم مع حاكم البلد وله الاعتراض على الحاكم في الحكم وفي بعض الحالات اذ كان الحكم في جناية فانما ينفذ في احدى ممالك الانكليز الى غير ذلك مما يتعسر معه للاهالي الوصول الى الحق ويحصل منه شبه حكومة مستقلة في وسط المملكة وليس ذلك يختص بالانكليز بل عام في جميع دول أوروبا مع تلك الممالك وغاية الخلاف هو زيادة التظاهر والتظلم من أحكام البلاد من الدول القوية ذات الغرض في النفوذ في تلك المملكة وفقد ذلك ممن ليس له قوة أو ليس له غرض (وثانية) الحيثيتين هو أن مستعمرات الانكليز قد مر ان أهمها هو الهند فكانت محافظة خاشية من كل ما يوهن قوتها فيه اما بواسطة أو قصدا حتى صارت تحافظ على الطرق الموصلة اليه فكانت قبل فتح خليج السويس تتوصل اليه من المحيط الجنوبي وراء افريقية فاستملكت عدة مراكز في افريقية الغربية والجنوبية والشرقية مع عدن في آسيا كل ذلك لتكون لها اقوات ومراكز تلجأ اليها عند الحاجة وبه يعلم ان ثمرة المستعمرات ليست خاصة بالاوجه التي أشرنا اليها بل منها أيضا أهمية المستعمر من جهة كونه مركزا حربيا فقط وذلك مثل جبل الطارق ومثل مالطة وغير ذلك فبناء على ما شرحناه صارت سياستها الخارجية مع كل الدول القريبة من الهند والتي هي في طريقه والتي لها مصالح أو مطمح نظر اليه على نوع آخر من المشاحنة مع القوي والنفوذ مع الضعيف وتستعمل لذلك كلا من الترغيب والترهيب فالدول التي لها معهم دائما زيادة محاورات سياسية هي دولة الروسيا من حيث انها امتدت في دواخل آسيا حتى اقتربت من الافغانستان الذي هو في حدود الهند ومن حيث طموح نظرها الى الاستيلاء على الممالك العثمانية التي يهمها بقاؤها كما يأتي ايضاحه والدولة الثانية التي لها معها زيادة عناية سياسية هي الدولة العثمانية وذلك من وجهين (اولهما) انها لا تريد زيادة نفوذها او قوتها خوفا من امتدادها الى المشرق وارتباط المسلمين هنالك بها حتى يلتحم بها مسلمو الهند ويعود الهند لما كان عليه من اللحاق بالخلافة الاسلامية (وثانيهما) الخوف عليها من الضعف المفرط حتى تلتقمها الدول المجاورة لها

فيكون

فيكون ان يجوزه وقعها الجغرافي النفوذ والسطوة التي تخشى منها انكلاتيره على فقد
قوتها واعتبارها المادي والمعنوي وبناء على هذا صار لها تداخل كلي في سياسة
الدولة العثمانية الخارجية وجاها على ذلك التداخل مع بقية الدول الكبيرة الستة
لما لهم من المساس بتلك السياسة سواء كانت قصدا أو بواسطة واضطر ذلك
انكلاتيره الى جلب ملاينة فرانسا لانها دولة بحرية قوية فسالمتها ووالاتها أولي لها
بمقاصدها سيما مع ابقائها سياستها على مجانبة الحرب مهما امكن كما تقدم وذلك
تستعمله حتى في الحرب مع الخارج حتى تستعين بكل الوسائل لقطع اسبابه مع التحفظ
على حقوقها كما وقع منها أخيرا سنة ١٢٩٤ من التوسل بالسلطان العثماني لامير
افغانستان بارساله له رسولا لكي يلاين انكلاتيره ويقطع معها المشاحنة الداعية
للحرب من عدم قبوله لسفير مقيم عنده في كابل وغير ذلك مما بعث عليه اغراء الروسيا ولم
يقبل التوسط حتى وقع في الحرب كما تقدمت الاشارة اليه في محله فذلك الباعث دعاها الى
ملاينة فرانسا كما تقدم في سياستها الخارجية طمعا في التسليم لها في السلطة على مصر
أو في الاقل على تعاضدهما معا على ازدياد نفوذهما في مصر حتى تسنح الفرصة
لانكلاتيره في الحاقها بها حيث كانت الآن هي أقرب الطرق الى الهند بعد فتح خليج
السويس مع ما في ذات مصر من الاهمية الكبرى فتبين (حينئذ) وجه زيادة اشتغال
انكلاتيره باحوال الدولة العثمانية وعلى الخصوص احوال مصر وما يجرها من ذلك
الى بقية الدول الكبيرة ومع بقية الدول التي تجاور مستعمراتها على حسبها في القوة
والضعف ثم اعلم ان سياسة الانكليز لما كانت مبنية في التصرف على مذهب الحزبين
اللذين مر ذكرهما في السياسة الداخلية وهما حزب المحافظة وحزب الاطلاق الحرية
كانت تختلف في الخارج على حسب مقاصد الحزب الذي يتولى ادارة المملكة فيؤثر ذلك
في السياسة الخارجية أيضا تأثيرا بينا فترى تغير السياسة يتعاقب على توالي الحزبين حتى
يكاد ان لا تثق دولة بالاعتماد على سياسة الانكليز في موالاتها لانه بينما يكون حزب
المحافظة جانحا الى الاحتراس على ممالكهم مهتما ببقائها وتتعهد على معاضدتهم واذا
بحزب الاطلاق قد جلب أفكار العامة اليه فيصعد الى تخت الادارة وينقض غزل
سابقه ويخذل من اعتمد عليه وسياسة كل من الحزبين وان لم تكن مباينة دفعة واحدة
لسياسة الآخر حتى لا يتيسر له ابطال حرب معدة أو نقض صلح ابرم لكنه يسعى بقدر
الطاقة في انهاء كل ما وجد وعدم اثماره حتى يبرهن الخارج على فساد ما سعى فيه.

سلفه من غير أن يثبت عليه أنه هو الذى كان سببا فى الفساد ولهذا صار كل من الحزبين يجهد مستطاعه فى عدم الدخول فى حرب موهمة لكى لا يجد ضده بابا للتشنيع به عليه لأن عاقبة الحرب مع الدول الكبيرة مجهولة وانبنى على هذا وسم دولة الانكليز من سائر الامم المستقلة أنها دولة تجارية انما تبحث على زيادة غنى أهاليها من غير بحث عن الشرف والجاه لدى الامم الكبيرة القوية وعند دخولى الى انكلاتيره وجدت رئيس الوزارة هو رئيس حزب المحافظين وهو اللورد بكنسفليد وانما حاز ذلك اللقب عند معاهدة برلين سنة ١٢٩٥ حيث نجح سعيه فى تغيير معاهدة صان استيفانوس بتلك المعاهدة واستولت انكلاتيره على قبرس وكان هذا الرجل من نسل اليهود لما ترقى فى السياسة غير دينه لدين الدولة حتى يمكن له الترقى للمناصب العالية واشتهر بتآليفه وأفكاره وخطبه حتى سلمت له رياسة حزب المحافظين وولى الوزارة مرارا (وأما رئيس حزب الاطلاق) حينئذ فهو مستر كلادستون وليس له لقب شرف لكنه باتساع معارفه حاز تلك الرتبة واستولى الوزارة مرارا

﴿فصل فى بعض عوائد الانكليز وصفاتهم﴾ اعلم أن كتاب كشف المخبا عن فنون أوروبا للبليغ اللغوى أحمد فارس قد اشتمل على تفاصيل فى عوائد القوم يعز وجودها فى غيره فمن رام الاطلاع على جزئياتها فليرجع اليه وانما نلم هنا بشئ كاف فى التعريف بذلك (وحاصله) أن أصل الاهالى كما تقدم من قبيلة من قدماء الفرانسيس اختلطت مع قوم قدماء فى الشمال وتناسل منهم هذا الجيل وهم أقوياء بيض ناصع حمر من الدم يغلب فيهم الطول وشقورة الشعر نساؤهم جميلات لباسهم رزينة فى الاخلاق الحرية فهم لا يطيشون عن حدود الاستقامة والانقياد الى الحكم حتى اذا تجمع منهم الجم الغفير البالغ لعدة مئات من الالوف وتكلموا فى السياسة وهاجوا واضطربوا ووقع بينهم خلاف فى تلك المجامع أحوجت الى الخروج من القول الى الفعل فما هو الا أن يصعد حاكم ذلك المجمع على مكان مرتفع ويقول سيدنا ونا كذا الملك يأمر كل فرد منكم أيها المجتمعون بالتفرق حالا وأن يدخل كل منكم مسكنه أو محل صناعته تحت قيد الحكم الصادر فى أول سنة فى دولة الملك جورج فى قطاع الهرج والغوغاء والله يحرس الملك فحينئذ يتفرق الجمع الا ما ندر فيحتاج الى اعمال القوة من الضابطية والحرس والعساكر بل وعلى كل مار اعانة الحرس الا أصحاب رتبة اللورد فانهم غير مكلفين بذلك ومن النادر القليل وجود حالة مثل تلك بل الافراد الجناة يخضعون للحكم وينقادون الى أمر أعوان الحكم بمجرد

القول

القول وعلى فرض الامتناع فيخرج له العون عصبة على رأسها صورة تاج الملك فيطاطئ رأسه وينقاد وان لم يفعل وجب على كل من رآه اعانة العون على جبره فاعانت هاتيك الخلة على اطلاق الحرية واطمئنان الدولة من الهرج وقد تقدم أن عدد السكان نحو اثنين وثلاثين مليونا ردياناتهم الغالبة بروتستانت وقليل من الكاثوليك ثم اليهود ثم الدهرية ثم الموحدين أى الذين يوحدون الله ويعترفون بالرسالة والعبودية والبشرية لعيسى ويصدقون بالكتب فهم أقرب الى الاسلام ولا زال يكثر عددهم سيما فى المانيا وأماريكا كما يوجد النادر من المسلمين ثم ان عوائد الاهالى لا يمكن اطلاقها على الجميع سواء بل بين طبقاتهم البون البعيد فهم على خمسة أصناف (الاولى) العلية ولهم امتيازات تقدم بعضها فى السياسة ومن خاصيتهم أن لا يدخلوا فى الاعمال البدنية التى تجب على العموم ويتنزهون عن مخالطة غيرهم بحيث يكون كل منهم فى داره عنده سائر ما يحتاج اليه ولا يحتاج فى الخارج الا لمجرد المشى فى الطريق لمكان نزهته أو لصاحبه الذى هو من نوعه وعلى نحوهم نساؤهم وهؤلاء هم أصحاب لقب اللورد وغيره من ألقاب الشرف كالمركيز والسير وغيره من الالقاب الوراثية والتى يعطيها الملك بموافقة مجلسه الخاص ومثل هؤلاء الامراء والوزراء وأصحاب المناصب السامية والاساقفة الكبار (الثانية) هم الاعيان الذين لهم أملاك تغنيهم عن معاطاة شغل أو حرفة مع تنعم العيش والرفاهية والاسراف لكنهم ليس لهم لقب مثل الاولى (الثالثة) العلماء والمتشرعون والقسوس والتجار الكبار (الرابعة) التجار وأصحاب العمل النبيه مثل الكتبة (الخامسة) بقية الناس المتعيشين من كد أبدانهم فالاولى والاخيرة بينهما التباين والثلاثة الباقية لكل منها جهة تناسب بها من فوقها وجهة تناسب بها من تحتها ويمكن على حسب التقريب ان يقال ان الثلاثة الوسطى فى عاداتهم واطوارهم على نحو ما تقدم فى فرانسا وايطاليا وأما الطبقة العليا فليس لها مثيل فى تينك المملكتين ومحصل حالهم انهم على نوع من صفات ملوك الاستبداد فى العظمة والكبرياء والفخر والمباهاة باللعب واللهو والتكاثر فى الاموال والاولاد والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث فترى للواحد من ملاك الارض مسيرة يوم للراجل ويملك الفرس باربعمائة الف فرنك ويعد دخله بالدقيقة فيكون له فى الدقيقة الف ليرة أو ليرة أو نحو ذلك ويفرش بيته بصنائع أهل المشرق والمغرب والمنسوجات التى قيمة ذراعها بخمسمائة فرنك ونحوها الى غير ذلك من الاطوار التى لا يعلمها الا هو وعائلته أو من

كان من طبقته وبينهم مودة أو من يتفضلون عليه بالمعرفة وهي انما تحصل للغريب
اذا كانت له وصاية من أحد قرابة أولئك العلية قد تعرف به في أحد الاقاليم
وحينئذ يرى من اكرامهم وتنعيمهم له باشتراكه معهم فيما هم عليه مما يقربه
منها من القنص واللهو واللعب والمراكب والمآكل والمشارب والمناره حتى يكون
لبعض هؤلاء العلية مراكب خاصة في طريق الحديد محتوية على سائر اللوازم يسيرون
بها الى حيث أرادوا ويولونه أي الضيف من ملاطفة نسائهم واكرامهن له باعطاء قدح
الشاى من يد كبيرتهن ما يكون به على يقين من الصداقة لان ذلك من غاية الاكرام
وان لزم الضيف من العناء ما هو عنه في غناء من المحافظة على الآداب والقواعد المعروفة
لديهم كعدم التنوع ولا حك جهة من بدنه ولا التدخين ومن عجيب أطوارهم فيه
التناقض التام فبعض نسوتهم يكرهون شم أثره على الثياب وبعضهن يدخن كالرجال
وان ترى من واحد من هؤلاء ذوى الملايين او آلاف الملايين يتكرم بشئ ذى قيمة
ونهاية النوادد بالهدية هي صورته أو ماشاكلها مما قيمته اذا تناهت تبلغ ألف فرنك
بل كاد ان لا يوجد من يتصدق منهم على الفقراء الا ان يكون لرياء أو سمعة فلو مر أحدهم
على فقير يتضوع جوعا لما رأى له من داع الى مرحمته حيث انه يعلم انه يعطى سنويا
الى ديار الفقراء مقدارا من المال فلا يهمه ان يكون ذلك الفقير الذى يراه في حالة النزع
من البرد أو الحر أو الجوع انه لم يمكن له الوصول الى تلك الدار أو انها لم يكن فيها سعة
لقبوله وأقول ان هاته الحالة كادت ان تكون عامة في أوروبا لا قليلا منهم فانهم يجرون
على حسب مكارم الاخلاق وأما أطوار الطبقة السفلى فهي أشنع مما مر ذكره في همج
الفرانسيس سواء كان من جهة الاعتقاد أو من جهة السيرة والحركات فيتطيرون
من أشياء كادت ان لا تحصى وينقادون الى السحرة والدجالين بما يخرج عن
حد المعقول وكاد التعلم ان يكون عندهم مجهول الاسم فضلا عن المسمى سوى ما يرطن
لهم القسوس في الكنائس ومن هذا القبيل اعتقاد عامة أهل ارلانده ان انقطاع
الحيات من جزيرتهم بسبب قسيس مع انها افقدها الثلج والبرد مع عدم الاتصال بالقارة
حتى يخلفها غيرها ولهم في ذلك خرافات والحاصل ان صفة الانكليز على الاجمال هي
السكون والرزانة والتجافي عن الغريب الا بواسطة في التعرف حتى لو بقي بين أظهرهم
سنين لا يكاد ان يقول له واحد أسعد الله صباحك كما ان من طبعهم الاقبال على الشغل
والجد فيه وعدم الايمان بالقدر حتى اذا يئس أحدهم من المال قتل نفسه فكثيرا

ما تسمع بذلك وبقتل الآباء لاولادهم وكذلك الامهات والعكس ومما يحصل عندهم
من الوقاحة أحيانا مضاجعة الاب ابنته والاخ أخته لكنه لم يسمع بمضاجعة الابن امه
ومنها أيضا بيع الزوج زوجته لمن يحبها ويمضى لهم الحكم ذلك فالعجب لقوم يحتسبون
على بيع الرقيق فى الآفاق ويحكمون بصحة بيع الزوجة بفلس اوفلسين لان الطلاق
عندهم له شروط وهى ثبوت الفاحشة من الزوجة لدى الحكم ومن غريب الوقائع فى هذا
الصدد ما وقع منذ عهد قريب ونشر فى سائر صحفهم وغيرها من ان زوجة أحد اللوردات
ولدت وعندما بشرت بانها ولدت ذكرا قالت من الفرح هو ابن ولى العهد وكانت قرابة
زوجها يسمعون ذلك فثار عجاج النازلة الى أن رفعت لدى مجلس الحكم لكى يستطيع
الرجل طلاقها وادعى وكيلها انها اعتراها جنون من النفاس حتى صارت تقول ما لا أصل
له وادعى وكيل الزوج ان الخلطة حاصلة من قبل مع ولى العهد وكانوا يتزاورون
ويتنزهون معا فقضى الحال باستدعاء الشهود ومنهم ولى العهد وعند حضورهم فى
المجلس الذى هو عالى وحاضر فيه كتاب الاخبار وغيرهم قال القاضى عالما ينبغى ان
لا يسئل الانسان عما يستهجن أو يشين العرض وينبغى للشاهد ان لا يجيب اذا سئل عما
يشين عرضه ثم دعى بولى العهد فسأله عن معرفة المرأة فاجاب بمعرفتها ثم سئل عن
اجتماعهم فاجاب الى ان قال انهما اجتمعا فى منزل من المنتزهات للطعام فشربا وأكلا
وبقيا حصة بعد الاكل فى محل خاص ثم رجع كل منهما الى محله بعد قضاء التنزه فقال
له القاضى الذى تمنعنا سمعته أسألك هل واقعت هاته المرأة عند الخلوة فرفع ولى العهد
صوته قائلا لا فضج المجلس له بالتصفيق وحكم القاضى ببراءة المرأة وبقاء الزوجية وانما
الاعيان يتحاشون عن بيع الزوجات لكنه شائع فى السوقة وصحفهم تنشر منه شيئا كثيرا
ومن عاداتهم الحكام وهو انه كلما عرض لاحدهم حنق على صاحبه الا تبادر بضرب جمع
الكف وعندما يغلب أحدهما كثيرا ما يصافح صاحبه ويتراضيا ولا حكم فى ذلك
ولا يحصل هذا بين الاعيان وانما يتعاوضون عنه بالمقاتلة كما هو جار فى الممالك الاخرى
من أوروبا وهى انه اذا اشتد الغضب بين اثنين على شرط التكافئ فى العرض يرمى أحدهما
لصاحبه بقفازية أو شئ من متاعه ثم يرسل له شاهدين يطلب منه التقاتل فيعين الآخر
شاهدين ويتفق الشهود على آلة التقاتل ومكانه وزمانه بعد أعمال ووجوه التراضى
واسقاط الطلب فان لم يجد أحضروا طبيبا وحضر المتقاتلان والشهود والطبيب وتقاتلوا
على الصفة المتفق بها فاما ان يموت أحدهما أو يسلما أو يحصل عطب فيعالجه الطبيب

ويفصل الامرفان لم يجب أحدهما للقتال صار ذليلا أمام الناس وصحبه وقد يصاحبه مهما لاقاه ان بينه عبابداله وهذا التقاتل وان لم يكن مباحا بالاحكام لكن الحكومات غاضة النظر عنه بمعنى انها لاتحتسب عليه وان أضاع واحد شرفه بالشكاية فيه حكم له لكنه يهان فهو وان كان فيه ما ينبئ عن علو الهمة والشجاعة غير انه من أعمال الهمج لان الحكومات انما أقيمت لدفع التعديات والغاء الاغراض الشخصية المضرة بالغير فيجب القضاء على هاته العادة في أوربا بل والعجب من ازديادها تدريجا ومن عادة الانكليز التطير بأشياء كثيرة منها صياح المرأة الحولاء مالم تتكلم ومن الجهل العام لاسيما في عامتهم الى أقوال المتكهنين وأصحاب الحدثان وانزعاجهم من أخبارهم حتى يقتلون أنفسهم وكثيرا ما يقتلون أنفسهم وأولادهم خشية الاملاق وكثيرا ما تلد المرأة أربعة أولاد في بطن واحد وتكاثر الخلق عندهم في ازدياد حتى لايجدون شغلا في بلادهم فترى مئات الالوف يهاجرون سنويا الى الآفاق لتحصيل الكسب ومع ذلك فعددهم في ممالكهم لازال يزداد ودونك برهانا على ذلك في أقرب وقت وهو ان عدد أهل انكلاتيره أي المملكة الاصلية من الجزيرة الكبيرة وحدها كان في سنة ١٨٥١ لايصل الى سبعة عشر مليونا ونصف والآن هو سنة ١٨٨٢ أعني في ثلاثين سنة صار عددهم يناهز ثلاثة وعشرين مليونا فازداد واخمسة ملايين أو تزيد مع كثرة من هاجر منهم الى ممالك أخرى مما يقرب من ذلك العدد ولجموعهم تغال في عقائدهم فمن ذلك محافظتهم على يوم الاحد بحيث لايفتح فيه محل عمل سوى الاكل والشرب ومن فتح حانوته عوقب ولولم يكن من مذهبهم وهو غاية التناقض مع مايطلقونه من الحرية وملكتهم الحالية زيادة توغل في ذلك حتى حكى منها الشيخ أحمد فارس انها عرض عليها أحد وزرائها أوراقا مهمة للامضاء في ليلة الاحد لكنه تأسف لها بامكان تأخيرها للصباح فقالت كيف وهو يوم الاحد فقال هي مهمة للحكم فقالت اذا بعد الكنيسة فقال نعم ولما رجعت من الكنيسة وكان الوزير مصاحبا لها أعلمته بأن الخطبة التي أعجبته هي بايعازها الى القسيس في المحافظة على يوم الاحد وبناء على ذلك فليأتها صبيحة يوم الاثنين ولو في الساعة الثالثة قبل الظهر لتمضي له أوراقه وتلك الساعة عندهم من العجيب مباشرة الاشغال فيها لانها مبكرة جدا حسب عوائدهم ومن عاداتهم التزحلق على الجليد ولهم مهارة في ذلك وقلدهم الفرانسيس وكثيرا ما يحصل العطب بانكسار الجليد وتغرق من عليه في النهر أو البركة أو البحيرة والحاصل ان اخلاق الانكليز بروسية ولا يلتحمون

بالاجنبي مثل ما يقع من الفرانسيس غير انهم اذا ود احدهم احدا صيما من عيلتهم فانه يحافظ عهده ويدوم على ولائه ويحمون ذماره ولهم ولوع بالخيل وتربيتها وتنسيلها وغناؤهم بالنسبة للطليان والفرانسيس ردئ لتقطع أصواتهم وحصرها وبقية الصفات هم فيها مثل من تقدم ذكره من الممالك ثم يوجد في انكلاتيره نوع من البشر يسمون عند أهل تونس بالزمازية وفي الاستانة جينكاله وبالفرنساوي بالبوهيمية وهم في الحقيقة موجودون في أغلب الاقطار شراذم وفي كل جهة محافظون على عوائدهم وأهمها الجهل وعدم مخالطة الناس وتعاطي علم الغيب وسكنى الخيام وتعاطي الصنائع البسيطة الرذيلة مع الفقر ولهم لغة تخصهم ومن عادات أواسط الانكليز وعليتهم حسن تربية الام لاولادها بحيث ينشؤن على التهذيب والتفطن الى التعليم من غير تعب حتى انهم كثيرا ما يتعلمون الاحرف ومبدأ القراءة بمجرد التربية فيما تدعوه الام أو المربية للصغير مع الفطانة والابعاد عن الاخلاق الذميمة وكل أوربا على هذا الصول لما لهم في النساء من التعليم الحسن

﴿مطلب في التجارة بانكلاتيره﴾ اعلم ان الاصول التجرية التي مر ذكرها في الممالك السابقة هي جارية كذلك في انكلاتيره لكن لهؤلاء زيادة بسطة وفوق على سائر الممالك بما يروج من تجارتهم في مستعمراتهم وغيرها حتى أحصى سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م مال الانكليز من المنقولات التي لها دخل مثل اسهام سكك الحديد وديون الدول وغيرها فكان سبعة وثمانين مليارد فرنك والمليارد ألف مليون ودخل ذلك في السنة أربعة مليارات فلو قسم على نسبة عدد أنفسهم أصح لكل انكليزي (١٠٠) فرنك منها ٥٠ من خارج المملكة وذلك كاف في بيان مقدار غنى هؤلاء القوم وحركة تجارتهم فان بريدهم يصل الى جميع جهات المسكونة وبواخرهم مالئة للبحر وأعظم البضائع الخارجة من مملكتهم هو الفحم الحجري فقد أخرج من مقاطعه سنة ١٨٦٦ ما يزيد على ألفي مليون قنطارا والمقاطع الموجودة في انكلاتيره من هذا الفحم ثلاثة آلاف ومائتان واحدى وثلاثون مقطعا وهو سبب عظيم لثروتهم من حيث البيع منه للخارج واستعماله في الداخل ومن حيث توقف الاشغال الصناعية عليه لكثرة المعامل البخارية ولذلك اشتدت عنايتهم به حتى انه كان كثير من علماء الاقتصاد عندهم يبحث عن أحوال فراغ ذلك المعدن وما يتسبب عنه من الرزية للانكليز وفي سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م اشتد البحث في هذا الامر وعينت الدولة لجنة لتحقيق الامر وبعد مدة وأبحاث استقر رأيهم على

انه يمكن بقاء هذا المعدن عندهم الى مدة ثلاثمائة وخمسين سنة ثم يفرغ نظرا لكمية ما يستخرج منه سنويا ونظرا لصعوبة استخراجه فيما سفل من طبقات الارض وكثرة المصاريف عليه حينئذ ومن تلك السنة ارتفع ثمنه نظرا للاقتصاد في استخراجه ولا زال البحث عما يعوضهم عنه من القوات أو يوجد فيه في مستعمراتهم ومن موارد تجارتهم الواسعة أيضا ما يخرج منهم من الحديد وأغلب المجلوب لهم الحبوب لان ما يخرج منها عندهم غير كاف لهم وتجد في أفراد الانكليز الغنى الذي لا يوجد في غيرهم كما يوجد فيهم الفقر المدقع بكثرة وقد انعقدت في خصوص لندره شركات للتجارة والزراعة ٢١٠٣٥ شركة أفلس منها ٤١٢ شركة رأس مالها ٥٠٠ مليون فرنك وذلك في خصوص سنة واحدة وهي سنة ١٨٨١

﴿مطلب في الاحكام بانكلاتيره﴾ قد مرت أصول الاحكام الشخصية عندهم في مبحث السياسة الداخلية وانما اقول هنا أن قضاة الانكليز يضرب بهم المثل في أوربا في العفة وعدم الميل الى الاغراض ولو في متعلقات دولتهم وهناك مدن يقيم فيها القاضي ومدن تذهب اليها القضاة في أوقات معلومة من السنة فتعرض عليهم النوازل المهيآت لهم من حكام الجهات والاحكام الثقيلة انما تصدر من القضاة بحضور الجوري وقد تقدم الكلام عليه غير أن جوري الانكليز يختص بانه على قسمين فالاحكام الخطيرة جوريها يتألف من فقهائهم وأعيانهم ولكل منهم اجرة على كل نازلة والاحكام الحقيرة جوريها من السوقة وأصحاب الحرف مثل فرانسا ويزيد جوري الانكليز بجور عظيم على نفس الجوري فان للقاضي توقيفهم في محل منفرد بمكان الحكم حتى يقع اجماعهم على رأى واحد من غير أكل ولا شرب واذا وجد مع أحدهم شيئا من مواد المعاش غرم مالا وهذا من عجائب الاحكام اذ كيف يلزم اتفاق آراء عديدة على قول واحد دائما أو ينصبون على ذلك عوضا أن يكون ذلك وسيلة للعدل ربما كان واسطة للجور كما انهم صاروا يستحسنون تعويض الحكم بالاعمال الشاقة عن القتل مهما أمكن وذلك جالب لزيادة الشر كما صرحت به صحفهم المنصفة وكذلك صاروا لا يحكمون بحبس المدين وانما على الدائن اثبات ما بقى له والحكم يوصله به ومن أحكامهم المبنية على العادات القديمة تغريقهم للوطي في وعاء من العذرة الى أن يموت وهو من أشد الشناعات عندهم ومع ذلك فهو فاش في كثير منهم سيما العساكر البحرية وقد وقع عندهم منذ عهد قريب أن أحد الملاهي وجد فيه لاعبات جميلات جدا فدعاهن مترفوهم واختلوا بهن وبعد

مدة

مدة مديدة اكتشفت الحرس على أنهن في الواقع غلمان فشدد البحث عن حالهم فوجدوا بحكم الاطباء انهم مفعول بهم كثيرا لكن حكم فيهم أشد حكم ولم تتبع الجزئيات لكي لا يقع الافتضاح لبعض العلية وقد ابتنى على عدم حصر أحكامهم في مرجع واحد طول مدة الحكم وكثرة المصاريف عليها أزيد مما يوجد من الطول في محاكم أوربا التي تطول فيها النوازل جدا ومن أحكامهم اباحة الزنى بالتراضي مثل ما في غيرهم لكن يمكن أن يقال نساء عليتهم أعف من غيرهن في الممالك الاخرى ونساء أواسط الفرانسيس على ذلك النحو وما عدا هؤلاء فلا ترد احداهن تعريضا لا ماقل بل وربما فاتحت هي الرجل

﴿مطلب في المعارف بانكلاتيره﴾ لا خفاء أن امتداد الثروة مبني على كل من العدل والعلم فعلى قدر ارتقاء ذلك تنمو الثروة وما تقدم من اجمال حال ثروتهم دال على حالة المعارف عندهم وأصول المعارف هي الموجودة بغيرها من الممالك السابقة وتنقسم تعاليمها الى التقاسيم الموجودة في فرانسا وأعظم المدن التي توجد اليها مزجيات الارتحال لاقامة التلامذة بمدارسها هي مدينة كمبريج واكسفورد وأكثر أبناء الاغنياء يقيمون بهاته المدارس ولهذا كان كل من البلدين غالي الاسعار اذ أغلب التلامذة يقضون أوقاتهم في التلهي والتفاخر والوسيلة اسم التعلم وقل ما يبرع أبناء الاغنياء في العلوم لكن على كل حال لا يوجد فيهم الجهل المطبق ومما اختصت به انكلاتيره وجود جمعية ديانية لنشر مذهبهم البروتستانتي وانفاق النفقات الباهظة على ارسال الرسل لتنصير الناس في أقسام الارض وحماية دولتهم وراءهم فيغرون الناس بالمال وبالمباحثات الدينية وبفتح المدارس لتعليم العلوم ودرس العقائد فيها وقد بذلوا استطاعتهم في الهند لتبديل عقائد أهله وحصلت مع المسلمين مباحثات شهيرة وكان الانتصار فيها ولله الحمد للمسلمين حتى انه أسلم بسببها كثير من المجوس بل في هاته المدة أسلم أربعة قسوس من الذين تصدوا للنزاع والجدل بسبب صدق الديانة الاسلامية ورسوخ العلماء هناك وتبحرهم في العلوم ثم ان أسباب تيسير نشر المعارف في انكلاتيره كثيرة سهلة المناولة فقد حرر وافي سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨١ م انه يوجد بلندره وحدها ٨٧١ مطبعة و ١٦ معملا لصنع المكابس التي تشغلها الايدي فضلا عن معامل مكابس البخار (وتسعة) معامل لآلات اعطاء الحبر للحروف و ٣٢ معملا لصنع مكايس المطابع الحجرية و ٢٢ معملا لسبك الاحرف ولوازمها وكل مدينة فيها من المطابع والمكاتب

مايناسبها وعدد المكتبات التي بانكلاتيره ٢٠٠ مكتبة فيها من الكتب المطبوعة
٢٨٧١٤٨٣ ومن الكتب التي بالخط ٢٦٠٠٠ وأعظم هاته المكاتب مكتبة لندرة
الكبرى وهي ثانية لمكتبة الامة في باريس ومن أهم وسائط المعارف والتجارة والحرية
عندهم الصحف الخبرية وهي على أنواع في الموضوع فمنها الخاص ببعض فنون علمية
كالطب والكيميا وغيرها والبعض عام في الفنون والبعض جامع للسياسة والفنون
والتجارة وأهم صحيفة من هذا النوع صحيفة التيمس وكان أول انتشارها غرة كانون
ثاني سنة ١٢٠٣ هـ ١٧٨٨ م وكانت لرجل خاص ثم صارت ذات اسهم للمشتركين ولم
يزل يفيد منشيها حصص منها وصارت لها آلة تطبع منها ستين ألف نسخة في الساعة
الواحدة تمم طبعها على نحو كتاب ذي ثمان صفحات أو ستة عشرة صفحة والورق
الذي تطبع عليه يؤتى به ملفوفا على نحو اسطوانة فتلقمه الآلة وتخرجه مطبوعا مطويا
وطول كل قطعة من الكاغد قدر ثلاثة أميال انكليزية ويوضع لها من تلك
القطع من الثلاثين الى الاربعين قطعة بحيث لو وصلت ببعضها ممتدة تبلغ مسافة
مائة وعشرين ميلا هذا في طبعة الصباح وحدها وتارة تطبع ثانيا وثالثا ورابعا اذا تكاثرت
الاخبار ولها لخدمة الطبع والانشاء وغيره أربعمائة عامل نصفهم لخدمة النهار
والنصف لخدمة الليل ورئيس المنشئين مرتبه مائة ألف فرنك في السنة وزيادة على
المنشئين الرسميين بالمرتبات كل من أتى بمقالة في أي موضوع كان وحسنت عند المدير
فانه يعطى صاحبها أجرا عليها يبلغ الى الالفي فرنك على المقالة الواحدة وله في سائر
الاقطار مكاتبون بمرتبات وافرة ولهم أعوان وكتاب وادارة مثل سفارة لدولة من الدول
ولهم اذن في صرف كل ما يلزمهم لاخذ الاخبار وايصالها للادارة زيادة على مصاريفهم
الخاصة فيصرفون احيانا على مجرد خبر واحد بسلك الكهرباء ثلاثة آلاف فرنك وازيد
بل ويرشون من يرتشي من موظفي الدول لاعطائهم الاخبار السرية وقد حصلوا في
بعض الدول المهملة على لوائح رسمية قبل وصولها الى السفراء برشوة آلاف من الفرنك
وهؤلاء المكاتبون تقبلهم الوزراء والامراء مثل موظفين ويحاورونهم في المواد السياسية
وعند وقوع حرب فلادارة الصحيفة مكاتبون حاضرون ترسلهم الى ميادين الحرب في
المعسكرين حتى يخبروا بما يكون وتقبلهم رؤساء الحرب بالرحب غير انهم يشترطون
عليهم ان لا يخبروا الا بما يوافقهم فيحصل من الاخبار من الشقين ما يستنتج منه صحة الخبر
وينال هؤلاء المكاتبين من الاخطار ما هو معلوم في الحرب غير انهم يتباعدون عن مواقع

الرمى

الرمى وكثيرا ما يكونون بقرب رئيس العسكر ومن المعلوم ان لا يختار احدهم بذلك الا لكثرة المال فادارة التيمس لها من الدخل والخرج السنوى ما يضاهى دولة من الدول الثانوية مع ان كل نسخة منه لاتباع الا بثلاثين صانتيما أى ثلاثين من مائة من الفرنك الواحد ولو اشترى الورق وحده أبيض لكان أغلى من ذلك لان ورقه هو من معمل خاص به فالربح العظيم انما هو من كثرة الخرج مع كثرة الاعلانات وعدد نسخ كل دفعة نحو من السبعين ألف نسخة وعلى نحو منه فى أصول الادارة صحف أوروبا الشهيرة كلها

* ﴿مطلب فى الصنائع فى انكلاتيره﴾ اما الفلاحة فهى مترقية للغاية وأكثر ما يستنبت هو القمح والشعير والبطاطس وشجرة الدينار التى تستعمل منها السكركة أى البيرة وكل المستنبتات لا تكفى حاجة الاهالى فيجلبون من الخارج كثيرا الا شجرة الدينار وبقية الصنائع فاعظمها اعمال آلات الحديد بانواعها والسفن والمنسوجات القطنية ولهم فيها مهارة على سائر الممالك حتى صارت أرخص عندهم من غيرهم ثم المنسوجات الصوفية لاسيما المتخرجة من صوفهم الرفيعة المشابهة للحرير وبقية الصنائع هى دون ما فى فرانسا فى الحسن والرونق لكن جميع مصنوعاتهم متينة

* ﴿مطلب فى هيئة المساكن فى انكلاتيره﴾ المساكن فى انكلاتيره على خلاف الممالك المتقدم ذكرها فان هيئة البناء من خارج على نحو ما فى الاستانة من خروج جهات من الدار ودخول أخرى وكذلك الطواقى تنفتح أبوابها بالرفع الى فوق مع كونها غير كبيرة مثل ما فى بقية أوروبا وكذلك الديار كل منها لا يسكن الا عائلة واحدة ولا تزيد طبقاتها على ثلاث والبناء كله من الآجر والسقوف والدرج من خشب متقن الصنعة والالصاق ببعضه ومن أحسن ما عندهم هيئة الكنف واتساعها ونظافتها وان كانوا يجلسون عليها جلوسا فما تقدم فى الابنية هو الغالب والقليل مثل بقية بقية الممالك السابقة ثم ان منازل المسافرين هى أيضا مثل الممالك السابقة غير ان أكثر الواردين انما يسكنون فى ديار منفردة يجدها الانسان حاضرة بجميع لوازمها وينفق فى أكله على حسب ارادته والذى يقوم له بلوازمه هو صاحب المحل فيسأله عن مقدار ما يريد يصرف يوميا وعن اجمال وقت أكله وما هو مشتهاه منه فيصرف له على نحو ما يريد وتخدمه خوادم المحل الذين هم فى الاغلب من البنات الجميلات ومن أراد كراء بيت واحد فله ذلك وهذا الطريق أرفق بكثير من السكنى فى منازل المسافرين لانها فى انكلاتيره غالية جدا كانها

معدة لارباب الترف خاصة ثم ان حارات السكنى لا تجد فيها حوانيت للسلع أو غيرها من
اللوازم بل ذلك من عيب المسكن عندهم والطرق التى بها الاسواق وحوانيت الباعة
لا تسكن الا للاراذل بحيث يصح ان يقال ان عاداتهم فى المسكن قريبة كثيرا من عادات
المسلمين فى انفراد العائلات وحماية الديار من التطرق وشدة النظافة فى داخل الديار
تنظيمها كل على قدر سعته أما الفرش والاثاث فهو على نحو ما تقدم فى الممالك السابقة
من أوربا ومواقد الانكليز فى البيوت أتقن من غيرهم وتلزمهم نفقة تضاهى نفقات
المعيشة لشدة البرد وطول مدته ولما رأيت ان بلدانهم كادت أن تكون كلها من الآجر
* زال تعجبى مما رأيته من كثرة معامله فى الطريق (أما الطرق) فى انكلاتيره فهى
دون غيرها من ممالك اوروبا المتقدمة فى الذكر من جهة النظافة والاعتناء بتنظيمها
حتى انى رأيت فى ذات لندره طريقا لا يسع الا عجلة واحدة لا تكاد العجلة تتحرك فيه من
كثرة ما فيه من الوحل والطين مع كونه كثير المرور فيه (وهكذا) سائر الطرقات كثيرة
الوحل قليلة النظافة سيما وقت نزول المطر الذى لا يكاد ينقطع ولهذا شرعوا فى عمل
تبليط الطرق بقطع الخشب لانها أنظف (وأما تنوير الطرق) فهو على نحو ما فى سائر أوروبا
لكن القرى الصغيرة فى بلاد الانكليز هى اسوأ حالا من غيرها اذ كثير منها لا تجد
فيه حانوتا لبيع شئ الا نادرا من بيع ما لا بد منه من عوز كفى بما ذكره الشيخ أحمد
فارس فى صفتهم فى هذا الصدد حتى يكادوا يلحقوا بالوحشيين نعم ان طرق
* الحديد والترع والسفن هى هنا أكثر وأمتن من غيرها ومن الابنية المعتنى
بها السجن فهو عندهم بل وعند سائر أوروبا منقسم على أنواع على حسب الجنايات
وحسب الايقاف والحكم فمحل الايقاف للمتهم حتى يثبت عليه الحكم أشبه بنزه منه
بسجن ثم يتدرج الامر الى الجنايات الشديدة فيحبس الجانى فى بيت منفرد يدخل له
الضوء من أعلى و يتجدد به الهواء و يعطى شغلا عمليا وفراشا نظيفا يدفع الحر والبرد وأكلا
سليما من طعام واحد و يخرج فى وقت معلوم للتمشى فى البستان الذى حول السجن
لكنه يمنع من الكلام مع غيره مطلقا فان خالف الاوامر سجن فى محل مظلم بطال
واذا مرض عولج بالطبيب والدواء فحبرتهم سجن لا مقتل
* (مطلب فى اللبس فى انكلاتيره) لبس الانكليز مثل لبس الفرانسيس بل
والشابات المترفات ميال فى التقليد على الفرانساويات وهم يؤثرون مصنوعات
الفرانساويين عن مصنوعاتهم فى اللبس ولبس العساكر أحسن من لبس عساكر غيرهم

نظافة وشكلا وان كان على نحو واحد ولما كانت الابخرة والدخان والضباب
فى انكلاتيره تتكاثر جدا كانت الثياب البيض كالقمصان تحتاج الى التغيير بكثرة
محافظة على النظافة فاحتاجوا الى جعل رقبة القميص ورؤس يديه وصدره مفصولة عن
القميص وتمسك به بواسطة زرر حتى لا يلزم تغيير جميع القميص بل مجرد وسخ ما يظهر
منه عدة مرار فى اليوم وهذا وان كان موجودا فى سائر اوربا على السواء عند اواسط
الناس لكن الذى خصت به انكلاتيره هو جعل تلك القطع من ورق ثخين ابيض
متين وجدوا ثمنه وان كان لا يصلح لازيد من لبسة واحدة ارفق من ثمن الكتان مع
دوامه لما يحتاج اليه من كثرة غسل الصابون والنشاء والتمليس بالحديد المحمى
(مطلب فى الاكل فى انكلاتيره) الانكليز اكثر اكلا من غيرهم حتى ان المقلل
منهم لعددها يأكل اربع مرات فى اليوم صباحا وقبل الظهر وفى الساعة السادسة بعد
الظهر وقبل النوم والاخيرة هى الخالية عن المطبوخ ومنهم من يأكل ثمان مرات
فى اليوم واكلهم على العموم بسيط اذ هو شوربة ولحم خالص مقلى او مشوى او مسلوق
وبطاطس مسلوقة فى الماء ليس الا ولا يضعون فى الطعام شيئا من التوابل بل يأتون
بها فى اوانى امام الآكل يأخذ منها أغضه بدون طبخ بل حتى الملح كذلك عند بعضهم ومن
هاته التوابل الحريفة كثيرا كالفلفل وغيره مما يستعمله الهنود ويأتون الى موائدهم
بقطع كبيرة من الجبن وهو الذى جبن رايته كما ان اللحم ايضا يأتون به قطعا كبيرة جدا
بحيث يأتون بفخذ بقرة صغيرة كله قطعة واحدة كما انهم اكثر اكلا للخنزير من غيرهم
ممن رايت والمترفون منهم والمطاعم الشهيرة العامة يأتون بطباخين فرانساويين وقد
رايت باحدى المطاعم بلندره (قسما) لاكل الانكليز (وقسما) لاكل المشرقيين
(وقسما) لاكل الفرنساويين فيختار الآكل الجهة التى يريدها وكان الداعى لبساطة
اكلهم ولو عند الاغنياء كثرة الغش فى المأكولات بحيث لا تكاد تجد خبزا من دقيق
الحنطة حقيقة بل هو وفيه انواع شتى تركب باتقان حتى لا يفرق بينها وبين الاصل الا
بعمليات كيماوية وكذلك الزبدة فما هى الا شحم حيوانات تركب مع اجزاء باعمال
كيماوية حتى تصير مثل الزبدة (وهكذا) سائر الاشياء الا اللحم وقد ذكر فى كشف المخبا
ما يتعجب منه من خلط المأكولات وغشها وجهل العموم بانواع الطبخ وهم كثيروا الشرب
للمسكرات الروحية وكذلك المسكر كذا اى البيرة لشدة البرد وقلة الخمر وذلك لانه حيث
لا ينبت بارضهم العنب ويخلطون البيرة بورق التبغ حتى تصير شديدة التأثير ويكثرون

منها حتى يغمى عليهم بل ان أيام الاحد ترى النساء والرجال سكرى على الطرق ماقون ويتفوهون بالفحش وبعضهم احيانا يموت من كثرة السكر وأهل اليسار يشربون الشاى بكثرة سيما فى السمر ليلا ويدعو الاحبة بعضهم اليه ويختلفون لشربه ويجعلون فى أقداح الشرب قطعا من الليمون الحامض أو يخلطونه بشئ من اللبن ويأكلون معه شيئا من الخبز والزبدة وغير ذلك من المآكل الخفيفة لكنهم لا يضعون فيه العنبر أو غيره مما تصنعه المغاربة والمشارقة وأكثر طبخهم فى الاوانى من الحديد لا النحاس لانه اذا لم يبيض دائما ينشأ منه الصدى القتال ولذا صار أغلب أروبا انما يطبخ فى أوانى الحديد أو النحاس التى يجعل داخلها مطليا بنوع من الخزف بحيث لا يمس النحاس الطعام ومن

عاداتهم فى الاكل أكل اللحم النتن سيما فى بعض الطيور حتى يصير الطير يكاد يتحرك من الدود الذى نشأ فيه واذا أدخل الى بيت الاكل زكمت أنوف حتى الكلاب من قبح نتن رائحته وهم يستلذونه على ذلك مثل سودان افريقية ومن القواعد الجارية فى عموم أروبا ان لحم البقر لا يؤكل الا بعد يوم من ذبحه فى الاقل ومثله الطيور ولعمرى ان هذا حسن من جهة تليين اللحم وقابليته للطبخ واللذة سيما فى البلاد الباردة لكن لا يصل الحد به الى حدوث أدنى رائحة به فان هذا مضر بالصحة فضلا عن استقذاره (أما لحم الغنم) وما شاكله فيؤكل فى يومه وهو لذيذ لكنهم ممنوعون من لذة أكل الخروف الصغير اذ الحكم يمنع ذبح الشاة دون سن العامين لاجل الاقتصاد بكثرة اللحم لان الشاة اذا كبر حجمها كفت أضعاف أضعافها وهى صغيرة نعم من اراد ذلك فله ذبح خروف بخصوصه ويؤدى عليه أداء زائدا للحكومة بحيث لا يوجد الا بالاعتناء

﴿مطلب فى المواكب فى انكلاتيره﴾ المواكب عند الانكليز هى رأس السنة والاعياد الدينية واجمالها مثل ما تقدم فى غيرهم غير انهم عند تهنئتهم للملكة يلبس الكبراء ذلك الشعر الابيض العارية ويقبلون يدها على ظهر الكف ومنهم من يقعد عند ذلك على ركبة ورجل وتقبيل يد الملكات جار عند غيرهم أيضا وزوجة الملك تعامل معاملة الملكة فى ذلك بل وبعض الممالك مثل المانيا النمسا كرفيها يقبلون يد الملك أيضا ومن المواكب الشهيرة فى لندره يوم دخول صاحب الملك المدينة رسميا متوجها الكنيسة مار بولس متشكرا على ظفر أو لافتتاح بناء مهم عام فحينئذ يأتى راكبا الى البلاد ولا يدخل الا من باب تنبل بار وهو فى أول طريق السيتى الشهير فيغلق الباب فى وجهه شيخ المدينة فيقدم الملك الى أن يصل للباب فيقرع أحد كبراء

أتباعه في بوق ويدق آخر الباب وتقع مخاطبة بينه وبين شيخ المدينة ثم يفتح الشيخ الباب ويقدم للملك سيف البلاد فيأخذه منه ثم يرجعه عليه ثم يسير الشيخ في ركابه الى أن يصل الى مقصده مع الاحتفال التام وكمال الازدحام ومن المواكب المشهورة يوم تولية شيخ المدينة في كل سنة في شهر تشرين ثاني فانه يعمل في الطرق حواجز لمنع مرور العجلات وتغص الطرق بالخلائق فيخرج الشيخ من قصر كلدهال في موكب حافل ويركب عجلة مؤنقة ذات قيمة بليغة تجرها أفراس ويركب معه قاضي القضاة والكل باللباس الرسمي وتوضع أمامه آلات الحرث على عجلة مزينة بما تنبته الارض وعلى عجلة أخرى سفينة ذات شراع تجرها ستة أفراس أيضا وتنتشر في الطرق الشرط وتمشي أمامه وتقف حول طريقه فرق عديدة منهم بعضها يعزف بآلات الطرب وبعضها ينفخ في ابواق وبعضها يحمل رايات مختلفة الالوان وبعضهم متدرع بالدروع العتيقة وفي موكبه جميع أصحاب الرتب العالية وشيخ المدينة المعزول ويلاقيه في الطريق وزراء الدولة وأعضاء المجالس والندوة وسفراء الدول وعند استقراره بالقصر الخاص به يدعو جميع الاعيان لوليمة فاخرة تشتمل على ٢٦٣٧ صحن مع زينة المائدة باواني الذهب والفضة ويجعل أمامه صحن به سمك صغير من سمك نهر التمس ويكون ذلك اليوم يوما مشهودا وذلك الشيخ من أعظم رجال الدولة مع أنه يمكن ان يكون سوقيا أو نفرا عسكريا على حسب ما ينتخبه المجلس البلدي وبقاؤه سنة فقط ومرتبه نحو عشرة آلاف ابره لا يستنفع منها لذاته بشيء اذ كلها تصرف في أهبة المنصب ولائقه

* ﴿مطلب في اللغة في انكلاتيره﴾ اللغة الانكليزية مستحدثة متولدة من اللسان التودسكي القديم وهي لغة ضيقة سهلة التعلم يؤدون المعاني كلها بها بالتركيب وقد اشتهرت جدا في أمريكا والهند حتى صار عدد من يتكلم بها ثمانون مليونا عدا من يعرفها وليس يستعمل لها لغة له وكأنها لغة حلقية لان أغلب أحرفها حلق ولا تساعد على انشاد الشعر والغناء الا بكلفة كبيرة

فرنك	
٠٠٠ ٠٠٠ ٧٥٠ ٢	دخل الدولة الانكليزية عدا حكومة الهند والخرج مثله سنة ١٨٨١ نحو
٠٠ ٠٠٠ ٦٣٠ ١	دخل حكومة الهند والخرج مثله
٠٠٠ ١٦٠ ٠	عساكر برية تحت السلاح
٠٠٠ ٣٥٠ ٠	عساكر الهند تحت السلاح
٠٠٠ ٠٦٥ ٠٦ ٠	عساكر بحرية وليس لاهند منها شئ في وقت الحرب في الخارج تحضر بالاجرة كما ثم يدوعند الهجوم عليها فاهلها كلهم محاربون
٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ١٠	قوة التجارة المالية نحوا
٠٢٠ ٥٣٨	عدد السفن الشراعية الحاملة للراية الانكليزية
٠٠٥ ٠٢٧	عدد البواخر الحاملة للراية الانكليزية
٠٠٧ ٢٩٤	عدد المعامل ذوات الآلات لسائر المصنوعات في برنيطانية
٠٠٠ ٠١٨	امتداد سكك الحديد أما الاحمال من الركاب في سنة واحدة ستة ملايين
٠٠٠ ٠٦١	عدد البواخر المدرعة العاملة والاحتياطية
٠٠٠ ٣٦٠	حمولتها طونولاته وكل طونولاته عشرون قنطارا ومدافعها على حساب المعدل الواحد طونولاته ٣٧

الباب السابع ❁ في جزيرة مالطه

﴿الفصل الاول في سفري اليها﴾

لما رجعت من فرانسا الى تونس في أواسط رمضان سنة ١٢٩٦ ووجدت انقلاب الاحوال فيها باستيلاء فرانسا عليها اقدنشم ولم تفد نصائحي الى وزير تونس مصطفى بن اسماعيل بل رأيته أصر على الشر حتى أوعزالي بعض الصادقين بعزمه على البطش بي ولو أفضى الى القتل معتضدا بوستان قنسل فرانسا اذ ذاك خشية من فشو ما اطلعت عليه من عزمهم وحصول التعطيل لهم حسبما سبقت الاشارة الى طرف منه في ذيل تسلط فرانسا على تونس وفي اسباب سفري ولم نجد مخلصا الا التقاص برأيي وطلبت من ذلك

الوزير

الوزير كتابة اعفائى من الوظائف منه لا بحالة بدنى فاجابنى كتابة بالمنع فطلبت الاذن
بالتوجه الى الحج فمنعنى اولا فاستجرت اليه بمن لم يسعه الا قبول جاهه فاذن لى قائما
بالاستراحة منى وشافهنى الوالى عند وداعه بما يشف عن غيظه الذى ملأ به وزيره
صدره فانقذنى الله من شرهم واخذت ورقة الجواز وسافرت اواسط شوال من تلك
السنة الى الحج على طريق مالطة بحرا فوصلت اليها بعد سير الباخرة البريدية نحوا من يوم
فاذا هى جبال قحلة ترى فيها حيطان من الحجر مرصوفا منتشرة على تلك الجبال ومرساها
من أعظم مراسى البحر الابيض اتقانا وصناعة وتحصينا واقعة على الجهة الشرقية من
شاطئ بلد فاليتا التى هى قاعدة الجزيرة فصعد الى الباخرة السماسرة لمنازل المسافرين
واتفقت مع سمسار المنزل المسمى أوتيل دى باريس على أن يكون سعر اليوم والليلة فيه
عشرة فرنكات سكنا وأكلا لى ولتابعى والسكنى فى حجرتين والاكل مرتين لانهم يسألون عن
كمية الاكلات لما تأنسوا به من كثرة أكلات الانكليز فدخلنا الى البلاد ولم يطلب الكمرك
الا الاداء على المأكولات وذلك لان السفر الى الحرمين يلزم فيه قطع برارى ليس فيها مرافق
فاحضرت معى من المأكولات التى تدخر ما لا نجده فى البلدان التى نمر عليها ومع ذلك
كنت خففت ما استطعت ولم نعمل باشارة بعض الاحباء من حمل كثير من اللوازم ظنا منى
انى أجدها فى البلدان القريبة هنالك وكان الامر على ما قالوا كما سيأتى فى محله ان شاء الله
ولما كانت مالطة مرسى حرة لما يأتى فى سياستها لم يكن فيها اداء على شئ سوى المأكولات
التى تؤدى الى المجلس البلدى لمصالح البلاد وحيث كنت لا احتاج الى تلك الاشياء فى مالطة
أبقيتها موثقة فى الكمرك واخذت فيها حجة لكى لا نؤدى عليها شيئا وبعد الاستراحة
بالمنزل نظرت فاذا بالطبقة السفلى ملآنة بصناديق مكسوة بالجلد الجميل ومسامير النحاس
ومعها بعض خدم وحشم والطبقة العليا فيها عائلة من المسلمين ومعهم رجل ممن اتخذ
السخرية صناعة له فقدم الى وحادثنى بكلمات بعضها عربى وبعضها تركى ولم أكن
اذ ذاك أفهم التركى فاعلمته بانى لم أفهم فعدل الى العربى وأعلمنى انه من حاشية أحد
الكتبة بطرابلس الغرب من متوظفى الترك وانه أرسل الى الاتيان بعائلته من الاستانة
فصحبها هو مع بقية الخدم وذكر فى حديثه مقدار مرتب متبوعه فظننت انه هازل فحقق لى
المقدار فاذا هو لا يبلغ مائتى فرنك فى الشهر فتعجبت من الامر كيف يكون صاحب تلك
البهرجة مكتفيا بذلك المرتب ويتعب لاجله من الاستانة الى طرابلس الغرب مع شدة
التباين فى الهواء بالحر والبرد مع خلو الوظيفة عن مقام عال حتى يتحمل لصاحبها برغبته فى

الصيت فدل على وجود حج آخر على غير الوجه الرسمى مما يضر بالمملكة والله لطيف حفيظ (وهاته) البلاد أعنى فاليتا قاعدة مالطة متصاعدة فى جبل حتى ان أغلب طرقها يصعد فيها بدرج وبها طرق رحيبة للعجلات أحسنها واحد يمر من الشمال الى الجنوب خارق البلد الى طرفيها وبعضه مبلط بالخشب لمجرد تقليد بلاد لندره والا فلا باعث عليه لا من جهة الوسخ المتسبب عن عدم انقطاع الامطار ولا من جهة قرقعة العجلات المتكاثرة ولا من جهة رخص الاخشاب اذ مالطة على خلاف ذلك كله وهى على نوع البلاد الاوروباوية المتوسطة فى الكبر والحسن غير انها متقنة نظافة الطرقات وان كان أهلها يبولون ليلا فى الطرقات لكنهم يغسلون محلات البول كل يوم وبها قصر الحاكم وفيه آثار عتيقة على قدر حالة البلاد وليس منها ما يذكر الا مدافع من أول نوع اخترع وهى ورقات من نحاس معصبة بحبال ثم ملفوف عليها جلد غليظ مطلى بالقطران طول كل مدفع ثمانية أشبار وقطر داخله سبع عقد وبقية ما فى البلاد ليس منه ما يفرد بالذكر غير انها حاوية لانموذج ما فى المدن الحسنة مما يرجع الى التحسين على نحو ما فى أوروبا فلا نطيل باعادته (أما فى التحصين) فهى من أول أقسام المراسى والبلدان الحصينة بما حولها من الحصون المعمرة بالمدافع الضخام جدا مع الكثرة وجعلها طبقة فوق أخرى لما ساعد على ذلك من الجبل فهى حصون منحوتة فيه لا تخربها القنابر ولو من أعظم المدافع بحيث يصح أن يقال انها لا يمكن للهاجم اقتحامها وأخذها الا بالحصار لاحتياجها الى القوت من خارج ثم يلزم طول مدة الحصار لانها مركز متوسط فى البحر الابيض فتجيئ اليها التجارة من البحر الاسود وغيره ويخزن فيها من الحبوب وغيرها ما يكفى أهلها عدة سنين كما انها تشتمل مرساها على معمل مهم للسفن واصلاحها محتوية خزائنه على كل المواد اللازمة لها وبها مرسى أخرى تسمى مرسى موشيط وكأنها محرفة عن مرسى الشط وهى مرسى الكرنتينة أى مكان اقامة الواردين من البلاد المصابة بالامراض المستوبية وهى دون الاولى وحولها مساكن مقسمة على أقسام على وجه يمكن به الاحتراس من مخالطة السكان بعضهم ببعض وهى مساكن لا بأس بها كما يوجد خارج البلد مقبرة اسلامية محوطة بسور لها باب مغلق مفتاحه عند امام الجامع وهو جامع ظريف والامام يقيم هنالك والقائم بالجميع الدولة العثمانية لكثرة ورود المسلمين الى هنالك حجاجا وتجارا من المشرق والمغرب فاقيم ذلك الامام للصلاة بالجامع وعلى من يموت لكنه عوضا عن سلوكه مسالك الديانة كان مقيما على الخنا والجامع معطل ولله عاقبة

الامور

الامور وعند مروري على حوانيتها وجدت بها أسرة من حديد صغارا خفيفة تطاق حتى يصير الواحد فى طول ذراع وغلظ سبع عقد ويباع فى المكان الثمن الذى يفرش على ظهره للنوم عليه فأخذت منها اثنين للرحلة فى الحجاز وفتشت على معمل صغير يمكن حمله بسهولة للثلج فلم أجده هناك ولا وجدت شيأ يحتمل أنى لا أجده فى غيرها فاكتفيت بذلك وسافرت منها بعد الاقامة بها ثلاثة أيام راكبا باخرة تجارية انكليزية متوجها الى اسكندرية

الفصل الثانى

﴿ فى التعريف بمالطة ﴾

تسمى هذا الاسم ثلاث جزر واقعة فى البحر الابيض على دقيقة ٤٥ درجة ٣٥ من العرض الشمالى الى دقيقة ٤٤ درجة ٣٣ من الطول الشرقى الجزيرة الاولى تسمى فاليتا وبها خمسة عشر قرية أكبرها فاليتا التى هى القاعدة والجزيرة الثانية تسمى (أدوج) بها ستة عشر قرية والجزيرة الثالثة تسمى كمونة ويقربها أخرى تسمى فلفلة صغيرتان ليس بهما سكان وانما يقدم اليهما أهل الجزيرتين الاخريين للفلاحة بهما واختلف الجغرافيون فى الحاق مالطة فمنهم من جعلها من أفريقية ومنهم من جعلها من أروبا فالقريبة الكل منهما (وكل هاتيه) الجزائر جبال صخرية غيران حجرها لين سهل النحت فاذا جف بالشمس تصلب نوعا ما فارضها غير جيدة لكن لشدة العمل والمعالجة صارت صالحة لزراعة كل النباتات التى بالبلاد الحارة (وأما جبالها) فليست مرتفعة وليس بها بالكلى وليس بها نهر الا ما يحدث عند المطر من السيول وليس بها بحيرة (وأما عيونها) فتوجد بها عينان ضعيفتان (احداهما) بالجزيرة الاولى (والثانية) بالثانية ماؤهما عذب مشوب بشئ يسير من الملوحة وأكثر شرب أهلها من ماء المطر المخزون فى دهاليز وجرار (وأما هواؤها) فهو أميل للحرارة لقربها من المنطقة الحارة وتحدث فيها الاهوية فجأة بامطار كافواه القرب مع رعود وبروق هائلة رتنكشف بسرعة ويحدث ذلك بها اولوسيفا الا انه بقلة فيه وأما فى الخريف والشتاء فهو كثير الهواء حريف مضر بالصدر كثير الندى حتى يفسد المأكولات وغيرها المخزونة فى أماكن قليلة تغير الهواء (وأما نباتها) فينبت بها سائر البقول وهى جيدة والقمح والشعير وغيرهما من الحبوب ويحصل فيها خصب متوسط كما ينبت بها القطن والعنب والرمان والليمون وغير

ذلك من الاشجار التى تتحمل الحر ولا تحتاج الى كثرة الماء ولذلك لم يكن بها غابات وما ينبت فيها من الشجر لا يرتفع على وجه الارض الا يسيرا فترى الخرنوب الذى يكون فى تونس الواحدة منه مثل قبضة شاهقة هو فى مالطة لاصق بالارض لا يكاد يبين (وهكذا) سائر الاشجار ويعظم بها الصبار جدا (واما حيواناتها) ففيها المعز الحسن كثير الحلب وبقية النعم يجلب لها من خارج ويعلف علفا الا قليلا من الرعى لعدم المرعى وبها الحمير بكثرة والبغال والخيل بقلة (أما الحيوانات) الوحشية فليس بها الا الارانب ومنها نوع انسى يعظم ويربى والسباع منقطعة والطيور الانسية كلها مرباة عندهم ويوجد بكثرة العصفور الاصفر الحسن الصوت المسمى بالكانالو والبرية قليلة الا بعض الرحالة كالسمان (وأما المعادن) فليس بها الا الحجر ويصنعون الملح عند شاطئ البحر بعملية صناعية (وأما مدنها) فهى قاعدتها المسماة بفاليتا والبقية قرى مجموعها أحدى وثلاثون قرية أهم ما فيها الكنائس (وأما مراسيها) فقد تقدم ان بها مرستين عظيمتين جدا وما عداها فانما هو مراسى طبيعية حول القرى للقوارب وماشا كلها (وأما أهلها) فعددهم مائة وخمسون الفا كلهم مالطيون وبينهم قليل من اطليان تجارا ومن الانكليز عسكرا وبعض متوظفين ومن العرب افراد اتجارا أو مجتازين وأصل الاهالى على غالب الظن من بربر تونس وديانتهم نصرانية على مذهب الكاتوليك ولهم غلو شديد وانهماك فى اعتقاد خرافات

الفصل * الثالث

﴿ فى تاريخ مالطه ﴾

﴿مطلب فى التاريخ القديم﴾ أول من سكن هاته الجزيرة الفنيقيون وسموها اجاجية ثم عمرها اليونانيون وسموها مالينة واشتهرت بذلك من قبل التاريخ المسيحى سنة ٨٢٢ ولم تزل ولايات المستولين على ايطاليا تتوالى عليها ثم سلموها للقرطاجنيين ثم رجعت للرومان ثم ألحقت بالدولة الشرقية ولما ظلموا الاهالى واشتدت وطأتهم استغاثوا بالمسلمين فافتتحها المسلمون بعبورهم البحر من تونس اليها والى صقلية فى المائة الثالثة هجرية ولاقوا من أهلها أحيانا ثورات شديدة الى ان تم الاستيلاء عليها ونقلوا اسمها الى مالطة المعروف الآن وكأنه مصحف من الاسم اليونانى السابق وبقيت بأيدى المسلمين نيفا ومائتى سنة ثم لحقت بصقلية تحت عائلة النورمان ثم التحقت بمملكة

الثمسا المالقية اذ ذاك امبراطورية جرمانيا ثم ألحقت بفرانسا ثم بنابلى ثم استولى عليها نابليون الاول وألحقها بفرانسا ثم عند حرب الدولة العثمانية لفرانسا فى مصر وتحزب الانكلاتيره للدولة العثمانية استولت انكلاتيره على مالطة

﴿مطلب فى تاريخ مالطة الجديد﴾ لما أساء الفرنساويون الى أهل الجزيرة بانتهاك عوائدهم وكذا أسيروا ثاروا عليهم ثورة شديدة واستنجدوا الانكليز فاعانوهم وسلموا الحكم اليهم وكان ذلك فى سنة ١٨٠٠ ولم تزل حكومة الانكليز مستقرة هنالك وأغلب الاهالى مائلون اليهم عن طيب نفس

﴿مطلب فى سياسة مالطة الداخلية﴾ الحكومة انكليزية بمعنى ان الحصون والقشل بيد عساكر انكليزية والحاكم العام انكليزى مراع للاهالى وعوائدهم حتى انه يتحرى لهم أحيانا و يرسل لهم حاكما على مذهب الكاثوليك من أهالى ارلاند وقد وقع ذلك مرة عندما تعرض أحد الحكام البروتستانت لعادة لهم فى أحد أعيادهم فاشتكوا منه وعزلته دولة انكلاتيره حالا وعوضته بكاثوليكى ولا تزال تراعى لهم ذلك وهو عندها احدى الكبائر لما مر بك من قانونهم وعوائدهم حتى فى التعصب لمذهب البروتستانت وذلك الحاكم يبقى فى وظيفته خمس سنين ثم يبدل بغيره الا أن تطلب الاهالى ابقاءه ثم ان تصرفه مقيد بشورة عشرة من أعيان المالطيين فى كل ما يعود على مصالحهم وحالة بلادهم وكل المتوظفين فى السياسة والاحكام هم من أهل مالطة الا الكاتب الاول للحاكم العام وجميع دخل الحكومة لا تأخذ منه دولة الانكليز ولا دانقا واحدا بل كله يصرف فى مصالح الاهالى وعساكر الدولة تصرف عليهم من خزينتها لا من دخل مالطة والاحكام الجارية هى أصول القانون الانكليزى ممتزجا بما يصلح بالاهالى ومطابقا لعاداتهم حتى ان احترام يوم الاحد الذى يلزم فى انكلاتيره غلق جميع الدكاكين فيه لا ترى منه فى مالطة شيئا فتلخص ان الحكومة شورية قانونية والاحكام الشخصية منفردة عن الادارة العرفية واسم الحكومة الانكليزية وحقيقتها أهلية غير ان أكثر الواردين من الانكليز سواء كانوا متوظفين أوغيرهم يتكبرون كبرا عظيما على الاهالى لاستحقار عاداتهم و بلادهم فأورث ذلك كره رعاع الاهالى لهم وان لم يقدر واحد من الانكليز على ظلم أحقر الاهالى

﴿مطلب فى السياسة الخارجية بمالطه﴾ ليس فى مالطة من سياسة خارجية تعتبر اذ هى لاحقة بانكلاتيره واغا فى قاعدتها قناسل لكل الدول الكبيرة مراعاة لكونها

مأوى متوسط بين المشرق والمغرب فتأوى اليها السفن المارة لكلا الطرفين وليس لاولئك القناسل من شئ سوى قضاء ما يحتاج اليه اتباع دولهم اذ الحكم فى البلاد جار على الجميع سواء من دون دخل لقنسل فالقناسل أشبه بوكلاء تجارية نعم لهم فائدة فى الاعلام بالحوادث السياسية ان حصلت هنالك ولذلك كانت أغلب القناسل هنالك أصحاب وظائف شرف لا وظائف عمل وكثيرهم لا مرتب له وانما يكون من ذوى الثروة يقنع برسم اشارة الحكومة المنسوب اليها على باب داره لمجرد الفخر اذ الافرنج مطلقا سواء كانوا من أهل مالطة أم من غيرهم لهم ولوع زائد بحب الفخر فتراهم يتهافتون على نياشين الافتخار وعلامات الامتياز ولو من دولة صان مارنيو التى هى عبارة عن أربعة آلاف نسمة ليزينوا بها صدورهم فى المواكب أو يثبتوا فى ستراتهم غرات على شكل الوردة ذات ألوان مشيرة الى ما عندهم من علامات الامتياز فاذا دخل الزائر مقابلا لتلك الوردة نال من المزور زيادة المراعاة ولو من جبابرة لندره وطغاة باريس ومن سخافة عقول بعضهم أن يتخذ تلك الاشارات وسيلة للتدجيل على النساء حتى تعشقه للزواج أو غيره بناء على انه من علية الناس وقد نشأ عن هاته الرغبة فى النياشين ان بعض الدول صار لا يعطيها الا بثمن لذات النيشان الذى هو أزيد من قيمته وزيادة على ذلك صار بعض الدول يعين لسفرائه فى الخارج عددا مخصوصا من كل طبقة من النيشان ليبيعه ويستعوض بثمنه عن أخذ مرتب له من دولته وكذلك مرتب اتباع السفارة مع ما يحصل له من رعيته اذا كان مقيما فى مملكة يسوغ فيها تداخل السفراء والقناسل فى الاحكام

﴿مطلب فى بقية عادات المالطيين وأحوالهم﴾ لما تقدم لنا الكلام فى الممالك السابقة على بيان أطوار الاروباويين وعاداتهم فلا داعى الى الاطالة بالاعادة على غير فائدة لان مالطة قطعة من ملحقات أروبا واجمال أطوار أهلها على العموم مثل أطوار سفلة الطليان والاعيان منهم مثل أعيان أروبا سوى انهم يزيدون عليهم بكثرة لبس الخواتيم فى الاصابع ونساؤهم جميعا اذا خرجن فى الطرق يجعلن على رؤسهن رداء أسود مدلى جهة اليسار ويمسكن طرفه الايمن بايديهن وكذلك لغتهم مخالفة لغيرها لانها عربية محرفة جدا مدخول فيها كثير من الالفاظ والاصطلاحات الطليانية

الباب الثامن في الاقطار المصرية

الفصل الاول في سفري اليها

بعد أن أقمت بمالطه ثلاثة أيام ننتظر سفر باخرة توا الى الاسكندرية حيث لم يكن بينهما بواخر بريدية توا وانما البريد يسافر الى ايطاليا او غيرها من جهات المشرق ثم يذهب الى الاسكندرية فيلزم طول مدة السفر فلذلك أتيت باخرة تجارية من بواخر الانكليز التي تتوجه الى هنالك بكثرة فوجدنا واحدة مشحونة بالفحم الحجري أنزلت منه ما أنزلت في مالطه وحملت الباقي الى الاسكندرية والكراء فيها وفي أمثالها أرخص من بواخر البريد لانه راجع الى السفن حيث ان أصحابها ليس لهم الا المحمولات التجارية التي هي موضوع تشغيل السفينة فلم يكن بها الا الطبقة العليا والاخيرة للركاب وليس بها المتوسطة وهما مثل طبقات البريد فركبنا الليلا لان الباخرة عند تمام افراغ شحنها تسافر من غير تأخير ولكنها لم تسافر الا صباحا بعد الشروق وأسفت من ركوبها لما رأيت بها من الوسخ سوى داخل البيت الكبير فانه نظيف ومثله حجرات النوم ومن المعلوم أن الجلوس به دائما مقلق لكنه ما مضى من وقت السفر أربع ساعات الا وقد غسل ظاهر الباخرة غسلا محكما ونشف فصارت من أنظف البواخر والحق أن يقال ان بواخر الانكليز مطلقا أشد نظافة مما يماثلها من غيرها أعني كل نوع بالنسبة الى نوعه وذلك اني كنت رأيت بواخرهم الحربية مجتمعة مع غيرها من البواخر الحربية للدول الكبيرة عند قدومها الى تونس سنة ١٢٨٠ في الثورة العامة فاذا بواخر الانكليز أتقنها نظافة وكذلك البريدية والتجارية ويليهم في ذلك الفرانساويون ثم استمر السير والبحر في غاية السكون وكان معنا من الركاب في الطبقة الاولى اثنان انكليزيان لهما معرفة بالتصوير فكدنا أن لا نمر بشيء الا وصوراه من طير أو سحاب أو سفينة بل وكل من في الباخرة حتى كان فيها في الطبقة الاخيرة على ظهر السفينة أناس من المغرب وآخرون من صفاقس كلهم متوجهون الى الحج وفي كل يوم عند ارادة غسل ظاهر الباخرة يؤمرون بالانتقال من مكان الى آخر مع حمل رحالهم فيكونون في أشد التعب مع الدوار الحاصل لبعضهم بعرض البحر فصوروهم على تلك المشقة والجهد الجهيد ولما نظرت الى حالة هؤلاء الحجاج شاهدت مصداق قول الفقهاء بعدم وجوب الحج على تلك الصورة لانهم لا يصلون وصلاة واحدة مثل فريضة الحج وتركهم للصلاة يأتي من نجاسة أبدانهم من تغوطهم بلا

استنجاء ومن المياه الملقاة عليهم بغسل السفينة ومن عدم وجود مكان للصلاة لانهم يمنعون من تجاوز مكان جلوسهم ومع ذلك يعاملون معاملة الحيوانات البهم من البحريين بالاهانة والسب الى غير ذلك وأيضا يعتري بعضهم الدوار البحري فيبقى في مكانه بل منهم من يتغوط ويبول فيه وتصل نجاسته لمن بجنبه فلما رأيتهم في سوء تلك الحالة ذهبت اليهم وأعلمتهم بالحكم الشرعي في وجوب الحج وشروط الاستطاعة فيه وسألتهم لماذا يعدلون عن ركوب الطبقة الوسطى في بواخر البريد أو في العليا هنا مع أنها ليست بغالية وبعضهم تظهر عليه آثار الثروة فأجابوا بان ذلك العذاب لا ضرر فيه لانه مدخول عليه في السفر الى بيت الله بل مهما ازداد كان ثوابه أكثر وأصروا على ذلك منكرين على قولي فعدلت عن ذلك ولاطفتهم في المحافظة على الصلاة فقالوا كيف نصلي ونحن على هاته الحالة وأين نصلي فقلت لهم انكم مالكية ومذهبكم يرى صحة الصلاة ولو على ما أنتم عليه لان ازالة النجاسة تجب وقيل تستحب فقط مع القدرة والتذكر فقال لي واحد منهم اني أصلي كما رأيتني قلت نعم رأيتك تصلي والآخرون قالوا لو نجد مكانا ويتركوننا نتطهر فاننا نصلي فتلطفت لرئيس الباخرة الى أن أذن لهم في التفسح واستعمال الماء في المرحاض فقط لكن أغلبهم مع ذلك لم يصل وقد سألتهم أيضا عن موجب كثرة رحالهم حتى ان بعضهم رافع جرة كبرى ملفوفة بشرطان الحلفاء ملأى وقربة منها الادام والقديد الى غير ذلك فقالوا ذلك لقوتنا فقلت انكم متوجهون الى مدن ان لم تكن أكبر من مدنكم فهي نحوها ولا بد أن يكون لاهلها ما يكفيهم فهلا وسعكم ما وسعهم وزاد الطريق في البراري يؤخذ من أقرب مدينة اليه فقالوا يلزم لذلك الثمن وهذا الذي عندنا انما هو من بيوتنا فقلت لو بعتم هذا وأضفتم عليه كراء حمله بحرا وبرا لكان أرخص عليكم من شراء الزاد من الاماكن اللازمة فقالوا تلك بلاد لا نعرف أحوالها والاولى التزود من أماكننا وهكذا جرت العادة فعلمت ان تأثير العوائد أمر صعب جدا وفي غروب اليوم الرابع وصلنا الى الاسكندرية ولم يظهر لنا منها شيء لان أرضها منخفضة ولا جبال بها حتى يمكن رؤيتها من بعد وحيث كان وصولنا بعد الغروب ومن الرسوم ان لا تدخل السفن اليها الا بهاد يهديها الطريق حيث كان قرب مرساها صخرات لا تتبين من البحر وتضر بالسفن اذا صادمتها لزم حضور أولئك الهداة ليدلوا السفن على الطريق ولهم على ذلك أداء معين فلزم الباخرة ان تكون طول الليل غادية رائحة في نحو ميلين ولم يظهر لنا من البلد سوى منارة هداية السفن وقرب الشروق ظهر الهادي في قارب قادما للباخرة فاعرض

عنه

عنه السفن محتقرا له وابتدأت مشاهد فى لتعاظم الافرنج على المصريين وتبين ان السفن
كان عالما بالطريق لكنه انما توقف عن الدخول لمجرد الرسم فدخلنا المرسى فاذا هى
ذات مأمن وذات مرسى صناعية فيها من بواخر الحكومة المنحازة الى جهة خاصة ثمانية
بواخر كبار كلها خشب وفيها من البواخر التجارية الاجنبية أزيد من عشرين وفيها
باخرة حربية أجنبية وبعد تمام الارساء وأخذ الاجازة للباخرة من مأمورى الصحة فى
انزال سلمها ورد كابه الأذن للركاب بالنزول وذلك لان من القوانين العامة ان كل سفينة
تسافر من مكان يلزمها أن تأخذ من مأمورى الصحة به الذين لهم ديوان خاص صكا
منصوصا به حالة البلاد التى سافرت منها من جهة الامراض العامة ومقدار ما فى السفينة
من الركاب وأنواع البضاعة التى بها فاذا وصلت الى مرسى مقصودة لها أول ما يتلقاها
مأمورو الصحة فيطالعون ذلك الصك ويفتشون عن صحة الركاب وعددهم فان لم يوجد
بها شئ مضر أذنت بافراغ ما تريد فى تلك المرسى فاحاطت بالباخرة القوارب الصغيرة وثار
عجاج الصياح من أصحابها المختلطين من أهالى وافرنج فى النزاع على حمل الاثقال
والركاب ولما رأيت الامر تفاقم ضم لى خريتوا الباخرة صندقات رحلى وجعلت
حارسا لها فى زاوية لان أصحاب القوارب كادوا يختطفون الرحال شاء صاحبها أم أبى
من غير مساومة للاجرة لاختلاطهم فى أى بلد كانوا ثم بعد الوصول يطلبون الاجرة اضعافا
مضاعفة ولما نزل جميع الركاب مع رحالهم ولم يبق حول الباخرة الا قوارب السلم التى
عهدتها على القمرق دعوت قاربيا واتفقت معه على أجرة معين وأعانني على ذلك ابن
وكيل حكومة تونس الحاج على الفيزانى رحمه الله حيث تلاقانى فى الباخرة بعد ان ورد
تابعه سائلا عنى وظننته أحد أولئك القاربيين تلقط خبرى لان حركاته لا تميزه عنهم ثم
لما وصلنا الى القمرق طالبوا ورقة الجواز وكادت ان تحصل لنا اتعاب بمنع الدخول الى
الاسكندرية حيث كانوا يمنعون دخول من يريد الحج وانما جعلوا لهم خارج البلاد مكانا
محاطا بالعساكر بحيث لا يسوغ للوارد الا الركوب فى البحر أو طريق الحديد توا الى
السويس وكان سبب ذلك كثرة من كان يرد من الاقطار الغربية للحج بلا مال ولا زاد
فيتكاثرون بمصر ويحملون حكومتها واهاليها أعباء ثقيلة مما لا داعى اليه لا شرعا
ولا عقلا لان أصل فرض الحج معلق على الاستطاعة بنص القرآن الكريم فلا يسوغ
الاقدام على السفر بدون شروطه نعم اذا وقع لعارض فقد المسافر المال يقوم به فى
الرجوع لوطنه أو لمحل ماله أو اقامته ففى بيت مال المسلمين قسم معين بنص الكتاب لابناء

السبيل فيعطون حاجتهم الى بلوغ مكانهم ولو كان ابن السبيل غنيا لكنه فى ذلك
الطريق لامال له فتداركنا الله بلطفه واذننا المكاف بالدخول للبلد فنظروا الى رحالنا
وأرادوا التشديد فى تفتيشها وقلب عاليها على سافلها متطلبين الاحسان اليهم فلم يسعنى
الا التخلص من الظلم بدفع شئ من المال ارتكابا لاخف الضررين من الخوف من تشتيت
رحلى والسرقة منه مع التعب ثم قصدت منزل المسافرين الافرنجى المسمى أوتيل دى روب
فى أكبر طرقات البلاد بمدمشقة فى التخلص من النزول عند وكيل تونس الذى لا داعى
اليه سوى تحميله الكلفة بالضيف والمصروف عليه مع تكليفى بلزوم مراعاة أحواله
وعاداته مما عساه لا يوافق حالتى وعاداتى اذ لم تكن لى معرفة به قط مع ما أنا عليه من
المرض الملازم الذى اشتد منذ رجوعى الى تونس بسبب الانفعالات النفسانية فيلزمنى
المساعدة لمزاجى فى الاكل والنوم وغير ذلك مما يحمل مضيفى مشقات أو يضرنى تركه
فاكتريت فى ذلك المنزل بيتا واسترحت به على ما ساعدنى واغتسلت فى حمامه وأكلت
وغت ثم أكتريت عجلة وقصدت أخى فى الله الصفوة الخيرية عالى الاخلاق والاعراق
سيدى ابراهيم السنوسى الحسينى وهو المحدث البليغ المتفنن فى علوم المنقول والمعقول
والسياسة صاحب الاخلاق المطابقة لانتسابه العالى نشأ من بيته الاصيل بمدينة فاس
البيضاء قاعدة مملكة المغرب وحصل من العلوم ما استكمل به نفره ثم رحل الى تونس وأقام
بها بضع سنين وامتزجت به أفاضلها وأعيانها سامة أنسين بعلمه وأدبه وكاد أن يتخذها قرارا
لولا المحنة التى وقعت بها من سنة ١٢٨٠ الى سنة ١٢٨٦ فارتحل عنها على ما دعت
اليه مقتضيات الاحوال من فساد الحكومة واستقر بالاسكندرية مشتملا على كماله
وفضله وعفافه واتسعت نعم الله عليه لا زال أهلا لكل فضيلة فلاقيته فى الطريق
وألزمنى بالاستقرار فى مقره وحيث كانت الاسباب المشار اليها آنفا فى التخلص من الضيافة
مفقودة مع أخى الفاضل المومى اليه لا من جهتى ولا جهته ساعفت مراده وأقمت عنده
سبعة أيام ولاقيت أيضا أخى فى الله التقى النقى الكامل رستم باشا التونسى وهو الفاضل
العفيف النصوح المؤتمن نشأ فى بلاد الجراكسة من جبال القوقاس ووفد على تونس
دون سن العشر فأدخل الى مكتب الحرب وحصل على القرآن العظيم ونصيب كاف من
العقائد والعبادات والتجويد والنحو والحساب والهندسة وغيرها من الفنون الرياضية
والحربية مع تحصيل اللغة الفرانساوية ومعرفة اللغة التركية وتأدب بعلم التصوف ثم
تقلد الوظائف السامية فى حكومة تونس فولى أمير لواء حراسة الامير ثم مستشار الداخلية

ثم

ثم وزيرا فيها وعضوا فى المجلس الخاص والمجلس الاكبر وكان من أشد المحامين عن العدل والشورى ولما وقعت النكبة العامة لتونس سنة ١٢٨٠ وما نشأ عليها من المظالم سافر المشار اليه الى أوروبا ثم رجع الى تونس سنة ١٢٨٦ باستدعاء الحكومة وقلد وزارة الحرب مع توظفه فى كل من المدتين بولاية عاملا على أعمال نديهة بجربة والاعراض وغيرها وسافر مرارا أميرا على المعسكرات لاقرار الراحة والامن فى الولاية وفى كل ما تقلد به كان مستقيم السيرة والسريرة مثنى عليه بالسن الخاص والعام ولما ابتدأت النكبة الكبرى الاخيرة لتونس ورأى مباديها ترخص من الوالى السفر للتداوى فأقام فى أوروبا مدة ثم أقام بالاسكندرية فلاقيته بها فى احدى المنازه الكائنة بالرملة وانهملت من الكل الدموع لما توقعناه للوطن العزيز ولا حول ولا قوة الا بالله وهاته البلاد أعنى اسكندرية هى ثانى مدينة فى القطر المصرى وهى مناخ تجارته مع سائر الممالك التى على البحر الابيض والمحيط الغربى وبها حصون حصينة وقشلات للعساكر ومكاتب عديدة لسائر الفنون وقصر للخديوى بقرب المرسى أنيق فاخر ومنتزه عام خارجها بالمكان المسمى بالمحمودية وهو منتزه به جداً تنتابه الموسيقى الرسمية فى العشية ولكن أكثر من يرد اليه اغلبهم الاجانب وفى المحمودية طريق وسيع صناعى حوله الاشجار العظيمة يتماشى فيه المترفون بعجلاتهم ويقرب به فرع من النيل وعليه آلات بخارية لرفع المياه وتصفيته وتقسيمه صافيا على البلاد فى قنوات وأغلب طرق البلاد مبلطة بالحجارة حسنة المنظر سيما حارات الافرنج التى بوسطها البطحاء الكبرى ذات الجنينة والفوارات وحولها القصور الشاهقة ومن تحتها الحوانيت المزخرفة وبوسطها صورة محمد على باشا مجسمة ضخمة كأنه راكب جواده وأغلب طرق البلاد فى حارات المسلمين ضيق وما عداها فهو متسع وبها من الجوامع الشهيرة جامع الامام البصيرى رحمه الله وهاته المدينة بناها اسكندر المقدونى وهو الرومى اليونانى الذى نشأ فى مقدونية المعروفة الآن بالروميلى فى بلد فيلبه وهو تلميذ أرسطو الذى أشار عليه بتفريق ممالك الفرس عند تغلبه عليها سنة ٣٣٥ قبل الهجرة وقال له الحكمة المأثورة الى الآن وهى اقسم تحكم قال فى الاقيانوس وليس اسكندر هذا بانى سد يأجوج فان ذلك من الملوك المعروفين بالاذواء من قبائل حمير ببلاد اليمن واسمه الصعب ولقبه ذو القرنين ولقى ابراهيم الخليل وعانقه كما فى الصحيحين وأطال فى ذلك فليرجع اليه من أراده وهذا مما يؤيد ما قلناه فى الكلام على سور الصين فى المقدمة ولله

المجدوقد سماالاسكندرهاته البلدةبالاسكندرية باسمه وكانت هي قاعدة الاقطار المصرية الى الفتح الاسلامي وكان تجاهها جزيرة يقال لها جزيرة فارس فاتصلت بالبر برصيف بناه بطليموس وهي الآن جهة رأس التين وفي الشمال الشرقي منها بنى المذكور منارة الاسكندرية الشهيرة وكان ارتفاعها اكثرمن ١٥٠ قامة وأحد جوانبها يزيد عن ٥٠ ذراعا وكان أنشأ أعلاها أحمد ابن طولون قبة من خشب فأخذتها الرياح ثم أصلح المنارة لتداعيها الملك الظاهر بيبرس وبنى عليها مسجدا انهدم بزلزلة ثم جدد ثم انهدم الجميع وبنى بمحلها الفنارالموجود الآن من آثار محمد علي باشا وقد كان أسس بها بطليموس الاول خزانة كتب تعداد ذلك من عجائب الزمان تحتوي على ٧٠٠ ٠٠٠ مجلدا وزعم بعض المفترين من المؤرخين ان أمير المؤمنين سيدنا عمر أمر بحرقها مع انها احترقت قبل الاسلام بمدة مديدة لان الذي أحرقها هو يولس قيصر الرومان عندما كان محاصرا بالاسكندرية ورامت أعداؤه الاستيلاء على سفنه فأضرم فيها النار وكانت بقرب من القصر الملكي المحتوي على الخزنة المذكورة فاحترق الجميع كذا في جغرافية مصر الكبرى قال ومن المحقق انه بعد مدة من الزمن كان انطوان الروماني أهدى الى الملكة كيلوبطرة من كتب خانة برجام ٣٠٠ الف او ٤٠٠ الف كتاب فتجدد بذلك خزنة كتب عظيمة وان كانت دون الاولى فأصابها الحريق مرتين ثم دمرت بالتمام بواسطة المتعصبين للديانة النصرانية لازالة أفكار عبدة الاوثان في مدة حكم تيودوس قبل الاسلام اه باختصار وسكان هاته المدينة الآن نحو من ٣٠٠ ألف نسمة وبها أزيد من ٣٠ ألف محل ما بين كبير وصغير وتشتمل على معمل فاخر للسفن واصلاحها ومن غرائب البلدة المسلة الواقعة قرب محطة سكة الحديد الموصلة للرملة وهاته المسلة على نحو المسلة التي ذكرناها في باريس وانفرادها الجميع نقل من مملكة مصر ولم يبق بها الا هاته فقط وطولها ٦٤ قدما في قطعة واحدة من حجر عليها كتابة قديمة عملت مدة الملك موريس الثالث سنة ١٧٣٦ قبل الميلاد ومثلها غرابة عمود السواري الشهير الواقع جهة مينة البصل وهو عمود على قاعدة عظيمة فوق تل عال ارتفاعه مع تاجه أكثر من ٣٠ ميترو ومحيطه نحو ٢٨ قدما يقال انه عمل مدة قياصرة الروم وبعد اقامتي بهاته البلدة سبعة أيام وتزودي منها ما يلزم لطريق الحجاز غير الخيام والقرب فاني أخذتها من مصر لانها هنالك أرخص ثمنا وارسالي جميع ذلك الى السويس تو امع الطباخ والخادم اللذين استأجرتهما من الاسكندرية توجهت حينئذ الى مصر القاهرة راكبا حافلة

طريق

طريق الحديد ولم نجد بها مخدعا خاصا اذا فرش ومرافق مثل ما يوجد فى أروبا وكان
ركوبى بعد العصر فسار القطار سيرا وسطا ولم يقف الا ببعض بلدان كبيرة وكان منظر
الارض قرب اسكندرية ليس بهجا وانما توجد براحات وسيعة بها الماء راكدا ومزروع
بها الارز لكن تغير المنظر بحسن النبات والزراعة بعد حصة ولم يطل بنا ذلك المنظر
الجميل لارخاء الظلام سدوله فوصلنا الى القاهرة بعد سير أربع ساعات ونصف فتلقانى
فى الموقف النجيب الوجيه الحاج على الشماخى وكيل تونس واعتذرت اليه عن الاقامة
بمنزله بما مر ونزلت فى منزل المسافرين المسمى الخمارة الكبيرة مواجه الروضة
الازبكيه واسعار هاته المنازل نحو من أسعار أروبا

الفصل * الثانى

﴿ فى صفة مدينة مصر القاهرة ﴾

هاته المدينة هى قاعدة الاقاليم المصرية منذ الفتح الاسلامى غير انها اختلفت اسماؤها
وبقاعها على حسب اختلاف الدول والاعصار وان كان مركز جميعها واحدا او بعضها
بحذا البعض فاول ما اختطه الصحابة رضوان الله عليهم مدينة الفسطاط حيث ضرب
سيدنا عمرو بن العاص فسطاطه فى الفتح وعند ارادته للتقدم جهة الاسكندرية التى
هى القاعدة اذ ذاك وجد يماما قد فرخ على عمود فسطاطه فاجاره وأبقى الفسطاط
الى أن رجع الجيش بعد الفتح واختط المدينة حول الفسطاط فسميت به ثم لما تغلب
المعز الفاطمى على مصر على يد قائده جوهر اختط القاهرة وصارت هى دار الامارة
وهى مدينة رحيبة بر النيل بحذائها وعليه آلات بخارية لرفع الماء وتصفيته وارساله
فى قنوات تفرق على جميع المدينة وعليه جسر حديد طوله مترو ٥٠٠ وعرضه بحر
عليه ستة عجلات وعلى حافتيه طريقان للمشاة وقد صنع سنة ١٢٧١ وعلى حدودها جبل
شاهق عليه قلعة حصنها وكانت مستقر الامراء وهى ذات حصون متينة صناعية مشحونة
بالمدافع من الطرز الجديد الضخم زيادة على تحصينها الطبيعى وتنظر منها سائر المدينة
وأرباضها فترى عظم اتساعها وبها ته القلعة جامع ضخم ذو قبة شاهقة جدا ومنائر جميلة
مرتفعة وبه اسطوانات من الرمر الملون ذات بهجة وارتفاع عظيم وبصحنه الرحيب متوضأ
أنيق جميل وبنى هذا الجامع محمد على باشا كما انه اتقن قصر الحكم بها وهو ذو بيوت وسيعة
وأواوين رحيبة مشتمل على جميع الفرش ولا زال هو القصر الرسمى للمواكب المهمة

وان لم يكن فانوا مثل القصور الحديثة التي يقيم بها الخديوي وبالقلعة أيضا معسكر وديوان نظارة الحرب وبها بئر عميق جدا يدعي الجهال انه جب يوسف عليه السلام وكان الحامل لهم على ذلك غرابة وجود بئر في ذلك الارتفاع فعدوه معجزة وبالقاهرة أسواق كثيرة جدا بل اني لم أر بلدا أكثر منها حوانيتا في سائر الجهات وأهم طرقها القديمة هو الطريق الموصل من الازبكية الى جامع سيدنا الحسين ويسمى بالموسكي فهو متسع في بعض جهاته نحو ثمانية أو عشرة أمتار وفي بعضها نحو الخمسة أمتار وأما بقية الطرق القديمة فأكثرها لا تمر به العجلات وبعضها تمر به عجلة واحدة نعم ان الطرق الجديدة التي افتتحها اسماعيل باشا في عشرة الثمانين والمائتين وألف في الحارة المنسوبة اليه المسماة بالاسماعيلية هي على نحو الطرق الاوروباوية اتساعا واستقامة وهاته الحارة كأنها محدثة ملحقة بمصر ومن محاسن القاهرة حديقة الازبكية الجميلة الانيقة المحاطة بسياج من قضبان الحديد الجميلة وبها أبواب من كل الجهات على الطرقات المحاطة بها وهي ذات مماش ورياض وأشجار وأنوار ومقاعد وقهاوي تنتابها الموسيقى الرسمية كل يوم عشية لكنها لا يحضرها غالبا الا الافرنج وقصور الخديوي وأقاربه وحواشيه ماثلة بالحارات الجديدة مبهجة لها برونقها وأهمها قصر عابدين أما القصور التي له حول القاهرة فهي كثيرة مضاهية أو فائقة على قصور ملوك أوروبا وجمعت بين ما للاوروباويين من التحسين وما للشرقيين من التزويق والاسراف لكل منها حدائق وعيون وحيوانات غريبة ومن هاته بستان شوبرة وقصره ذو البركة الرحيبة الذي أنشأه محمد علي بعيدا عن القاهرة نحو ثلاثة أميال وله طريق جميل هو منتدى أهل التمشي والتنزه بعجلاتهم وخيلهم لما له من البهجة بالاشجار العظيمة ومن ورائها البساتين والقصور المؤنقة لاهل الترف والمتخذة من الاوروباويين والامراء والوزراء وعلى جانبه ترعة من النيل وهكذا حارات الافرنج والحارات الجديدة في تأنيق البناء والقصور وبهرجتها من الظاهر فضلا عن الداخل لكن ديار الاهالي ليس منظرها من الخارج مما يسر النظر أما ما اشتملت عليه القاهرة من المقامات والاماكن المعظمة فأولها مقام سيدنا الحسين رضي الله عنه وأرضاه وذلك انه بعد الشنيعة الشنعاء بكربلاء أيام يزيد سنة ٦١ حمل الرأس الشريف المكرم ويقال انه دفن بعسقلان الى ان نقله الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الفاطمية سنة ٥٤٨ الى القاهرة في موكب عظيم ودفن بالمقام المشار اليه ثم عملت عليه المقصورة من النحاس الموجودة الآن سنة ١١٧٥ وبنى حوله المسجد

الرحيب

الرحيب وقد تشرفت بزيارة هذا المقام الشريف وصليت الجمعة وغيرها فى مسجده ولله الحمد وقد صلى الخديوى محمد توفيق تلك الجمعة هناك فلم يكن له من الابهة والفخامة الكبريائية ما يذكر وانما معه بعض خدم واعوان ومن المشاهد أيضا مشهد سيدتنا زينب شقيقة السبطين رضى الله تعالى عنهم ومشهد سيدتنا رقية ابنة سيدنا على بن أبى طالب ومشهد سيدتنا سكينه بنت الحسين السبط ومشهد سيدتنا نفيسة الطاهرة من ذرية سيدنا الحسن الشهيرة بالزهد والصلاح بالمناقب المأثورة ومشهد الامام الشافعى خارج القاهرة فى القرافة وغير ذلك من المشاهد والمقامات التى لا تكاد تحصى رضى الله تعالى عنهم اجمعين وذلك لان مصر محط رحال الصحابة والتابعين والعلماء والمصنفين رحمهم الله أجمعين وكذلك الجوامع التى بها تكاد تفوق العد واول مسجد بنى بها هو الجامع العتيق ويسمى الآن جامع عمرو وأسس سنة ٢١ عند الفتح الاسلامى ثم زاد فيه مسلمة بن مخلد الانصارى سنة ٥٣ وزوقه وقيل انه بنى به اربع منائر باركانه الاربع بامر سيدنا معاوية وهو أول اختراع فى ذلك وفيها يقول عابد بن هشام الازدى

وكم لك من مناقب صالحات * واجدر بالصوامع للاذان

كان تجاوب الاصوات فيها * اذا ما الليل القى بالجران

كصوت الرعد خالطه دوى * وأرعب كل مختطف الجنان

ثم الجامع الازهر وهو أول جامع أسس بالقاهرة بعد الفسطاط أسسه جوهر القائد سنة ٣٦١ وجدد اتساعه مرارا وهو ينقسم الى بيت وسيع ذى تقاسيم مرفوع سقفه على أعمدة والى صحن وسيع محاط به اروقة يقيم بها جماعات من الطلبة المجاورين لاخذ العلم وهذا الجامع هو مدرسة العلم الجامعة فى الاقطار المشرقية وفى القاهرة جوامع أخر عديدة ذات بناآت ضخمة أشهرها باعتناء البناء وضخامته وارتفاعه واتقانه جامع السلطان حسن بن قلاون ابتدأ فى عمارته سنة ٧٥٧ وأتمه فى ثلاث سنين ومقدار ما صرف عليه بسكة الوقت نحو ثلاثة عشر مليونا فرنكا فهذه هى أشهر الاماكن بقاهرة مصر ومثلها مدارس العلوم الرياضية وقد جمع بها خزائن الكتب التى كانت متفرقة وتشتمل على نحو مائة الف مجلد منها ثلاثون الف مجلد بخط اليد وفيها من نفائس الكتب تأليفا وخطا ما لا يوجد بغيرها ومنها مصحف كريم يقال انه بخط سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ومصاحف أخر عديدة عظيمة الحجم مزوقة بالذهب الى غير ذلك من الكتب العتيقة والنفيسة وذلك بقية ما فات الفرانسيس من الكتب التى نقلها الى باريس عند استيلائه

على مصر مدة نابليون بونابارتى وكذلك المارستانات أى المستشفيات الجامعة للتداوى وتعليم فنون الطب وقد شاهدت أحدها فاذا هو جامع لسائر أدوات الكيميا والطبيعيات والاجسام المصبرة والمشرحة من بنى آدم وغيره غيرانى كانت مشاهدتى لها انه الآثار وهى على شفا جرف من الاضمحلال لما سيأتى خبره مما اعترى مصر أواخر مدة خديويها اسمعيل باشا ومن مهمات مايذكر فى القاهرة الاهرام التى بقربها فى المكان المسمى بالجيزة وقد ذهبت اليها راكبا حمارا لان العجلات لاتصل اليها الا بكلفة حيث ان الارض حولها مرملة ولم تتصل الطرق الصناعية بها والاهرام بارض مصر كثيرة جدا منها ماهو باق الى الآن وعدها بعضهم فقال انها ٣٧ هرما ومنها ما اندثر بالهدم وصروف الايام وأكبرها وجودمنها اهرام الجيزة المذكورة وهى ثلاثة اهرام أكبرها أوسطها ويعرف بابى هرميس واشهر الاقوال فى بانيه هو فرعون كيوس أحد فراعنة العائلة الرابعة من فراعنة مصر وعلى ماحرره المؤرخون ان تلك العائلة لها الآن نحو ستة آلاف سنة وكانت مدة ذلك الملك فى الملك ٥٠ سنة وتم بناء هرمه فى ٢٠ سنة وكان المشتغلون فى بنائه ٣٦٦ الف نفس كل تلك المدة كانه جعل بحساب كل يوم من السنة الف نسمة للشغل وسلك فى بنائه طريقا عجيبا حتى صبر على تقلبات الزمن فقد وضع على شكل مخروط قاعدته مربعة وينتهى بنقطة ومن خواصه أنه يتساند على نفسه اذ مركز ثقله فى وسطه ويتحامل على نفسه وليس له مايتساقط عليه وقوبلت زواياه بهاب الرياح كى لاتؤثر فيه لانها تنكسر سورتها بمصادمة الزاوية بخلاف مالولاقت السطح وفى داخل هذا الهرم عدة محلات يدخل اليها المتفرجون وان كنت فى نفسى لم أستطع الدخول اليه لان المدخل ضيق مظلم يدخله الانسان حبوا ويدخل امامه أحد السكان هنالك بنور شمعة وأنا قائم بى ذلك المرض الذى يصحبه ضيق الصدر فلم أدخله ونقلت الكلام فيه من جغرافية مصر للفاضل محمد أمين فكرى وكذلك نقلت منها جملة مهمات تتعلق بالاقطار المصرية فلعمرى انه كتاب جامع الفوائد قلما توجد بغيره مجموعة مع حسن السبك والافادة والاختصار ومما قال فى هذا الهرم ان بوسطه حجرة تسمى حجرة الملك فيها حوض بديع الصنعة من قطعة واحدة وأخرى تعرف بحجرة الملكة ويرى الناظر فى داخله مايبهر العقل من كمال احكام تركيب تلك الاحجار الهائلة حتى قيل ان مقدار الواحدة منها ثمانية اقدام مكعب وجميعها يرى كانه قطعة واحدة وينتهى أعلاه من داخل بسطح نحو عشرة أمتار ويقال انه سقطت منه حجرة وارتفاع أعلى الهرم على سطح ارضه

١٤٦ أما طول سطح أحد جهاته فهو ١٨٤ وطول كل ضلع من قاعدته ٢٣٠ ميترو والاهرام الاخر أصغر من هذا وقد اختلفت الاقوال في الغرض من بناء الاهرام حتى قال عمارة اليمني

تنزه طرفي في بديع بنائها * ولم يتنزه في المراد بها فكري

اه باقتصار وأظهر الاقوال انها قبور لاصحابها وبقرب هاته الاهرام صورة أسد جاثم نحتا في الحجارة رأسه رأس آدمي مسدول الشعر وهي أضخم ما يكون من الصور وأصله من أعمال الفراعنة الاقدمين يسمى أبا الهول وبقربها اطلال بناءات هائلة سطا عليها الرمل ثم كشفت منها بيوت حائط كل بيت منها في قطعة واحدة من الحجر وسقفها كذلك حجرة واحدة يندهل الرائي منها وكيف أمكن نقلها ووضعها محلها وحول هاته الجهات أناس سكان كأنهم لا صناعة لهم سوى التفتيش على الاشياء العتيقة من تحت الارض وبيعها للسواح والتطوف معهم لاراءتهم غرائب تلك الآثار القديمة مع ان الحكومة المصرية اعتنت كثيرا بجمع الآثار العتيقة التي يمكن نقلها وحفظها في محل خاص بها هو من أهم أمثاله في الدنيا مباح لكل قاصد سميا أنتيك خانه وفي سائر الجهات المصرية عجائب من صنائع الاقدمين مما يدل على تقدمهم التام في المعارف والصنائع ومنها ما اندثر علمه الآن مثل الاقتدار على جر الاثقال وحفظ أجسام الاموات على حالها المسماة بالمومية المصرية التي نقل منها لسائر أقطار التمدن ونسج المنسوجات من مواد حجرية المسماة

وغير ذلك وأغلب ما يوجد من أمثال هاته الاشياء في أقاليم الصعيد حيث كانت مقر تخوت ممالك الفراعنة وبعض اليونان والحاصل انه يوجد بمصر من غرائب الآثار القديمة ما لا يوجد بغيرها وكل ما يمكن أن ينقل ولم تمتد عليه أيدي الدول الاجنبية فقد جمع في القاهرة في ديوان الآثار والغرائب حتى ذكر أن بعض دول أروبا رضيت بشراء جميع ما في ذلك الديوان بما على الحكومة المصرية من الديون وعلى تقدير عدم صحة ذلك القول فانه ينبئ بما لتلك الآثار من الغرابة والعناية حتى صح أن يقال قيمتها مثل ما ذكر وقد اجتمعت في القاهرة بأجلاء من فضلائها وأعيانها فقد زرت العلامة المعمر شيخ المشايخ الشيخ ابراهيم السقا وهو طريح الفراش بمرض الفالج الذي لم يبق له من حراك سوى الكلام والنظر وثبات العقل وهو على جلالة علمه وفضله والتكدر من ألمه على جانب عظيم من التواضع ولين الجانب وحسن الاخلاق فاخبرني

انه من تلامذة الشيخ سيدى ابراهيم الرياحى التونسى وانه أخذ عليه واجازه عند اجتيازه بمصر للحج وسألنى عن ذريته ودعالهم بخير وأعجبه التشوق من التبغ التونسى ودعالى وللمسلمين بسائر جو من الله قبوله وأظن ان سنه نحو الثمانين سنة وكذلك حضرت تبركا بدرس العلامة النحرير الشيخ محمد عليش صاحب التآليف الشهيرة ووجدته يقرأ فى شرحه على مختصر خليل فى الفقه المالكى اثناء كتاب العتاق بمسجد قرب جامع سيدنا الحسين رضى الله عنه لانه لم يستطع الاقراء بالجامع حيث تكثر فيه الاصوات من المدرسين وهو لكبر سنه البالغ نحو الثمانين وضعف بدنه كان منخفض الصوت حتى انى لم أتمكن من سماع تقريره كما ينبغى لانخفاض صوته مع مزيد السكون فى المسجد ومع ذلك قد أطال الدرس حسب معتاد المصريين فكنت فيه ساعة ونصف وانصرفت وهو لازال بصدد الاقراء وعليه من مهابة العلم والصلاح ما يؤيد صيته الشهير وكذلك اجتمعت بالفاضل الصفوة الخيرة سيدى عمر السنوسى أخى صديقى سيدى ابراهيم السنوسى المتقدم ذكره فى الاسكندرية وهو ذو اخلاق مطابقة لما له من مجد الاعراق وغير هؤلاء من بعض الاعيان من الاهالى والمستوطنين من أهالى الاقاليم الاسلامية كالفاضل الحسيب محمد الاحبابى من أعيان تجار أهل المغرب ذوى الثروة وكالشهم الهمام الزبير باشا الذى كان ملكا على قسم من مملكة دارفور من السودان ودخل طوعا تحت الخديوية المصرية رغبة فى اتحاد كلمة الاسلام ثم عزله اسماعيل باشا وبقى مقيما بالقاهرة وهو رجل ذو فضائل جمة يتعجب مجالسه من كمالاته مع انه من أهالى السودان وان كان أصله من نسل العرب الكرام فهو مهذب الاخلاق عارف بالسياسة والحروب وبجغرافية دواخل افريقية وشطوطها الشمالية غيور على الملة كثر الله من أمثاله وقد دعت المقتضيات الى الاجتماع بحضرة الخديوى محمد توفيق باشا توجهت اليه واحضرت أبياتا تضمنت تاريخى ولايته اذ كان اذ ذاك قد ولى منذ بضعة أشهر وتلقاها منى بسرور فبيت التاريخ الهجرى هو قولى

في سما الملك ارخ * لاح توفيق الخديوى

١٢٩٦

وبيت التاريخ الميلادى هو قولى

فانشد التاريخ صاح * قرة تويج الخديوى

١٨٧٩

والصاد بعدد تسعين لان ذلك هو حساب المشارقة فيها وأما المغاربة فهى عندهم بستين

وذلك

وذلك لان حروف أبجد بحساب الجمل وقع فى اعداد بعضها خلاف بين المشارقة والمغاربة وهاته الحروف نذكرها هنا تتميما للفائدة حيث رايت كثيرا من اهالى القطرين يجهلون ما عند اخوانهم حتى انهم ربما حملوهم على الخطأ فى العدد مع ان ذلك مبنى على الاصطلاح الذى لا مشاحة فيه ودونك حساب الاحرف والذى فيه الخلاف نضع حساب الشرق عن يمينه والغرب عن شماله وباقيها نضع له عددا واحدا ا ١ ب ٢ ج ٣ د ٤ ه ٥ و ٦ ز ٧ ح ٨ ط ٩ ى ١٠ ك ٢٠ ل ٣٠ م ٤٠ ن ٥٠ ٩٠ س ٦٠ ص ع ٧٠ ف ٨٠ ٨٠٠ ص ٩٠ ض ق ١٠٠ ر ٢٠٠ ٦٠ س ٣٠٠ ش ت ٤٠٠ ث ٥٠٠ خ ٦٠٠ ذ ٧٠٠ ٩٠٠ ظ ٨٠٠ ض ١٠٠٠ غ ٩٠٠ ظ ٣٠٠ ش ١٠٠٠ غ وحيث كنت قائلا للابيات فى المشرق راعيت قاعدتهم فاجتمعت بالخديوى فى قصر عابدين ولم يكن معنا أحد وهو متواضع دين متفنن متبصر وبعد اقامتى بالقاهرة بضع أيام واشترائى منها القرب لحمل الماء فى الطريق واشتراء الخيام اللازمة لذلك سافرت الى بلدة السويس فى طريق الحديد وكان العمران قرب القاهرة جميلا لكننا ما تخيلنا عن خط النيل الا وكانت الارض صحراء خاوية لا نبات بها ولا أنيس سوى بعض شجر القصب على حافتى الترعة الذاهبة الى السويس وبها أفراد من القوارب الصغيرة الحاملة كل منها الانسان أو اثنين مع بعض بضائع فوصلنا الى السويس بعد الغروب وكان السير من القاهرة اليها نحو ثمان ساعات فتلقانا الخبير العفيف وكيل المغاربة بتلك البلدة ونزلنا بأحد منازل المسافرين على عموم الى غيرها فاذا هى قرية بها بعض الاجانب وبها حاكم يلقب بالمحافظ وضابطية وعساكر واهم ما فيها امرساها الصناعية وبقربها من الشرق فوهة الخليج الجامع بين البحرين الابيض والاحمر وحول المرسى محل للتحفظ المسمى بالكرنتينة وعليه عساكر محافظون وفى البلد شجرات وشبه جنينات حول ديار بعض الافرنج وما وراء ذلك فهو صحراء خالية وان كانت الارض قابلة للاصلاح لكن تشديد الحكومة فى اعلاء سعرها أبقاها خرابا وجميع المنازل التى لخدمة خليج السويس لها بعض تحسين ومياه النيل واصلة اليها

الفصل ❁ الثالث

(فى التعريف بمصر)

هاته المملكة صارت الآن من عدة ممالك عظيمة فى افريقية فحدها شمالا البحر

الابيض ويبتدئ الحد الشرقى منه مارا على خط موهوم بين الشام ومصر ثم على شاطئ البحر الاحمر الغربى شاملا بلاد النوبة الى أن يصل لمملكة الحبش التى يفصل بينهما جبال هناك فينعطف الحد معها مشرقا محيطا بها مارا للجنوب مارا مع البحر الاحمر فيمر أيضا معه الى أن يجاوز باب المندب ومملكة الحبش حينئذ داخلة فى الحد لكنها لاتصل للبحر لما املكته مصر من شطوطه ثم يمر الحد مع البحر ويشمل مملكة عادل المسماة بزيلع فيمر على شاطئ افريقية الشرقى على المحيط الشرقى الى أن يصل الى حدود مملكة زنجبار ثم يبتدى الحد الجنوبى فيمر من الشاطئ مغربا الى دواخل افريقية السودانية و ينعطف الى الجنوب حتى يصل الى حد الدرجة الثالثة جنوبا وراء خط الاستواء و يشمل مملكة دارفور و يصل الى حدود مملكة وداى و يمتد الحد الغربى مع مملكة وداى الى أن يصل الى الصحراء الكبيرة فينعطف معها ذاهبا الى الشمال من غير تعيين لخط معين حيث ان الامر مهمل فلا حصر فيه وهذا فى الجهات السودانية الى أن يصل الى طرابلس و يمر معها الى أن يصل الى البحر الابيض حيث ابتداء التحديد وحيث كانت على ماعلمت من الاتساع والكبر لاجرم ان كانت صفة أرضها مختلفة جدا (فأما مصر) الاصلية فالمعمور منها هو عبارة عن واد بين سلسلتين من الجبال مارة من الجنوب الى الشمال يضيق تارة الى ثلاثة أميال و يتسع أخرى الى نيف وعشرين ميلا كلها يسقيها نهر النيل وذلك كله فى غاية الخصب والنضارة تتجدد أرضه سنويا بفيضان النيل ويخرج الله منها بركاتها مما جعل به مصر غنية عامرة وما عدا هذا الوادى فهو عبارة عن جبال محلة لانبات بها وأراضى يابسة مرملة لاترى فيها الا الحصا (وأما) بلاد النوبة الداخلة فى مملكة مصر وهى المحادة لها من الجنوب فهى ذات صحارى وجبال خصبة وأراضى خصبة و بقية الممالك وهى وداى ودارفور و زيلع وغيرها فكلها ذات جبال وآجام وخصب (وأما جبال) ممالك مصر فهى كثيرة ليس منها جبل بركانى ولامنها الزائد فى الارتفاع وأعلاها هو الفاصل بينها و بين الحبشة (وأما أنهرها) فأولها نهر النيل وما أدراك ما النيل وهو نهر يحمل السفن الصغيرة الى أول شلالاته عند الخرطوم وهو عندهم ينقسم الى ثلاثة أقسام (أحدها) يسمى نيل السودان وذلك من منبعه الى الخرطوم (الثانى) منها الى فيلة وهى جزيرة فى وسطه قرب مدينة اسوان (الثالث) منها الى البحر الابيض فالقسم الاول يتكون من نهرين يسمى أحدهما البحر الابيض والآخر البحر الازرق عبارة عن عظمهما حتى الحقا بالبحر والبحر الابيض كأنه هو الاصل للنيل وهو يجتمع من عدة أنهر فى أواسط افريقية

وهو

وهو أعظمها وأبعدها منبعا لانه منبعث من بحيرة أوكريفي المعروفة بفيكتوريا على ظن آخر الجغرافيين الآن وان كان التحقيق انه مجهول حيث تبين ان تلك البحيرة تستمد من بحيرة أخرى ولكن الوصول الى اكتشافها صعب ولعله تحدث أسباب لذلك وطوله الى حيث يجتمع بأخيه قرب الخرطوم ٢٣٠٠ كيلومترو اى نحو الفى ميل (وأما) الازرق فحجمه نحو الثلث من السابق ومنبعه من بحيرة دمبية فى بلاد الحبشة ويمر على عدة شلالات ثم يجتمع باخيه ويصير حينئذ القسم الاوسط فتصب فيه عدة أنهار غير معتبرة وذلك فى بلاد النوبة فاذا وصل الى أصوان حدثت منه الشلالة الاخيرة التى تمنع زيادة صعود السفن عنها لانها متكونة من ارتفاع الارض فى المجرى الاعلى وانخفاضها فى المجرى الاسفل مع صخور مرتفعة فيكون له خرير كالرعد القاصف يسمع من بعد بعيد فاذا وصل النيل الى أسفل القاهرة انقسم الى فرعين شرقى وغربى فالشرقى يصب فى البحر الابيض عند دمياط والغربى يصب فى البحر المذكور عند رشيد واحدثت من النيل ترع عديدة حتى صار يصب فى البحر الاحمر وخليج السويس والاسكندرية وغير ذلك وصنعة الترع فى مصر كانت معروفة فى مصر باحسن مما هى عليه الآن حتى كانت تروى سائر رباها بل وجبالها أيضا ويرشد الى ذلك قوله تعالى حكاية عن فرعون وهذه الانهار تجرى من تحتى فكانت أرض مصر كلها عامرة بالانهار وهاته الترع تحمل القوارب وتقع بها المواصلات وتبين مما مر أن فى مصر أنهارا عديدة عظيمة سيما فى السودان ويجتمع الجميع فى النيل ولولا عظمة المياه لتلاشت فى الصحارى التى تمر عليها ومن غرائب النيل أنه يفيض فى وقت معين من كل سنة وهو وقت الانقلاب الصيفى ويستمر على ذلك الى الاعتدال الخريفى فيأخذ فى النقصان الى الانقلاب الشتوى فيقصد فى مجراه الى السنة القابلة ويختلف فيضانه بالزيادة والنقصان واعتداله المطلوب للسكان هو أن يرتفع على المجرى الاعتيادى سبعة أمتار فان زاد أهلك بالغرق وان نقص أجحف الناس بالقحط ولهذا الفيضان كانت مصر الاصلية لها مناظر عجيبة ففى الربيع الذى هو شباب الزمان فى سائر البقاع تكون مصر عموما أقل بهجة من نفسها فى وقت آخر وفى الصيف الذى تجف فيه المياه فى المعروف تكون مصر بحرا من الماء العذب راسية فيه قرى ومدن وأمصار يسلك من بعضها البعض فى القوارب وفى الخريف الذى يبتدئ فيه فى غيرها ذبول النبات تكون هى قد شب نباتها وازدخرفت وربت وفى الشتاء تنتشر أزهارها وتغرد أطيارها

ويحصد زرعها وتدخر أقواتها وتفيض على العالم محصولاتها فانفردت بذلك عن غيرها
وليس هنالك مايشبهها الانهر السند المار على بلوجستان فانه يقرب من ذلك من حيث
فيضانه فى الصيف ولما أحدثت الآلات البخارية لرفع المياه من النيل زمن نزوله قل
ضرره من القحط اذلم يعهد أنه جف ماؤه الا سنة ١٢٧٨ وكان كربها شديدا (أما ضرر) تفاقم
فيضانه فقد اعان على تخفيفه الاخبار بالسلك الكهربائية حيث يأتى الخبر بتفاقمه
سريعا من السودان ومصر العليا فتفتح له أفواه الخلجان وترتفع الناس عن الاراضى
المنخفضه ومع ذلك يحصل منه ضرر عظيم أحيانا وقد اختلفت الاقوال فى إسباب فيضانه
وأظهرها انه مترتب من شيئين أحدهما ذوبان الثلج المتراكم على جبال
الحبشة الشاهقة وعلى جبال أواسط افريقية بحر أواخر الربيع فتسيل مياهها ويطموا
بها النهر الازرق وغيره واطول امتداد الانهر ما يصل ماؤها الى مصر الا فى الانقلاب الصيفى
(وثانيهما) ان جنوب خط الاستواء فصوله على عكس فصول شماله فالربيع عندنا هو
الخريف عندهم والصيف عندنا هو الشتاء عندهم وقد علمنا ان النهر الابيض منبعث من
جنوب خط الاستواء بعدة درجات وان الامطار فى الاقاليم الحارة تتراكم دفعية سيما
وقت الخريف والخريف فى الجنوب هو ربيع فى الشمال فما يصل ماؤه الا فى الصيف
فى الشمال فيحدث من ذلك طمو النهر الابيض أيضا ويلتقى بأخيه وهما طاميان
فيحدث فيضان النيل زمن الصيف فى مصر (أما) بقية الانهر فى ممالك مصر فى النوبة
والسودان كثير من الانهار والجداول منها مايصب فى النيل ومنها ما يجف فى الصحارى
وليس منها مايسمى سوى النهر الابيض والازرق المتقدمى الذكر وفى أرض مصر من
صعيدها الى بحريها لايوجد نهر أصلى سوى النيل لكن أحدثت منه أنهار عديدة عظيمة
تسمى بالترع حتى صارت أغلب الاراضى المصرية مخترقة بتلك الانهر الصناعية ومنها
الكبير الذى يحمل السفن النهرية ومنها الصغير ومنها الدائم الامتلاء بالمياه ومنها مايجف
عند انتهاء انخفاض النيل والموجود الآن من هاته الترع يزيد عن السمائة وأحد
عشر نهرا أطولها الابراهيمية فانها تقرب من مائتى ميل ولازال الاعتناء بتكثير الترع
المستلزم لتكثير أراضى الزراعة حتى بلغت الآن الى مايقرب من خمسة ملايين فدانا
مسقية مزروعة والفدان عبارة عن مساحة ٥٩٢٩ مترومربع وهذا المقدار وان
كان كثيرا فى ذاته لكنه لم يبلغ الى ما كانت عليه الترع فى مصر قديما حيث كانت زمن
الفراعنة تصعد مياه النيل الى أعالى رباها وجبالها وتسقى جميع أراضيها حسبما نص

عليه

عليه فى التاريخ ويشهد له قوله تعالى حكاية عن فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الانهار
تجرى من تحتى فجمع الانهار والافتخار بها بل والتعاظم الى حد دعوى الالوهية قاض
بانها كثيرة جدا وبالغة الى حد خارج عن المعتاد فى الكيفية كصعودها الى الاعالى
والواسطة فى ذلك اما ان تكون بواسطة آلات تحمل الماء من أسفل الى أعلى بكثرة
حتى يجرى فى الانهار ثم من هاته يحمل كذلك الى ما فوقها الى أن تجرى ومن هذه أيضا
الى ما فوقها وهكذا الى نهاية الارتفاع والآلات اما ان يديرها الماء نفسه أو قوة
أخرى جهات الآن فيما اندثر من علوم الاقدمين أو تكون الواسطة هى تفريع الترع
من أعالى النيل قبل الوصول الى الشلالات بان يؤتى لاول شلالة قبل انحدار الماء منها
فتفتح له فروع ذاهبة مع ارتفاع الاراضى بكيفية هندسية وبناء قناطر وحنايا المرور
الماء من الاعالى الى الاعالى ثم من شلالة أخرى يفعل هكذا وبح تجرى الانهار فى
الارتفاعات كما تجرى فى الانخفاضات ويحصل منها النباتات الجبلية ومناظرها البهيجة
(وأما) بحيرات مصر فهى عشرة أربعة كبيرة وأكبرها بحيرة المنزلة ومحيطها نحو من
مائتين وخمسين ميلا وتسير بها السفن الصغيرة وبها السمك دائما وموقعها شرقى مدينة
دمياط ويخترقها خليج السويس والبقية أغلبها ابضاع الخليج وليس لها فائدة معتبرة
سوى استخراج الملح من بعضها عند جفاف مائها صيفا وبعضها يجف تماما أما ما الك
السودان ففيها بحيرات مهمة مثل بحيرات منبع النيل وغيرها ولكنها قليلة الجدوى
بالنسبة للمنافع مثل بقية ذخائر السودان (وأما) هواء مصر زمانا قبمها فهو على العموم
حار وغاية الفرق ان الجهات الشمالية على شاطئ البحر الابيض يلطف حرها صيفا
سيما عند ازدياد النيل (وأما) الجنوب وسائر السودان فهو حار جدا حتى انى كنت فى
مدينة مصر فى شهر نبر بعد فيضان النيل ولم أكن أستطيع النوم بالغطاء باللحاف
السكان ولكنى لا أستطيع أيضا فتح الطيقان لكثرة الندى المضر ورأيت مثل ذلك فى
اسكندرية أيضا التى هى مهرب السكان من الحر مع انى كنت بها فى ذلك الشهر أيضا
(أما) السويس والصعيد فلا تسأل عن شدة حرها نعم هى بعد الانقلاب الشتوى يحصل
بها البرد الى درجة طلب التدثر والتدفى فيكون الهواء معتدلا مع ابتهاج الارض
بالنبات (وأما) نباتاتها مع سودانها وجبالها فيصح أن يقال ان فيها كل ما يوجد
من نبات الدنيا الاماندر حتى الاشجار التى تكون فى الاراضى الباردة فانها توجد فى
الجبال الشاهقة فى دواخل السودان ذات الثلج الدائم وفى السودان غابات عظيمة صالحة

أخشاب البناء للسفن والديار وللأعمال الجيدة أيضا مثل الابنوس وغيره لكن أرض مصر الأصلية ليس بها من غابات طبيعية وغاية ماله بها من نظر الغابات هو النخيل فالحاصل ان مما لكها مشتملة على كل ما يحتاج اليه من المزروعات الحبوبية والاشجار ذات الثمار وغيرها

* (وأما حيواناتها) ففيها الخيل بقلة بالنسبة لذاتها لكن يوجد في السودان نوع منها جليل يعرف بالكحيل والبغال قليلة والحمير كثيرة ويركبها حتى الاعيان ولها اعتبار ويحلقون شعرها وتصير بالتربية تفهم قصد صاحبها حتى اذا قال الحمار لجميره صخرة ظلمت وصارت تمشي على ثلاث مادام الشرطي ينظر اليها خوفا من تحديها للحكومة بلا أجر والابل كثيرة جدا ومنها نوع الهجين وهو نوعان في السير أحدهما متعب لراكبه وهو الذي اذا سار رفع رأسه وعنقه والثاني لين لراكبه وهو الذي اذا سار دلى رأسه الى الارض ومد عنقه الى أمام وكلاهما من الابل المعتادة غير ان أصحابها يختارون الجيد الاطراف الخفيف الحركة ثم يمرنونه من الصغر على مداومة سرعة السير فيتربى عليها ويبقى ناحلا فيكون عدة لاصحابه للوصول الى الامد البعيد في الزمن القريب وكان عند الاقدمين عوضا عن طريق الحديد الآن غير انه لا يحمل الاثقال الكثيرة

* ولقد رأيت من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم ما يزيد القلب ايمانا وذلك في الحديث الذي رواه الامام مسلم في صحيحه في الكلام على سيدنا عيسى عليه السلام وانه يترك القلاص أي الابل بمعنى انه لا يستعملها وخاضت الشراح في تطبيق ذلك والحق ما بينته المشاهدة من الاستغناء عنها بالرتل وطريق الحديد والله أعلم انه سيعم جزيرة العرب ويصل الى مكة والمدينة حيث ان سيدنا عيسى عليه السلام ينزل هناك والله أعلم والبقر قليل وهو نوع ضخم والجاموس كثير والفلاح من العامة الذي له بقرة منه تغنيه عن كثير من الاشياء فيشرب ويبيع من لبنها ويأتدم ويبيع من سمنها ويحرث عليها ويوقد بخثاها ويستفتج أولادها ولذلك صارت البقرة عنده أعز شئ عليه في الدنيا (وأما) الغنم فهي كثيرة في السودان والحيوانات الوحشية يوجد منها في السودان كل الانواع التي تألف البلاد الحارة كالاسد والنمر والفيل والزرافة وغيرها

* (وأما) الطيور فيوجد سائر الطيور الاليفة (وأما) الوحشية فانما يوجد منها بعض الرحالة كالسمان والخطاف والحدأة كثيرة وكذلك الغراب ولقد شاهدت منه نوعا غريبا لان لونه أبلق وعليه فتكون الصفة في قوله تعالى وغرابيب سود هي صفة كاشفة لا مؤكدة حيث يوجد في الغراب الاسود والابلق بعضه أسود وبعضه أبيض كما يوجد في السودان أنواع شتى من

الطيور

الطيور الغريبة كالببغاوات الالوان البهية المذهبة والمفضضة وغير ذلك من أنواع الطيور (وأما) معادن مصر ففيها أكثر أنواع المعادن المعروفة فالذهب يوجد بكثرة في عدة أماكن من السودان فمنه ما هو في معدنه ومنه التبر الذي يوجد في الرمال من سيول المياه وأشهر معادنه في سنار حتى يعرف بالذهب السناري وكذلك يوجد الفحم الحجري الغني في بلاد النوبة ويوجد أنواع المرمر والرخام الابيض والازرق في جهات من الصعيد وكذلك الملح في عدة سباخ والجص والسيمان والرصاص في موضعين حوالى شط البحر الاحمر والنحاس في عدة أماكن والحديد بكثرة في عدة جهات والكبريت حتى انه يوجد جبل يسمى به (وأما) الفضة فهي قليلة وتوجد أحجار ثمينة وأهمها الزمرد لكنه قليل ويوجد الفيروزج والعقيق والذي يحق به الاعتناء هو حجر البلور اذ هو كثير ونقي يضاهي ما في بوهيمة النمساوية كثرة وصفاء وأكثر هاته المعادن متروك اما لعدم العناية به أو لصعوبة نقله حتى رأيتهم يأتون بالحجارة لبلاط الطرق في الاسكندرية من بلاد تريست في مملكة النمسا مع ما في البلاد من الحجارة التي صنع منها القدماء تلك الاهرام والهياكل والمعابد التي تنقل ذخائر في قواعد الدنيا ولا شك ان العناية لو توجهت الى استخراج منافع السودان لسهل نقل تلك الحجارة وسائر المعادن بأخذ الفحم الحجري للطرق الحديدية التي تسهل ايصال الانقال ومواصلة الاقطار اذ في السودان كنوز لا يحصيها الا خالقها وأعظم بكثرة غاباتها وأخشابها المرغوبة كالشمشير والابنوس وغيرها حتى لا يحتاجون لجلب أخشاب البناء وغيره من خارج المملكة فانهم يأتون حتى بحطب الوقد وفحمه من الخارج وذلك ضعف للبلاد (وأما) مدن مصر ففي مصر من القرى والمدن ما يتجاوز الثلاثة آلاف بلدة وأشهرها قاعدتها وقد تقدمت صفتها ثم الاسكندرية ومر ذكرها ثم طنطا ورشيد ودسوق وأشمون والابيض على وزن محمد قاعدة كردفان وأبو حراز ودنقلة قاعدة دارفور وسابقا وتسمى فاشر وغير ذلك وقد كانت بها مدن هائلة في الصعيد تحتوي على بناآت عجيبة وصنائع غريبة وقد دثرت تلك المدن ولم يبق لها من اعتبار سوى ان بعضها صار بمحله قريات ليست بذات أهمية وتلك الهياكل القديمة قد اكتشف عنها وتسمى بالبرابي وتقصدها السواح للاطلاع على ما احتوت عليه من الاعاجيب والصنائع المندثرة ومن هاته البرابي واحدة في بلاد دفو التابعة لمديرية اسنى أخبرني الرحالة محمد برادة أنه رأى بها ايوانا كبيرا منقوشا في الصخر على حيطانه صور جميع المصنوعات المعلومة اذ ذاك وأنه رأى فيه بين رأسه صورة طريق

الحديد بقضبان ممتدة وعليها حوافل ذات عجلات لكنها بدون مزجية أعني الآلة الجارة
كما رأى فيه صورة السلك الكهربائي يعني صورة أعمدة عليها سلك ممتد منتهي الى
آلة ورأى صورة سفينة ذات عجلات وصاعد من مدخنتها صورة الدخان وسمعت
من غيره أنه يوجد في جملة البرابي بيتان عظيمان أحدهما يحتوي على صور جميع
الحيوانات والآخر على صور جميع المصنوعات وان منها ما تقدم وكله نقش في الحجر
ورأيت في جغرافية فكري ذكر تلك البرابي واحتوائها على النقوش والصور
❋ لكنه لم يذكر خصوص ما تقدم ذكره (وأما) مراسي مصر فأولها الاسكندرية ثم
برت سعيد ودمياط ورشيد في البحر الابيض والاسماعيلية والسويس في الخليج
ومصوع والقصير وسواكن في البحر الاحمر وزيلع وغيرها في المحيط الشرقي وأما أهاليها
❋ فهم على قسمين الاول أهالي مصر وهم نحو ستة ملايين بعضهم من ذرية القبط أبناء
المصريين القدماء وبعضهم أبناء العرب الفاتحين واختلط نسل من أسلم من القدماء
بالثاني وصاروا جميعا مصريين وتكاثر عددهم في هذا القرن أعني حيث كانوا في
أول دولة محمد علي باشا لا يبلغون الاربعة ملايين ولما امتد فيهم التهذيب والتحفظ
على الصحة بتحسين الهواء والعلاج عافاهم الله من مصيبة الوباء والجدري اللذين
كانا دائمين فيهم فبلغ عددهم الآن الى ما ذكرنا والقسم الثاني منهم هم السودان وهم
أيضا على قسمين الاول أهالي النوبة وكانت قاعدتهم سنار وهم من الزنج وذرية
الكوش من العرب ثم تسلطت عليهم قبيلة الفنج ودخلت في الاسلام وبقيت هي
الحاكمة الى أن افتتحها محمد علي سنة ١٢٣٦ وثاني أقسامها هو قسم دارفور وعدد
سكانه خمسة ملايين وهم من نوع سوداني يسمى فور وسميت البلاد بهم وديانتهم الاسلام
ومعهم نوع يسمى المسبعات ولكثرة اختلاط الجميع بالعرب ودخول قبائل منهم فيهم
حتى كانت عائلة الملك عربية صار الجميع يتكلمون بالعربية وتلخص مما مر أن الاهالي
على العموم أكثرهم عرب واللغة الغالبة والرسمية عربية وتوجد لغات أخرى سودانية
وعدد الجميع بالمضافات ستة عشر مليونا والديانة الغالبة هي الاسلام وتوجد النصرانية
على مذاهب شتى ومنها المختلطة بشيء من شعار اليهود وشيء من شعار الوثنيين كما يوجد كل
❋ من ذينك الديانتين (وأما) صفتهم على العموم فأهالي المدن الكبيرة يكثر فيهم النبهاء
والعارفون بالمصالح العامة المشتركة والباقي على الاطلاق هم على السذاجة والجهل
بالمنافع الخاصة فضلا عن المشتركة واللون الغالب أسمر وأسود وأهل السودان والعرب

من أصل المصريين شجعان (وأما) فلاحو مصر فلما طال عليهم الاستيلاء الاستبدادي ضعفت فيهم الشجاعة بالمرة وكادوا أن يفقدوا الغيرة كما حكاه المقريزي

الفصل * الرابع

﴿ في اجمال تاريخ مصر وملحقاتها ﴾

﴿مطلب في تاريخها القديم﴾ اعلم أن مصر اشهر بقاع العالم بمعرفة أصول تاريخها القديم لكنه في الواقع غير محرر ولا موثوق به وقد أطنب العلماء الاسلاميون وغيرهم في تواريخ مصر وعلومها وعددنها فغاية ما نستطيع هنا اغماهو الالمام باشارات الى أنموذج ذلك معرضين عما لبعضهم من المبالغات والخرافات ويدعي بعض المتأخرين ان المحقق عندهم في علم مبدأ التاريخ فيها المحقق هو قبل الميلاد بالفي ومائتي سنة والحق أنه غير محرر لان استنادهم في ذلك انما هو للتوراة التي بين أيديهم وهي كما علمت سابقا غير صحيحة سيما في محل التاريخ وقد أقر بعض متدينيهم بالغلط الفاحش في ذلك المحل سيما فيما يرجع الى التاريخ العام وانه مخالف للموجود من الكتابات المنقوشة على الاحجار العتيقة جدا وغيرها من القرائن الواضحة وتعلل في تصحيح التوراة بان موسى عليه السلام لم يقصد تاريخا عموميا للخليقة وانما قصد ذكر عمود نسبه ولا يخفى ان هذا غير معقول اذ كيف يذكر عمود نسبه في تواريخ مخالفة لنفس الامر لانه يلزم ان يكون قائلا بان فلانا مثلا بعد الطوفان بكذا ثم فلان بعده بكذا أو في زمن الملك الفلاني المتسلطن في تاريخ كذا مع ان ذلك الوقت ليس مطابقا لذلك التاريخ فما هو الا عين الكذب أو الغلط المنزه عنه كلام البارى تعالى والمعصوم منه الرسول فلا محيص عن القول بالتحريف في التوراة التي بين أيديهم واذا أضفت الى ذلك الميزان المعقول في حساب العمران وكمية التناسل من البشر بعد الطوفان ولو على القول بعدم عمومه في سائر الكورة ونظرت الى المدة التي ذكر ان ابراهيم عليه السلام أرسل فيها وما كان عامرا من الجهات التي لا نزاع ان الطوفان عمها وهي محل اقامة ابراهيم عليه السلام وقومه ومن كان معاصرا له من الامم الذين طغوا في البلاد وتجبروا بما لهم من القوة والعدد والعدد والعلوم لا شك انه يستحيل عندك انهم كلهم نشؤا في مدة مائتي سنة من نسل أربعة من أولاد نوح عليه السلام وأيضا يستحيل ان تنسى وتندثر معجزة الطوفان الهائلة من عقول أمة في قرنين اذ يمكن ان يكون بعض من

أدركه من أدركها لم يزل بقيد الحياة فكيف مع ذلك ينسى توحيد الله ويعبد اله
غيره ولا يتأتى ذلك الا بطول الزمان ونسيان المعجزات وانقراض العلماء ومن عاصرهم
فى مدة مديدة ولذلك لا نعتمد حينئذ على تعيين أوقات ما نتعرض له من الدول القديمة
* وانما نقول ان مصر قبل بعثة موسى عليه السلام كانت قامت فيها دول عظيمة ذات
شان وقوة وعمران وملوكها يسمون بالفراعنة جمع فرعون وهى عبارة مصرية
معناها نور الشمس وأول من يعرف الآن من فراعنتها هو منتر (أو) مصرايم الذى
حول مجرى النيل و بنى مدينة منفيس ثم زادها خلفاؤه بهجة واتقانا حتى كانت أعظم
مدن الدنيا واتخذتها الفراعنة تختا لهم ولو بعد انقراض عائلة فرعون المذكور
وفى مدة أحفاد المشار اليه نشأت دول اخرى صغيرة فى أراضى مصر وانقسمت على ثلاثة
أقسام بقى أحدها تحت العائلة المذكورة والاخريان تحت عائلتين أخريين الى
ان تغلبت على الجميع العائلة الرابعة من الفراعنة ومنها فرعون البانى للهرم الكبير
الذى بالجيزة ومركزه ثم انقسمت الى عدة أقسام كان منها العائلة الخامسة وتولى
منها عدة ملوك أحدهم بانى الهرم الثانى بالجيزة أيضا وكذلك العائلة السادسة
وغيرها الى الثانية عشر كلهم متفرقون على جهات من مصر الى ان قهر الجميع تحت
حكم فرعون أوسيرطاسن (أو) سيزوستريس ثالث ملوك العائلة الثانية عشر
وضم الى ممالكه بلاد الحبشة وغيرها من السودان وانقرضت عائلته بعده بقليل وغاية
ما يعلم انه تداول مصر بعد ذلك عائلتان وهما الثالثة عشر والرابعة عشر وكان حوادثهما
ليست مهمة فلم يوجد لهما وقائع شهيرة (وأما) الخامسة عشر والسادسة عشر فلهما
اخبار من جهة قوة الملك والترقى فى الصنائع والمعارف وفى آخر الاخيرة ابتدا تسلط الملوك
* الرعاة على مصر وتم استيلاؤهم على قسم عظيم منها أو على كلها لكن بقى للاهاليين
جهة من أعالى الصعيد ملكوا عليها العائلة السابعة عشر من الفراعنة ولم يكن لها
اهمية فى جنب مملكة الرعاة وهؤلاء الرعاة يغلب على ظن محققى المؤرخين انهم من
العرب اجتازوا الى مصر وبقوا فيها مدة طويلة ذوى شأن وسلطان مهيب قوى وقال
بعض الاخباريين ان دخول يوسف الى مصر كان فى دولة هؤلاء الرعاة ولما قضى على
تلك الدولة بالانقراض كان الذى باشر قهرها فرعون أموسيس وانتشأت العائلة
الثامنة عشر ولها عدة آثار باقية الى الآن من المبانى والصور الدالة على قوة الملك
والتمدن كالمسلتين الموجودتين بالاسكندرية والقسطنطينية وكذلك الموجودة برومه

وقال

وقال بعض المؤرخين ان دخول يوسف عليه السلام انما كان في هاته الدولة ويستدل من الآثار ان عبادة الاصنام تفاحشت في مدة تلك العائلة ثم استولت العائلة التاسعة عشر من الفراعنة وكان منها فرعون سيز وستريس المشهور عند اليونان بذلك الاسم وامتدت مملكته من نهر الطونة في اوروبا الى نهر الكنك في الهند وانشأ في كل مملكة افتتحها آثارا تدل عليه وارتقت مصر في مدته الى غاية كبرى من المعارف والغنى حتى قيل انه أول من رسم خريطة لصورة ممالكه الواسعة وزادت ارتقاء ونفراوانتهت في معارف الطبيعيات والهندسة والسحر في مدة حفيده فرعون زمن موسى عليه السلام حتى ادعى مالكه ومعارفه الالوهية وكان من قصته ماهو مذكور في القرآن العظيم ومن غريب ما يستحق الذكر ان مؤرخي مصر القدماء لم يذكر واحادثة غرق فرعون ونجاة موسى عليه السلام ببني اسرائيل بانفلاق البحر مع انها حادثة كبرى وبناء على اهمالها انكرها من لادين له من متشدقي هذا العصر وأضافوا الى ذلك في الاستدلال ان قبر فرعون المذكور واسمه منفطا الثاني موجود بين قبور الفراعنة في الصعيد بالمكان المعروف بباب الملوك فلو كان غرق لما كان له قبر وأجاب عن هذا بعض النصارى بان وجود القبر لا يدل على وجود المقبور كما ان وجوده يمكن ان يكون قبل موت فرعون على عادة أسلافه من احضار قبورهم مضخمة مزخرفة وهو قدهيأ ذلك وان لم يدفن فيه ويحتمل ان يكون ايجاد القبر تعصبا من المصريين وعنادا في اخفاء الامر الذي احاط بهم دفعا للعار عنهم في الاجيال المستقبلة واستدل المجيب المذكور على ان فرعون موسى هو منفطا المذكور بان الذي ولي الملك بعده ابنته وتصرف بالنيابة عنها وجها لانه لم يكن له ولد سواها وابن صغير قاصر فدل ذلك على حدوث أمر عظيم انقرضت به عائلة الملك حتى ساقوه الى امرأة وزوجها مع ان جدهم القريب سيز وستريس المار ذكره قد ترك من الاولاد نحو عشرين فهذا الحادث الذي انقرضت به العائلة ليس هو الا ذلك الغرق لفرعون وملائه اهـ ولا يخفى ان كلا من الجواب والاستدلال غير مسلم (أما) الجواب فان وجود القبر الاصل فيه أن يكون فيه مقبوره سيما اذا كانت عليه كتابة اسمه التي بها عرف انه قبره وتاريخ موته فان الاتر سم الابعد وضع صاحبه فيه واحتمال ان المصريين أقاموا ذلك القبر على تلك الكيفية قصد الاخفاء الواقعة في الاجيال القادمة احتمال بعيد كسابقه لا يؤثر مع الباحث سيما وواقعة غرق فرعون مع ملائه ونجاة موسى ببني اسرائيل بانفلاق البحر من المعجزات

الباهرة التي لا يبقى معها للمصريين عناد بعد مشاهدتها وهلاك ملكهم الذي كانوا يعبدونه فلا تبقى فيهم بقية يفكرون بها عن الاجيال المستقبلة وأين هم من هذا مع افتضاحهم لانفسهم ولجميع معاصريهم ومن هو تحت ملكتهم من الامم المائلين لما بين الطونة والكذب فهم أشغل بانفسهم والانقياد الى الحق أو الى تدارك أمرهم الدنياوي فقط في الاقل بين أعين الامم الذين ينظرون الى هلاك مدعي الالوهية مع امرائه ووزرائه وجيوشه فكيف يخطر لهم في تلك الحالة التعمية على أجيال مستقبلة مع ان سائر معاصريهم ينقلون خلاف ذلك (وأما) الاستدلال فهو غير منتج اذ لا يلزم من تولية البنت انقراض عائلة الملك كيف ذلك ونحن نرى في التاريخ بل وفي خصوص تاريخ المصريين عدة نسوة صرن ملكات مع وجود العائلة بل ولم يزل ذلك جاريا في جهات من الارض الى الآن فلم لا تكون ولاية البنت لان قاعدتهم كانت وراثة الملك لاكبر أولاد الملك الاناث والذكور سواء وتصرف زوجها حينئذ نيابة عنها باختيارها الا لانقراض العائلة وكاني أرى هاتيك التمحلات في الجواب مبنية على اهمال علم السند والرواية أما لو كانوا يعرفون ذلك وجرت عليه اعمالهم لما استحقوا مثل ذلك ولتخلصوا من مهاو مهلكة مع ان علم السند والرواية أمر ضروري بل طبيعي لاخذ الاخبار الغائبة عن المشاهدة واذا بنيت عليه الاحكام استقام الامر وخلص من الغلط والغش والكذب وبناء على اعتبار ذلك فنحن المسلمون نقول ان الذي نقطع بوجوده هو غرق فرعون مصر مع ملائه ونجاة موسى عليه السلام ببني اسرائيل بانفلاق البحر معجزة له أما كون فرعون المذكور اسمه منفطا أو غيره وكون مدته الى الآن كم هي فلا علم لنا بها ولا دليل لنا عليها وذلك العلم حصل لنا بالنقل المتواتر في القرآن من نبينا سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الذي ثبتت نبوته وصدقه بالمعجزات المتكاثرة فاخباره لا شك في صدقه ويوافقنا على ذلك النقل المتواتر من أمة بني اسرائيل منذ حصول الحادثة ممن شاهدها منهم وهم أمة عديدة يستحيل تواطؤهم على الكذب الى من بعدهم منهم ومن غيرهم نقلا منهم جيلا بعد جيل على تلك الصفة الى الآن وعدم ذكر الواقعة في تواريخ علماء ذلك العصر لا ينفي وقوعها لان السكوت عن الشيء ليس بنفي له وهنالك حامل على عدم الذكر لان المؤرخ انما يكون من علمائهم الذين هم أشد مضادة للديانة واذا شاهدوا شيأ مثل ذلك ولم يجدوا وجها للقدح فيه وتخريجه على ما يلائم منهجهم يسكتون عنه على انه مندمج في زمرة ما نسبوه الى اعمال القادحين فيه التي ينسبونها الى نوع من الباطل عنادا

او

أو جهلا والعياذ بالله وانى لا أعجب من انكار ذلك من غير ذوى الديانات من أهل العصر وانما أعجب من انكار النصارى واليهود الآن معجزة لنبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى انشقاق القمر مستدلين على انكارهم بمثل ما استدل علماؤهم فى انكار ✵ واقعة الغرق من عدم ذكرها فى التواريخ مع انهم يجيبون بمثل ما تقدم ونحن نقول ان معجزة انشقاق القمر ثبوتها أبين وأمرها أوضح وذلك انها وقعت ليلا بعد مضى حصة منه لان القمر كان ليلة البدر أى الرابعة عشر وهو فى كبد السما كما تشير اليه روايات البخارى من ان نصفه بقى ظاهرا فوق الجبل ونصفه غاب وراءه والروايات وان اختلف لفظها فهذا مدار معناها ثم ان الحصة فى انشقاقه لم تطل وعاد لما كان عليه ولا ريب ان حوادث السماء لا يشتغل بها العموم دائما الا اذا حدث العلم من قبل بها فتلتفت اليها الانظار أو تقع بحسب الصدفة سيما الامر الذى لا يطول زمانه مثل بعض الشهب المؤثرة للضوء القوى أو غيرها مما لا يطلع عليه الا الافراد صدفة ولا يعلم بخبره فى جميع الجهات والآفاق وان ذكره بعض الناس فلا يثبت عند علمائهم المؤرخين لعدم تيقنه عندهم لعدم ثقتهم باخبار الافراد القليلين فلا يكون سكوتهم دليلا على عدم الوجود على ان وراء ذلك ما هو أوضح وهو ان الممالك المتمدنة اذ ذاك الحاوية للعلماء المؤرخين الذين يمكن لهم رؤية القمر عند استقامته فى كبد السماء فى مكة المكرمة انما هم سكان ما بين شطوط المغرب الى مبادى جبال همالاى أما أهالى أروبا فلم يكونوا اذ ذاك من أهل المعارف والتدوين سوى جهاتها الجنوبية من بقايا الرومان (وأما) الصين وشمال آسيا الشرقية فلا يرون القمر اذ ذاك لغروبه عندهم أو قرب غروبه فى ضوء النهار فهم وان كانوا اذ ذاك متمدنين وعلماء لكن ذلك غير مرئى لديهم ثم ان الممالك المذكورة التى يمكن لهم رؤية القمر اذ ذاك هم فى أنفسهم مختلفون فى الوقت فيكون الوقت اذ ذاك عند الهنود بعد نصف الليل وعند المغربيين عند غروب الشمس أو ما قارب ذلك فى كل من المكانين وها تيك الاقطار ما مضى عليها من وقت انشقاق القمر نيف وعشرون سنة ✵ الا وقد أدخل خالد بن سنان قائد جيش المسلمين فى المغرب قوائم فرسه فى المحيط الغربى وقال ليس لى وراء هذا ما أفتحه وقد بلغت فتوح الجيوش الاسلامية فى الشرق الى بخارى وسمرقند وأفغانستان وسائر تلك الجهات فعلماء هاته الاقطار عند الفتح الذى كان بقرب انشقاق القمر لان الانشقاق كان فى السنة الخامسة قبل الهجرة والفتح تم فى مبدأ خلافة سيدنا عثمان كانوا على قسمين منهم من آمن وهو الاغلب ومنهم من

بقى على دينه (فأما) من آمن وألف فقد روى مثل سائر المسلمين الانشقاق أما لرؤيته
أولرؤية أحد ممن يثق به من أهل وطنه مع التأييد بالرواية المستفيضة والتواتر
القطعي من الصحابة الذين شاهدوا ذلك وعلموه ونقلوه بالكلام الذي يتعبدون
بتلاوته ولا يرتابون فى حرف منه وكذلك صار نقل كل من آمن من سائر تلك الاقطار
ولهذا تواتر النقل بغير ذكر سند واقتصر ذكره على كيفية الوقوع وهو أيضا بالغ مبلغ
التواتر مع ان الاصل ثابت بغير احتياج لسند كما فى سائر التواترات لانه اذا قال قائل
ان الكعبة فى مكة المشرفة فلا يقال له عمن تروى هذا لانه قطعي معلوم بالضرورة
وكذلك نقل الانشقاق لانه متواتر بالقرآن فى قوله تعالى اقتربت الساعة وانشق
القمر (وأما) القسم الثاني من علماء تلك الاقطار الذين لم يؤمنوا فانهم لم يتحقق عندهم
ما تقدم عند المسلمين فمن ثبت ذلك عنده منهم من قبل لاشك انه يضرب عن ذكره فى
تاريخه لانه يكون حجة عليه وهو يتأول فى وقوعه بما تشير له الآية الكريمة فهو
حريص على عدم اثباته بالمرة لكنه لما عارضه النقل القطعي سكت عنه ولم يتعرض له
بنفي ولا اثبات والا فبالهم لم يذكر أحد منهم ان ذلك الزمان قد كان فلان وفلان
يرصدون القمر أو السماء ولم يروا ذلك الحادث مع انهم حريصون على ذكر كل قادح
فى الدين فكان سكوتهم فى الحقيقة هو نفس الاقرار بالوقوع ولا يتخيل مع ماذكرناه
ان مجرد السكوت عنه حجة فى عدم الوقوع والحال ماذكرناه ويتأيد هذا بالممالك
التى بقيت لم تفتح وكان فيها بقية من التمدن وهي يمكن منها رؤية الانشقاق مثل بقية
مملكة الرومان الشرقية والغربية فانهم لما تقاص ظلهم فى تلك المدة القريبة بدولة
ذلك النبي صلى الله عليه وسلم الذى كان من معجزاته انشقاق القمر وهم على دين
النصرانية وثبت ذلك عندهم قطعيا ممن فتحوا أقطارهم وعلموا ان ذلك الانشقاق
حجة لخصمائهم فعلى تقدير ان يكونوا رأوه واثبتوه فى بعض تواريخهم عند وقوعه
فلا يبعد ان أضربوا عنه بعد بلوغ قصته اليهم لكى لا يكون حجة عليهم ولا يبعد اثباته
عند من يأتى من قومهم سيما والملوك اذذاك تحت الانقياد للقسوس وكبراء الديانة
فربما انهم منعوا من ذكره كما يمنعون سائر ما يضر بديانتهم فهاهنا يأتى مثل هذا
التعليل الذى مر ذكره عن بعض النصارى فى شأن غرق فرعون وهو هنا على نحو
ما أوضحناه أبين وأمكن فلذلك قلنا باشتداد عجبنا من انكارهم له ولا يقال لعلهم
أنكروه واستندوا الى عدم ذكره فى التواريخ من حيث وقوع الخلاف فى وقوعه حتى

عند

عند المسلمين لان رواية أحاديثه لا تخرج عن الافراد والآية المارة قد قال بعض المفسرين فيها ان الفعل الماضي وضع موضع المستقبل تحقيقا لما سيقع فلا يكون هنالك النقل بالتواتر للوقوع بالفعل والوجه في سقوط ذلك بديهي عند من تضلع بالفنون الشرعية وبيانه انا قدمنا ان الاحاديث المروية في الصحاح انما هي في بيان الكيفية والاسباب أما أصل ثبوت الواقعة فانه منقول تواترا محققا لان مدار جميع الروايات البالغة حد التواتر على اثبات الوقوع فليس هي من الآحاد وكذلك صريح القرآن قطعي فيه وما ذكره بعض المفسرين ليس هو من كلام أحد من الامة اذ لا خلاف عندنا في ذلك وانما هو من كلام بعض الملحدة والمريبين لادخال الشبهة كيفما كان الحال على المسلمين وان نسب القول بذلك لاحد الامة فانما هو من التزوير والبهتان حيث لم يثبت بطريق الرواية الصحيحة عن الثقاة نسبة قول ذلك لاحد علماء الامة ولذلك لا ترى كل من نقل ذلك من المفسرين الا وقال أثره ويرده قوله تعالى وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر الآية فانه اذا كان المعنى سينشق القمر لا يكون لقوله يعرضوا الخ من معنى لان ذلك الزمن الآتي ليس فيه من مدع المعجزة حتى ينسبوها الى السحر وأيضا قوله تعالى وكذبوا نص صريح في تكذيبهم بأن انشقاق القمر معجزة وانما نسبوه الى السحر وقد جاءت قراءة وقد انشق القمر بزيادة التأكيد للماضي ولهذا نقل الاجماع غير واحد على ان الانشقاق قد وقع وانه لا خلاف بين المفسرين في ذلك وكذلك الروايات في الوقوع قد قال الواقدي انها متواترة بالقطع وبه صرح القاضي عياض وغيره من ممارسي الرواية والحديث وقال القاضي عياض أيضا ما معناه ان من يدعي عدم التواتر في ذلك انما هو الجاهل كمن يغمض بصره ويقول مالي لا أرى الضوء وكذلك هذا فان المعرضين عن الاطلاع على الحديث والسير هم الذين لا يعرفون تواتر الرواية في ذلك زيادة عما قدمنا من صراحة القرآن فيه واجماع الامة على تفسيره بما لا يحتمل تأويلا ولا شبهة ولم يقل أحد خلافه سوى دسيسة الملحدة المذكورة بما لا يروج على عالم وكان نقل كثير من المفسرين لها للرد عليها وهو الذي صيرها ذكرا والحق ان كثيرا من المتأخرين الذين فسروا لم يراعوا حق القرآن في تنزيه تفسيره عن سفاسف الاقوال مما هو مردود بالبداهة وأصول العقائد والاجماع كما وقع في هاته الآية مما جعل للقول ذكرا وان لم يكن له من أساس ولا سند ولا عجب لالحاد الملحدين ودسائسهم في المعاني بما استطاعوا بل انهم طمعوا حتى في

الالفاظ وأرادوا أن يدخلوا عليها الشك والتحريف مع العلم القطعي بتواتر كل حرف من القرآن في محله ومرور ألف وثلاثمائة سنة وعشر سنين عليه ولم يقع الشك فيه ولا راج التشكيك على أحد من الامة من عامتها فضلا عن علمائها ومن هذا القبيل ما رأيته عند كتبي لهذا المحل في تأليف جديد للغوي أحمد فارس سماه بالجاسوس على القاموس فهو وان كان في بابه من جهة اللغة حسن الموضوع لكن لما كان صاحبه غير متضلع بالعلوم الشرعية اغتر وراج عليه ما يذكر في بعض كتب أدبية لذوي مجون متمعرقين بذكر ما يرونه من الطرف والظرائف لتقضية الوقت والتزلف لدى جهال الامراء حتى قالوا ان بعض كلمات القرآن الكريم وقع فيها التحريف واختلاف الرواية في القراءة بسبب عدم وجود الشكل والنقط في الاحرف العربية في الزمن القديم وعدوا من ذلك جملة الفاظ حتى قال ان منها أناناً قرئ أوثاناً وقضى قرئ وصى ويئس قرئ يتبين وعباد الرحمن قرئ عند الخ ولولا التجاهل المقصود لهؤلاء لما صح لهم ذكر ذلك والا فأي ذي عقل يقول ان أحرف الكلمات المذكورة يشتبه بعضها ببعض حتى يقرأ على ما ذكر فمن أين أتت الواو في أناناً حتى صارت أوثاناً وكيف يشتبه القاف بالواو في وصى ومن أين أتت الالف في عند حتى صارت عباد وهذا كاف في بيان التمشدق والا فالحقيقة ان القراآت السبع كلها متواترة باجماع أهل الملة والدين كما نص على ذلك علماء أصول الفقه وأصول الدين وسائر القراء واذا قال أحد مدعي العلم في عصرنا ان التواتر يحصل به العلم العام فالى لم يحصل لي حتى الظن بذلك فضلا عن العلم فنقول ان ذلك من الجهل المركب وذلك لان المراد بكون التواتر محصلا للعلم انما هو عند من علم التواتر وعند أهله أي أهل موضوع التواتر لا عند جميع الخلق ومثاله سهل جدا فانك اذا سألت أحد أهل السياسة وعلماء الجغرافية عن وجود بلد تسمى استكهولم اجابك حالا بانها موجودة قطعا وانها تحت مملكة السويد وانه لا يرتاب في ذلك مثل ما لا يرتاب في وجود نفسه فاذا أتيت لجمهور علماء الجامع الازهر وعلماء جامع الزيتونة وعلماء جامع القرويين وغيرهم من عمد علماء الدين وسألتهم عن تلك البلاد لا تجد عند أحد منهم شعورا بها ولا يجيبك الا بأني لا أعلم لهذا الاسم من موضوع فهل يكون عدم معرفة الجمهور العظيم من علماء الشريعة قادحا في وجود تلك البلاد أو في خروجها عن كونها تحت تلك المملكة بثبوت التواتر لمن يشاهدها من أهل العلم بذلك كلا فكذلك لا يكون جهل جميع الجاهلين قادحا في وجود التواتر بالقراآت السبع بل قال جمع من الاصوليين

ان القرا آت العشرة متواترة فضلا عن السبع واذا كان كذلك فلم يبق محل لدعوى التصحيف أو التحريف فى تلك الكلمات واشباهها مما ثبتت به القراءة وانما جاء ذلك من التشديد فى الذى لا اعتبار له سوى التسويد فى الكتب لينقل عنه من يرى ان العلم كاف فيه وجوده فى كتاب مسود وسيأتى لهذا الموضوع مزيد بيان فى الخاتمة ان شاء الله تعالى ولنرجع الى تاريخ مصر فنقول انه من عهد منفطا وابنه لم يوجد فى التاريخ شئ معتبر من أحوال مصر سوى استيلاء عائلات أخرى الثلاث الى ان بلغت الى العائلة الثانية والعشرين فكان منها فرعون شيشق الاول الذى حارب ملك الشام وهو ابن سيدنا سليمان عليه السلام وفتح مملكته وبقيت تحت حكمه وصور فتوحه على هيكل الكرنك وكتب عليه بالنقش بحروفهم مملكة يهوذا فى قبضتى ثم خرجت عليه الشام وحاربها ابنه وانكسر ثم لم يكن لوقائع مصر من أهمية الى ان استولت عليها العائلة الخامسة والعشرون وهى من ملوك الحبشة وأولها فرعون سبالقون وصارت من هاته العائلة عدة ملوك وحاربوا ملوك أشور التى كانت مملكتهم بين الفرس والشام وعظمت مملكة مصر فى أيام تلك العائلة حتى اتحدت بالحبشة وغالب أفريقية وصار فيها تمدن عظيم حسبما دلت عليه الآثار ثم انقرضت الدولة وانقسمت المملكة المصرية الى اثنى عشر قسما ثم اتحدت تحت العائلة السادسة والعشرين وأولها فرعون أبساميس وترقت المملكة فى أيامه وكان فيها ابتداء استعمال الحروف الابجدية فى الكتابة عوضا عن الكتابة بالصور التى كانت مستعملة سابقا كل صورة علامة على كلمة ومن مدته ابتدأ التثبت فى التاريخ المصرى وانجلى حاله نوعا عما كان من قبل فى اثبات الزمن فكانت ولايته المذكور سنة ٦٦٤ قبل الميلاد وكان خلط بمعارفهم معارف اليونان وكثرت بينهم المخالطة ثم استولى ابنه وفتح من آسيا ومنها بابل وأراد وصل النيل بالبحر الاحمر ولم يتم وخرج عنه أيضا بعض ما فتحه فى آسيا كذلك الشام ثم استولى عدة من ذريته الى أن فتح مصر بختنصر وقتل فرعونها وأولى عليها أحد أعيانها نفاف عليه فسار بنه مملكة فارس وتغلبت على جميع البلاد وصارت مصر ولاية فارسية حدثت فيها عدة ثورات من الاهالى لانقاذ أنفسهم من الفرس ولم تغن شيأ ونهاية خروج مصر من يد أهلها كان فى حدود سنة ٣٥٨ قبل الميلاد ولم يتولاها أحد منهم الى الآن بل كانت سائر دولها من المتسلطين من خارج ثم بقى بعد تلك الثورات استقرار ملك فارس الى ان ظهر اسكندر المقدونى اليونانى

وشرع في الفتوح فافتتح مصر وجعل قاعدتها الاسكندرية كما مر وكان فتوحه سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ثم استولى عليها بطليموس الاول من اليونان أحد قواد الاسكندر عند اقتسام ممالكه بعد موته وانشأت الدولة البطليموسية التي تحفظت على ما امكن لها معرفته من علوم قدماء المصريين وزادت بمعارف اليونان وقد فتح بطليموس المذكور الشام وجعله ولاية مصرية وأهلك من اليهود ما أبقاه بخت نصر حتى لم يبق منهم الا القليل النادر من الرعاع ثم لما تولى ابنه أعتق من وجده منهم وردهم الى بيت المقدس مكرمين وهو الذي أمر بترجمة التوراة من سبعين رجلا من اليهود العارفين باللغة اليونانية فترجمها كل منهم بانفراده وقوبلت التراجم مع بعضها واستخرج من الجميع نسخة واحدة وهي المعروفة الآن بالسبعينية ومع ذلك فهي مخالفة الآن للعبرانية والسامرية وكأن السبعينية أقل تحريفا للاتفاق عليها اذ ذاك وكان تحت مصر اذ ذاك تونس وطرابلس وكثير من جزيرة العرب والشام وكثير من جزائر اليونان ثم تولى بطليموس الثالث وزاد في الفتوح الى ان دخل أواسط آسيا ثم تولى الرابع وقتل اليهود في سائر ممالكه شر قتلة وكان بطاشا وتولى بعده ذريته ولكنهم لم يكن لهم من تقدم اجدادهم سوى اسم الملك أما الاعمال فهي قهرية استبدادية شهوية وسنة الله في انقراض الدول حتى استولت منهم امرأة ذات جمال فائق واسمها كليوباترة فعاثت في البلاد والعباد وضعف ملكها فقصدها أمبراطور الرومان بالحرب وارسل لها جيشا ولكنها لما اجتمعت برئيس جيوشه شغفته حبا حتى تزوجها بعد ان كانت تزوجت أخويها واحدا بعد آخر ثم أقام معها رئيس الجيوش الى ان أرسل اليه جيش آخر وقتل في المعركة ولما أيست الملكة من النجاة مكنت حية قتالة من ثديها فنهشتها وماتت وقد رأيت صورتها في عدة أماكن من أوربا والحية في ثديها وكان بذلك انقراض دولة اليونان من مصر وابتداء استيلاء الرومان عليها فلم تزل ولاية رومانية يلقب واليها بالمقوقس له اطلاق التصرف الى ان جاءت البعثة وخاطب النبي صلى الله عليه وسلم الملوك بالدعوة الى الاسلام فكان من الملوك المخاطبين منه عليه الصلاة والسلام المقوقس ونص الكتاب الذي بعثه اليه بسم الله الرحمن الرحيم من (محمد) عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فاني أدعوك بداعية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فعليك اثم القبط يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا

بعضا

بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون اهـ فاجابه بالعربية
بما نصه بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما
بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه وقد علمت ان نبيا قد بقي
وكنت أظن ان يخرج من الشام وقد أكرمت رسولك وبعثت اليك بجاريتين لهما مكان
من القبط عظيم وكسوة وأهديت اليك بغلة لتركبها والسلام فلم يكن فيه اجابة ولا انكار
واغماء ويومى الى قرب الاجابة ثم فتحت مصر فى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه سنة ٢٠
على يد عامله سيدنا عمرو بن العاص فى جيش عدده ثمانية آلاف وأمده الخليفة باربعة من
أسود الصحابة قال ان الواحد منهم فى مقام ألف فتلك اثنا عشر ألفا ولن يغلب اثنا عشر
ألفا من قلة وتمادى الفتح منها لبقية أفريقية وحيث كانت أخبارها الى العائلة المحمدية
العلوية مبسوطة فى التواريخ لا يمكن استيفاؤها فانقتصر هنا على ذكر الدول وسنيها
وملاحظات فى صفحتها فى جدول خاص هذا وأما بقية الملحقات السودانية وهى القسم
الجنوبى من النوبة وما يليه جنوبا من بقية السودان وقاعدة ملكهم تسمى سنار باسم
المملكة فغاية ما يعلم من أحوالها انها قبل الهجرة بنحو ٣٧٣٥ سنة كان يسكنها
قوم من الزنج لا تعرف أحوالهم ثم وردت عليهم طائفة الكوش من العرب وحصلت
بينهم وبين المصريين وقائع اضطرت المصريين الى اقامة قلاع فى الحدود وتقاص ظلهم
عما كان لهم فى النوبة من النفوذ ثم تسلط أهل سنار العرب على مصر وهم الرعاة ثم
خرجت عنهم كما سبق ذكره ثم دخلت فى أهالى سنار وغيرهم الديانة النصرانية فى القرن
الرابع من الميلاد ثم فى القرن الاول الهجرى افتتح العرب هاتيك الجهات وبقيت على
الاستقلال بادارتها سوى التبعية الدينية للخلافة الى سنة ٨٨٩ فاقبلت قبيلة تسمى
الفنج (أو) الفون ولا يعرف من أين أتت فتغلبت على تلك الجهات وتملكتها وكانت
على الديانة الوثنية ثم أسلمت وصار منها علماء أجلة فى عدة مدن وارتحل منها طوائف
الى قواعد الاسلام لاخذ العلوم فبرعت منهم فحول وكان ملكهم من أقوم ملوك الاسلام
الى أن حدث فيهم التنافر الداخلى والانقسام وتساروا فيما بينهم فجعلوا بذلك وسيلة
لجارهم فى التسلط عليهم فاغتنمها محمد على باشا فرصة واستولى على جميع سنار
بعد استيلائه على النوبة سنة ١٢٣٦ أما شطوط النوبة الشرقية أعنى ما كان منها
على البحر الاحمر فانه كان فى أغلب الاوقات تابعا لمصر حتى بعد الفتح الاسلامى وعند
ما افتتحت الدولة العثمانية مصر بقيت هاته الجهة تحت ادارة خاصة بها تابعة للدولة

الى سنة ١٢٤٣ ففوضت ادارتها الى محمد على وجعلت جزأ من الممالك المصرية وألحقت بها أيضا بلدة أنصبا وملحقاتها التى كانت تابعة للحبشة فاستولت عليها مصر شيأ فشيأ (وأما) دارفور فغاية ما علمت من تاريخها انها كانت من الممالك الاسلامية القديمة وأهلها من اخلاط السودان والعرب وآخر عائلة من ملوكها عربية سودانية يسمى أولهم السلطان عبد الرحمن توفى سنة ١٢١٨ وانتقل الملك فى أبنائه الى ان تغلب على المملكة اسماعيل باشا سنة ١٢٩١ (وأما) زيلع وغيرها من بقية جهات السودان على شطوط أفريقية الشرقية فحاصل ما بلغت اليه انهم قوم من العرب اجتازوا الى هنالك من قبل الاسلام ثم أسلموا فى صدر الاسلام ولما استولت الدولة العثمانية على اليمن وغيره من جزيرة العرب وأفريقية دخلت تلك الممالك أيضا طوعا فى طاعة الدولة ولم تزل مجرية لهم عوائدهم ولها الحكم السياسى الى أن ألحقت ذلك بمصر بمقتضى فرمان منحة الى اسماعيل باشا وورثته وذلك سنة ١٢٩٢ (وأما) بلاد النوبة فكانت قديما مشمولة بملك كرناه فى سنار الى أن استقر الاسلام بمصر فبقى أهل النوبة على الشرك حتى انه فى زمن المأمون لما قدم الى مصر اشتكى اليه ملك النوبة من عامل اسوان وأهلها بانهم ملكوا أراضى فى بلاده بالشراء من أناس والحال انهم أى البائعين عبيده فأحال فصلهم على قاضى اسوان ولم يقر البائعون بالرق فضغن عليهم ملك النوبة وبطش بهم ثم صار التعدى متواليا من النوبيين على أهالى مصر وكلما أغاروا وجه لهم حاكم مصر رادا [illegible] ثم يعودون الى زمن صلاح الدين بن أيوب فالتجأ اليه ابن أخ ملك النوبة مستنصرا على عمه فأعانه وأولاه ملك النوبة وضرب عليه خراجا وألحق بمصر نحو الربع من النوبة ثم لما ملكت الدولة العثمانية استقلت النوبة وكانت حدودها عند مصر مأوى للامراء أصحاب الفتن فيلجؤن اليها الى أن استولى محمد على فاستولى على جميع النوبة وغيرها وصار أغلب أهلها مسلمين ودونك جدول حكومات مصر منذ الفتح الاسلامى

﴿ جدول حكومات مصر ﴾

ملاحظات	أسماء الحكومات	التاريخ من الهجرة
عمال للخليفة من الخلفاء الراشدين ثم الامويين ثم العباسيين *	سيدنا عمرو بن العاص وخلفاؤه	٢٠
سلطان مستقل بالادارة خاضع الى الخليفة العباسى تدينا	أحمد بن طولون وذريته	٢٦٤
مثل سائر العمال	عمال العباسيين	٢٩٢
سلطان مستقل يدين بالتبعية للخلافة العباسية	الدولة الاخشيدية ومنها كافور الاخشيدى	٢٩٣
خلافة مستقلة على مصر وسائر المغرب	الدولة الفاطمية أولها المعز بن المهدى	٣٥٨
مستقلين وتملكوا الشام وغيره وصلاح الدين هو فاتح بيت المقدس من أيدى الافرنج وصاحب الوقائع الشهيرة فى حرب الصليب وفى مدتهم انتقل الخليفة العباسى الى مصر سنة ٦٥٩ وهو صورى فقط	الدولة الايوبية وأولهم استقلالا صلاح الدين وآخرهم شجرة الدر	٥٦٧
مستقلين خاضعين لخليفة عباسى بالاسم	دولة الجراكسة أولهم المعز ايبك زوج شجرة الدر المذكورة	٧٨٤
عمال لآل عثمان لهم ادارة مختارة فوضى	الدولة العثمانية وعمالها ومنهم المماليك	٩٢٢
تغلب نابليون الاول وبقى الى أن أخرج بسيف الدولة العثمانية واعانة الانكليز *	الفرنساويون	١٢١٣

* ﴿مطلب في تاريخ مصر الجديد﴾ لما استولى الفرانسيس على مصر وكان قاصداً التوصل من هنالك الى افتكاك الهند من الانكليز لما كان بينهم من الحروب والعداوة بل وكانت سائر أوروبا اذ ذاك ضد الفرانسا وبين حسبما تقدم ذلك في محله فحينئذ عاضدت انكلاتيره الدولة العثمانية على حرب فرانسا وأخرجاها من مصر ١٢١٦ وبعد استقرار أمرها
* للدولة استولى على امارتها محمد على باشا الذي أصله من الارناؤط وقدم عسكريا مع عساكر الترك لاخذ مصر من الفرانسيس وكان كامل الاوصاف للرياسة فتقدم اليها بنفسه على بني جنسه وانقاد له الجميع وقررت ولايته الدولة على دفع خراج معلوم سنويا وذلك سنة ١٢١٩ فوجد مصر في نهاية درجة الفقر والبربرية والجهل بل حتى ان الامراض الوبائية من الطاعون وغيره تمكنت فيها وصارت عادية تفنى من الناس سنويا خلقا كثيرا حتى قل العمران ولم يبق من مآثر تقدم المصريين سوى الاسم في التواريخ نعم وجود للعلوم الشرعية بقية آثار في الجامع الازهر من العلماء وذلك كله لما مر عليها من تقلبات الدهر والظلم والجور والاستبداد والحروب في الايام الخالية فشمر عن ساعد الجد ووافقه البخت وفتح لمصر عصرا جديدا فنظم فيها جيشا نظاميا من أهلها ورتب الاداء على الاهالي على قانون غير مجحف وألزمهم بتعمير الارض وفتح الترع وانشأ المدارس العلمية للعلوم الرياضية والحربية وأحضر المعلمين من أروبا وأحيى المارستانات وألزم الاهالي بالنظافة وتوسيع الطرقات والبناآت وأرسل التلامذة الى أروبا لتعلم الفنون وأحيى غير العلوم الشرعية وسهل أبواب التجارة وانشأ معامل السلاح والسفن وترجمت الكتب النافعة في فنون شتى من لغات شتى الى العربية فنشأ في مصر جيل جديد وعصر جديد بسطت فيه طرق العمران والتمدن والقوة في مدة يسيرة فافتتح النوبة
* وسنار واستولى على الشام والحجاز وافتكه من الوهابي بل امتد بالاستيلاء الى قرب الآستانة في الاناطولي وخشيت شوكته من عصيانه على الدولة العثمانية فتعصب الانكليز الى الدولة في الظاهر لتوطيد أركانها وفي الباطن خشية من انتشاء دولة اسلامية شابة ذات قوة مثل تلك ومركزها مصر فتخشى ان تتقدم من هنالك الى الهند الذي هو روح قوة الانكليز سيما اذا عاضدتها احدى الدول الاروباوية مثل فرانسا فلذلك حاربته مع الدولة العثمانية التي هي اذ ذاك على ضعف شديد من حرب الروسيا والثورات الداخلية واستقلال اليونان وغير ذلك فقهر واجهد على ولكن لاتمام مقصد انكلاتيره لم تسمح للدولة بالاستيلاء التام على مصر لمراعاة المقاصد المشار اليها أيضا

فكان الاوفق لهما ابقاء مصر على شبه استقلال لضعف كل من الجهتين وبقى محمد على
واليا على مصر على أن تكون الولاية فى ذريته من أكبر الى أكبر ويؤدى خراجا سنويا
للدولة ويعينها عند وقوع حرب معها بالعساكر الذين يبلغ عددهم الاربعين ألفا
وكذلك يعينها بالسفن وان الرتب العالية فى مصر يعين هو أصحابها وتوابعهم الدولة
والسكة والخطبة تكون باسم السلطان العثمانى والعلم عثمانى أيضا وخرج الحجاز عنه
الى الدولة وكذلك الشام وبقى على ذلك الى أن ضعف بالسن فتنازل عن الولاية لابنه
الاكبر وهو رئيس جيوشه وحروبه ابراهيم باشا سنة ١٢٦٥ وكان على قدم أبيه
وتوفى تلك السنة فتولى بعده ابن أخيه عباس باشا بن طوسون بن محمد على سنة ١٢٦٥ *
فاخذ عنفوان التمدن فى شئ من الانحطاط لصرف المداخيل فى الشهوات لكنه أحدث
شيئا من المنافع كبعض طرق الحديد والسلك الكهربائى وأحكم الصلة مع الدولة
العثمانية ثم توفى سنة ١٢٧١ وولى بعده سعيد بن محمد على فزاد انحطاط التمدن *
واتسع خرق الاسراف ومنح لجمعية لسبس الفرانساوية فتح خليج السويس وكثر الدين
على الحكومة ثم توفى سنة ١٢٨٠ وولى اسماعيل باشا ابن ابراهيم باشا فاعاد عصر *
التمدن والمعارف واتساع القوات البرية والبحرية وشدد الالتحام بفرانسا وانكلاتيره
بما جعل له آخذا طريق الاستقلال بالمرة عن الدولة العثمانية وصادف ان كان فى أيام
ولايته حصلت حرب أمريكا المتحدة فى بعضها فانقطع منها جلب القطن الى انكلاتيره
واشتد طلبه من مصر فحصلت فيها ثروة لم تعهد مع امتداد طرق الحديد الى جهات
شتى والى السودان ثم تم فتح خليج السويس فى مدته ودعى له ملوك أوروبا فحضر له كثير منهم
كامبراطور أوستريا وامبراطورة الفرانسيس زوجة الامبراطور نابليون الثالث
من غير توسط الدولة العثمانية مما زاد الشبهة فى دعوى الاستقلال لكنه كانه تحقق
من زائريه ان المقصد لا يتم له فتغيرت سيرته من وقتئذ وعاد لمصافاة الدولة العثمانية
وقد قدم اليه السلطان عبد العزيز بنفسه الى مصر والى مقره فى الآستانة وحصل منه
على فرمان امتياز باقتصار الوراثة فى خصوص بنيه من أكبرهم الى ابنه الاكبر
وهكذا وزاد فى الخراج للدولة وأخذ منها مملكة زيلع وفتح دارفور وكردفان وغيرها *
من السودان وزادت المعارف كلها شعشعة فى أيامه وانشأ المحاكم المختلطة بمصر لمنع
حكم القناصل وانشأ مجلس النواب من الامة لكنه صورى وكذلك مجلس الوزراء
الا ان الكل قصمت امره وحده لكن ازداد الدين على الحكومة بكثرة المصاريف

الداخلية فى انشاء القصور وغيرها كالترع والطرق وبكثرة المصاريف للدول لتحصيل مطلوبه منهم مما ذكرناه واحتقر الاهالى من الظلم وأخذ أموالهم بالضرب وغيره لحد غير معلوم ومع ذلك لم تقدر الحكومة على الوفاء بفائض الديون الاروباوية

وجعلت تزيد فى القرض الى أن توقف المقرضون عنها فتداخلت الدول فى حفظ أموال رعاياهم وانشأوا وزارة فيها وزير انكليزى للمال ووزير فرنساوى للاشغال العامة وتحرش الوزراء غير الاجنبيين حينئذ فى عدم الاذعان لمجرد ارادة اسماعيل باشا وتقلب مرارا فى تغيير الوزراء فلم يفده الى أن ثار الجيش بالامراء متفقا مع مجلس النواب وأهانوا الوزارة المختلطة كلها بدعوى انها نقصت من مصاريف الجيش وعدده لكن المعاملة مع الوزير الفرانساوى كانت لينة وهو معرض عنهم حتى كان لسان الحال يدل على ان لفرانسا باطنا نوع اتفاق مع الخديوى يوافق قصده فى التباعد

من انكلتيره حتى تفطنت لذلك وأرسلت له رسولا خاصا ليبلغه نصيحة شديدة ما لها أن النافع لذاته هو الرفق بالرعية والكف عن الاسراف وان ركونه الى غيرها لا يفيده عند تمحيص الحق فأجاب بالتخلص مما رمى به واشتد حنقه من التداخل الاجنبى الى أن حصلت تلك الامور من العساكر فعزل الخديوى الوزارة فثار غيظ فرانسا وانكلتيره وطلبوا من الخديوى أن ينعزل عن الخديوية فأبى وألحوا الى أن كادوا أن يباشروه بالحرب وكانت الدولة العثمانية اذ ذاك أثخنتها جروح حرب الروسيا التى قسمت بها كثيرا من ممالك الدولة فارادت الدولة أولا أن تحمى الخديوى لكنها لما علمت أن لا مناص من عزله جعلتها كما قيل بيدى لا بيد عمرو حفظا لناموسها وسلطتها فعجلت بارسال

أمر بسلك الكهرباء الى اسماعيل باشا تعلمه بعزله وأمر آخر الى ابنه الخديوى الحالى محمد توفيق تأمره بالولاية وتسلم زمام الامور وذلك سنة ١٢٩٦ ثم سافر اسماعيل الى ايطاليا بحريمه وأبنائه وبقى ساكنا فى نابلى بقصر لحكومة ايطاليا وتصرف الخديوى توفيق فى مصر بواسطة الوزراء وجعل رئيس الوزارة مصطفى رياض باشا وجعل لكل من انكلتيره وفرانسا مراقبا ماليا يحضر مجلس الوزراء وله صوت فيه بحيث لا يمضى شئ الا ما وافق عليه المراقبان وقسمت مداخيل الحكومة على نصفين أحدهما لفائض الديون وقدر تلك الديون نحو ألفى مليون فرنك ومقدار ما عين لفائضها واستهلاك أصلها نحو مائة وستين مليونا فرنكاسنويا والباقى من مداخيل الحكومة يدفع منه خراج الدولة العثمانية وبقية مصاريف الحكومة وجرى التصرف للوزارة بدون مجلس النواب

مع وعد الخديوى عند ولايته بفتحه واجراء مقتضاه الى أن ظهر للوزارة ان تحدث قانونا فى رتب العسكر كان من مقتضاه ان أبناء مصر العارفين بالكتابة والقراءة لا يتجاوزون رتبة رئيس الالف أى بين باشى والذى لا يعرف ذلك لا يتولى الارتبة رئيس عشرة وبقية الرتب يتولاها الدخيلون فى مصر كالترك والافرنج فامتنع من الامضاء على القانون فى وزارة الحرب عدة من أمراء الالايات معلنين بان ذلك خلاف الانصاف فسجنهم وزير الحرب فثارت العساكر وأخرجوهم من السجن وأحاطوا بقصر الخديوى طالبين عزل وزير الحرب فعزل وحصلت (حينئذ) طنطنة لاتحاد العساكر وانصافهم وحياة المصريين ونشأ فى الامة حزب يسمى الحزب الوطنى زعيمه فى الكلام رجل يسمى عبد الله نديم * فصيح اللسان عارف بطرق الكلام وكثرت منه الخطب فى الجامع والمواكب ومن غيره أيضا فى الحث على الاتحاد وأخذ الاشغال لابناء الوطن وكذلك الوظائف والخروج من وطأة الاجانب الذين اشتد احتقارهم للاهالى واستبدادهم عليهم بالمرتبات الباهظة حتى انى لما مررت بمصر كنت أسمع دوى غليان الاهالى من التشكى من كثرة توظيف الاجانب الذين بلغ عددهم نحو ألف ومائتى متوظف يأخذون سنويا نحو أحد عشر مليونا فرنكا مع اقتدار الاهالى على الوفاء بتلك الوظائف ونقصان مرتبهم عن ذلك بكثير ثم بدا للوزارة لزوم التنقيص من عدد العساكر فثار الجند وأحدقوا بقصر الخديوى متسلحين حتى بالمدافع بعد ان أرسلوا الى نواب الدول بالامن عليهم وعلى رعاياهم والاعلام بمقاصدهم وكان رئيس ذلك الاتحاد رجل من أهل مصر فى رتبة أمير الاى فصيح اللسان ثبت الجنان اسمه أحمد عرابى فطلب هو ورؤساء الجيش الاجتماع بالخديوى فلما تيقن الخديوى جد طلبهم بواسطة خطاب قنسل الانكليز معهم تلقاهم فأعلموه بأن مطلبهم هو عزل الوزارة وولاية رئاستها الشريف باشا وجمع مجلس النوّاب واجراء قراره حقيقة وان تكون له الحرية اللازمة لمثله وانه لا يمس حقوق الاجانب وتعهدات الحكومة معهم فلم يسع الحال الا القبول بجميع المطالب واجرائها فعلا وازداد عرابى نفوذا وانطلقت الالسن بالحرية فلما اجتمع مجلس النوّاب ألف قانونه الذى تبتنى عليه أعماله وكان من جملته انه له الحق فى الاطلاع على حساب الحكومة فى الحال وله الرأى فيه مع ان ذلك من * خواص مأمورية المراقبة الفرانساوية الانكليزية فامتنعت وزارة شريف باشا من قبول ذلك لما تعلم من تداخل الدولتين فى الامتناع حتى يفضى الى التداخل فى السياسة وأصر المجلس على طلبه وأظهرت العساكر التعصب الى المجلس فاستعفى شريف ووزارته

ومن هنا انوجت الاعمال عن القصد الجميل لما يوقعها فى الزوال لان العاقل ينظر لجميع مقتضيات الحال ونسبة قوة الدول فيتباعد عن موجبات الفساد ولا تطلب النهايات فى البدايات كما هو القاعدة الشهيرة القائلة من طلب الشئ قبل أوانه عوقب بحرمانه وما بالعهد من قدم قدرأوا تداخل الدولتين فى عزل الخديوى السابق حتى تم مرادهم فكيف يفتح لهم باب التداخل وهم بالمرصاد منهم لكن سبق القدر فلم يتدبروا واستعجلوا فاصروا على طلبهم ففوض الخديوى انتخاب الوزارة الى المجلس مع انه من حقوقه تطييبا لخاطر الاهالى فاستولى رئاسة الوزارة محمود سامى واستولى وزارة الحربية عرابى وابتدء أيضا من هذا الاعتراض عليه من العقلاء فى قبول الوزارة لان مقامه من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر يحجب بتلك الولاية ويصير له غرض خاص به من الارتقاء الى المناصب العالية سيما بعد ان رقى من كان معه من رؤساء العساكر الى رتبة اللواء وقبل هو من الخديوى تلك الرتبة بعد الالحاح عليه فوافقت هاته الوزارة رأى المجلس وكانت اذ ذاك ألسن الاهالى وصحفهم بذيئة مطلقة بالقدح فى الاروباويين والتبجح بما هم عليه مما أسف منه عقلاء المسلمين فهاجت ضدهم صحف أروباجميعا واشتدهم الفرانساويون والانكليزيون حتى أبرقت وارعدت دولتاهم متهددين بالحرب طالبين نفى عرابى وبعض من رؤساء العسكر الذين رقوا الى رتبة اللواء وارجاع وزارة شريف ودحض مطالب مجلس النواب فى التداخل فى أمر المراقبة فوقع اضطراب وهيجان ظهرت فيه دعوى على بعض من العساكر الجراكسة بانهم قصدوا قتل عرابى باغراآت سرية منها المنسوب الى طلعت باشا أحد علائق اسماعيل باشا فنفى أولئك الجراكسة الى الآستانة وبقوا فيها تحت الحفظ مكرمين فى أحد البناآت السلطانية الى أن رجعوا بعد الحرب الآتى ذكرها فلما أصرت الدولتان على ذلك أعان الخديوى بعزل الوزارة فثارت الاهالى والعساكر والزموا الخديوى بارجاع عرابى الى وزارته وقدم اذ ذاك مرخص عثمانى وهو المشير درويش باشا ومعه عدة رجال لاقرار الراحة فى مصر بالوجه السياسى لان الاهالى أيضا اكثروا من التنويه بانتمائهم للدولة العثمانية ووردت منها افراد على الوجه الخصوصى من قبل لاراحة الاهالى وكان الخلاف بين عرابى والخديوى عند قدوم درويش باشا مشتدا حتى ظهر الخبر بأن الاهالى قدموا مضبطة بطلب عزل الخديوى بل جرى الطمع حتى الى اخراج الخديوية عن عائلة محمد على بالمرة وطلب أن تكون مصر مثل البلغار فى امتيازاتها التى منها اختيار الوالى وأن لا تتداخل فيهم الدولة العثمانية

العثمانية بشئ فى ادارتهم بل ربما خرشت مخففهم بانها لو ترسل عساكر ضدهم فانهم يقاتلونهم كما يقاتلون سائر الدول وحينئذ أعلنت كل من فرانسا وانكلاتيره بلزوم ابقاء الخديوى ونفوذه وقطع مضاديه بالقوة الجبرية غيران فرانسا تطلب أن تكون قوتها وقوة انكلاتيره هى الفعالة ولا تسمح للدولة العثمانية بذلك وانكلاتيره على ضدها تطلب مبادرة عساكر الدولة العثمانية لذلك فرأت الدولة العثمانية ان فصل النازلة يتم بدون احتياج الى قوة وأرسلت درويش باشا ومن معه لذلك وحصل من قدومه ما أغاظ كثيرا من الاروباويين لانقياد العساكر المصرية والاهالى للسلطان وامتثال أمره وابتدأ السكون والتوافق والرضى بالحصول شيئا فشيئا لكنه حدث فى اسكندرية التى كانت اذ ذاك مرساها غاصة بأساطيل الدول الاروباوية حادثة شنيعة وهى قتال بين المسلمين والنصارى السكان بسبب مشاجرة عادية فطبل الاروباويون بذلك وزمروا حتى توجه الخديوى ودرويش باشا وعرابى الى الاسكندرية لاقرار الراحة وأقر الدول ان الواقعة عادية لادخل لها فى السياسة غيران أصل المسئلة من اصرار الدولتين على مطالبهم وامتناع أهالى مصر لازال على ما كان وفرانسا أشد اقداما وتهديدا باعلان الحرب وطلبت انكلاتيره عقد مؤتمر فى الآستانة لما يجب من العمل فامتنعت الدولة العثمانية من التداخل فيه لما لها من حق السيادة وحدها على مصر فرأت ان ذلك من باب تداخل الدول فى داخليتها لكنهم عقدوه ودخلت فيه الدولة العثمانية أخيرا وبينما هو فى التفاوض كانت العساكر المصرية تصلح فى حصون الاسكندرية حيث انها خربة ولا استعداد فيها الان الدولة العثمانية كانت جرت على اسماعيل باشا تحصينها عندما أحكم حصن أبوقير بجوار الاسكندرية وحصون دمياط وغيرها لما سبقت الاشارة اليه فى أخبار اسماعيل باشا ولما رأت أساطيل الدولتين ذلك التحصين ادعوا انه تهديد لهم وطلبوا الاقلاع عنه فامرت الدولة العثمانية بالكف من التحصين وادعى المصريون الامتثال وادعى رئيس أسطول الانكليز عدمه وطلب دخول عساكره الى الحصون فتفاقم الخلاف وأطلقت النيران من الاسطول الانكليزى على الاسكندرية فخربتها فى نحو عشر ساعات وتضررت بعض مدرعاته وانحازت العساكر المصرية الى مكان يسمى كفر الدوار وحيشوا هنالك واستولت العساكر الانكليزية على الاسكندرية وبقى الخديوى فيها وانكشف الغطاء على مخالفة العساكر للخديوى وكان معه درويش باشا المذكور فرجع الى الآستانة وبقى مع الخديوى الكاتب الثانى

للسلطان واشتد الحاح انكلاتيره على الدولة فى ارسال العسكر ولم ترسل الدولة الى أن
وقعت عدة محاربات برية كان النصر فيها للمصريين واستولت انكلاتيره على برت
سعيد وسائر خليج السويس وكان أكبر المعسكرات المصرية فى التل الكبير بين
القاهرة والاسماعيلية وتضايق الانكليز فى لزوم قوة كبيرة لهم لاتمام قصدهم لان
فرانسا لما فتح مجلس نوابها الاستشارة فى حرب مصر أنكر ذلك أشد الانكار فسحبت
أسطولها وبقيت على الحيادة والدولة العثمانية وان وافقت أخيرا على ارسال عسكرها
لكن تشدد الانكليز فى جعله تحت أمرهم وأن لا يتصرف الا على نحو اشارتهم وأن يخرج
متى ما أمروه بالخروج ألزم تأخر ارساله وكان تصرف العساكر المصرية بغاية الاحتراز من
الافعال البربرية سوى ما صدر من افراد من العربان والفلاحين فى جهات قليلة وبينما
الامر على ذلك واذا بالدولة العثمانية نشرت اعلانا حسب طلب انكلاتيره بان عرابى
وكل من انحاز الى حزبه عصاة فلم يمض على ذلك بضع أيام الا وقد انحلت عرى التعصب
المصرى ودخلت العساكر الانكليزية الى القاهرة راكبة فى القطار بدون أدنى حرب
ولا معارضة مع ان الجيش المصرى ومن انضم اليه من العربان وغيرهم المتجاوزون المائة
ألف والخمسين ألف محارب باتم قوات الاستعداد فتفرقوا جميعا أيدى سبا فى بضع ساعات
وسلم عرابى نفسه أسيرا الى الانكليز فرجع الخديوى الى مصر وأقيم وكيل مدافع
انكليزى عن رؤساء العساكر المصرية وآل الامر حسب ارادة انكلاتيره ان حكم
بعقاب عرابى لكن الخديوى عفا عنه لانه لم يفعل شيئا الا عن وفاق من يتبع وأبقى له مرتبا
للقيام بنفسه ونفى هو وكبراء الرؤساء الى جزيرة سيلان فى الهند وذلك هو التعليل
الباطنى مع ان حزبا عظيما من الانكليز يرون ان جناية أولئك العساكر سياسية
لا توجب القتل فلذلك حكم عليهم المجلس الحربى بالقتل لكن الخديوى عفا عنهم
وأبدل القتل بالنفى ولم تزل العساكر الانكليزية مقيمة بمصر وحالهم السياسيون هم
مرجع الامر والنهى والوزارة تحت رآسة شريف باشا وناظر الداخلية الذى له كمال
النفوذ رياض باشا وانكلاتيره بصدد ترتيب حالة جديدة للسيرة السياسية داخلية
وخارجية لمصر مع اعلانها بان مصر تحت سيادة الدولة العثمانية على امتيازاتها المقررة
بالفرمانات السلطانية وان الترتيب التى هى بصددها لا تمس شيئا من حقوق الدولة
ولا معاهدات الدول الاجنبية وتقاص نفوذ فرانسا فى مصر ولم تزل غير مسلمة رسميا
لانكلاتيره بمرادها وللروسية ميل الى معاضدة فرانسا هذا ما وقع الى الآن وهو المحرم

سنة

سنة ١٣٠٠ وبه يعلم صحة ما كنا ذكرناه فى استيلاء فرانسا على تونس وكتبناه سنة ١٢٩٨ والله يفعل ما يشاء ويختار وله عاقبة الامور

﴿مطلب فى السياسة الداخلية المصرية﴾ اعلم ان مصر مملكة عثمانية لها امتيازات خاصة بينها الفرمان الصادر فى ولاية الخديوى محمد توفيق باشا وهذا نصه

الدستور الاكرم المعظم الخديوى الافخم المحترم نظام العالم وناظم مناظم الامم مدبر امور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأى الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد اركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى خديوى مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلا والحامل لنيشاننا الهمايونى المرصع العثمانى ولنيشاننا المرصع المجيدى وزيرى سمير المعالى توفيق باشا أدام الله تعالى اجلاله وضاعف بالتأييد اقتداره واقباله انه لدى وصول توقيعنا الهمايونى الرفيع يكون معلوما لكم انه بناء على انفصال اسماعيل باشا خديوى مصر فى اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ وحسن خدمتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا بان لكم وقوفا ومعلومات تامة فى خصوص الاحوال المصرية وانكم كفؤ لتسوية بعض الاحوال الغير المرضية التى ظهرت بمصر منذ مدة ولاصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضى المنضمة اليها المعطاة الى ادارة مصر توفيقا للقاعدة المقيدة بالفرمان العالى الصادر فى ١٣ محرم سنة ١٢٨٣ المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى أكبر الاولاد وحيث انكم أكبر اولاد الباشا المشار اليه وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم هى من المواد المهمة لدينا ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر ان بعض أحكام الفرمان العالى الشأن المبنى على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيه الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديما نشأ منه الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة صار تثبيت المواد التى لا يلزم تعديلها من هذه الامتيازات وتأكيدها وصار تبديل المواد المقتضى تبديلها وتعديلها واصلاحها فما تقرر اجراؤه الآن هو المواد الآتية وهى ان كافة واردات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهانى وحيث ان أهالى مصر أيضا من تبعة دولتنا العلية والخديوية المصرية ملزومة بادارة أمور المملكة الملكية

والمالية والعدلية بشرط ان لا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعد فى وقت من الاوقات فخديوى مصر يكون مأذونا بوضع النظامات اللازمة للداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة وأيضا يكون مأذونا بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الاجنبية فى خصوص الكمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لاجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والاجانب أو الاهالى والاجانب مع أمور ضابطة الاجانب بشرط عدم وقوع خلل فى معاهدات دولتنا العلية السياسية وفى حقوق متبوعية مصر اليها وانما قبل اعلان الخديوية المشارطات التى تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالى وأيضا يكون حائزا التصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد استقراض من الآن فصاعدا بوجه من الوجوه وانما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع الداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يعينون رسميا وهذا الاستقراض يكون منحصرا فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصا بها وحيث ان الامتيازات التى أعطيت الى مصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية وأودعت لديها لا يجوز لاى سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الاراضى المصرية الى الغير مطلقا ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية الذى هو الويركو المقرر دفعه فى كل سنة فى أوانه كذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ١٨ ألفا لان هذا القدر كاف لمحافظة أمنية ايالة مصر الداخلية فى وقت الصلح وانما حيث ان قوة مصر البرية والبحرية هى مرتبة من أجل دولتنا العلية يجوز أن يزاد مقدار عساكرها بالصورة التى تستنسب حالة كون دولتنا العلية محاربة وتكون رايات العساكر البحرية والبرية والعلامة المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم ويباح لخديوى مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية رتبا الى غاية رتبة امير الالاى والملكية الى الرتبة الثانية ولا يرخص لخديوى مصر أن ينشئ سفنا مدرعة الا بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية ومن اللزوم وقاية كافة الشروط السالفة الذكر والاجتناب من وقوع حركة تخالفها وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها فقد أصدرنا أمرنا هذا جليل القدر الموشح أعلاه بخطنا الهمايونى وهو مرسل صحبة افتخار الاعالى والاعاظم ومختار الاكابر والافاخم على فؤاد بك باشكاتب المابين الهمايونى ومن أعاظم رجال دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية

والمجيدية

والجديدة ذات الشأن والشرف حرر في تاسع عشر شهر شعبان المعظم سنة ١٢٩٩ من هجرة صاحب العز والشرف

وبهذا تعلم أصول الحالة التي عليها حكومة مصر (أما) كيفية الادارة فلما قدمناه في التاريخ لا يتيسر لنا التصريح بالحقيقة التي يجري عليها الحال لانها غير مستقرة كما علمت وانما نقول انها الآن للخديوي يتصرف بواسطة الوزراء على نحو القاعدة الاروباوية وما عدا هذا فهو موقوف الى الآن وهو سنة ١٣٠٠ ومن العجب ان بقي الحال هكذا على غير استقرار وكل حين يسمع انهم يريدون ان ينشؤا أساسات للادارة ولم تظهر للوجود مع شدة التشكي من الاهالي من الحالة الراهنة التي ما لها عدم العلم بمرجع الامر وعدم تعيين المتصرف رسميا ونملاك القوة الحربية بيد الانكليز وهم أصحاب النفوذ لكنهم مصرحون بانهم لا يتصرفون في الادارة وانها راجعة الى الخديوي وحكومته وهؤلاء أيديهم قصيرة اذ كل شئ مرجعه صاحب القوة لاسيما بعد ان استعفت وزارة شريف باشا وتولية وزارة نوبار باشا الذي علم ان لا مناص عن مجاراة القوي مع تفاقم الثورة في السودان التي كانت ابتدأت أوائل مدة اسمعيل باشا بسبب تعدي المأمورين على رجل منسوب للصلاح يسمى محمد احمد كان شيخ طريقة وله اتباع فغارت منهم أتباع طريقة أخرى فاغروا بهم عامل تلك الجهة وهي دارفور فارسل اليهم بعض اتباعه فخالفوهم وقهروهم وتكرر ذلك وكلما ارسل اليهم قوة كسروها فحصل لمحمد احمد شهرة الى ان ادعى المهدوية وكانت الاعيان والامراء من السودان في حرج من ادارة المصريين فانضموا اليه بتدبيرهم واموالهم الى ان استولوا على أغلب السودان المصري وكسروا المصرية جيوشا عظاما أحدها يشمل أزيد من عشرة آلاف قتلوهم عن آخرهم واستولوا على مهماتهم وفي اثناء ذلك دخل عسكر الانكليز الى مصر فامرت انكلاتيره بفصل السودان عن مصر واحتقار لهم بامرهم متعللة بانهم لا نفع فيهم للحكومة مع ضيق ماليتها عن الوفاء بصرفهم وكان ذلك سبب استعفاء وزارة شريف باشا متمسكا بان ذلك لا يصح بدون أمر الدولة العثمانية المسلم لها السيادة واضره بمصر أيضا لكن انكلاتيره أصرت على رأيها وأوات نوبار باشا وفائدتها من ذلك هي تضعيف مصر واستقلالة السودان عن وافقتهم اليها لكنهم كانوا أشد عليها عما كانوا مع المصريين فارسلت اليهم انكليزيا كان من اشهر لهم يسمى غوردون كان متوليا عليهم كما كان عاملا عليهم مدة اسمعيل باشا فحاول تسكين ثورتهم فلم يقبلوا منه صرفا

ولابدلافتحص ببلاد الخرطوم وطلب القوة من دولته وكانت الوزارة اذذاك بيد حزب الحرية فاظهروا من التناقض فى القول والعمل مايتعجب منه فى ارسال القوة وأمرها بالتقدم تارة وبالتأخر أخرى الى أن فتح السودانيون الخرطوم وتم لهم جميع أمر السودان وحصل من مجموع الامور الحالة الراهنة فى تضعضع الامور وكثرة التشكى من الادارة التى هى على غير أساس فعقدت انكلاتيرة التى زمامها حينئذ بيد حزب المحافظين اتفاقا مع الدولة العثمانية هذا نص تعريبه (أولا) ترسل كل من الدولة العثمانية وانكلترا مندوبا عاليا الى مصر (ثانيا) يتدبر المندوب العالى العثمانى متفقا مع جناب الخديوى أومع من يعينه هو لهذا الغرض المبين فى الوسائط النافعة لتسكين السودان ويتفاوض المأموران والخديوى فى جميع التدبيرات التى يمكن بها تعديل الاحوال المصرية عموما ويكون اجراؤها برضاء الجميع (ثالثا) يباشر المندوبان العاليان ومعهما الخديوى اصلاح وترتيب العساكر المصرية (رابعا) ينظر المندوبان العاليان مع الخديوى فى جميع فروع الحكومة المصرية ويمكن لهم أن يدخلوا التعديلات التى يرونها لازمة فى كل ماهو داخل فى دائرة الفرامين السلطانية (خامسا) يقع الاعتراف من طرف السلطنة العثمانية بجميع المعاهدات العمومية الاجنبية التى عقدت مع الحضرة الخديوية وذلك اذا لم تكن مخالفة للامتيازات المضمنة فى الفرامين السلطانية (سادسا) عند مايرى المندوبان العاليان ان هناء الحدود استقر وصارت سيرة الحكومة المصرية مستحسنة وأمرها راحة يقدم كل منهما تقريرا الى دولته لعقد الاتفاق باخلاء العساكر الانكليزية البلاد المصرية فى وقت مرضى (سابعا) يقع امضاء هاته المعاهدة فى ظرف خمسة عشر يوما وتكون مبادلتها ممضية فى القسطنطينية اه وقدم المرخصان المشار اليهما فى الاتفاق وعند وصول المرخص العثمانى وهو مختار باشا احتفلت به الحكومة أزيد من احتفالها بالمرخص الانكليزى الذى كان سبق صاحبه (وأما) الاهالى فاحتفلوا بالثانى فقط وعند ملاقاتى معه للسلام مع جمع من الاعيان أنشدته هذين التاريخين أولهما

الى الخليفة تنهى دام منتصرا * قد احتفلنا هنا أرخ بمختار كم

وثانيهما بشرى الهنا المعموم أهل المصراذ * اصلاحها أرخ بمختار نجز

وبقى المرخصان بمصر وهما مباشران الآن للنظر فى الاصلاح وتأسيس الادارة على أصول راسخة فهذا ماوقع الى تاريخ طبع هذا المحل وهو ربيع الثانى سنة ١٣٠٣

(مطلب

«مطلب في السياسة الخارجية» الاسباب التي بيناها في ابهام الداخلية هي بعينها جارية في الخارجية والامور بيد الانكليز وجميع الدول مسلمة بذلك الا فرانسا فمصرحة بالاعتراض ويقتضي ما ذكرنا في سلطة فرانسا على تونس يظهر ان رجحان الانكليز يتم في مصر سيما وهم متخذون طريقتهم في جلب الاهالي اليهم قلبا وقالبا بمراعاتهم لحريتهم وسائر عوائدهم واصولهم كما هو ديدنهم في الممالك التي لهم فيها النفوذ لكن الاهالي مصرون على النفور لان التصرف الانكليزي كان في مصر على صورة لم تعهد من احد قط لانهم في الرسم معلنون بانهم لا يأخذون مصر ولا يجعلونها تحت حمايتهم وفي نفس الامر القوة بيدهم ولا يصدر شيء الا عن ارادتهم الى ان حصلوا على الاتفاق المار ذكره في المطلب السابق مع الدولة العلية فحينئذ صار لهم حق المداخلة برضاء صاحب الحق اقناعا للدول لان بعضهم وهي المانيا اشارت بالتعريض مرارا على انكلتيره بتصريحها بالاستيلاء على مصر والنمسا موافقة لها وايطاليا كذلك مع مزيد التحمس بانكلتيره في المساعدة حتى ادخلت عساكرها الى مرسى مصوع واعانت بالاستيلاء عليها لكنها لا تمس حقوق الدولة العثمانية وهو كلام لا يعقل ولا مفهوم له الا عدم التصريح بالاستخفاف واغرب من ذلك ان الدول اجابوا الدولة العثمانية لما طلبت منهم التداخل مع ايطاليا في خرقها حقوق الدول بانهم لا يتداخلون حيث صرحت ايطاليا بمراعاة حقوق الدولة (واما) الروسيا فلم تبد ممانعة ولا موافقة (واما) فرانسا فكانت ممانعة للانكليز لكنها منذ رأت الدول الكبيرة موافقة على نحو ما رأيت وقد تكفلوا بان تكون عليهم جميعا كفالة قرض الى مصر قدره تسعة ملايين ليره ومع ذلك كله فان الانكليز امتنعوا من الاستيلاء الرسمي او وضع الحماية كذلك بل حتى من كفالة القرض المذكور وحدهم لخوفهم من كونهم اذا فعلوا ذلك فتحوا بابا للدول في اضرار بالدولة العثمانية ويرجع ذلك الى عدم معرفة ما تأخذه كل دولة وترجح به ميزانها فرجعوا على انكلتيره ولذلك مالت الى ذلك الوجه من التراضي مع صاحب البلاد وكان لها وحدها حق برضاه لعلها تتخلص من اضرار الدول بالدولة العثمانية الآيل عليها بالضرر ايضا لكن الاساءة الى الطليان في الاستيلاء على مصوع مع تلك الدعوى التي اقرت الدول بانها كافية في اقناع الدولة العثمانية هل يبقى معه الدواء الذي ارادته انكلتيره وهو ان تداخلها لم يكن الا بالرضى الظاهري فان كل دولة يسوغ لها ان تستولي على بلاد الاخرى وتقول لها انها لا تمس حقوقها والكلام وحده سهل فالحاصل ان السياسة التي

وقعت من الدول فى مصر وبالخصوص من الانكليز أمرها عجيب واختراعها غريب والله فيهم علم غيب هم صائرون اليه

﴿مطلب فى بعض صفات وعوائد المصريين﴾ أما أهل مصر الاصلية فهم مختلطون من العرب الفاتحين وأبناء القدماء المعروفين بالقبط وأبناء الروم الذين امتلكوا مصر نحو الستمائة سنة ولون الجميع أسمر الا قليلا من أبناء الترك والمغاربة وغيرهم من الوافدين الى هناك ولهم حسن أخلاق وظرافة وبشاشة فى الخطاب واذا احتدت نفوس الرعاع للخصام تراهم بذيى اللسان لهم مهارة فى أصناف السب حتى اذا بلغوا الى حد التضارب قال أحدهما لصاحبه (ماعليه شئ) فتسامحوا وعادوا الى المصافاة ومن أخلاقهم حب السماع لكنهم اختصوا بكثرة اظهار استحسانه بالتأوه مع رفع الصوت ولا يتحاشى من ذلك حتى بعض أعيانهم بل انهم يستأجرون أناسا معدين لذلك لكى يصرخوا بالتأوه حتى تحجب أصواتهم صوت الموسيقى والمغنين وتقضى الحصة كلها هكذا ومن عاداتهم احضار قراء القرآن فى بيوتهم ليلا للتلاوة بالانغام ويعطونهم أجورا على ذلك بل من الغريب ان بعض القبط أيضا يفعلون ذلك ومن عاداتهم فى السلام انه اذا دخل الداخل يقف له جميع الحاضرين فيشير بيده للسلام هاويا بها نحو الارض ويرفعها الى رأسه فيجيبونه بنحو ذلك ولا يقع منهم التقبيل الا لليد العالم على ظهرها أوالقادم من سفر يقبل فى كتفيه وسلامهم مع الامراء والكبراء هو بالاشارة أيضا لكنه فيه تعظيم كبير بان يدخل الداخل قابضا يديه الى صدره ويقرب خطاه منكسا رأسه مجللا بالخطا حتى اذا لصق بالرئيس هوى الى الارض كانه يريد تقبيل رجله أوذيل سترته ويمسك الذيل ثم يجعل يده على فيه ثم جبينه والمتواضع من الكبراء المسلم عليهم يضم ذيله اليه كانه يمتنع من ذلك ويقول أستغفر الله أستغفر الله وغيرهم لا يفعل ذلك لكن أكثرهم متواضع وكلهم يقفون للداخل كبيرا كان أوصغيرا الا الحقير بالمرة مع العظيم جدا ويتكرر الوقوف الى الداخل مهما تكرر دخوله الا اذا كان خادما أوصاحب شغل وأكثر ركوب المصريين على الحمير الا العرب فالخيل وتوجد فى المدن العجلات للركوب على أنواع شتى وسائقوها أسوء أخلاقا من أمثالهم فى سائر البلاد وان كانوا فى الجميع غير مستقيمين واذا ركب أحد الاعيان عجلته جعل أمامه رجلا يركض وهو لابس لباسا مزركشا وبيده عصا طويلة وهو حافى الرجل ويصيح بالمارين ليستيقظوا للعجلة وما أصبرهم على الجرى وما أجراهم حتى اذا خرجوا من البلاد وقفوا وذهبت العجلة فاذا رجعت الى البلاد رجع

جاريا

جاريا أمامها والمصريون أهل جد وكد فى أشغالهم لا يميلون الى البطالة بل يقبلون على أشغالهم من غير فتور ويوجد عندهم السؤال المحزون المخفون حتى انهم اذا رأوا من أعطى سائلا يكادون أن يسلبوه ثيابه غصبا من الالحاح بل ربما أضروه فى بدنه فالاصلح بالانسان ان لا يعطى الا سرا لمن يعلم حقيقة محتاجا اذ السؤال صار صناعة لتلك الفرقة ولهم رؤساء وعليهم أداء مقدر ولهم وقائع عجيبة فى الغنى وكتمانه فقد ذكر لى ثقة انه فى حدود عشرة السبعين من القرن الثالث عشر كان أحد الشحاذين مارا فى الطريق فسقط منه كيس وكان بمرأى من أحد الضابطة فايقظه لذلك فلما علم به انه ضابطى انكر ان يكون الكيس له فالح عليه الضابطى وآل الامر الى المشاجرة حتى بلغ الى رئيس الضابطية فامر الشحات باخذ كيسه الذى وجد به عدد كثير من الايرات الذهب فامتنع وأنكر ان يكون له حتى جلده رئيس الضابطية جلدا وجيعا وهو مصر على انكاره فاطلق سبيله وجلده شيخ الشحاذين وداواه من ضربه وشكر صنعه كل بنى جنسه وأدوا له جميع ما خسره فى الكيس وزيادة لانه لم يظهر عليهم أثر الغنى لكى لا يحصل عليهم ضرر ولكى لا تقسو عليهم القلوب ولهم وقائع كثيرة من هذا القبيل مع أيادوصنوف فى الالحاح والتضرع تفتت القلوب ولم أر فى البلاد مثلهم قط ويغلب على الجميع الوسخ فى الثياب وفى البيوت والديار الا بعض الاعيان ومن نحا النحو الافرنجى وأكثر ذلك فى الفلاحين وأصحاب القرى بل ان هؤلاء لا يستحيون من كشف العورة نساء ورجالا (وأما) أهل النوبة وبقية السودان والعرب فقد تقدم فى التاريخ أصلهم وأما عاداتهم فالسودان وان كانوا قريبى الطبع من الهمج لكنهم أحذق أنواع السودان وأقربهم للتمدن سيما من خالطوا العرب فكانوا أمثالهم وأما العرب فهم على نحو الصفات التى ذكرناها فى عرب تونس ومن عادات الجميع ان مبدأ توقيت الساعات عند الغروب فيجعلون اذ ذاك عقارب الساعات فى الساعة الثانية عشرة وهى مبدأ الحساب عندهم وما يقابلها من الاثنى عشر ليس لها وقت معين بل هى على حسب ما يصادف وهذا أول روية لذلك وعليه عمل جميع الجهات الشرقية (أما) جميع الاقطار التى مر ذكرها كلها فانها تعدل على الزوال أى الزوال هو الساعة الثانية عشرة وتنتهى الى نصف الليل فتبتدئ الساعات الاثنتا عشرة التى هى تمام الاربعة والعشرين ساعة المقسم عليها الليل والنهار ولا شك ان اعتبار الزوال أصح فى التأقيت لانه لا يختلف عن زمنه سواء طال النهار أو قصر بخلاف الغروب وذلك لان الزوال عبارة عن توسط الشمس فى قوس النهار وخط نصف النهار يقسم جميع أقواس

النهار بالسواء أعنى أقواس طوله وقصره فلاختلاف الزوال عن وقته بخلاف الشروق والغروب لان الشمس تنتقل عن محلاتها كل يوم وبذلك يكبر قوس النهار أو يصغر فتجد الغروب دائما ما متقدما عن زمنه بالامس أو متأخرا عنه حسب سير الشمس فى طول النهار وقصره بحيث انك اذا حررت الحساب تجد من زوال يومك الى زوال غده أربعة وعشرين ساعة تامة واذا حررته من الغروب الى الغروب القادم تجدها أربعة وعشرين ساعة الادقائق فى أوقات زيادة النهار فى القصر أو أربعة وعشرين ساعة ودقائق زائدة فى وقت زيادة طوله لكن كان عدول الشرقيين عن التأقيت الذى لا يختلف هو محاذاة الشرع فى اعتبار مبدأ اليوم من الغروب وان لم يكن بينهما تلازم

﴿مطلب فى الاحكام بمصر﴾ الاحكام بها الآن على ثلاثة أنواع (النوع) الاول الشرعى الاسلامى وهو فى كل ما يرجع الى الزواج والطلاق والوقف وغيره مما يرجع الى أحوال الديانة فى المعاملات وهذا له قضاة ومفتون على المنهاج الشرعى وان أحدث فيه مصاريف بأخذها القاضى على الدعاوى مع بعض عوائد تجحف بالخصوم مما أوجب التشكى من ذلك والنوع الثانى بقية المعاملات بين سائر الاهالى ولها مجالس سياسية (ومنها) الضابطة تحكم بحسب قوانين سياسية موافقة للشرع غالبا وتارة يحكم الحاكم باجتهاده كما فى سائر الاقطار السودانية والنوع الثالث المعاملات التى بين الاهالى والاجانب فلها مجالس مختلطة من سائر الاجانب يحكمون بقانون عقلى ملائم لعادات القطر وعلى الاجمال فاهل مصر لهم الحرية الشخصية فيما يرجع الى الديانة وشعائرها حتى صارت المنكرات جهرا ولا يقدر الاب على منع ابنته من مثل ذلك بالحكم اذا بلغت سن الرشد وأما بقية الحرية الشخصية وهى أمن الانسان على نفسه وماله وعرضه الا بحق فهذا كانه موجود فى العموم لكن اذا أراد الحاكم المخالفة فالحيل ممكنة وأما الحرية السياسية وهى مشاركة العامة للحكومة فى الرأى فالتحقيق انه غير موجود وان كانت الصحف تتكلم فى السياسة لكنها مخصوصة بالسياسة الاجنبية أما القدح فى تصرفات الحكومة فهو ممنوع نعم لبعض الصحف المستند أصحابها على خصوصيات عينية القدح فى سيرة بعض افراد لمنفعة خاصة والامر موقوف على ما يستقر عليه الحال من الترتيب السابق ذكره فى أحوال السياسة

﴿مطلب فى تجارة مصر﴾ التجارة بها سامتسع جدا فى السلع الوطنية والهندية والسودانية والاروباوية وأغلب الاروباوية فى يد الاجانب (فاما) غيرها ففى يد الاهالى

ولهم

ولهم براعة فى الاكتساب ولكنهم قليلوا الاسفار فلا تكاد تجد منهم خارج ممالكهم الا النادر وكل من أقام بمصر من الغربا ربح الربح الحسن من التجارة لان محصولات الاقطار كثيرة فيخرج منها أنواع كالقمح والشعير والفول والتمر والعدس والذرة والارز والسكر وهو جيد كثيرا وقصبه والصمغ وفيه أنواع شتى والنطرون والصوف والافيون والعصفر والجلود والحصر والقطن وهو الغالب وفيه أنواع جيدة وبزره وكذلك سن الفيل وريش النعام والمنسوجات الكتانية وغيرها وهذا كله يصدر منها أما الداخل اليها فأهمه الجوخ أى الملف والحرير والشاشية والزرابى على أنواع والاخشاب للبناء والوقد والعنبر والنقل كالفزدق والجوز والاشربة والبن والصابون والدخان والورق والشمع والزجاج والنحاس وغيره من المعادن مصنوع وغير مصنوع والفرش الصوفية وغيرها بحيث ان مصر مسابقة لاروبا فى الغنى بالتجارة وأنواعها مختلفة منها ماهو على النحو الاروباوى كالتجارة فى الرقاع الدولية والتجارية ولها مرسح عظيم فى الاسكندرية وكذلك البريد فيها على غاية الانتظام برا وبحرا خاص بالحكومة وتأتى اليها أيضا برد أجنبية بحيث لا يخلو يوم من ورود بريد اليها من الاقطار مع السفن التجارية الكثيرة ومنها ماهو على النحو البربرى من التجارة فى القوافل الى دواخل السودان والصحراء واهمها القوافل السنوية وهى قافلة دارفور وقافلة الحبش وقافلة فزان ولكل منها عند وروده يوم حافل وكل منها تأتى بتجارة ماوالاها من دواخل افريقية ولو زاد تسهيل الطرق والاعتناء بها فى السودان لاستغنت عن الخارج وزادت ثروتها للنهاية فان فى السودان كنوزا مكتومة ودونك قيمة قوة التجارة مع الممالك الخارجية لتعلم منه ما يفضل سنويا من المال فى المملكة

٣٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ قيمة السلع الخارجة فيها

١٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ قيمة السلع الداخلة سنة ١٢٨٩ نحو فرنك

٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ الفاضل

فلولا فائض الدين الاجنبى الذى يخرج سنويا الى أروبا حيث كان أغلبه بيد الاجانب لكان يبقى سنويا فى مصر مائتا مليون فرنكا ولكن مع ذلك أيضا فلاأقل أن يبقى فيها خمسون مليونا كل سنة هذا فضلا عن حركة التجارة فى داخل المملكة وبين أقسامها

﴿مطلب فى الصنائع بمصر﴾ عنصر الصنائع منحط بالنسبة لتقدمها وان كان بها بعض المنسوجات الحريرية والقطنية وغيرها كالفخار والتجارة حتى فى السودان لكنها متأخرة

عما يجب لها ثم ان الفلاحة من الصعيد الى نهاية بحر الروم هى فى غاية التقدم وللفلاحين معرفة جيدة بكيفية رى الارض حتى بالآلات الجارية الرافعة للماء من النيل والترع وبكيفية اثارة الارض وتعميرها فلهم اليد الطولى فى ذلك وترى الفلاح بنسائه وبناته يشتغل آناء الليل وأطراف النهار وأصحاب الفلاحة من الاعيان لهم منازل فى أراضيهم لمباشرتهم الاعمال ولهم ثروة عظيمة من ذلك أما أنواع الفلاحة فهى زراعة القمح والشعير والفول والعدس والحمص والترمس الذى يتخذ منه الاشنان والكتان وخس الزيت والسلجم لما فيهما من الزيت والبرسيم والجلبان والبلة والحلبة والقرطم وهو حب العصفر والخشخاش والخردل وغير ذلك من الخضروات والحبوب والقطن على أنواع لذاته ولبزره لخروج منه الزيت للصابون والتسريج وكذلك قصب السكر الرفيع ويزرع أيضا التبغ المستعمل للتدخين والفول السنارى فى كل من السودان ومصر وهو صالح للاكل ويستخرج منه زيت جيد لذيذ لا رائحة له ولا طعم واذا اشعل ليس له دخان مثل غيره (وأما) الاشجار فلا يكثر عندهم الا النخل فى جميع الجهات والزيتون استنبت لكنه ردئ الزيت لكنهم لهم حبوب أخرى زيتية كالسمسم والخروع غنية جدا (وأما) البرتقان والليمون فهو قليل والموز كثير غير لذيذ وعندهم شجر الدوم الشبيه بالنخل وكذلك الاهليج ويزرعون الزهور الطيبة مثل الورد والياسمين وغيرها والاشجار الغير المثمرة قليلة كما تقدم تفصيله فى التعريف بمصر وأيضا قد وجد اعتناء بأنواع من الصنائع سيما التى تمس اليها حاجة الحكومة فتقدم فيها الاهالى كصناعة الاسلحة والبوابور وتوجد معامل للحكومة منها نحو عشرين للسكر متقنة ومعمل آخر لسبك أحرف الطبع وتجليد الكتب ومعمل للسلاح وآخر للسفن وحوض لها وآخر للجوخ وآخر للدبغ وآخر للورق وكلها على النحو الاوروباوى المتقن ويمكن أن تقوم بنفسها من الاهالى حتى فى صنع المدافع والبنادق من الطرز الجديد وللاهالى أيضا عدة معامل فى صنوف شتى (وأما) الجهات السودانية فكثير من أراضيها وان كانت صالحة للزراعة لكنهم يهملون بها فلا يوجد منها الا القليل حول المدن واشتغالهم انما هو برعى الغنم والخيل والابل وصيد الوحوش النافعة للتجارة كسن الفيل وريش النعام وجلد الاسد والنمر وتحصيل الذهب من معدنه الملتق بالطبع كالتبر من سنار والصحراء وغيرها

* (مطلب فى المعارف بمصر) العلوم الشرعية كلها نافقة فى القاهرة وكفى بالجامع الازهر

مدرسة للعلوم عامة فقد دخلت اليه ووجدته يزدحم بالدروس والتلامذة ولهم طريقة حسنة فى سرعة ختم الكتب اقراء بحيث ان كل كتاب لهم فيه مدة معينة لا يسوغ مجاوزتها ولا يخرجون فى التقرير عن الشارح والحاشية المعينة للقراءة ووجدت عندهم اعتناء فى الاقراء بالحواشى بحيث لا يقرا كتاب بلا حاشية معينة يتفق عليها الشيخ والطلبة ولهم اصطلاح فى الاوقات للعلوم مثلا الصباح كله الى الزوال للعلوم النقلية كالفقه والحديث الخ والمساء للعلوم العقلية كالنحو والبيان الخ ويقرأ فقه المذاهب الاربعة وللازهر شيخ هو مثل شيخ الاسلام له النظر على سائر العلماء وتوظيفهم وكثير من التلامذة يقيمون بالازهر فى رواقات خاصة وتجد صحن المسجد ملآن بالتلامذة المطالعين والحافظين للمتون وغيرها وفى كل من الاسكندرية ودمياط وطنطا جوامع حافلة بالعلوم الشرعية وفى بعض مدن السودان أيضا مثل سنار وبربر كذلك ومن عاداتهم جميعا فى الدروس التطويل حتى يبلغ الدرس الى ثلاث ساعات ولا أقل من ساعة ولذلك كان للتلامذة الاطلاق فى هيئة الجلوس بل حتى يتكئون على جنبهم ووجوههم ويأكلون وينامون وهم فى الدرس (وأما) العلوم الرياضية فلها مدارس عديدة منها للابتدائيين ومنها للانتهائيين جامعة لتعلم اللغات كالتركية والفارسية والانكليزية والفرانساوية ولتعلم الطبيعيات والفلاحة والهندسة والحساب والجبر والهيئة والفلك والطب والتشريح العلمى والعملى والكيمياء وتركيب الادوية وسائر العلوم ومعلموهم من الاجانب والاهالى وفى المدارس سائر الآلات والكتب المحتاج اليها ومنها ما هو مجانا ومنها ما هو بالاجر من التلميذ ومنهم المقيم ومنهم المتعلم فقط وكذلك المدارس الحربية وهذا كله خاص بالقاهرة وتليها اسكندرية (أما) بقية البلدان فلا يوجد بها الا المدارس الابتدائية فى بعض مدن والبقية انما يوجد بها مكاتب للقرآن والخط وبعض من العلوم الشرعية فى بعض من الجوامع لكن لا توجد بلدة ولو قرية صغيرة بدون مكتب وقد أخذت هاته المكاتب الابتدائية فى التحسين حتى شملت تعلم مبادى الحساب والعبادات والعقائد ورأيت فى جغرافية فكرى احصاء فى سنة ١٢٩٣ لاحوال المعارف دونك خلاصته

تلامذة	مكاتب ومدارس	معلمين
١٤٠٫٩٧٧	٤٨١٧	٦٠٤٦

ولاشك ان العدد تزايد من ذلك التاريخ فلاشك انها فى غنى عظيم بالمعارف والعلوم

النهائية الرياضية يكملون تحصيلها فى الممالك الاوروباوية ورأيت من تلامذتهم فى باريس ولندره وجنيف وغيرها ورأيت فى مصر وبانوها مآثر العاملين والرؤساء من الاهالى والاجنبيون متوظفون لا للضرورة بل لدواع أخر ولهذا وقع التشكى المشار اليه فى بحث التاريخ وقد كثرت المطابع وطبعت فيها الكتب مما جعل سائر المسلمين ممنونين لهم وكذلك كثرت الصحف الخبرية يومية وأسبوعية لكنها فى الحرية على حسب حالة الحكومة

﴿مطلب فى هيئة المساكن﴾ البناء الجديد كله على النحو الاوروباوى ظاهرا وباطنا سيما محلات الحكومة ورجالها (وأما) الابنية القديمة والمعتادة للاهالى فليست بجميلة الظاهر بل انه لما كان الطين الذى يبنون به مسودا من أصل لون التراب ولا يضعون فيه الجير الا قليلا حيث كان غاليا ولا حاجة اليه لقلة المطر أو انعدامها عندهم ثم انهم لا يطلون ظاهر البناء على الطرق ولا يبيضونه فصار منظره بشعا وان كانوا يتأنقون فى الرواشن الخشب بالنقش والهيئة لكنهم أيضا لا يصبغونه فيكون لونه مكدرا وصورة عموم الديار ان يكون فيها دهليز ووسط غير مسقوف يحتوى على بعض بيوت لجلوس الرجال والضيوف ووضع بعض المرافق ومحل لغسل الثياب والطبخ محجوز للنساء كل ذلك فى الطبقة السفلية ثم باب ودرج فى الغالب غير حسنة يتوصل منها للطبقة العليا فتجد فيها عدة بيوت أغلبها مائل الى التربيع ويكل منها طواقى للضوء والنظر وتجعل أيضا كنيفا بالوعته مكشوفة وغالبا تحصل منه رائحة كريهة وغالبا تكون البيوت والدرج غير مبلطة ويستعوضون عن ذلك بفرش الحصر والزرابى فى البيوت ويجعلون عليها للجلوس اما مساطب من خشب أو تبن وعليها مقاعد محشوة قطنا وعلى الابواب ستارات ليست بانيقة واغلبها هى من منسوجات القطن وحول المقاعد متكئات بالسة محشوة تبنا وعليها أغطية من القطن ولا يزيد البناء على طبقتين غالبا وأما الاعيان فتكون ديارهم على ذلك النحو لكنها أكبر وأنظم وأنظف وربما زادت طبقة ثالثة الى السابعة فى القديم والمفروشات تكون حريرية وصوفية جميلة مع تزيين البيوت بالمرايات والساعات والادوات الصدفية والذهبية والفضية على حسب الرفاهية ويكون فى الطبقة السفلى التى للرجال دواوين كبرى وفى أطرافها دكة من البناء عريضة للجلوس عليها والجميع مبلط بنحو الرخام والكذال وعند الجميع فرش النوم عدة فرش محشوة قطنا أو صوفا خفيفة يوضع بعضها فوق بعض من اثنين الى ثلاثة توضع ليلا عند النوم وتسوى بالوسادات واللحف

وتارة

وتارة يوضع عليها ناموسية ثم يرفع جميع ذلك صباحا ويوضع فى خزائن فى البيت معدة لذلك ويبقى البيت للجلوس فليس لهم فرش دائمة ولا مكان خاص بالنوم وخدمتهم من ذلك فى تعب كبير وتلك العادة جارية عند جميع المشرقيين فيما رأيت من البلدان لكن من اتخذ تقليد الاوروباويين صارت بيوتهم وديارهم ومفروشاتهم ونومهم كله على نحو ماذكرنا فى بلاد أروبا ومما تعجبت منه فى مصر رؤيتى للزرابى مفروشة وغير ذلك مما ذكرناه مما يزيد فى الحر مع ان قطرهم حار وكان الاولى به الرخام والزلز وغير ذلك مما يبرد المكان ويروق هواءه لكنى لما تذكرت قاعدة الناس على مذهب أمرائهم زال عنى التعجب وذلك ان أمراء مصر منذ مدة طويلة وهم من الترك وهؤلاء بلادهم باردة فجروا فى مفروشاتهم على ما اعتادوه فى بلادهم وقلدتهم الاهالى وحتى العائلة الخديوية الآن لم تزل ناهجة منهج شارة الترك واصطلاحهم بحيث لا يشك الرائى انها قسم من الدولة التركية لما يرى من أسلوب جميع حركاتهم وهيئتهم هذا (وأما) الطرقات فالجديد منها متسع تمر فيه العجلات والقديم فى ضيق عظيم لا يكاد يتخلله الهواء وكلها غير مبلطة الا اسكندرية لان المطر قليل النزول عندهم أو مفقود الا فى اسكندرية وفى كل بلد نظارة لنظافة الطرق والتنوير ليلا ولتحسين البلاد على حسب التيسير اذ لم يزل العمل متماديا فى توسيع الطرق ومصيبة ضيق الطريق عامة فى سائر بلدان المشرق التى رأيتها وكان ذلك فى الاقاليم الحارة لشدة الحر فاذا ضاق الطريق لا تنزل الشمس الى الارض لارتفاع الابنية فيقل الحر نوعا ما لكن ذلك مضر بالصحة لصعوبة تخلل الهواء وكثرة الندى ومخالف للشرع أيضا لان المشروع فى الطرق ان يكون عرض المعتاد منها سبعة أذرع والطريق العام اثنى عشر ذراعا والبطحاآت التى من المشروع أيضا ان تكون أمام المسجد تكون ستين فى ستين كما نص على ذلك فى الفقه والسير وصرح به مكتوب الخليفة الثانى سيدنا عمر رضى الله عنه الآمر برسم الكوفة ومما ذكره ان لا تزيد طبقات دورها عن طبقتين والوجه فى ذلك هو ان الدار اذا اشتملت على أكثر من طبقتين سكن بها أزيد ممن يسكن فى طبقتين فتصغر البلد مع انها بلاد اسلامية منشأة فى وجه العدو فالاصلح تكبيرها وأيضا فساد الهواء من كثرة الاجتماع فى محل واحد ضيق المساحة اذا كان ذا طبقات كثيرة وأيضا تعب الساكن بكثرة الصعود وأيضا كثرة التعب والاسراف فى مصروف البناء اذا علت الطبقات لان المصروف فى الطبقات العليا أزيد بكثير من الطبقة السفلى لما يحتاج اليه من كثرة العملة وأيضا فيه نوع من الكبرياء

والتحيز المنهي عنه شرعا وعلى هذا فضيق الطريق قبيح شرعا وعقلا وحر الشمس يدفع بما يعمل من المظلات والسقوف كما هو واقع في عدة جهات من مصر في الاسواق بل وفي الطرقات أيضا من سقوف خشبية بعضها حسن و بعضها ليس فيه الا دفع اذاية الشمس والطرقات في القاهرة ترش بالماء عدة مرار في اليوم حتى يحصل فيها نوع طين والطرق الجديدة العامة كلها معصبة الارض وحواليها الاشجار المظلة والقليل من الديار بها حنفيات و بها ماء النيل جار في القنوات والغالب ان يأتي السقاؤن بقرب أو براميل من ماء النيل غير المصفى و يخزن في الديار في جرار كبيرة وكل دار لها عدد معلوم يأتي لها به السقاء بثمن معين

﴿مطلب في اللبس بمصر﴾ (أما) لبس رجال الحكومة العادي والرسمي فهو على النحو الافرنجي غير ان الشارات والعلامات هي تركية صرفة حتى الشاشية والسترة والنياشين هي ذات العثمانية باسمائها (وأما) لبس الرجال فاهل المدن الاعيان يلبسون قميصا وسراويل واسعة يربطونها تحت القميص ويسدلون القميص عليها وهو طويل الى نحو نصف الساق و يلبسون عليه صدرية مقفولة الوسط بعقد وفوقها قفطان طويل الى الكعبين ويداه تصل الى أصابع اليد ويطبقونه على صدورهم ثم يتحزمون عليه بحزام ويلبسون فوق جميع ذلك جبة طويلة أيضا الى حد القفطان ومقدمها مفتوح الى الاسفل ويداها ضيقتان الى أسفل المرفق والجميع من الحرير من منسوجات رفيعة وعلى رؤسهم شاشية تونسية وعمامة قليلة الطول ملفوفة على نحو العمامة التونسية وهو لباس العلماء وكبراؤهم يزيدون فوق الكل جبة واسعة جدا وواسعة الاكمام أيضا و بعضهم يلبس العباءة عوضا عن الجوخة والقفطان (وأما) الاواسط و بعض التجار فيلبسون القميص من أسفل وفوقه صدرية مثل السابقة وفرملة أي صدرية غير مقفولة ومنتان يصل الى الحزام وسروالا واسعا جدا طويل الالية الى الارض اسود اللون و يتحزمون به فوق القميص وعليه حزام والجميع من المنسوجات الرفيعة المخيطة والمزينة بخيوط من الحرير حتى تصير كلها مزينة وفي الشتاء يلبسون فوق ذلك كبوطا من الجوخ يصل الى الركبة وعلى رؤسهم شواشي تركية وحدها أو معها عمائم هندية مطرزة بالحرير (وأما) الاسافل والخدمة فيلبسون من الشكل الاول الى القفطان وفي الاكثر يكون من قطن أبيض وعليه بنطلون افرنجي وشاشية تركية أو تونسية والفلاحون وأهل القرى يلبسون قمصا زرقا ومراقية لبس الاول يلبسون في أرجلهم شيئا (وأما) بقية الاصناف فيلبسون الاحذية على أنواع شتى من الانواع الافرنجية أو نوع

من

من الحذاء أحمر بلا قدم عال ومن جهة الاصابع يكون مخروطا منحنيا مخروطه الى أعلى

(وأما) النساء فالصنف الاسفل يقتصر على القميص ولا يتستر فى الطريق بل رأيتهن يخدمن فى آلات البناء وينا ولن الحجر والطين وغير ذلك مثل الرجال وهن مشوهات الوجوه (وأما) الاواسط والاعالى فبعضهن صرن يلبسن مثل نساء الافرنج تماما سوى ان غيراتهن اذا خرجن فى الطريق يلبسن رداء من حرير ويتنقبن بصفيق من الحرير أو القطن على أنوفهن فما دونها وفى الحقيقة وجوههن كله مكشوف واذا ركبن فى العجلات تكون طواقيها مفتوحة غيراتهن يسدلن ستاراتها نحو النصف من الطاقة والبعض الآخر الذى لم يزل على العادة القديمة فيلبسن على القميص فرملة مزركشة بالفضة وعليها عباءة رفيعة وعلى رؤسهن خوطاسة من ذهب أو فضة أو نسيج رفيع وكل ثيابهن يصل الى الكعب واذا خرجن التحفن فى رداء ثخين وعلى وجوههن نقاب ثخين ويجعلن على الانف شيئا مثل الاصبع ممسوكا فى النقاب ليبعد النقاب عن الاعين والانف للنظر والتنفس والنساء لهن صولة على الرجال فى البيوت

﴿مطلب فى الاكل بمصر﴾ (أما) الخبز فالعام عند الجميع هو نوع مستدير فى ارتفاع أصبع قليل النضج قطره أزيد من شبر ويوجد بقية أنواع الخبز الافرنجى (وأما) الاطعمة فلها أنواع عديدة والغالب فى الاسواق نوع من الفول مطبوخ فى الماء وعليه شئ من السمن وكذلك نوع من السمك مقدد عفن الرائحة وسائر طعامهم فيه الادام بكثرة وادامهم السمن (وأما) الزيت فلا استعمال له الا فى السلاطة وزيتهم ردىء لانه مجلوب من اكريد والشام وكل لا يحسنون عصر الزيتون والحسن عندهم هو المجلوب من ايطاليا ولا يستعمل الا فيما ذكرناه كما انهم لا يأكلون من اللحم الا الغنم ولحم البقر لا يأكله الا الفقراء وهو معيب كما انه فى نفسه ردىء والافرنج يأكلونه والفقراء يأكلون الجاموس والابل وفى القرى والعرب والسودان يكثر أكل الابل وكذلك الذرة والدخن أى الدرع أما هيئة الاكل فهى على نحو الانواع التى ذكرناها فى تونس (وأما) وقته فهم يأكلون مرتين غالبا احداهما صباحا بعد الشروق ويخرجون الى أشغالهم ثم يعودون الى ديارهم قرب الغروب فيتعشون

﴿مطلب فى المواكب﴾ (أما) المواكب الرسمية فهى فى العيدين أى الفطر والاضحى فيجلس الخديوى فى ايوان كبير بقصره بعد الاعلان من قبل بوقت المعايدة ويكون لابسا لباسه المزركش الرسمى متقلدا بنياشينه فيدخل عليه رجال دولته والعلماء والاعيان واحدا اثر الآخر مسلمين عليه بتقبيل ذيله ويقف هو للكبراء

ثم ينصرفون ويكثر تزاور الناس فيما بينهم (وأما) الاعراس والختان فيحتفلون
لها بزينة الدار ويدعون طباخين معدين لذلك فيأتى الطباخ بسائر أدوات الطعام
والموائد والمناديل والخدمة ويطبخ كفاية كل المدعوين الذين يعين لهم
الوقت للدعوة من بعد الظهر الى قرب الغروب ومهما حضر اثنان أو أزيد أدخلوا
الى بيت كبير وتقدم لهم مائدة على قدرهم فيها أنواع شتى من الطعام المطبوخ والحلو
ويكثرون من الاصناف الى نحو العشرين لونا والمترفون يزيدون الى نحو الاربعين لونا
وهكذا الكل جماعة بحيث يأكلون أكل شبع ولا يوضع اناء يظهر عليه انه به أثر أكل
سابق وعادة تكثير الطعام موجودة حتى للضيوف بل حتى فى الاكل العادى يوميا
بحيث ان أواسط الناس لا يكون فى مائدتهم أقل من ستة ألوان فطورا وعشاء ولهم
عادة التطوف بالمختون على نحو ما ذكرنا فى تونس بل ويزيدون بالتطوف به ليلا
والشموع والمنائر موقودة والمغنون رافعون أصواتهم بالشعر والمدائح وكذلك
الاعراس يطوفون بالعروسة ومعها الموكب والطبول والمزامير تعزف ولهم أيام لبعض
المنتسبين للصالحين يخرجون فيها تلامذتهم بالالبسة الرفيعة والاعلام والمباخر وغيرها
وينبطح بعض الناس على الارض فى الطريق ويأتى شيخهم راكبا فرسه ويمر فوق أولئك
الملقين ولا يضرهم وطئ أرجل فرسه يدعون ذلك كرامة وأعظم المواكب يوم خروج
ركب الحاج وكسوة الكعبة فيحضره الخديوى والعساكر وخلائق لا تحصى وتحمل
الكسوة فى محمل على جمل مزين ويحاذيها الخديوى وكبار الدولة بل قد فعل ذلك أمراء
الانكليز مع الخديوى بغاية التوقير والمدافع تطلق الى أن يخرج الركب عن البلاد
وينزل هنالك حتى يجتمع المسافرون ويتوجه برا الى الحجاز ويحمل ذلك الركب أيضا
أموالا عديدة لمرتبات وعوائد لاهل الحرمين مع صدقات ومحصول وقف الحرمين ومن
المواكب مولد السيد البدوى فى بلد طنطا ويعقد فيها سوق عظيم تأوى اليه التجار من
سائر أطراف القطر المصرى ولهم حكايات فى كراماته رضى الله عنه فى نفاق السلع لكل
قادم غير ان ذلك السوق يشتمل من منكرات الزنى ما يستقبح ذكره وشهرته (وأما) الجنائز
عندهم ففيها من عادات الجاهلية أمر فظيع جدا وذلك انه اذا مات الميت تأتى النائحات
الصائحات وتبقى تنوح أسابيع ليلا ونهارا ما يزعج أهل الحارة بحيث انى سكنت المكث
بدار صديق فى الاسكندرية لموت جارله ولم أستطع النوم ليلا ولا نهارا وأقبح من ذلك
ان النائحات والنسوة يخرجن مع الجنازة فى الطريق الى أن تدفن ويرجعن هكذا

ناصحات والغريب ان ذلك يقع ولو فى محلات العلماء مع انه منكر شرعا وفيه وعيد شديد وكذلك انكاره عقلا وعادة ولهم اتباع للسنة عند دفن الميت فيطلب قائل الشهادة فيه من الحاضرين فيشهدون فيه بالخير عملا بحديث من أثنيتم عليه شرا وجبت له النار ومن أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة أو كما قال صلى الله عليه وسلم

﴿مطلب فى اللغة بمصر﴾ اللغة هى العربية ولو فى السودان غيران بعض جهاتهم لهم لغات أخرى بربرية لكن اللغة العربية حرفت هنالك كثيرا سواء فى تغيير الحروف أو فى ذات الكلمات فان الجيم لا يكادون ينطقون به وكذلك الذال يبدلونها زايا الى غير ذلك واذا سألك أحد عما تريد قال (تعوزايه) وأشباه ذلك بل ان ذلك جرى حتى عند بعض أصحاب الصحف فيكتبون كتابة مختلطة بين أصل العربية والاعتيادية مع ان الاصل فى الكتابة هو الرجوع الى حقيقة العربية وهو الجارى عند العلماء والكتاب نعم ان الكتاب الرسميين صاروا يستعملون بعض الفاظ اصطلاحية أو فرانساوية وكذلك نفس اصطلاح الكتابة كاد بعضهم أن يخرجه عن الاصطلاح والاسلوب العربى غيران هذا ليس بعام بل المهرة تبهر الالباب بلاغتهم فى الصحف وغيرها من المكاتبات ومع ماذكرناه من صعوبة النطق عندهم ببعض الحروف تجدهم أتقن خلق الله أداء لقراءة القرآن وتجويده ولهم نغمة فيه تخشع لها القلوب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

﴿مطلب فى الاحصائيات بمصر﴾

٠٠٠ر٠٠٠ر٥ عدد أهالى مصر

٠٠٠ر٠٠٠ر٥ عدد أهالى دارفور

٠٠٠ر٠٠٠ر٦ عدد أهالى النوبة وزيلع وغيرها

٠٠٠ر٠٠٠ر١٦

٠١١٠٠ طول سكك الحديد أميال

١١٤٧٣ طول اسلاك التلغراف أميال

٠٠٠ر٠٠٠ر١٦٠ قيمة التجارة الداخلة فرنك

٠٠٠ر٠٠٠ر٣٦٠ الخارجة

٠٠٠ر٠٠٠ر٢٤٣ دخل الحكومة فرنكا وكان دخلها فى ولاية سيدنا عمرو بن العاص من خصوص الدخل الشرعى مائة وثمانين مليونا فرنكا خصص منها الثلث لتكثير الترع والزراعة حتى أوصل ترعة تسير فيها السفن من الفسطاط الى مراسى الحجاز

٢١٦ر٠٠٠ر٠٠٠ خرجها
٢٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ الدين الذى عليها للفامليون فرنكا
٠١٦٢ر٠٠٠ر٠٠٠ فائضه
٠٠١٧ر٦٠٠ر٠٠٠ خراج الدولة العثمانية
٠٠٠ر١٨٠ر٠٠٠ عدد العساكر وقت السلم
٠١٣ر٠٠٠ر٠٠٠ عدد السفن ليس منها مدرعة وهذا عدا بواخر البريد والنهر

الباب السابع فى الحجاز

﴿الفصل الاول فى سفرى اليه﴾

بعد ان اقمت فى السويس بعض ايام منتظرا السفر بباخرة الى جدة وجدت عدة بواخر أجنبية ومصرية فاخترت المصرية وكان رئيسها مسلما وسائر موظفيها أيضا مسلمون ولا يركب أحد الا بعد أخذ اذن مرسوم على ورقة جوازه من محافظ البلدة و يؤدى على ذلك أداء نسيت قدره وأظنه خمسة فرنكات وعند ركوبى فى الباخرة وجدت الازدحام من الركاب والمشيعين فوق الحد فالتزمت ان أضم الى أتباعى ورحلى الى استقرار الحال فى السفر وجلسنا فى حجرتى بالطبقة الاولى لان بيتها صغيرة ليس بها الا حجرتان احداهما سكنها أحد المصريين بعياله والاخرى سكنتها أنا ورأيت من ازدحام الركاب وتراكمهم على بعضهم مع الوسخ وسوء الحالة وعدم احترامهم للطبقة الاولى وكثرة السكان على سطحها من النساء والرجال بحيث لا يجد الانسان محلا فسيحا يرتاح به ما أسفت منه على الركوب هنالك ولكنى تسليت بما رأيت من انشراح جميع الركاب وعدم اكتراثهم بما هم فيه من المشقة والكدر كما تسليت برفقة الحاج مكى محل البنوة أحمد ظافر الطبيب النسيب وبحسن اخلاق رئيس الباخرة والركاب على السطح من الطبقة الاولى وهم من أعيان قرى المصريين وعربانها وبعضهم له اطلاع على مسائل الفقه وكان أيضا كان معنا ناظر بواخر الوسطة الخديوية فى الحجاز وهو محمد موسى لاظى رتبته العسكرية بين باشى وهو كامل الاخلاق والمعارف وله مشاركة حسنة فى العقائد والفقه والعربية مع محافظته على شعائر الدين من الصلاة وغيرها وله اطلاع كامل على أحوال فن البحر لانه كان رئيسا للباخرة التى نحن بها المسماة بالزقازيق ورأيته يشير على رئيسها بعدة أمور وهو ينقاد اليه وله اطلاع أيضا على الجغرافية والعلوم الرياضية وبعض الألسن مع

تفطن الاحوال السياسية فانتنى رفقته مع بقية الركاب وكثيرا ما يقضى الوقت فى مداعبات مع بعض العربان الموسومين بالشيخ وكنت أجد الباخرة كانها ناد اسلامى باقامة الاذان فى الاوقات كلها والصلاة جماعة فى عدة جهات لكن الكثير لم يصل ولا يستطيع الصلاة سيما عند اضطراب البحر وان كان لم يقع منه شئ شديد لكن حصل فى الباخرة تعفن الرائحة سيما فى اليوم الاخير لان أكثر الركاب لا يغسل يديه من الطعام مع كثرة ادامه فضلا عن غير ذلك حتى كانت بيت الطبقة الاولى عفنة لازدحام خدمة سكانها وكثرة أكلهم المؤدم وعدم توقيهم الوسخ لكنهم يقضون أغلب الاوقات بالتلاوة الحسنة أو انشاد الشعر وقد وجدوا عند تفقدهم الركاب وراق ركوبهم ان أحدهم ركب فى الازدحام بدون أداء الكراء وهو فقير واحجمت أصحابه عن الاداء عليه فسجن فى سجن الباخرة و بعد عدة ساعات انتدب أحد أصحاب الخير الى ان دعا رفيقا لذلك المسجون خيرا واذنه بالتطوف على جميع الركاب البالغين ستمائة شخص واعلامهم بحالة رفيقه وطلب اعانتهم له فى اجرة الركوب فحصل له مقدار ذلك وزيادة وعند حضور المال أحضر المسجون وأطلقه نائب البوسطة محمد لطفى المشار اليه مجانا ودفعت له الدراهم والدنانير المجتمعة له ليستعين بها فى حجه ورأيت من بعض الاغنياء الشح المطاع فى هاته الواقعة ومن بعضهم الاقتصاد ومن بعضهم الكرم ولما بلغنا سمت رابغ اعلم الرئيس الحجاج بذلك ليحرموا فاغتسلوا واحرموا بنزع ثيابهم والله اعلم بكيفية غسلهم وادائهم فرض الاحرام لان حالة الضيق والوسخ فوق ما اقدر ان اعبر عنه ولا يعلم مقدار ذلك التعب الا من شاهده وأضف الى ذلك ان الباخرة لا تعطى الاكل ولو لاصحاب الطبقة الاولى فلزم كلا أن يطبخ لنفسه وأغلب الركاب كان معهم زادهم مما يصبرمن الطعام من لحم وغيره وكنت أخذت زادنا من السويس لحما ودجاجا وخبزا وغيره فكان طباخى يطبخ لى ولمن معى فى مطبخ الباخرة وفى ذلك من المشقة ان لم يعتد البحر ما لا يخفى فكان ذلك من عجيب أمر الباخرة مع انها بريدية وذلك خلاف معهود صفتها ولما سألت نائب البوسطة عن سبب ذلك قال ان الركاب الى جهات البحر الاحمر لا يوجد منهم من يأكل من الباخرة فرأينا ترتيب ذلك عبثا ولهذا تجد بواخر البريد فى البحر الابيض على ضد غيرها وأما هنا فلا ثم عند غروب اليوم الثالث من ركوبنا اقل سير الباخرة وأعلمنى الرئيس بذلك لانها ان دامت فى سيرها تصل الى جدة ليلا ولا يتيسر الدخول اليها الا نهارا فكان تقليل السير أولى من الوقوف قربها و بعد شروق اليوم الرابع وصلنا الى جدة فتلقانا دليل المرسى

وهو اعرابي لابس قميصا أزرق وعلى رأسه عمامة حمراء راكب قاربا فصعد الى الباخرة
وصار يأمر بالسير يمينا وشمالا لكثرة شعاب الحجر المغطاة بالماء حتى
دخلنا حوض المرسى فاذا هو حوض وسيع أمين طبيعي بما حوله من الاحجار الخلقية
وفيه عدة بواخر أجنبية وباخرة حربية صغيرة للدولة العثمانية وعدة سفن شراعية صغيرة
وبعد الارساء وأخذ الاذن في النزول من مأموري الصحة ونزول أغلب الركاب نزلت
مع رفقائي ودفعت على كل واحد منا نحو أربعة فرنكات لاخذ ورقة على أن المدفوع
لنظافة أماكن الحج فكان نمرة ورقتي ٧٦ ألف ونيف من المئات والآحاد ونسيت الآن
تحرير كل الاعداد ولقيت أحد مطوفي التونسيين وهو جميل الاخلاق على خلاف
غيره فاديت أجرة رحالنا للعمرق وتعسف المأمورون الى أن أخذوا عشرة فرنكات واقل
مكرهم عن لا يعطيهم تركهم لحوائجه أياما بدعوى كثرة شغلهم فهم من أخس
المأمورين وأكثرهم سرقة كما علمت ذلك من التجار وغيرهم ثم دلني المطوف على دار

اكتريت احدى طبقاتها وأقمت هنالك ثلاثة أيام وجدة بلدة على ساحل البحر هي
مرسى الحجاز العظيمة للحجاج والتجارة من سائر الجهات وسكانها أغلبهم من العرب
والهنود ثم المغاربة والافاقيون حتى الافرنج ولها أسواق رحيبة مسقفة وتكنس البلد
وترش يوميا وتنور ليلا بزيت النفط وبها جوامع حسنة وماء شربها يؤتى به من بعد
في قرب من مصانع وفساقي وهواؤها حار جدا ردىء لان أرضها سبخة وبها بعض ديار
جميلة المنظر لنواب الدول وبعض التجار وأغلب المباني الكبيرة للكراء فيها املاك للاشراف
وبعد ان أتممت فيها لوازم السفر من الفرش والبسط وأحرمت منها حيث كنت قاصدا الها
لما ترب لي فيها غير اني لم أنزع ثيابي وفديت عن لبسها بدما اكتريت جمالا لي ولاصحابي

فركبت الهودج الذي اشتريته من هنالك وهو مثل مهدين من عيدان مسمرة ومشدودة في
بعضها على نصفين كل نصف طوله نحو ذراعين وعرضه ذراع أسفله الذي هو محل الجلوس
حصير من عرف النخل مشدود في تلك العيدان وفي زواياه الاربع عيدان صاعدة نحو
ذراعين ونصف ثم تقوس الى أن تتصل ببعضها فيحصل منها شكل أربعة أقواس متقابلة
ويشبك على نحو الربع الاسفل منها شباك من حبال جيدة من الخلفاء لتحمي الراكب
من السقوط وذلك في جهة واحدة وهي جهة الجنب المقابل لظهر الجمل ثم يوصل كل من
النصفين بصاحبه فيتألف من ذلك مهدان متلاصقان مسوكان مع بعضهما بحبال متينة
ولكل منهما أربعة أرجل تستند بها على الارض اذا برك الجمل ثم يوضع على الجميع من فوق

زربية

زربية أو كليم أو منسوج قطني على حسب ارادة صاحبه ويدلى ذلك مع الجنبين الخارجين ويخاط على تلك الاعواد ثم يجعل من فوق جلد بقر أو جمل ويخاط أيضا ليمنع نزول المطر ان وقع ثم يفرش كل من الشقين بزربية على عدة طبقات ومعها لحاف محشو قطنا ثم توضع عليه سنة أو ثمانية وسادات محشوة قطنا أيضا من جهاته الاربع ويشق بالقطع فى الغطاء الشامل من الجهة الخارجة نحو طاقة لها ستارة من ذاتها ترفع وتنزل وتمسك بخيوط ويربط فى قوائم الاقواس عدة جيوب من سعف النخل لوضع اناء الماء وغيره مما نخف من ضروريات المسافر وزاده بحيث يصير كل من القسمين فراشا مريحا يضطجع به الراكب ويكون أمامه وخلفه مفتوحا وجنبه الذى من جهة رفيقه مفتوحا أيضا وجنبه الآخر به طاقة ان أراد فتحها والا أغلقها ثم يوضع الجميع على الجمل ويربط به ربطا محكما ويوضع سلم من خشب رقيق فى مقدم الهودج المسمى بالشقدف ليصعد منه الراكب الى شقه ويمسك الجمال الشق الآخر الى ان يصعد اليه صاحبه أيضا ويعدلان فى الثقل ويسير بهما الجمل ويلزم ان يكون جملا مؤنسا بذلك وكان ركوبنا بعد صلاة العصر خارج البلد ومع كون ذلك المركب متوسط الراحة وجدت فى نفسى تعبا من سير الجمل المهين حتى حصل لى نوع من الدوار لكن اذا تأنس به الانسان يومين يزول عنه ذلك ويصير مرتاحا سوى الفرق بين قوة الجمل وسيره فان الضعيف والغير المؤنس يتعب مشيه التعب الزائد وكان عديلى أحد أتباعى وبقيتهم ركبوا على جمال الرحال وبعد ان سرنا عشيتنا وليلتنا وصباحنا ولم ننزل الا سوى الصلاة فى أوقاتها وصلنا عند الضحى قرية تسمى حدة فى صحراء مقفرة بها بعض عيون عذبة عليها شئ من النخل وعلى الطريق قهاوى من أعواد الحطب والحصير كثيرة العدد أكثرها فارغ لمن يريد النزول فنزلنا بها واكتريت اثنين منها ففرش لنا بها حصر وأتى لنا بماء فاكلنا من زادنا وأطعمنا الجمالين والقهوجى واسترحنا الى بعد الظهر فركبنا ووصلنا مكة المشرفة بعد نصف الليل ولم نر فى الطريق الا أفرادا ويكثر المشى ليلا سيما على الحمير لان كثيرا منهم من يركب من جدة الى مكة على الحمير وهى سيارة فيصلونها فى نحو تسع ساعات الى احدى عشرة ساعة لكن ذلك وان كان فيه قلة الجمعة لكنه متعب فلذا آثرت الجمل وعند الوصول الى خارج مكة المشرفة سألت هل يوجد حمام هنالك فاجيب بانه لا يوجد الا الماء البارد ولم نستطع الاغتسال به فلذلك اكتفيت بالوضوء ثم تلقانا المطوف وطلبت منه ان يكتفى باعلامى بالأماكن والاعلام بالمشاعر كأن يقول لى هذا

باب السلام والكعبة مقابلة اليك أو من يمينك الى غير ذلك حيث كنت علمت انهم يزيدون وينقصون ويدعون ويأتون بما لم يرد به الشرع وكنت استصحبت عدة كتب فى الفقه وفى خصوص المناسك وأخذت منها ما يسره الله لفهمى غيرانى وجدت فى بعضها رسالة فى المناسك لملا على قارى فلم أنظر اليها الان صاحبها له محرقة فى حق أبوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يكون له على أدنى منة وأغنانا الله عنه بتآليف علماء أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم المحبين فى آله الكرام والمعظمين لجنابه العظيم عليه وعلى آله أكمل الصلاة والتسليم فاقبلت الى باب السلام وأديت هنالك ما ينبغى ونظرت الى الكعبة المشرفة ولله الحمد ثم دخلت المسجد الحرام وطفت بالبيت الكريم وقبلت الحجر الاسعد وسعيت بين الصفا والمروة وأديت ما استطعت مما ينبغى فى ذلك القدوم المبارك ثم توجه بى المطوف الى دار وكيل تونس حيث كان ساكنا فيه كل من الاخيار الثقات السيد أحمد والسيد اسماعيل والسيد محمد أبناء زروق القادمون من تونس قبلى حجاجا وأقمت بقية تلك الليلة عندهم وصلينا الصبح فى المسجد الحرام ثم أخذت منزلا أقمت فيه ولم يرد صاحبه أخذ كراء عليه وابتدأت رؤيتى لسوء أخلاق بعض الاهالى مما كان ينبغى لهم التحاشى عنه عفا الله عنا وعنهم وبعد ان أقمنا بضعة أيام تشرفت فيها بالدخول الى داخل البيت المعظم بمحاسن أخلاق الفاضل الشيبى وذلك ليلا ولم يكن معنا الا افراد قليلون بحيث تيسر لنا التنعم بتلك البقعة العظيمة والتبرك بما احتوت عليه من المشاعر وكذلك تشرفت بالمثول بين يدى المولى الشريف المعظم صاحب الاخلاق الحسان والتواضع مع ما هو عليه من رفعة الشأن المقدس الشهيد سيدنا حسين أمير مكة قدس ثراه وهو رحمه الله حسن الاخلاق متواضع عفيف جدير بمنصبه السامى ولاقينا بعضا من أعيان البلاد كالنحرير البارع أحمد المشاط وغيره ولما آن وقت التوجه الى منى ابتدأ المطوف ووكيل تونس فى تهويل أمر الذهاب اليها والى عرفات وأكبرا فى ذلك ما شاءا حتى ظننت انها مسافة سفر وان الحرب ثائرة فى الطريق فوجهت رحلى على الجمال واكتريت أحمرة لركوبى وركوب من معى مدة أيام الحج وبينما نحن سائرون والطريق فى غاية الراحة والامن والعمران واذا نحن بقرية سألت عنها فقيل لى هى منى فبقيت متعجبا من قول أولئك المرشدين اذ لم تكن تبعد عن مكة الا أربعة أميال ولكنى عرفت السبب فى عملهم تجاوز الله عن الجميع وأقمت ليلة بمنى ثم توجهنا صبيحة اليوم الثامن الى عرفات لوقوع الشك فى ثبوت الشهر

وأقمنا

وأقمنا فيها الى ليلة العاشر من الشهر وبعد الوقوف وأخذ حصة من الليل أفضنا من
من عرفات بعد ان أدينا ما نسأل الله قبوله وكان موقفا تقشعر منه الجلود من خشية الله
لا لتجاء عباده اليه حسبما أمرهم وكانت الارض تموج بالخلائق ضارعين لباريهم جل
وعلا تقبل الله من الجميع وعند الافاضة اتفقت مع الجمال ومع الرفقاء على التأخر
عن الازدحام وأخذ الطريق الاول ازدحاما وكان دليلنا مضمرا خلاف ذلك لانهم انما
يرون من شعائر الحج الظواهر وهم عن حقائق المشروعات غافلون فيرغبون في الالتحام
والزحام والخصام التي في لهم وقائع يتحدثون بها سنتهم فلما افضنا كانوا يسرعون السير
ومن عادة جميرهم أن لا ينقادا الى راكبه بل الى سائقه فقط ولو انقطع اللجام من فيه
فأدخلونا كرها في وسط الزحام ولم يبق منا واحد يسمع صوت صاحبه لثوران عجيج
الصياح والرغاء والنهيق فمن حاد يحدو ومن داع يدعو ومن مصرخ ينادي رفيقه ومن
صائحة مستجيرة بالمارة من سقوطها ومن آن يئن من كسره بسقوطه ومن باك متذكر
هول المطلع ومن بعير يرغو لسقوط حمله وحمار ينهق لرؤية أتان وأناس ملقاة وآخرون
يجرون وآخرون يزدحمون وآخرون واقفون بالظلام مرخ سدوله والناس لا يذكر بعضهم
بعضا كل طالب النجاة لنفسه فرأيت أنموذجا لهول يوم الفزع الاكبر وما أيقنت بالنجاة
لنفسي حتى دهمني بعض شقادف الجمال فاسقطني عن حماري وخرجت من بين أرجل
الحيوانات متطلبا النجاة ذات اليمين حتى يسر الله لي الخروج عن الطريق بالصعود
الى محجر مرتفع فجلست هنالك حامدا الله على النجاة وبعد هنيهة لحق بي بعض أصحابي
وجاءني الدليل حاثا على الذهاب والا نكن في خطر من البدو فقلت له يا أيها الرجل
ان الله حرم في هذا الموطن الجدال ولكن ما عليك من الانذار فقد أديته وأنا في نفسي
أفعل أخف الضررين لان البدو لا يفعلون أكثر من القتل وهو الذي تدعوني اليه لان
افعله بنفسي على انهم يقتنعون بأخذ السلب ودونه الدفاع ما استطعت وراء هذا كله
انه لا وجود لشئ مما تهول به وهؤلاء الخلائق في الطريق وعند آخرهم أتوجه فدعني
ونفسي فذهب مغاضبا وبقيت أنظر في عجائب الخلق من الحالة التي بينا بعضها الى
أن خف الماشي فرافقت آخرهم حتى وصلنا الى المزدلفة ولم أجد رحلي فجلست في قهوة
حتى مر بي أحد أصحاب رحلي فانتقلت اليه وجمعنا بين المغرب والعشاء ثم بعد أداء
مناسك المزدلفة توجهنا الى منى وخيمت في مرتفع من الارض في أطراف نزل الحاج
مع أهالي جاوة ورجعت الى مكة وأديت بقية المناسك وفككت الاحرام ثم رجعت

الى منى الى تمام أيامها وكان فى اليوم الاول عند رمى الجمار من الزحام ما وصفنا بعضه
حتى مات عدة أناس وانكسر عدة وانما ذكرت هذا تنبيها للاخوانى حتى يحترزوا من ذلك
ولا يغتروا بأقوال الادلاء لان لهم مقاصد وأطوارا غير محمودة ثم اتممنا مناسك منى ورجعنا
الى مكة واكتريت بيتا فى المحصب خارج مكة تطلبا لصحة الهواء وبرودته لان المرض
اشتد على ثم أحرمت بعمرة وأديت مناسكها ثم خرجت قرب الركب الشامى الى أن تهيأت
القافلة التى اكتريت بها الجمال للتوجه للمدينة المنورة فسافرنا اليوم التاسع عشرين
الشهر واشتريت حمارا للارتياح عليه فأفادنى جدا لانى كنت أركبه بعد الظهر فنسير
ومعى أحد رفقائى الذين صاروا منهم بعض التونسيين الى أن نصل الى أول القافلة الحاوية
عدة مئات من الابل والمسافرين فنأتى الى جهة مستظلة قرب الطريق ونجلس على
زربيتين ونستريح ونتوضأ ونصلى فى نحو ساعة أو ساعة الا ربعا فيأتى آخر القافلة فنركب
الحمار ونفعل كذلك مرتين أو ثلاثا الى أن نصلى المغرب ويشتد الظلام فنركب الجمل وكان
سفرنا على الطريق الفرعى بعد ضمانة مشايخ أصحاب الابل لامير مكة فى أمن من معهم
وكان كراء الجمل الذى عليه الهودج ثلاثة وعشرين ريالا دورو أى مائة وخمسة عشر فرنكا
من مكة الى المدينة ومنها الى ينبع وبقية جمال الرحل والاتباع لكل جمل خمسة
وسبعون فرنكا واكتريت رجلا بدويا من موالى الجمالة شجاعا قويا لقود الجمل الذى
نركبه والاعانة على بقية اللوازم فرأيت منه خيرا لكنه لم يوف بوعده فانه تخلف عنى
فى المدينة المنورة ولم يصل الى ينبع فرحلنا من مكة اليوم الاول بعد الظهر وسرنا يومنا فى
طريق طيب ونزلنا بعد العشاء ثم رحلنا قبل الشروق وصعدنا فى جبل وعر جدا وبعد ان
سرنا فيه نحو خمس ساعات سرنا فى طريق بسيط الى المدينة المنورة ولولا ذلك الجبل لكانت
العجلات تستطيع السير بسهولة فى الطريق وكان سير الجمال لا يزيد عن ثلاثة أميال فى
الساعة حسبما حررته اذ ذاك وهو سير هين متعب وتدوم المرحلة من اثنتى عشرة ساعة
الى ستة عشرة ساعة وواحدة منها دامت اثنتين وعشرين ساعة بحيث جعلوا مرحلتين فى
واحدة لكى يستريحوا يوما بدون رحيل فى بلادهم وهى الجديدة ولا ينزلون الا قرب ماء وفى
الليلة الثانية عشر وصلنا المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام فدخلناها
عند الفجر وتلقانا المعرف التونسى الخبير حلابة والمعرف هناك يسمى مزورا ونزلت
عند الفاضل النحرير صاحب الاخلاق الحميدة والصفات السديدة البليغ الكامل
عبد الجليل برادة جازاه الله خيرا وكثر من أمثاله فى الامة وبعد أداء الآداب والسنن

أسعدنى

أسعدنى الله بالوقوف بين يدى نور العالم وسيد الخلائق وملجأ الامم وفضل الله على خلقه ورحمته للعالمين سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فياله من حظ نقدته بالمهج وياله من فضل تبدى من كرم الله وبلج وحظيت بالسلام عليه وعلى صاحبيه عليه الصلاة والسلام وعلى آله الكرام وأصحابه الاعلام وفى اليوم الثالث انشدت بين يديه عليه الصلاة والسلام قصيدتى التى مطلعها

الى السدة العظمى شددت عزائمى * الى سدة الاجلال شمس المكارم

وبثثت اليه عليه الصلاة والسلام شكواى فى دنياى وأخراى وذات قضاء أغلب مطالبى ولله المنة والحمد منها ما قضى فى حينه ومنها ما تم قضاؤه بعد مدة قليلة وأنا أرجو كرم الله فى قضاء باقيها بوسيلة رسوله عليه الصلاة والسلام وزرت آل البيت عليهم السلام وكثيرا من الاصحاب والائمة الاعلام والمشاهد المباركة ثم قفلت مع القافلة وتوجهنا الى ينبع ورفعنا ما أبقيناه من رحالنا فى بلد الجديدة ووصلنا ينبع فى الليلة الرابعة قرب الفجر فاردت النزول فى خيامى فمنعت لاجل ان اكترى دار الاخ حاكم البلدة واكتراها الى بخمسة وثلاثين فرنكا فى الليلة وهى أربع بيوت خربة اثنان فوق اثنين والدرج خربة وليس بها ولا حصير فأقمت بها ثلاثة أيام وكان فى المرسى ثلاث أو أربع بواخر تنتظر ازدحام الحاج فجاءت باخرة نمساوية قافلة من الهند ومرت على جدة ثم ينبع فاكتريت بها قاصدا الآستانة

الفصل * الثانى

* فى صفة البلدين المكرمين وموكب الحج *

* مطلب صفة مكة المكرمة * أما مكة المشرفة فهى واقعة فى عرض ٢١ درجة و ٣٠ دقيقة شمالى وطول ٣٧ درجة و ٣٦ دقيقة شرقى واسمها مكة وبكة وأم القرى وأول من سكنها سيدنا ابراهيم عليه السلام بوالدة ولده سيدنا اسماعيل عليه السلام فكان سيدنا اسماعيل أبا العرب ورفع هو وأبوه قواعد البيت العتيق فكان مقصد الامم الحنيفية وهذا البيت الكريم هو فى وسط المسجد الحرام وزواياه الاربع مقابلة للجهات الاربع أعنى الجنوب والشمال والغرب والشرق وآخر بناء له الى الآن هو بناء السلطان سليم الثانى على نحو الاصل الذى كان عليه زمن النبى صلى الله عليه وسلم لان سيدنا عبد الله بن الزبير بناه على قواعد ابراهيم عليه السلام وأدخل فيه الحجر ثم هدمه

عبد الملك وأعاده على هيئته زمن الرسالة فلما استخلف أبو جعفر المنصور أراد أن يعيده على ما بناه ابن الزبير لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها لولا قومك حديثو عهد بكفر لبنيت الكعبة على قواعد ابراهيم فلما زال المانع وحدوثية الايمان ترجح عوده الى الاصل واستشار الخليفة الامام مالك بن أنس رضي الله عنه فقال له ما معناه يا أمير المؤمنين لا تجعل بيت الله ملعبة بأيدي الملوك فان الذي رأيته وان كان صوابا لكن ابقاؤه على حالته احتراما لشأنه أولى فبقي على ما هو عليه الآن وأساس جدران الكعبة مرتفع عن الارض ما بين عشرين صانتي الى ثلاثين وزائد العرض عن الحيطان ما بين عشرين الى أربعين فهو كالدرجة محيط بالجدران وهو المسمى بالشاذروان والحجر الذي هو من قواعد ابراهيم عليه السلام في جهة البيت الواقعة بين المغرب والشمال ويحيط به الحطيم الذي هو بناء مستدير نحو نصف دائرة ارتفاعه ميترو وسمكه ميترو ونصف مغلف بالرخام وينتهي قوس النصف دائرة قبل أن يصل الى جدران الكعبة بنحو ميترين وخمسة وثلاثين صانتي والبيت مبني بصخر كبير وأرضه مرتفعة عن مساواة المسجد نحو ميترين وبابه قرب الركن الشرقي مستقبلا ما بين المشرق والشمال ويصعد اليه بدرج مثل المنبر في المواكب العامة وعند فتحه الخصوصي يؤتى له بسلم صغير وعتبة الباب من فضة وعواضده من مرمر والباب بدفة واحدة وقفله من ذهب وهو من خشب الساج وداخل البيت ثلاث أسطوانات من القماري قطر الواحدة أزيد من شبرين وارتفاعها أزيد من ستة أذرع وعليها كراسي من ذهب والبيت مبلط بقطع كبيرة من المرمر وكذلك حيطانه وسقفه من الساج وفي ركنه الشرقي من خارج ما بين المشرق والجنوب في ارتفاع قامة الحجر الاسود وهو حجر محفوف الجوانب بصفايح من فضة أسود لامع أثرت فيه أيدي اللامسين حتى صار في بعض جهاته انخفاض وصار ذا شكل مقعر مثل اناء الشرب واصله قطعة واحدة ثم تشقق من ضرب المنجنيق عند ما حوصر ابن الزبير رضي الله عنه فجعل له صندوق من الفضة وبه فوهة يظهر منها الحجر قطرها سبعة وعشرون صانتي ميترو أي نحو شبر وثلث وفي سطح البيت ما بين الشمال والغرب ميزاب الرحمة من ذهب يصب في الحجر والبيت طوله مما بين المشرق والشمال أزيد مما بين المغرب والجنوب فطوله اثنا عشر ميترو وعرضه عشرة أمتار وعشرة صانتي عدا الشاذروان وارتفاعه خمسة عشر ميترو ويكسى كل عام بكسوة من الديباج الاسود يؤتى بها من مصر وعليها حزام مزركش بالفضة مكتوب به آيات

كريمة

كريمة وكذلك نفس الكسوة فيها كتابات جيدة بالقلم الثلث من نفس النسج وقبالة باب الكعبة على نحو اثني عشر ميترو مقام ابراهيم عليه السلام وفيه بيت مربع داخله آيات بينات من تأثير القدمين في الصخرة ووراءه بانحراف الى الجنوب الشرقي بئر زمزم وعليه قبة وحوله أحواض وعليه بكرات من النحاس ثم صحن المسجد متسع جدا طوله مشرقا ومغربا مائة واثنان وتسعون ميتر وعرضه مائة واثنان وثلاثون ميترو والرواقات مرفوعة أقواسها على اسطوانات من حجر وسقوفها قباب من بناء وفي وسط الصحن على بعد نحو اثني عشر ميترو من الحطيم اسطوانات من حديد أو نحاس ذاهبة في الهواء وصولة ببعضها بسلاسل من نحاس يعلق بها منائر ومصابيح وهي دائرة بالبيت علامة على حدود المطاف وعلى سمت الركن الشمالي على بعد دكة لجلوس المؤذنين والمسمعين وخلف المطاف وقبالة جهة البيت التي بها الميزاب يقيم امام الصلاة من مذهب الحنفي وله محراب وهو أول مصل في الاوقات كلها ماعدا الفجر فاذا أقيمت الصلاة وتقدم الامام الحنفي رأيت المسجد الحرام كله على غاية من الهدو ولم أرشيأ لم تدخله البدعة أبدا الا الصلاة في ذلك الوقت ماعدا تسميع المسمع فهو زيادة على بدعة تغنيه يريد أن يضع المؤذن أصبعيه في أذنيه وهو في الصلاة وما عدا هذا فانك ترى آداب الاسلام حقيقة وامتثال الخلق أمر خالقهم فيقع من الخشوع مالا يعلمه الا الله سيما في صلاة الجمعة ولله الحكمة البالغة في وسع المسجد كل من يدخله وترى الخلق مع ذلك الازدحام على غاية من التؤدة وامتثال أمر الشرع بحيث لا تسمع الاهمسا من تسبيحهم وتكبيرهم في الركوع والسجود فاذا سلم الامام الحنفي عادت الحركة لما كانت عليه ولو عند صلاة كل من أئمة المالكي والشافعي والحنبلي حتى لا يكاد المؤتم يعلم بحركات الامام أمامه. الا الفجر فيتقدم فيها الشافعي على غيره لان مذهبه يرى استحباب التبكير بها وكل أحد من الائمة له جهة من جهات الكعبة يصلى اليها وقد علمت محل الامام الحنفي وأما الشافعي فمحرابه خلف مقام ابراهيم عليه السلام وأما المالكي فمحرابه تجاه الضلع الغربي الجنوبي من الكعبة خلف المطاف بميترين وأما الحنبلي فمحرابه مواجه للضلع الجنوبي الشرقي على نحو ذلك البعد أيضا وباب السلام من المسجد الحرام تجاه باب الكعبة وباب الوداع في الجهة المقابلة له ووراء الرواقات عدة مدارس لسكنى المجاورين ويسكن بيوتها الحجاج أيضا وحول المسجد من أغلب الجهات طرق وباب السلام يفتح في الطريق الواقع بين الصفا والمروة وهو طريق متسع حوله ديار ذات عدة طبقات ومنها دار الشيبي وأسفل الديار حوانيت عليها مظلات يباع

بها المأكولات وغيرها وكل من الصفا والمروة محل فى نهاية زاوية من الطريق مقسم ذو درج عريضة تنتهى الى حائط وبينهما طريق متسع عرضه ما بين عشرة واثنى عشر مترو وطوله نحو أربعمائة وخمسة أمتار وفى وسطه محل الهرولة فى السعى تبتدئ من الميلين أى العلمين الاخضرين على بعد خمسة وسبعين مترو من الصفا عند باب البغلة من الحرم وتنتهى الى العلمين الآخرين بعد مسافة نحو سبعين مترو وعند باب على وكل من العلمين يقابله مثله فى الحائط المقابل وفى مكة المشرفة أسواق كثيرة يباع بها سائر الاقطار وأكثرها سلع الهند كما ان التجار أكثرهم من أهالى الهند والاسواق مسقوفة بالواح وفيها قهاوى كما ان أطراف البلاد عند مداخلها فيها قهاوى على نحو الخصوص ويجلس فيها على كراسى كبيرة وصغيرة من أخشاب الحطب وعزف النخل وخارج البلد على طريق عرفات مقبرة المعلى ثم بعض بساتين لافراد من الاشراف رضى الله عنهم وبيوت لبعض من الاعراب وغيرهم وفى جبل أبى قبيس المطل على المسجد الحرام مسجد صغير وبعض ديار وزاوية للشيخ السنوسى وشرب جميع الاهالى من عين زبيدة التى أوصلتها المرأة الخليفة هارون الرشيد من قرب عرفات الى مكة فمبنت بها وعلى مجراها فى الطريق والبلاد عدة منافذ يملأ منها السقاؤن وغيرهم ويحصل من كثير من الناس تقذيرها بما يلقون فيها من الاوساخ كما توجد آبار أخرى عميقة جهة الزاهر وغيرها يؤتى بالماء منها ويفرقه السقاؤن على الديار فيوضع فى جرار ثم تملأ منه دوارق وتوضع فى طواقى أو غيرها مما يمر عليه الهواء البارد فيبرد الماء لكن من عادتهم فيه أنهم يبخرون الدوارق بعود يسمى عود القفل وهو الكثير وتارة بالمصطكى فيحصل طعم فى الماء غير شهى والقفل أسوء وهم يرونه حسنا وتنقسم مكة الى سبعة عشرة حارة وقيل ان عدد سكانها مائة وسبعون ألفا

❁ ﴿مطلب فى صفة المدينة المنورة﴾ واسمها المدينة وطيبة وطابة ويثرب واقعة فى فسيح من الارض المرتفعة فى عرض ٢٥ درجة و ٢٠ دقيقة شمالى وطول ٣٧ شرقى وغربيها على نحو أربعة أميال جبل أحد وعليها سور حصين وحصون ذات مدافع وخزائن للذخائر الحربية والحرم الشريف النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام فى جهتها الشمالية الغربية وقد جدد الحرم الشريف والمسجد السلطان عبد المجيد فكان المسجد وحده مائة وخمسين ذراعا طولا أى من الجنوب الى الشمال وعرضه مشرقا مغربا من جهة الجنوب مائة وخمسة عشر ذراعا ومن جهة الشمال ثمانية وثمانون

ذراعا

ذراعا ونحو تلك المسافة أيضا صحن المسجد الذى هو جهة الشمال ويحيط به رواقات
وكله من بناء ضخم مرفوعة قبابه على أقواس قائمة على اسطوانات من الرمر الاحمر
المأخوذ من مقاطع حجازية قرب المدينة وكذلك عواضد الابواب وصحن المسجد تحيط
به رواقات وما عداها مكشوف وليس بين المسجد والصحن أبواب وباب السلام من غربى
المسجد قرب حائط القبلة والمحراب فى نحو ثلثى عرض المسجد أعنى أنه أقرب الى الشرق
حتى يكون قبالة المحراب النبوى الاصلى لان المسجد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة
والسلام قد زيد فيه مرارا أولها فى خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه حين ازدادت كثرة
المسلمين وآخرها الى الآن ما زاده السلطان عبد المجيد رحمه الله وكل من زاد فيه تحرى
مواقف النبى عليه الصلاة والسلام لتبقى محفوظة فلذلك وان زيد فى جهة القبلة حتى صار
حائطها يبعد عن حرم الحجرة الشريفة نحو الثمانية أذرع مع أن حائط القبلة كان مساويا
لحائط الحجرة لكن بقيت بقعة المحراب الاصلى معلما عليها والمحراب الجديد قبالته
أما المنبر فهو وان تغيرت ذاته لكن محله لم يتغير وهو الآن من الرمر المتقن والاصلى من
خشب وأما الحجرة الشريفة فالاصلية عليها بناء ضخم مستطيل من الغرب الى الشرق
وعليه قبة عالية أرفع من سائر قباب المسجد وداخلها القبر الشريف المكرم لصق الحائط
القبلى من جهة الغرب ويليه قبر الصديق رضى الله عنه لجهة الشمال متأخرا الى
المشرق بحيث ان رأس الصديق رضى الله عنه مسامتة لاسفل من رأس رسول الله صلى
الله عليه وسلم بنحو ذراع وذلك تأدبا من الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يليه
شمالا أيضا بانحراف للغرب قبر الفاروق رضى الله تعالى عنه وهاته الحجرة لا يدخلها
أحد ووراء حيطانها من خارج شباك من حديد متين متصلة قواعده برصاص مذاب
غليظ الحجم مالئ للاساس الى عمق عميق حتى اتصل بطبقة الماء فى الارض والسبب
فى وضعه هو انه كان فى مدة السلطان نور الدين الشهيد بمصر حدث حادث عظيم بالمدينة ✽
وكان أمراء الحجاز اذ ذاك تابعا لسلاطين مصر فرأى السلطان نور الدين رؤيا هالته وهى أنه
رأى النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فى ليلة واحدة وهو يقول له أنجدنى أنقذنى من
هذين الرجلين وأشار اليهما فرآهما رجلين أشقرين وتحقق وصفهما وعلم التأكيد من
النبى صلى الله عليه وسلم فى أمرهما والاسراع به فاستيقظ السلطان رحمه الله متهاجدا
فما صلى الفجر الا وقد أحضر وزيره وعشرين نفرا من صناديد فرسانه واحضر أموالا
جسيمة وركب جواده فى خاصته وفرسانه وما خف من الزاد وقفل الى المدينة المنورة مجد

السيرولم يعلم بما رآه أحدا فوصلها فى ستة عشر يوما فزار النبى صلى الله عليه وسلم ثم أمر باحضار أهل المدينة بعد كتابتهم وصار يتصدق عليهم و يتأمل تلك الصفة التى رآها فى النوم الى أن انفضت الناس فقال هل بقى أحد قالوا لم يبق سوى رجلين صالحين عفيفين مغربيين يكثران الصدقة فلما رآهما اذا هما الرجلان اللذان رآهما منا ما فسأل عن منزلهما فأخبرانهما فى رباط خارج المسجد بقربه جهة الحجرة الشريفة فامسكهما ومضى الى المنزل فلم يجد به سوى ختمتين وكتبا فى التصوف ومالا كثيرا وأثنى عليهما الاهالى ثناء كثيرا فرفع السلطان حصيرا فى البيت فوجد تحته سردابا ذاهبا صوب الحجرة الشريفة فارتاعت الناس لذلك وقال السلطان اصدقانى وضربهما حتى أقرا بانهما نصرانيان بعثهما ملك من النصارى فى زى الحجاج وأعطاهما أموالا كثيرة للتوصل للذات الشريفة ونقلها فنزلا باقرب رباط وصارا يحفران ليلا ولكل منهما محفظة جلد يحملان فيهما ترابا صباحا ويذهبان الى المقبرة فيفرغانهما هناك على عدة كرات وهكذا دأبهما منذ مدة فقتلهما عاملا وعمل ذلك الحاجز الرصاص رحمه الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه ومن والاه ولا يخفى ان الواقعة كانت مدة حرب الصليب فرأى أحد ملوك النصارى المحاربين للمسلمين ولم يعينه أصحاب التاريخ لعدم اعتنائهم اذذاك بمثل ذلك حتى انك تراهم يذكرون الوقائع الحربية فى الشام مع النصارى ولا يذكرون من هم حيث تعصبت اذذاك ملوكهم مع البابا وصاروا يدا واحدة على المسلمين ولذلك لم يعين الملك المرسل لذينك الرجلين لاجل مكيدة المسلمين بنقل نبيهم اليهم والتشفى منهم ولاجل ابطال معجزة تعيين محله عليه الصلاة والسلام دون غيره من الانبياء عليهم جميعا الصلاة والسلام وفى المدينة المنورة أسواق وصناع لكل ضرورى ومدارس لسكنى المهاجرين وكتب موقوفة فى عدة خزائن بمكتبات أهمها مكتبة عارف باى ورأيت بها كتابا لم أكن أعرفه وهو الجامع الصغير فى النحو لابن هشام مع اشتهار كتبه وطرق المدينة غالبها ضيق لا يمر به الا رجل واحد الا طريق الباب المصرى الموصل لباب السلام وقرب الباب المصرى المناخة وهاته المناخة بطحاء وسيعة وحولها مخازن للذخائر ومن عادات أهل المدينة انهم لا يركبون داخلها تأدبا مع النبى صلى الله عليه وسلم الا المعذور واذا لاقى أحدهم غيره خارجها وهو راكب ترجل له عملا بالاثر المروى وبقية عوائدهم على ما سيأتى فى العادات العامة غير ان اخلاقهم رضى الله عنهم أحسن أخلاق أهل الارض فيما علمت من لين الجانب وصفاء القلب ومواساة القريب

والبعيد

والمعيد والكرم ولو كان بهم خصاصة وحوية النفس والشهامة والشجاعة فهم أهل لذلك الجوار كما ورد وصف مدحهم فى القرآن العظيم ومن وفد عليهم تخلق بخلقهم لان أصل الانصار لم يبق منهم هنالك الا عائلة واحدة وبقية السكان كلهم من الوافدين فيما بعد الا السادة الاشراف حقا فهم من أبناء سيد الوجود وابن عمه سيدنا على رضى الله عنه وأما بقية المهاجرين فلم يبق من نسلهم هنالك أحد معروف سوى واحد نقيب فى ضريح سيدنا حمزة وهو من بنى العباس رضى الله عنهم أجمعين

* ﴿ مطلب فى صفة موكب الحج ﴾ لما كان الحج فرضا على كل مستطيع له من المسلمين فهم يهرعون اليه من كل فج عميق فيجتمع المسلمون من جميع قبائل الارض من مشارقها ومغاربها وقد كان فى الزمن السابق يأتى أكثرهم برا أما بعد حدوث البواخر فصار الاكثر يأتى بحرا بالركوب فى البواخر الا من كان من أهالى جزيرة العرب فانهم يأتون برا وكذلك الركب المصرى وان بطل سفره برا منذ طبع هذا المحل وأما عند حجى فانه كان يأتى برا ومثله فى الاتيان برا الركب الشامى الذى كان يخرج من القسطنطينية ويأتى الى دمشق الشام ويجتمع هنالك بركب العراق مع حجاج الشام ويسافر الجميع الى مكة وصورة هاته الاركاب هو ان يعين السلطان حاكما من رجال دولته على الركب ويصحبه أمين الصرة أى الحامل للاموال المعينة لمصاريف الحرمين ولسائر المتوظفين وللاعراب الذين لهم عوائد من الدولة وتلك الاموال مأخوذة من دخل أوقاف الحرمين ومن خزنة الدولة كل لما يخصه وكذلك يحمل الهدايا والصدقات الخاصة التى يرسلها السلطان وأهالى دولته وسكان قصره بحيث يجتمع عنده أموال جسيمة وقد سمعت ان الذى ترسله الدولة للقيام بما يعود اليها من جميع ما يلزم الحرمين سواء كان من الخزنة أو من الاوقاف هو الآن نحو مليونين ونصف فرنك عدا الهدايا الخاصة ثم يعين مع هؤلاء قسم من أنواع الجيوش فرسان ومدافعية ورجالة وتنصب لهم خيام للرحلة بها ثم ينضم اليهم *
كل من أراد الحج بخيامه وسائر لوازمه كل حسب مستطاعه ويحصل يوم خروج المحمل من دار الخلافة موكب مشهود ثم يسافر الركب نهارا ويقيم ليلا على مراحل معلومة الى أن يصل الى مكة وكلما مر على بلد انضم اليه حجاجها وقد بقى الحال الآن على ذلك سوى كون السفر من الآستانة الى مرسى بيروت صار بحرا ثم من بيروت الى دمشق الشام يسافر من غير أبهة ولا انتظام ومن دمشق ترتب له العساكر وغير ذلك ويسافر على نحو ما ذكر وعلى نحو منه الركب المصرى وأما القوافل من الجهات البرية فانها تأتى كل قافلة

عليها فحو شيخ للرفقاء ويسافرون حسب مستطاعهم فاذا اجتمع الجميع فى مكة ولكل منهم مكان يخصه للاقامة فيه خرجوا اليوم الثامن من ذى الحجة الى منى ومنها الى عرفات وهم محرمون فيقفون يوم عرفة وبعيد الغروب يفيضون الى المزدلفة ثم قبل الشروق يأتون الى منى وذلك يوم العيد ويقيمون ثلاثة أيام لاداء المناسك ويحصل ليلة ثانى العيد أفراح عظيمة من عسكرى الاركاب بالالعاب النارية واعمال صورية بالمشاهدة لكى يحصل ارهاب الاعراب من الحركات العسكرية وسرعة سلاحهم وعظم مدافعهم ثم فى صبيحة يوم ثانى العيد يحصل موكب عظيم فى منى لدى فسطاط الشريف أمير مكة فيحضره الوالى وأمراء الاركاب ورئيس العساكر بالحجاز وسائر الاعيان من أهل مكة والحجاج كلهم بالملابس الرسمية ولما يحتبك الموكب يخرج السيد الامير الشريف ويقف فى الصدر وتقف الناس حوله على حسب مراتبهم ثم يتلى المنشور السلطانى المؤذن بالثناء على الامير وتقليده الامارة أو ابقائه فيها وتحريضه على ادامة الامن والقيام الواجب بحقوق الحرمين والاهالى وهو باللغة التركية ثم يتلى تعريبه ثم يخلع عليه أمير الركب الشامى الخلعة التى يرسلها أمير المؤمنين الى أمير مكة السيد الشريف وهى جبة من الجوخ واسعة سوداء مطرزة بالذهب ثم يقبل الجميع بالتهنئة للسيد الامير ثم يتفرق الناس لتهنئة بعضهم بعضا ثم يسافر كل ركب بعد عوده الى مكة فى يوم معين بعد أداء جميع المناسك وتسليم الاموال لاصحابها والمقيضين بها من الامراء والرؤساء وكل منهم أى الاركاب يعود الى بلاده على الطريق الذى قدم منه ويكون كل ركب كأنه بلد راحل يحصل فيه من النزهة والانشراح لذوى اليسار ما ترغب فيه النفوس هذا ولا يخفى ان مناسك الحج مقررة فى كتب الفقه بل وقد خصت بتآليف منفردة لعلماء كثيرين فلا يمكن لنا الاتيان بذكرها لانها خارجة عن الموضوع وانما الذى يناسب ذكره هنا هو ان الحج من أحد أركان الاسلام الخمس وهى كلمة الشهادة أى أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت على من استطاع اليه سبيلا وهو فرض مرة فى العمر ويندب تكراره كلما استطاع الانسان وقد ذكر العلماء حكمة مشروعيته كما ذكروا الحكمة فى مشروعية جميع الاركان وحاصل ما أشاروا اليه هو كونه شكر الله على ما منحنا به من نعمة السلطة على الانعام أى الحيوانات وهو عبادة مركبة من أعمال بدنية وأعمال مالية ويمكن ان يكون مشتملا أيضا على حكمة أخرى مرعية فى نظر الشارع وهى أحكام الوصلة بين قبائل

المسلمين

المسلمين وتعرفهم ببعضهم واطلاع كل منهم على حاجات أخيه وعوائده ليعين كل منهم أخاه في الحضرة والغيبة بما يستطيع حسبما أمره الشارع بذلك وينتج منه مزيد المواصلات بين الامم والشعوب والقبائل من مشارق الارض ومغاربها كما هو الامر الواجب شرعا في جعل المؤمنين عصابة واحدة وقد مثلهم الشارع بالبنيان يشد بعضهم بعضا ومثلهم بالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد وجعلهم اخوة في الدين الواحد الى غير ذلك من النصوص الدالة على اتحادهم ووحدتهم مما لا يمكن ايجاده بدون تعرف يجعل لهم في كل سنة موعدا يجتمعون فيه ليحصل ذلك القصد وفيما تضمنته مناسك الحج ايماء الى ذلك حتى يحصل على أكمل وجه فانه عين لهم المحل الذي يجتمعون فيه بصورة لا يحصل معها تكبر من بعضهم على بعض في التفضيل كما لو كان الاجتماع في بلد قبيلة أو جهة دنيوية بل جعل ذلك المحل هو خاص وخالص النسبة للخالق جل وعلا وحده ثم عند زيارة نبيه الذي هو واسطتهم الى خالقهم فلا يحصل من قصد ذلك المحل أدنى امتياز بغير القلوب ثم انه أوجب عند أول القدوم الى ذلك المحل الاحرام الذي هو من جملة ما تضمنه ترك لبس المخيط وغيره من سمات الرفاهية التي يحصل فيها التحاسد بحيث يكون الناس كلهم سواء لا أفضل لملك على راع ولا لعالم على جاهل وأوجب على من اضطر الى ترك ذلك أن يزيد في الاحسان والصدقة الجالبة لقلوب الفقراء الذين هم مظنة انكسار القلوب مما يرونه من الرفاهية فيعوض ذلك بزيادة صلاتهم والاحسان اليهم والاحسان يجلب القلوب فتعتدل الحال وكذلك شرع مزيد النفقات والاحسان على حسب رتبها واستطاعة المنفق لكي يزيد التوادد ثم قصر ذلك الاحرام على مدة مخصوصة هي مظنة حصول التعرف واستقرار التوادد بين الافراد فاذا حصل التوادد وتأكد بالصلات بعد زواله بمجرد رؤية أثر النعمة على المنعم عليه ولذلك اباح اللبس حينئذ وكذلك شدد النهي والنكير على الجدال في الحج الموجب للتباعد الذي هو نقيض المقصود كما شدد مثل ذلك في الفسوق الذي هو موجب لاستنقاص العبد بمعصية خالقه فيقول أخوه اذا كان هذا لم يراع حق الخالق في بلده الامين فكيف يراعي حق أخوتي بالغيب وكذلك منع التمتع بالنساء لكي لا ينصرف الفكر هناك الا لطاعة الخالق وحده ومن طاعته ما أشرنا اليه من احكام الوصلة مع اخوانه المؤمنين وهذا الامر وهو كون الحج مشتملا على حكمة الوصلة بين الامم قد أشار اليه بعض المتأخرين تبعا لبعض المتقدمين في التحريض على مزيد المواصلة

بين الامة وقالوا ان أهل المحلة الواحدة أكد عليهم الشارع زيادة عما يلزم في حق الجوار أمرا تضمنته عبادة الخالق وهو اجتماعهم خمس مرات في اليوم بمسجد محلاتهم للصلوات الخمس فيجتمع الاعلى والادنى في صعيد واحد ببيت الله على سواء فيروا أحوال بعضهم ويتأنس البعض بالبعض لكي تتأكد الوصلة الروحية بالوصلة البدنية ويعمل كل بما يجب عليه في حق أخيه ثم أوجب على أهل المصر الواحد الاجتماع العام في يوم من الاسبوع وهو يوم الجمعة ليحصل ما أشير اليه مع جميع أهل المصر ثم زاد لهؤلاء يومين آخرين في كل سنة على حالة مخصوصة من اظهار الترفه لكل واحد بحسب حاله حتى يستدل غيره بهيئته على حالته ليعلم مقتضى الحال في الوصلة وذلك يومي العيد وكان وجه تكرير ذلك مرتين احداهما بعد الصيام شهرا المؤثر في الخلق وفي الخلق والثانية في وسط العام على معتاد الناس لمزيد التدين فيما يقتضيه الحال للتعرف بالفراسة وأكد الشارع في جميع هاته الاجتماعات باجتناب المنفرات وباجتلاب المقربات كالتباعد من أكل الثوم وكالتطيب والنظافة ثم أوجب على كل فرد الحج مرة في العمر ورغبه فيما زاد على ذلك ليحصل ما أشرنا اليه في الحج ولا شك أن التيسير للحج لا يحصل لجميع أهل القطر كلهم في عام واحد فيحصل على الاستمرار اجتماع الامم من كل قطر في عام فاذا احصل منهم ما أشرنا اليه دامت المواصلة بينهم ولا أقر أنها تحصل في ذلك الوقت وحده أما اذا عمل بمقتضى التعرف فانها تشتد الوصلة بالمراسلات والاسفار والتجارة فضلا عما يجب أحيانا من الفزع من أمة الى اعانة أمة أخرى وانقاذها اذا هجم عليها العدو كما هو معلوم في وجوب القتال وجوبا عينيا على كل فرد فيما اذا هجم العدو على قسم من الامة وعجز أو تقاعس عن دفاعه فانه يجب على من جاوره أو بلغ اليه الخبر انقاذه ومنه يسري الى من وراءه وهكذا حتى يعم الوجوب المشرق والمغرب ولو على النساء والاطفال ممن يقدر على الدفاع وما ذلك كله الا لتوحيد المؤمنين وحفظ بيضتهم الاسلامية لكنا الآن نرى أن الناس غافلون عن جميع ما ذكرناه ولا يعتبرون تلك الحكمة ولا يلتفتون اليها ولا نرى الا أهل كل اقليم مقتصرين على مجرد المخالطة مع بعضهم فقط بل ربما لا يخالطون ولا يتعرفون الا بمن عرفوه في بلدهم سابقا فضلا عن التخالط مع أهالي الاقاليم الاخر كأنهم ليسوا منهم ولا هم مكلفون بالوفاء لهم بحاجاتهم حتى انه ترجع الناس الى أقطارهم من غير شعورهم بشيء من حالة اخوانهم في الاقطار الاخر كأنهم لا مطالب لهم بشيء وقد كانت رجال الامة على غير هذا وكانوا ملاحظين لما ذكرناه فترى من حج منهم يتعرف بأهالي

الارض

الارض وحصل بذلك اشتهار رجال الامة في الاقطار لاسيما العلماء والصالحين فانهم ينتشر ذكرهم ويطير صيتهم بما يسمع عنهم من الحجاج وان لم يروه في حجهم ومن طالع التواريخ والسير والرحلات علم من ذلك كثيرا فسبحان محول الاحوال وهو الباقي لارب سواه

الفصل * الثالث

﴿ في التعريف بالحجاز ﴾

اعلم ان الحجاز قسم من جزيرة العرب ممتد على شاطئ البحر الاحمر وحدوده الآن التي تحت تصرف الدولة العثمانية هي انه يحده شمالا العقبة وغربا البحر الاحمر وجنوبا اليمن من قرب صنعاء وشرقا الحناكية وهي تبعد شرقا عن المدينة بمرحلتين في حدود نجد وهذا الحجاز احد أقسام جزيرة العرب الخمس وهي اليمن وهو القسم الجنوبي منها الممتد على شاطئها على المحيط الهندي الى أن يصل الى خليج فارس والحجاز هو القسم الثاني وهو القسم الغربي منها الممتد على شاطئ البحر الاحمر ويليه شرقا القسم الثالث وهو نجد يتصل شمالا بالشام ويحده غربا الحجاز وشرقا العراق وجنوبا اليمامة والقسم الرابع تهامة وكان مقره بين الحجاز واليمن ويمتد من البحر الاحمر الى أن يتصل باليمامة على خليج فارس فيحده جنوبا اليمن وشمالا الحجاز ثم نجد وشرقا اليمامة وغربا البحر الاحمر وقد اضمحل هذا القسم في اعتباره السياسي وصار مقسما بين جيرانه والقسم الخامس هو اليمامة وهي يحدها جنوبا اليمن وشمالا العراق وشرقا خليج فارس وغربا نجد وكذلك هذا القسم صار في السياسة تابعا في الغالب لنجد فتلك الاقسام هي الاقسام الاصلية لبلاد العرب التي كانت معتبرة اقساما أصلية للقارة وان كانت لا فرق بينها من جهة طبيعة الارض غير ان القسم المشهور بحسن الهواء وخصوبة الارض وجودة الحيوانات فهو قسم نجد ولطالما ذكره في اشعار العرب وامتداحه بينهم وأما بقية الاقسام كلها فما كان منها مرتفعا فهو جيد الهواء وخصب النبات وما كان منخفضا فهو حار أجدب وعلى ذلك المعول فاعرف بصدده وهو الحجاز وقد علمت حدوده الآن واما جباله فهي كثيرة وان شئت قلت انه كله جبال تعلوه صخرية متشققة سوداء من شدة الحر وانس بها جبل بالكاف غير انه في مستهل جمادى الثانية سنة ٦٥٤ حصل في المدينة المنورة وما حولها زلزال شديد دام ازيد من ثلاثة أيام بلياليها ثم اعقبه خروج نار عظيمة من جهة جنوب

المدينة على مرحلة منها من جهة الموضع المعروف (حبس وسيل) وسالت النار فى وادى آحيلين كالنهر العظيم فحطم جميع مامرت به وتحمل الصخور ذائبة مائعة تجرى كالنهر العريض العظيم وامتد سائلا الى قرب المدينة أى الى أن بلغ حرمها فصرف عنها ذات الشمال ووقف وانطفأت النار بعد ان كانت ظهرت أول يوم نهار الجمعة كالغمام الاسود الذى عم الافق حتى أظلم الجو وظنوا أن الشمس والقمر قد كسفا ثم لما أظلم الليل ظهر ضوؤها وعلا فى الجو الى أن رئيت من حول بصرى ومن مكة والطائف وكان لها دوى كالرعد ونهرها يغلى بأمواج كالبحر من النار المتلاطمة وتقذف فى الهواء الصخور كالجبال والمدن ونهرها ذو الوان زرق وحمر ورعبت منها قلوب الناس والتجؤا الى ملاذ الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما بلغ سيلها الى حرم المدينة صرفت وانطفأت ومع عظيم لهيبها وسطوع ضوئها على الاماكن البعيدة لم يصل من حرها الى المدينة المنورة شئ وكان النسيم يأتيها باردا وكان خروج تلك النار احدى معجزاته صلى الله عليه وسلم التى لاتحصى فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما وهما فى أول القرن الثالث حديث لاتقوم الساعة حتى تظهر نار بالحجاز وللبخارى تخرج نار من أرض الحجاز تضئ أعناق الابل ببصرى وزواياتها كثيرة حتى كان فى احداها تعيين محل خروجها وانذار الساكنين به منها فكان الامر كما قال صلى الله عليه وسلم وبقية جبال الحجاز كثيرة منها المشهور كاحد وأبى قبيس وعرفات وهو ليس بمرتفع ومن أحسن جبالها هواء الطائف فانه فى شدة الصيف يكون معتدل الهواء وهو مصيف أعيان مكة وجدة وأما أنهار الحجاز فليس به نهر مستديم وانما تسيل الانهر به عند نزول المطر حتى ان أحدها يأتى من جبال الطائف ويمر على المدينة المنورة على صاحبها أكمل الصلاة والسلام ثم يذهب مغربا الى البحر وأما البحريات فليس بالحجاز بحيرة وأما العيون فبها عيون عظيمة عذبة احداها العين الزرقاء التى تسقى المدينة وهى نابعة من قباء تحت الارض فى عمق عدة أذرع وتذهب الى المدينة تحت الارض وعليها عدة منافذ لملء الماء وفيها الكفاية لجميع البلد وما حولها وانما سميت الزرقاء نسبة لجاذبها مروان بن الحكم أزرق العينين أجراها بأمر معاوية رضى الله عنه ومنها عين زبيدة التى تسقى بها مكة وهى آتية من قرب عرفات تحت الارض مثل السابقة وقد أجرتها زبيدة زوج الرشيد العباسى وقد عمرت الآن عمارة حسنة صارت بها فى غاية الانتظام ومنها عين بلد الصفراء وهى أيضا تحت الارض لكنها ليست بمنخفضة بل انها تبعد عن سطح الارض نحو ذراعين وبها ماء غزير صاف عذب حار يشرب فاذا جعل فى

الاوانى

الاوانى بردوهى تفور بعد البلد فى الارض ولا ينتفع منها الا بشئ يسير للشرب وسقى بعض بساتين ومثلها عين بلد الجديدة مع أن كلا منهما يصلح لسقى غاية عظيمة مع حسن الماء وجودته فقد شاهدت عين الصفراء وقد أناخت حولها قافلتنا المحتوية على أزيد من ستمائة نسمة وهرع الى العين جميعهم لغسل ابدانهم وثيابهم بل ولغسل أكراش الغنم التى ذبحت يومها فى القافلة ومع تراكم تلك الاوساخ كنت أرى الحصباء كالفضة فى مجرى العين والماء يزيد عمقه عن ذراعين وأما هواء الحجاز فهو على الجملة حار لكان عرضه من خط الاستواء ولا شك أن الاودية بين الجبال تزيد حرا بخلاف المرتفع ولذلك يختلف الحال فمع كون مكة المشرفة شديدة الحر حتى انى كنت بها فى دجنبر ولما أردت صلاة العشاء فى الحرم لم استطع الجلوس على الارض بدون بساط فى وقت العشاء لما أثرت الشمس فى الارض فان الطائف لا يمكن فيه فى الصيف الا التدثر فى الليل بالغطاء الثخين وقد شاهدت من أمر السراب شيئا عجيبا فانى لما كنت مسافرا من مكة الى المدينة سمعت من اصحاب القافلة انهم يقولون ان الماء هنا ليس بموجود ولا بد من المبيت على الما وكان الوقت بعد العصر فرأيت على قرب من الطريق غدرانا كثيرة فسألت الجمال هل هنا سبخة أم ان المطر صبت قبل مرورنا فقال كل ذلك لم يقع فقلت من أين هذه الغدران حينئذ فقال ليس هنا غدران وانما ذلك سراب فلم أطمئن لقوله وأرسلت أحد أتباعى باناء ليملأه من ذلك الماء الذى أريته له فشاهده وذهب اليه فلما بلغه صاح لى قائلا ليس هنا شئ فضحك منى الجمال وما ذاك الا لانى لم أعهد السراب على ذلك النحو وذلك لحر القطر وتأثر الهواء بذلك وأما نباتاته فينبت بالحجاز جميع النبات الذى يكون بالاقاليم الحارة ووراء جبل أحد من الشق المقابل للمدينة غابة كبرى بها عيون ضعيفة وأشجار كثيرة صالحة للبناء بأخشابها وأكثر الشجر المستنبت النخيل على أنواع شتى وبقية الشجر ذو الغلال يغرس منه الليمون بكثرة والبردقان والعنب والرمان وهو جيد للغاية لا سيما رمان الطائف والتين كما يستنبت بعض البقول مثل الباميا والطماطم وقليل من بقية المستنبتات ومن تأمل الحكمة فى حماية أشجار الحرم المكى والمدنى من القطع علم قصد الشارع الى استكثار الشجر هنالك لما يعود من منفعته على الامة فانه يجلب السحب ويكثر المطر ويحسن الهواء ويشرح النفوس ويقى الناس من الشمس ويلطف الحر ويوقد بفواضل ما يقطع منه للتحسين ومن شاهد تلك البقاع علم شدة الاحتياج الى الاستظلال من الشمس وعلم حكمة تحريم الشجر حول البلدين المكرمين

اللذين تلزم عمارتهما وتهرع الناس اليهما من كل فج عميق وقد أشار الى حكمة تحسين الحرم بالشجر وحرمة قطعه بعض العلماء ومنهم السمهودى فى خلاصة الوفا باخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم فقال قال الطحاوى يحتمل أن يكون سبب النهى عن صيد المدينة وقطع شجرها كون الهجرة كانت اليها وكان بقاء ذلك مما يزيد فى رؤيتها ويدعو اليها كما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن هدم آطام المدينة فانها من زينتها فلما انقطعت الهجرة زال ذلك الخ وقوله انقطعت الهجرة أى بقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وكلامه تعليل لمذهب الحنفية فى عدم تحريم المدينة وأما الائمة الثلاثة فهم على تحريمها مثل مكة وأدلتهم قوية والحاصل أن مرادنا هو أن تكثير الشجر فى البلاد لاسيما البلاد الحارة مما يرغب فيه وقد صرح الفقهاء فى كتاب السير بالنهى عن قطع شجر دار الحرب بلا حاجة اليه فكيف بغيرها فضلا عن دار خير الخلق عليه الصلاة والسلام القائل بتحريمها وتحريم ما حولها أكثر الائمة رضى الله عنهم مع الفائدة الظاهرة من ذلك (وأما) حيوانات الحجاز فيوجد بها الحيوانات الانيسة المعلومة كلها لاسيما الخيل العرابية التى يضرب بها المثل فى الدنيا وترغب فيها جميع الامم واعلاها الخيل النجدية وكذلك الابل الجيدة لاسيما النجيبات السريعة مثل ما ذكرنا بمصر وأحسن منها كما توجد البغال بقلة والحمير بكثرة والحيوانات البرية كلها موجودة الا القليل كالدب والفيل (وأما) الاسد والنمر فوجود بكثرة وكفى بما ذكره بشر فى قصيدته التى شطرها الشيخ قابادو التونسى بعد ان زاد عليها مطلعا بيانا لحالة أسود أرض العرب وتلك القصيدة لما كانت بديعة أثبتها هنا مع تشطيره المنظر براعة المشطر الذى صار كأنه بدوى قح مع كونه حضريا بحت وهى

(أفاطم لو شهدت ببطن خبت) * لهالتك عندك الاخبار خبرا
ولو أشرفت فى جنح عليه * (وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا)
(اذا لرأيت ليثا أم ليثا) * وكل منهما بأخيه مغرى
يرى كل على ثقة أخاه * (هزبرا أغلبا لاقى هزبرا)
(تبهنس اذ تقاعس عنه مهرى) * وأقبل نحوه أذنيه ذعرا
فكاد يريبه فيخال منى * (محاذرة فقلت عقرت مهرا)
(أنل قدمى ظهر الارض انى) * أرى قدمى للاقدام أحرى
ولست مزحزحى شيئا ولكن * (رأيت الارض أثبت منك ظهرا)

(وقلت

(وقلت له وقد أبدى نصالا) * بأهرة فاغر يهدرن صبرا
وسوسا ذات ألحاظ تلظى * (محددة ووجها مكفهرا)
(يكفكف غيلة إحدى يديه) * كبارى القوس ينزع مسبطرا
ولا يثني براثن منه إلا * (ويبسط للوثوب على أخرى)
(نصحتك فالتمس يا ليث غيري) * فلي بقيا عليك وأنت أدرى
ومهري قائل لك لا تخاني * (طعاما إن لحمي كان مرا)
(ألم يبلغك ما فعلته كفي) * الست ترى بها الأظفار حمرا
ألم تك طاعما أشلاء فتكي * (بكاظمة غداة لقيت عمرا)
(فلما ظن أن النصح غش) * وغرته الجراءة فاستقرا
ولج على التهور في نزال * (وخالفني كأني قلت هجرا)
(مشى ومشيت من أسدين راما) * مساورة فلاقى البحر بحرا
ورجا الأرض إذ بغيا عليها * (مراما كان إذ طلباه وعرا)
(سللت له الحسام فخلت أني) * أسلت من المجرة فيه نهرا
ولم أمش الضراء له لأني * (شققت به لدى الظلماء فجرا)
(وأطلقت المهند من يميني) * فأوثقه لغير المن أسرا
بإبريق هفا هفوا ان برق * (فقد له من الأضلاع عشرا)
(فخر مضرجا بدم كأني) * بجبهته أفضت عليه سترا
وكدت لهول جثته أراني * (هدمت به بناء مشمخرا)
(بضربة فيصل تركته شفعا) * وشقاه لقى بطنا وظهرا
وشيكا ما انثنى منها مثنى * (لدى وقبلها قد كان وترا)
(وقلت له يعز علي أني) * أراك معفرا شطرا فشطرا
وأستحيي المروءة أن تراني * (قتلت مناسبي جلدا وقهرا)
(ولكن رمت أمرا لم يرمه) * أبي لا يبيع النفس خسرا
ولم يك سامني بالنصح خسفا * (سواك فلم أطق يا ليث صبرا)
(تحاول أن تعلمني فرارا) * فهل علمت نفسك أن تفرا
وتنقض منذرويك لفل عزمي * (لعمر أبيك قد حاولت نكرا)
(أتيت تروم للأشبال قوتا) * طلبت به الدماء ورمت سفرا

ولكنى أقيد بها وأحمى * (وأطلب لابنة البكرى مهرا)
(فلا تبعد فقد لاقيت حرا) * يرى ويقرّان أبلغت عذرا
وعن كرم برزت الى كريم * (يحاذر أن يعاب فتحرا)
ولا أسف على عمر تقضى * أفادك منه حسن الذكر عمرا

* وأما معادن الحجاز فانه يوجد به المرمر الرفيع ويوجد قريبا من المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام حجر البلور المشابه للالماس ويوجد أيضا الذهب وكان مستخرجا ثم دثر ولا يبعد وجود الفحم الحجرى وكذلك غيره من المعادن المحتاجة للبحث عنها

* وأما مدن الحجاز فاصل قاعدته وقاعدة عموم الاسلام هى المدينة المنورة وكانت مدة اقامة الخلافة بها اتسعت وكبرت وكذلك بعد ذلك فى العصور الاولى من الاسلام وان حدث فيها الخراب الكلى والجلاء العام مدة يزيد ثم دون ذلك مدة القرامطة ثم تراجع عمرانها الى النمو ثم عادت الى ماهى عليه الآن مما ذكرناه فى صفتها وقاعدة الحكومة الحجازية الآن هى مكة المشرفة وقد مر ذكر صفتها ومن اعتبر ماجرى عليه الحال فى ظهور الاسلام يرى ان عناية الله بالمدينة عظيمة وقد جعلها مظهرا للدين القويم وانتصار الرسوله الامين عليه الصلاة والسلام وكانت مكة تابعة فى الحكم للمدينة حتى بعد فتح مكة وقد خالج الانصار عند الفتح انتقال النبى صلى الله عليه وسلم الى بلده الاصلى فاعلمهم بانه لا يفارقهم واستقرهو ومن بعده من الخلفاء الراشدين بالمدينة الى خلافة سيدنا على فكان صدرها بالمدينة وآخرها بالكوفة ومع ذلك فقاعدة حكم الحجاز هى المدينة وذلك هو الموافق لحالة السياسة لتوغل المدينة من القارة واذا كان الحاكم فى مكان تمهدت سائر السبل اليه وعلى تقدير حدوث بعض العوائق فى الطرق يزال عن محل وتنفذ الاحكام فى الاطراف لاستقرار القوة فى الوسط وليست مكة المشرفة على ذلك النمط وقد تغير الحال مرارا مدة الاسلام فى قاعدة الحكم بالحجاز فكان الامر على ماذكرناه من كون المدينة هى القاعدة ثم انفردت مكة بحكمها وبقيت المدينة مستقلة ثم صارت الاحوال تتقلب فتارة تكون مكة تابعة وتارة متبوعة وتارة يستقل كل منهما بحكم ولو بعد استقرار الدولة العثمانية والذى عليه العمل الآن هو أن مكة هى القاعدة وللمدينة حاكم يرجع فى أمره الى حكومة مكة وأما بقية المدن بالحجاز فليست بموجودة وانما الموجود عبارة عن قرى مثل الطائف وهى أكبرها والصفرا والجديدة وحده ورابغ وخيبر وقد غلط كثير من الجغرافيين حتى من المسلمين فى ذكرهم لسكان هاته البلدة

وكوهم

وكونهم يهودا غترارا بما كان في أصلهم وغفلة عما وقع في خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه من جلاء جميع الاديان الا الاسلام عن جزيرة العرب مستندا للنص من الشارع في كونه لا يجتمع بها دينان ومنذ ذلك التاريخ لم يبق بها الا المسلمون وسكانها الآن من ضعفاء القبائل مسلمون وهم تبع لحكم المدينة صورة وفي الحقيقة تحت حكم محمد بن رشيد النجدي أكبر حكام قبائل نجد بل هو الحاكم على جميع أواسط قارة جزيرة العرب وهو على مذهب الوهابي وله نفوذ تام وحكم عادل ذو هيبة وسطوة بحيث أن رقعة منه بيد حاملها تؤمنه في جميع الانحاء من أواسط القارة ويجلس في مجلس حكمه ويحضر القاضي ومعه أحد العلماء بصفة المفتي ويقف حوله أصحاب الخيل من أعوانه لبرسلهم في الخصومات فاذا دخل المشتكي ألقى دعواه على القاضي ويجيب خصمه بما يظهر له ويحكم القاضي بما يراه فيستشير الامير ذلك العالم الحاضر هل ان حكم القاضي موافق للشرع أم لا فان وافقه فيها والا تباحثا وما يرسي عليه ينفذه الامير حالا وأما النوازل المتعلقة بالادارة وحفظ الامن فيحكم فيها باجتهاده مراعيا فيها الانصاف والعدل بما لا يخرجها عن السياسة الشرعية مع الصرامة التامة في التنفيذ حتى انه قيل انه أتاه يوما رجل وهو في مجلسه الحكمي وأخبره بأنه وجد عدلا لبعير ملقى في الطريق وهو مملوء بالرمل ولا يعلم صاحبه فأخبره بالكي ليلقه محله فسأله الامير من أين علمت أنه رمل فقال له اني مسسته فقال له كيف مسسته وبأي يد فقال له مسسته بيدي هاته وأشار باحدى يديه فما كان من الامير الا أن جرد سيفه وقطعها وقال له ما كان ينبغي لك أن تمسه حتى تعلم ما فيه وأي فائدة لك في ذلك لولا نية الخيانة اذ لو وجدته شيأ ثمينا لما كنت أخبرت عنه ومن علم حالات القوم وطباعهم في هاته الازمان يرى أن ذلك الحكم الصارم مطابق لما يقتضيه الحال اذ لم تأمن ولايته ولم تستقر بها الراحة والهناء الا بمثل ذلك الحكم واذا أمر أحدا بأمر ولم ينفذه ولم تحمله قبيلته على تنفيذه فانه يصدر في الحال أوامره الى القبائل التي يرحل بها الى جهة المأمور بحضور فرسانهم في وقت معين ثم يركب هو وفرسان جيشه وما يقبله من المأمورين المشار اليهم الا انضموا اليه الى أن يعظم جيشه فيصل الى المأمور وقبيلته ويأخذهم أخذة رابية ويملك أرزاقهم ان كان منه من العسكر وبمثل ذلك نفذ أمره وعلا صيته وخضعت القبائل اليه مع كونه جوادا وفيا بالعهد عالي الهمة على شيمة كرام العرب وهاته البلدان المار ذكرها أغلبها به حصن أو بقربه حصن لاقامة العساكر للمحافظة على الامن غير ان أغلب الحصون صار خرابا

للاهمال وليس به حامية وأما مراسي الحجاز فأعظمها مرسى جدة ثم ينبع البحر وهاته هي أقرب المراسي الى المدينة المنورة بحيث يصلها البريد في يوم وتبلغها القوافل في ثلاثة ثم بقية المراسي على قلتها ليس لها أهمية غير ان الموجود منها كلها هي مراسي أمينة للسفن لما خلقها الله عليه من احاطة الصخور العظيمة حول الحوض الذي ترسي به السفن بحيث يصح أن يقال ان الذين انتخبوا تلك البقاع لجعلها بلدا بالمراسي هم من حذاق أهل التدبير واتساع المعارف بالصناعة البحرية فقد شاهدت كلا من مرسى جدة وينبع بحوض كانتها ايسع مئين من السفن الضخام في أمن تام ولو عند تلاطم الامواج التي كالجبال وأغلب الخرجيين لا يدخلونها الا بدليل من بحرية أهالي تلك المراسي وقد شاهدت الخريطة البحرية التي في الباخرة المصرية التي سافرت فيها الى جدة معلما بها على جميع الحجارة المستورة بالبحر حوالي شاطئ البحر الاحمر مع بيان حجمها ومركزها وهي من صنع الانقليزيين فسألتهم هل لهم خريطة مصرية أو عثمانية فأجابوا بأن تلك الخريطة هي المعول عليها عند جميع الامم ولو العثمانيين الذين يعد البحر الاحمر بحيرة في مملكتهم من جميع جهاته فعجبت واندهشت من حزم قوم واهمال آخرين وهي احدى علامات تأخرنا اذ صرنا لا نعلم بلادنا وشواطئها الا بتعريف الاجانب لنا بها وسبحان الفعال لما يريد

وأما سكان الحجاز فهم كلهم عرب من نسل العرب الاقدمين الاسكان البلدين المكرمين فأغلبهم من الوافدين من جميع الاقطار واكثرهم بمكة من الهنود وأما في المدينة فأكثرهم من المغاربة وعدد جميع السكان في الحجاز يقرب من ثلاثة مليون فالذين يعمرون الارض ما بين مكة والمدينة هم قبيلة مزينة وتعرف بالاحامدة ومنها فخذ يعرف بقبيلة حرب وهم التجار ومنهم البغاة الذين يكثرون قطع الطرق بين البلدين المكرمين وهاته القبيلة وهي مزينة المعروفة بالاحامدة تنقسم الى قسمين كبيرين أولهما يسمى المسروح وهم سكان البراري من مكة الى الصفراء وثانيهما يعرف ببني سالم ومنهم فخذ حرب وهم سكان بقية الجهات وديانة الجميع هي الاسلام على مذاهب شتى أغلبهم أهل سنة على المذهب الحنفي والشافعي وانتشر فيهم التعاليم الدينية بكثرة زوايا الشيخ السنوسي المنتشرة في جميع جهاتهم وقد مر الكلام على مذهبهم عند الكلام على جزيرة العرب في المقدمة وعلى حوادث تونس في فصل سفري الى فرانسا كما يوجد المذهب الوهابي بقلة وان كثر في جهات نجد الخارجة عن حكم الحجاز وأما تقاسيم الاهالي بالنظر للحكم فان كل قبيلة لها مشايخ منها ويرجع الجميع الى أمير مكة السيد الشريف

﴿ تم الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس أوله فصل فى تاريخ الحجاز ﴾

بحمد من أسبغ نعمه على العباد والصلاة والسلام على بدر الهدى وعلى آله نجوم
الرشاد قد تم طبع الجزء الرابع من صفوة الاعتبار على يد مصححه مصطفى
محمد فشيشة المفتقر الى رحمة الكريم الغفار مصححا كما يرام حاويا
من الفوائد ما يتم به المرام وذلك بالمطبعة الاعلامية التى
هى عن التعريف غنية ووافق طبعه يوم الاثنين
المبارك وهو التاسع من شهر جمادى الاخرى
الذى هو من شهور سنة ثلاث وثلاث
مائة وألف من هجرة من خلق
على أكمل وصف وصلى
الله على سيدنا محمد
وعلى آله
وصحبه
وسلم

﴿ طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣ ﴾

﴿ فهرست الجزء الرابع من كتاب صفوة الاعتبار ﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفه

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

﴿ تمت الفهرست ﴾

﴿ طبع بالمطبعة الاعلامية بمصر سنة ١٣٠٣ ﴾

الجزء الخامس

من كتاب

صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

تأليف

الشيخ الجليل والعالم المحقّق النبيل

السيد محمّد بيرم الخامس التونسي

رحمهُ الله ونعمهُ

الطبعة الاولى

طبع في مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣١١

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله اللهمّ صلِّ على سيّدنا ومولانا محمّد وآله وسلّم تسليماً

فصل في تاريخ الحجاز

مطلب في تاريخهِ القديم

اعلم ان سكان الحجاز هم العرب فتاريخهُ هو تاريخهم نعم قد كان الحجاز معموراً قبلهم لكن ذلك العمران قد جُهل تاريخهُ بالمرة لتقادم العهد تقادماً كثيراً وغاية ما يعلم من حوادث ذلك التاريخ هو بعض جزئيّات لما تعلق ببعض الاماكن المشرفة هناك مثل بيت الله الحرام فانها بُنيت منذ عهد سيدنا آدم ابي البشر عليهِ الصلاة والسلام وجُدّدت ايضاً قبل سيدنا ابراهيم ولكن الاخبار عن ذلك كادت ان تكون خليّة عن التحقيق ثم انهُ لما تكوّنت امة العرب واستقرت في جزيرتها حدثت فيها حوادث تاريخيّة مهمة جداً غير انها في ذاتها ايضاً منقسمة الى اربعة اقسام باعتبار انقسام العرب في انفسهم لان العرب منذ نشأتهم الى الآن منقسمون الى اربع طبقات فالطبقة الاولى هي العرب البائدة والثانية العرب العاربة والثالثة العرب المستعربة والرابعة العرب المولدين او المخضرمين

فاما الطبقة الاولى فهي التي كانت قبل سيدنا ابراهيم وانما سميت بائدة لابادتها اي انقطاعها وانقطاع اخبارها وان كانت ذريتها لم تزل وهم بقيّة الطبقات وانقطاع اخبارها انما جاء من شدة طول العهد والامد فلم يعلم من احوالهم الّا بعض حوادث قصها الله تعالى في القرآن المجيد مثل ما ذكر من احوال رسول الله سيدنا صالح الى قومهِ ثمود وكذلك قصة عاد مع رسولهم سيدنا هود والاشارة الى ما كان لهاتهِ الامة

من القوة والعمران والثروة وشدة البأس الى غير ذلك من احوال انقراضهم والاعتبار بما كان لهم وبقيت بعض آثاره في ديارهم واما غير ذلك من تفاصيل تاريخهم فلا يوجد منهُ الاَّ قصص يذكرها بعض المفسرين او المؤرخين لا سند لهم فيها الاَّ الاعجاب بقصص القصاص مما لا ينبغي الاعتماد عليهِ اللهمَّ الاَّ ما اذا ورد شيءٌ من ذلك عن الصادق الامين رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فانهُ ينبغي ان يتلقى بالقبول ولعلهُ لا يوجد من ذلك عدا ما في القرآن المجيد الاَّ ما ندر مما روي بصحيح السند وهكذا ما يروى عن الصحابة رضي الله عنهم في ذلك الصدد لانهم اذا صحت الرواية عنهم لايقولون الاَّ ما لهُ ثبوت باحدى الوجوه الموصلة وحاشاهم ان يذكروا خرافات القصاص ولذلك كانت الاخبار عن تلك الطبقة من العرب في غاية الابهام وانما المحقق منها هو انهم كانوا امة عظيمة ذات نخوة وشهرة وعمَّروا الارض عمرانًا عظيمًا وحادوا عن جادة الصواب في عبادة الخالق ﷻ فأرسل اليهم الرسل في ازمان مختلفة يدعونهم الى الرشاد فعاندوا الى ان احاط بهم العقاب وطول الزمن الواقع ما بين اولئك الرسل الدال عليهِ سياق القرآن المجيد والدال عليهِ ايضًا نسيان القوم لما كان اصاب سابقيهم يدل على طول الزمن بين سيدنا نوح وبين سيدنا ابراهيم عليهم جميعًا الصلاة والسلام زيادةً على ما يزعم انهُ مذكور في التوراة باضعاف مضاعفة فان تكوُّن الامة وكثرتها بعد الطوفان الى ان تبلغ الى ذلك المقدار من الكثرة والشدة وغير ذلك من الصفات لابدَّ لهُ من زمن طويل كافٍ لتكوُّن ذلك العدد الوافر من رجل واحد ثم ان نسيانهم لمعجزة الطوفان وسبب نجاة جدهم يستدعي ايضًا ذلك الطول ثم ان تعدُّد الرسل مع التعاقب اي ان كل واحد منهم في زمن بعد الآخر وكل واحد منهم يحل العقاب بمن خالفوهُ فبعضهم أُهلك بالريح وبعضهم أُهلك بالصيحة الى غير ذلك يدل ايضًا على شدة طول الزمن فيما بينهم حتى تنوسي خبر السابق وكل ذلك قبل سيدنا ابراهيم عليهِ السلام فلابدَّ ان تكون المدة بينهُ وبين سيدنا نوح طويلة جدًّا لا يعلم مقدارها الاَّ الله تعالى ومجموع ذلك يدل على طول عمر الدنيا وانما غايتها انها حادثة وانها مآلها الى الفناء وهذا كلهُ يبين لنا معنى قولهِ عليهِ الصلاة والسلام بعثت انا والساعة كهاتين وقرن بين اصبعيهِ الكريمتين الوسطى والسبابة وكذلك ما دلَّ من الآيات والاحاديث على قرب الساعة فربَّ قائل يقول اين هذا القرب وهذا الاقتراب وقد مضى من زمن البعثة الى الآن أَزيد من الف وثلاثمائة سنة ومع ذلك لم تظهر العلامات الكبرى كنزول سيدنا عيسى عليهِ السلام وطلوع الشمس من مغربها الى غير ذلك فنقول لهُ ان الامور نسبيةٌ فمن علم المقدار الكثير

من مدة الدنيا التي مضت وعلم ما بقي منها رأى ان الساعة قربت وانها مقترنة بالبعثة ولا يتأتى ذلك الاّ اذا كانت المدة الماضية طويلة طولاً كثيرًا كما هو الواقع والمشاهد من حالة الآثار الدالة على ان ما مضى يزيد على العشرات من آلاف السنين فنسبة الفين سنة او ثلاثة آلاف من تلك العشرات من الالف ما هي الاّ كنسبة المتلاصقين والمقترب واما اذا اعتبر ما يزعمهُ اهل الكتاب من المدة وانها ستة آلاف مثلاً فلا يمكن الفهم الاّ على ضرب من التأويل الذي لا حاجة اليهِ لمخالفتهِ للواقع ولتبين التحريف الثابت فيما يستند اليهِ اهل الكتاب الذي غرّهم فيما ذكر فللهِ الحمد على تنزّه شريعتنا المطهرة عن مثل الخرافات المخالفة للواقع

واما الطبقة الثانية من العرب وهي العرب العاربة فهي التي من زمن سيدنا ابراهيم وسيدنا اسماعيل ابنهِ ابي العرب المعروفين الى عصر البعثة وهاتهِ الطبقة اخبارها معروفة اجمالاً لاسيما قرونها المتأخرة بما يستنتج من اشعارها وقصائدها واخلاقها وان كانت تفاصيل الحوادث التاريخيّة غير محققة لاسيما القرون الاولى لها والمتوسطة لعدم وجود تواريخ محررة في اخبار هاتهِ الامم من العرب دوّنت قبل الاسلام وانما الذي يوجد في ذلك من التآليف انما هو بعد الاسلام عند ما حدث تدوين الكتب في الامة الاسلاميّة وذلك من القرن الثالث من الهجرة فيوجد في التواريخ الاسلاميّة اخبار كثيرة عن هاتهِ الطبقة وكثير منها تلوح عليهِ سمات الصحة لما يؤيدهُ من الاشعار في الوقائع وحوادثها واتياننا على جميع ذلك في هذه الخلاصة مغاير لمقصدنا لانهُ لا يكون الاّ زيادة نسخة من احدى التواريخ المشهورة في ذلك مثل تاريخ المسعودي او تاريخ ابن خلدون او غيرهما من التواريخ الكثيرة وانما الذي يليق بنا ذكرهُ هو ان نقول ان هاتهِ الامة قد انتشأت فيها دول عظيمة وممالك واسعة وكانت في أغلب الاوقات منقسمة الى ثلاثة اقسام جنوبي وشمالي ووسط

فاما القسم الجنوبي فهو اليمن وحدثت فيهِ دول عظيمة مستقلة بنفسها في أغلب الاوقات ولكنها لم تتسلط على غيرها من الامم الاّ نادرًا نعم قد يتسلط عليها غيرها احيانًا فتارةً تكون تابعةً لملوك فارس وهو الاكثر وتارةً تتبع دولة الحبش او دولة اليونان او الرومان او المصريين وفي كل الاحوال الاغلب ان يكون حكامها منها وان كانوا تابعين لغيرهم ممن ذكرناهُ ونشأ فيهم تمدنًا جميلاً كما تدل عليهِ الآثار التي حول المدن القديمة مثل صنعاء وغيرها وصار في اليمن رجال ذوي فطنة وفكر وقاد وتأهل للكمال كما يرشد اليهِ الحديث الشريف القائل الايمان يمان والحكمة يمانية او كما قال عليهِ الصلاة والسلام

واما القسم الشمالي فهو مملكة غسان اي الجهة الموالية للشام والعراق فهاته كثيرًا ما حدثت بها دول مستقلة ذات شأن لكنها لم تبلغ مقام دول اليمن وفي اكثر الاحوال تكون هاته المملكة تابعة لصاحب ملك الشام كالرومان وغيرهم وفي اكثر الاحوال ايضًا تكون رؤساؤهم منهم وان كانوا تابعين لغيرهم

واما القسم الثالث وهو الوسط الشامل للحجاز ونجد وتهامه فالحجاز منهُ في أغلب الاوقات ان لم نقل في كلها كان منفردًا

واما غيرهُ فيكون تارة تابعًا للجنوب وتارة للشمال وتارة ينفرد بنفسهِ مثل الحجاز والحجاز الذي هو بيت القصيد مع كونهِ كان منفردًا عن الخضوع لغيرهِ الّا ان يكون خضوعًا اسميًا بمعنى الادلاء بالبيعة لبعض ملوك اليمن العظيمي الملك فانهُ في نفسهِ لم تكن بهِ دولة ملكيّة قط وانما جميع السكان منقسمون الى قبائل كل قبيلة خاضعة الى رؤسائها فقط ولا سلطة لواحدة على أخرى الّا ما يكون على طريق الظلم والعدوان وقد انفردت قبيلة قريش من بين سائر قبائل العرب بالمجد والفضل لما لها من المزيّة باختصاصها بالسكنى حول بيت الله الحرام الذي لم يزل معظمًا عند الجميع منذ بناهُ سيدنا ابراهيم وسيدنا اسماعيل ابو العرب وكانت سائر القبائل العربيّة تحجهُ من جميع الآفاق اليمن والشام وغيرها وتعظم اهلهُ وتكرمهم واختص بمزيد الشفوف على قريش بنو هاشم منهم فكانوا هم سدنة البيت وهم حماتهُ *وقد تقررت في قبائل العرب اكثر شيم المكارم لا سيما قريش فكانوا ابعد الخلق عن تحمل الضيم وكانوا احرص الناس على حفظ المجد وحماية النسب فيحفظون انسابهم ويتفاخرون بها ويكرمون الضيف ويتنافسون في البذل والكرم ويحمون الجوار ويوفون بالعهد ولهم اليد البيضاء في الشجاعة والرماية والفروسيّة والاعتناء بتربية الخيل الجياد والابل ويتفاخرون بالعدل ويستقبحون الظلم وان افتخروا بهِ في قهرهم بهِ لاعدائهم والحاصل انهم اقتنوا اكثر سمات الفضائل ومكارم الاخلاق حسب ما يرشد الى ذلك قولهُ عليهِ الصلاة والسلام بعثت لاتمم مكارم الاخلاق ويؤكد ذلك حلف الفضول الذي قال فيهِ صلى الله عليهِ وسلم لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما احب أن لي بهِ حمر النعم ولو أُدعى بهِ في الاسلام لاجبت الخ وذلك ان قريشًا تحالفوا على ان لا يجدوا مظلومًا الّا انتصروا اليهِ حتى يردوا ظلامتهُ ويأخذون حق الضعيف من القوي ولتنافسهم في سمات الكمال حدثت بين القبائل المشاحنات على استحصالها وتمكنت العداوة بينهم وصاروا على قلوب شتى

وكان اعظم همهم وغاية تفاخرهم هو البلاغة في لغتهم التي بها يعبرون عن خصال فضائلهم ومناط تنافسهم حتى صاروا يعقدون لذلك اسواقاً كسوق عكاظ فيفيضون اليهِ من كل فج عميق وتأتي القبائل بما لديها من البضائع والتجارة ويقع بينهم تعارف ورواج في المتجر ولكن موضوع اصل الاجتماع هو عرض كل قبيلة كلام فحول فصحائها من نثر ونظم فتنصب لاصحاب البلاغة واللسان الطلق المنابر وينشد كلٌ منهم ما لديهِ من القصائد التي كان تأنق في احضارها حتى ربما بلغ الحال بأحدهم ان لا يظهر قصيدتهُ الاَّ بعد التروّي والتدبر فيها واصلاحها مدة العام والعامين حتى كانت لهم قصائد تسمى بالحوليّة وقد يكون الانشاد ارتجالاً مع الابداع والاغراب من مصاقعهم في اغراض شتى من نصائح وحكم وصفة مكارم الاخلاق او في الشجاعة والبطش والحروب او في الغزل والنسيب او المفاخرة والمدح والذم الى غير ذلك مما اشتهر امرهُ في الآفاق بين سائر الامم الى الآن ولا زال يضرب بهِ المثل فيما كان للعرب من سعة اللغة وكمال الادراك فيما خاضوا فيهِ من مناهج الكلام وكانت لهم حكام مسلم اليهم الانصاف ومعترف لهم بكمال الخبرة والاحاطة بأساليب البلاغة وجزالة المعنى ودقة المدرك فيحكمون بتفضيل بعض الكلام على بعض وربما بلغ الحال من العناية بالكلام البليغ ان يكتب في صحائف موثقة ويعلق في داخل الكعبة التي هي مناط تعظيمهم قديماً وحديثاً ولو في الجاهليّة دلالة على ان ذلك الكلام قد بلغ الغاية القصوى في المهيع الذي هو بصددهِ لما احتوى عليهِ من الفصاحة ومن ذلك المعلقات السبع الشهيرة غير انهم مع هاتيك الكمالات قد تناسوا دين آبائهم ابراهيم واسماعيل عليهم السلام ولم يبقَ فيهم من آثارهِ الاَّ اعتقاد الخالق والاعتراف لهُ بالوجود كما يرشد اليهِ قولهُ تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولنَّ الله وكذلك تعظيمهم للبيت الحرام ثم تفرقوا في بقيَّة العقائد على انحاء شتى باطلة من وثنيَّة ومجوسيَّة ودهريَّة وكتابيَّة اي متنصرين او متهودين مستغرقين في الضلال الذي عم جميع اطراف الارض في ذلك العصر بحيث لم يكن بها من يعبد الله على حق الاَّ عدد من افراد مخصوصين * وبينما كان اهل الارض في ذلك الظلام الحالك واذا بنور الله قد سطع وكشف عن البصائر الحجب ببعثه رسول الله سيدنا ومولانا مُحَمَّد صفوة بني هاشم سادة العرب فانقلب الكون حينئذٍ الى طور آخر في سائر الاحوال المتعلقة بالدين والدنيا وظهر في العالم عصر جديد عمَّ اعتدالهُ واستقامتهُ اغلب المعمور من الارض في سنين قليلة والكلام على تفاصيل زمن البعثة وما سبقهُ وما لحقهُ من مكملات

دعائم الدين الاسلامي قد بسط ووفر في مجلدات عظيمة من كتب السير والتاريخ لا تمكن الاحاطة بها هنا وشهرتها غنية عن البيان وانما الذي ينبغي التنبيه عليهِ هنا لمن لم يكن خبيرًا هو ان تاريخ ذلك العصر اعني عصر البعثة وعصر الخلفاء الراشدين يلزم فيهِ من القيود ما لا يلزم في غيرهِ من التواريخ وهو صحة السند واتصالهِ بحيث يصح ان يكون معتمدًا لابناء الاحكام الشرعيّة عليهِ* لان جميع حركات وسكنات رسول الله صلى الله عليهِ وسلم تشريعيّة للامة الاّ ما قام الدليل على اختصاصهِ بهِ عليهِ الصلاة والسلام وهكذا اعمال خلفائهِ الراشدين من بعدهِ ومن المقرر في كتب الاصول ان الادلة الشرعيّة لا تثبت بمجرد النقل بل لا بد ان يكون النقل على الوجه المعتبر وهو روايتهُ اي الدليل بالتواتر او الشهرة او الافراد على ما هو مبسوط في كل منها وبهذا يتبين غلط من يزعم ان الامام ابا حنيفة رضي الله عنهُ كان غير عالم بالسير الذي هو تاريخ سيرة رسول الله سيدنا محمّد صلى الله عليهِ وسلم وعلى آلهِ وكذلك سيرة خلفائهِ الراشدين من بعدهِ وهم سيدنا ابو بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان وسيدنا علي وسيدنا الحسن وسيدنا الحسين رضي الله عنهم لان كل ذلك يتوقف عليهِ كثير من مسائل الاجتهاد كمعرفة الناسخ والمنسوخ من الاقوال والافعال وكذلك نفس الادلة التي يستند اليها المجتهد فمن تمشدق بحكايات عن ابي يوسف او محمّد فيما سلمهُ امامهم ابو حنيفة رضي الله عنهم اجمعين ليس هو الاّ جهول بمقام الاجتهاد وبمعاني الكلام وارتباط العلوم بعضها ولا غرابة حينئذٍ في فحش غلط وكذب مؤرخي غير المسلمين فيما ينسبونهُ بهتانًا الى النبي صلى الله عليهِ وعلى آلهِ وسلم في بعض سيرهِ وصفاتهِ لانهم يظنون ان تاريخ ذلك العصر خصوصًا ما يتعلق بالنبي صلى الله عليهِ وسلم هو مثل سائر التواريخ التي تتوقف على مجرد الرواية مع عدم المانع العقلي وقد عرفت ان الامر عندنا ليس كذلك بل هو مشروط بما ذكرناهُ فلا يغتر مسلم بما يذكرهُ الافرنج الآن في تواريخهم في هذا الموضوع وننبه على الخصوص ابناء أوطاننا المعجبين بأحوال الافرنج على الاطلاق لانكبابهم على تعاليمهم وعدم فتح بصائرهم في حقائق معارف المسلمين حتى جرهم ذلك الى استحسان طريقة التاريخ عند الافرنج مطلقًا مع انها في نفس الامر ليست مطابقة للواقع في الموضوع الذي ذكرناهُ ثم ان هاته الطبقة من العرب لما كتب الله لها ان تسود على الارض ويعم حكمها فيها في الطول والعرض وأنجز لها وعدهُ في اقرب مدة بحيث انها في خلافة سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنهُ المتوفى سنة ٢٧ هجرية امتدّ حكمها من جبال

القوقاز الى المحيط الغربي جهة اسبانيا ومراكش وكان ذلك احدى معجزاته عليه الصلاة والسلام حيث قال (وزويت لي الارض فأوريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي مقدار ما زوي لي منها) فكان الامر كذلك ولم يتوغل ملك الامة في الجنوب وفي الشمال مثل ما توغل في المشرق والمغرب كما قالهُ حجة الاسلام الغزالي في الاحياء وسبب ذلك والله اعلم أن العمران في الارض كان في ذلك التاريخ غير معتبر في جهتي الجنوب والشمال وانما مناخ الامم ومقام اغلب الخلق في جهتي الشرق والغرب وكان الوجه في الاتيان بلفظ المشارق والمغارب بصيغة الجمع هو الاشارة اما الى المشارق بالنسبة للعرض اي تعددها نظرًا لاختلاف الفصول او بالنظر الى الطول اي مشارق اهل الارض فان كل جهة من الارض شرقيها مسكون الى نهاية المحيط الشرقي بالنسبة لنصف الكرة الذي هو القسم المعمور والمعروف اذ ذاك وهكذا الغرب فيكون في الحديث على الوجه الثاني اشارة الى عدم تملك المسلمين في امريكا كما هو واقع بالفعل لانها ليست بمشرق ولا بمغرب لاحد سكان هذا القسم اعني القسم المشتمل على آسيا وافريقيا وأوروبا لان بعد قارة امريكا من هاته القارة جعل مشرق شطوط قارّاتنا ومغربها هو البحر فبسبب امتداد ملك هاته الطبقة الى ذلك الحد وانتقال القبائل الى تلك الاصقاع المفتوحة واختلاطهم بأممها ورجوع تلك الامم ايضًا الى مركز الحكم وتحته وتحت الديانة ايضًا لانهم دخلوا فيها افواجًا * فبسبب ذلك كله حدثت الطبقة الثالثة من العرب وهي العرب المستعربة اي الذين تعربوا وان لم يكونوا في الاصل عربًا وامتدّت هاته الطبقة الى نهاية دولة العرب في الصورة والمعنى اعني إلى حدود المائة الثالثة التي تقلص فيها ظل دولة جنسيّة العرب وان بقي فيهم الملك لكن عصبتهُ والنصارهُ والقائمون به والذين امر الدولة في أيديهم حقيقة هم الاعجام من الترك والموالي الذين اتخذهم بنو العباس بطانة لهم فتغلبوا على الاطراف وعلى نفس الخليفة تارةً مع شدة في الاستيلاء وتارةً مع ضعف الى ان اندثر ملك الخلفاء بالمرة بواقعة هلاكو خان على بغداد التي بها انقرضت دولة بني العباس وان عادت اسمًا بلا مسمّى بعد مدة قليلة من السنين بظهور احد ذريّة بني العباس في مصر واكرامهم لهُ بالبيعة الصوريّة وتسميته بالخليفة ثم يحجرون عليه في قصره الرحيب بحيث لا يكون لهُ من الامر شيء ويكتب كتابًا يشهد فيه على نفسه انهُ فوّض الامر الى ذلك السلطان الذي ولاهُ ويبقى ممتعًا في لذاته التي يتفضل بها عليه حسن ظن من سلاطين ذلك الزمان بمصر حتى اعتقدت العامة ان وجود الخليفة

موقوف على شرط النسب العباسي وحدهُ فأزاحت هاتهِ البدعة الدولة العثمانيَّة عند استيلائها على مصر سنة ٩٢٢ هجريَّة بفتوى العلماء

ومن تاريخ انحصار دولة العرب اي بني العباس في مملكة العراق وخروج الحجاز عنها غالبًا الى بيعة من هو بمصر حدثت الطبقة الرابعة وهي العرب المخضرمون الذين هم سكان جزيرة العرب الى الآن فانهم وان كان اكثرهم قبائل عربيَّة النسب اصالة لكن لغتهم قد خرجت عن اصلها وكذلك طباعهم وعاداتهم لتقليدهم الامم المتغلبين على الدولة التي هي اكثر نفوذًا في ممالك الاسلام فهم وان كانوا عربًا من جهة الانساب لكنهم غير عرب من جهة اللغة والطبائع وبعض الاختلاط في الانساب ولذلك اطلق عليهم اسم المخضرمين وقد أدانا الكلام على اجمال اوصاف الطبقات الاربعة من العرب الى التكلم عن شيءٍ من حالة التاريخ الجديد للحجاز لكي ينسجم تعريف تلك الطبقات على وتيرة واحدة ثم نعود الآن الى ديدننا في التكلم على التاريخ فنقول ان انتهاء التاريخ القديم للعرب كان بظهور الاسلام

فصل

في التاريخ الجديد للحجاز

اعلم انهُ ببعثة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم خلاصة العرب وسيد الامم قد حدث تاريخ جديد في سائر العالم لا في الحجاز فقط الذي هو مطلع نورهِ عليهِ الصلاة والسلام وذلك لعموم رسالتهِ صلى الله عليهِ وسلم فانهُ ولد عام الفيل الذي كانت تؤرخ بهِ العرب وهو العام الذي قدم فيهِ ملك الحبشة للاستيلاء على مكة ومعهُ فيلة للحرب فولي كبيرها على عساكرهم وانهزمت الحبشة بدون حرب وكان ذلك من الارهاصات الدالة على البعثة وذلك العام قبل الهجرة بسنة ٥٣ ويوافق ذلك سنة ٥٦٩ ميلاديَّة وقد كان والد النبي صلى الله عليهِ وسلم قد توفي قبيل ولادتهِ فكفلهُ جدهُ عبد المطلب وارضعتهُ اخوالهُ بنو النجار في المدينة ثم نشأ صلى الله عليهِ وسلم على كمال الاخلاق واشرفها سجيَّةً فطر عليها من غير تعليم ولا تأديب حتى انهُ كان اميًّا لا يقرأ ولا يكتب على ما هو الغالب في الامة اذ ذاك وكفلهُ عمهُ ابو طالب بعد وفاة جدهِ فلما استكملت شبوبيتهُ تعاطى التجارة

على وجه المضاربة وهي ان يكون المال لانسان والعمل على الآخر والمال الذي اتجر بهِ كان لخديجة بنت خويلد احد اعاظم قريش واغنيائها فسافر الى الشام ورجع بربح فاق على انظارهِ ثم تزوج السيدة خديجة وقد رغبت فيهِ لعلو نسبهِ حيث كان صفوة بني المطلب وبني هاشم سادات العرب كما تقدّم ولكمال حسبهِ لما رأت من جزيل الارباح في تجارتهِ مع ما هو عليهِ من استجماع كافة مكارم الاخلاق ووفرة العقل والجلالة والمهابة حتى كانت قريش يدعونهُ الامين وينقادون لاشارتهِ واوامرهِ حتى انهم لما اختلفوا عند تجديدهم بناء الكعبة فيمن يبني الحجر الاسود وهم بالمسجد الحرام وتراضوا على تحكيم اول داخل فكان هو النبي صلى الله عليهِ وسلم فقالوا جميعاً رضينا هو الامين

ومن كمال تدبيرهِ ارضى جميعهم في ذلك حيث اخذ ثوباً ووضع فيهِ الحجر الاسود ثم قال لهم لترفع كل طائفة من احدى جهاتهِ فرفعوهُ جميعاً حتى اذا بلغوا بهِ محلهُ وضعهُ فيهِ هو عليهِ الصلاة والسلام وهكذا عرف بين الجميع بالصدق والوفاء والنزاهة عن كل نقيصة فلما بلغ الاربعين من عمرهِ بعثهُ الله رسولاً بنزول الوحي عليهِ صلى الله عليهِ وسلم مع الملك واقام بعد ذلك بمكة ثلاثة عشر سنة يدعو فيها الناس للايمان بما انزل عليهِ من القرآن واقامة الدليل والبرهان واظهار المعجزات الخارقات للعادات من الاخبار بالمغيبات الماضية كحوادث الامم الماضية مما اختلفت فيهِ اخبار اهل الكتاب فجاءهم فيهِ بما يوافق الحق والعقل وان خالف اقوالهم جميعاً وكذلك المغيبات الحالية كالاخبار عن بيت المقدس وتوصيفها توصيف معاين لها مع انهُ لم يرَها قط الا في الاسراء الذي هو معجزة لهُ عليهِ وآلهِ الصلاة والسلام وكذلك المغيبات المستقبلة كغلب الروم من الفرس وعود الكرة لهم وانتصار المؤمنين وعزتهم وامتلاكهم مشارق الارض ومغاربها مما جاء كلهُ على نحو ما قال وهكذا اجابة دعواتهِ وغير ذلك من المعجزات واعظم بمعجزة انشقاق القمر التي بينّا ثبوتها القطعي في الكلام على مصر وفوق ذلك كلهِ معجزة القرآن الذي هو من جنس كلامهم ومن النوع الذي فيهِ مجال تفاخرهم واعتنائهم فاذا هو يومياً يقصص عليهم القصص ويقيم البراهين على الايمان ويوعظ ويرغب ويرهب باساليب شتى ويدعوهم الى المعارضة باتيانهم بمثلهِ وينادي عليهم بالتعجيز مما يزيد في حماستهم في المعارضة ولم يتأتوه واحد منهم بشيءٍ حتى لجأوا الى انهُ سحر وغير ذلك من اعذار المعاندين العاجزين كقولهم انهُ تعاليم نسطور الرومي مما ردهُ عليهم القرآن الكريم حيث قال لسان الذي يلحدون اليهِ اعجمي وهذا لسان عربي مبين (الآية) فقد اخطأوا وافتروا ولم يفقهوا ان مناط المعجزة هو اللسان

العربي وهو محل مناداتهم الى المعارضة وذلك لا يتأتى فيهِ قولهم لان لسان من زعموهُ عجمي وليس هو موضوع التعجيز وهذا كافٍ في دحض اصل الدعوى من كون نسطور لم تكن بينهُ وبين النبي صلى الله عليهِ وسلم علقة ولا مواصلة وغاية الامر ان النبي صلى الله عليهِ وسلم قد رآهُ اثنان من الرهبان قبل النبوّة وآمنا بهِ حتى عدهم البعض من الصحابة على قول من يرى الصحبة تثبت بالرؤية مع الايمان ولو قبل البعثة وهذان الراهبان اولهما يسمى بحيرا او جرجيس رآهُ صلى الله عليهِ وسلم عند اول سفرة لهُ صلى الله عليهِ وسلم مع عمهِ ابو طالب الى الشام وهو ابن اثني عشر سنة وكان الراهب في صومعة لهُ ينزل حولها الركبان فلما رأى النبي صلى الله عليهِ وسلم ورأى بعض العلامات التي استدل عليهِ بها قرب من النبي صلى الله عليهِ وسلم وتفحص جسمهُ فرأى الخاتم وتعرف اخبارهُ من رفقائهِ ثم تلطف الى عمهِ حتى رجعهُ الى بلدهِ خوفًا عليهِ من اليهود واخبر عمهُ ورفقاءهُ بما يكون لهُ من الشأن والامر (وثاني) الراهبين هو نسطور الراهب رآهُ ايضًا قبل البعثة وعند سفرهِ للتجارة الى الشام ومعهُ ميسرة غلام خديجة زوجتهِ فلما رآهُ من الصومعة ايضًا تعرّف خبرهُ من الرفقاء واخبرهم بما يكون لهُ من الشأن ايضًا ولا يعلم ولا ينقل عن احد لا في الثقات ولا في الموضوعات انهُ اجتمع بغيرهما في غير ذلك الموطنين الّا ما روي بضعف من انهُ صلى الله عليهِ وسلم سافر وهو ابن عشرين سنة الى تجارة ايضًا بالشام وفي صحبتهِ ابو بكر الصديق رضي الله عنهُ وان نسطورا اجتمع بهِ اذ ذاك ايضًا وحذرهُ ورغبهُ في الرجوع عن الشام خوفًا عليهِ من الروم فارسل معهُ ابو بكر رضي الله عنهُ غلامهُ مصاحبًا في الرجوع وهاتهِ الرواية على ما فيها من الضعف ليس فيها شيء زائد عما في الروايتين السابقتين بالنسبة لامر الراهبين فيا ليت شعري من اين افترى بعض المتشدقين من الافرنج المدعين معرفة التواريخ بان النبي صلى الله عليهِ وسلم كانت لهُ مودة مع ذلك الراهب وهو بحيرا وينصحهُ بالنصائح وقد علمت ممّا مرّ سابقًا ما يشترط في حالة تواريخ ذلك العصر ثم ان النبي صلى الله عليهِ وسلم قد امرهُ الله بالهجرة الى المدينة التي قدر ان تكون هي مظهر اصلاح هذا العالم الارضي ونجاة اهلهِ في الآخرة وكان اذ ذاك قد فشا خبر الاسلام والبعثة فتلقاهُ الانصار اهل المدينة بالبيعة والطاعة وانثالت عليهِ القبائل بالايمان واستعد اذ ذاك لاجراء امر الله واحكامهِ على من عاندوا بعد اقامة البرهان والحجة وتمم ابعد وعدهِ لرسولهِ وللمؤمنين ففتحت مكة وآمنت في اثرها جميع قبائل جزيرة العرب ولم يزل الدين ينتشر الى ان عمّ البسيطة في نحو نصف قرن ثم ان تاريخ

الحجاز لما كان من ذلك الوقت هو تاريخ الامة الاسلاميّة الى انتقال الخلافة منهُ في خلافة سيدنا علي ثم عودها اليهِ في خلافة سيدنا الحسن رضي الله عنهم جميعاً ثم خروجها منهُ من ابتداء خلافة سيدنا معاوية والكلام على ذلك كله مبسوط في جميع التواريخ الاسلاميّة فلا ثمرة في ذكرنا لازيد مما ذكرناهُ هنا طبقاً لقاعدتنا وانما نقول ان الخلافة لما انتقلت عن الحجاز صار على كلٍّ من مكة والمدينة والٍ مخصوص غير ان والي مكة قد تعين من وقت الفتح واول والٍ بها هو عتاب بن اسيد وُلي سنة ثمان عند الفتح وولي ايضاً على اقامة الموسم والحج ثم ان بني اميّة كانوا لا يولون على المدينة الّا اقرب الناس وآمنهم لديهم واستمرّ الامر على ذلك الى حدود سنة ٢٥١ التي استقلت فيها عائلة ساداتنا الاشراف بني الاخيضر وبقيت بايديهم الى ان غلب عليهم القرامطة سنة ثلاثماية وسبعة عشر وهولاء القرامطة قوم ظهروا باليمن مظهرين الاسلام والتمسك بالسنة وهم اشد كفراً ونفاقاً من المنافقين فادخلوا في الدين الدسائس ووضعوا الاحاديث وفعلوا من المناكر ما لهُ خبر مأثور حتى استولوا على مكة والمدينة وخربوا الكعبة وقلعوا الحجر الاسود من موضعهِ الى ان رجعهُ بعد ذلك عمال بني العباس الذين طهر الله بايديهم الحرمين من اولئك القرامطة ثم استقلّ بالحرمين ايضاً السادة الاشراف بنو سلمان بن داود بن الحسن المثنى وبقي الملك بأيديهم الى سنة اربعمائة واثنين وخمسين فاستقلّ بملك الحجاز الهواشم الذين هم العائلة المستولية الى الآن من ساداتنا الاشراف واولهم سيدنا المولى الشريف ابو هاشم محمَّد العلوي المستولي في السنة المذكورة والمتوفي سنة ٤٨٧ وبقيت في بنيهِ الى الآن فانهم كانوا من ذلك التاريخ مستقلين بالامر والنهي والنصب والعزل وسائر الادارة الداخليّة الّا انهم يدلون بالبيعة ظاهراً الى الخلفاء العباسيين والسلاطين الذين تغلبوا عليهم ببغداد الى انقراض دولتهم فادلوا بالبيعة الى سلاطين مصر وانما كان الحال يختلف عندهم فتارة تنفرد مكة والمدينة بامير واحد منهم وتارة تستقل كلٌّ منهما بامير الى ان فتح السلطان سليم الاول مصر واقام بها مدة فاستقبلهُ في الطريق وهو راجع الى الاستانة الشريف المقدس ابو نمي ابن الشريف بركات فبايعهُ نيابةً عن ابيهِ وقلدهُ السلطان حالاً امارة الحجاز كلهِ بمشاركة لابيهِ في حياتهِ واستقلالهِ بعد مماتهِ ولم تزل ولله الحمد هاتهِ العائلة الكريمة الشريفة هي الحاكمة على الحجاز الى الآن وذاك اعظم دليل على ثبوت نسبها لانها من عهد استقلالها الذي هو كبد القرن الخامس وتوفر حالة معرفة الانساب من الدولة العباسيّة التي لم تزل الى ذلك التاريخ لها صولة وشوكة خصوصاً فيما يعود لامر النسب الذي

يخشى منهُ حتى السلاطين المتغلبين عليهم لانهم يخشون من خروج الخلافة الى غير العباسيين الذين هم من شيعتهم واخضعوا الناس باسمهم ان يتلاشى امرهم بتلاشي متبوعهم فلم يقروا لهم بالنسب ويرضوهم بالسكوت عن الحجاز الّا لما يعلمون من حقيقة نسبهم وثبوتهِ عند الخاص والعام وهكذا بقيت هاتهِ العائلة بارك الله لنا وللمسلمين فيها حاكمة على منبع البعثة أقرّ الله اعيننا والمسلمين بوجودهم والقيام بسنة الحق لابائهم وجدودهم والامير الحالي هو مولانا الهام الشهم عون الرفيق ابن مولانا المقدس المبرور سيدنا مُحمَّد بن عون صلوات الله وسلامهُ على جدهم رسولهِ وعليهم وعلى جميع آلهم

مطلب في السياسة الداخليَّة للحجاز

اعلم ان مدار الادارة كلها جليلها وحقيرها كلياتها وجزئياتها قد كان سابقاً مناطةً هو الامير السيد الشريف وكانت على حسب اصول المراسم الشرعيَّة المتعارفة من قديم مثل تفويض الاحكام الشخصيَّة الى القاضي والمفتي وانفراد الامير بالجلوس الى رفع المظالم واجراء بقيَّة الادارة واستمر على ذلك بعد الخضوع للدولة العليَّة ايضاً قسماً مديداً من الزمن حتى في امر القوة الحربيَّة فقد كان للامير عساكر خاصون بامارتهِ ليقيم بهم ما تستدعيهِ القوة وقد بقي الى الآن شيءٌ من ذلك حيث ان للامير نحو الحراس او العساكر الخاصة لا يبلغ عددهم المائتين وعند ما بدى للدولة العليَّة الاحتراس من امر الولاة مدة السلطان محمود الثاني في اواسط القرن الثالث عشر لكثرة مخالفة ولاة الاطراف على ما سيأتي بيانهُ في محلهِ حصل ذلك التغيير ايضاً في الحجاز لكنهُ بأمر هين وهو جعل القوة العسكريَّة الكبرى خاصة بالدولة العليَّة بان ترسل هي من تحتها عساكر يقيمون هناك وتزيد قوتهم وتقللها على قدر الحاجة ورئيسهم من طرف الدولة ايضاً ليس بملزوم لامتثال امر الامير فيما يراهُ من معاقبة بعض القبائل بل هو على حسب ما يظهر لهُ في الواقعة وعند مخالفتهِ في الرأي للامير يخبران الدولة معاً لتأمر بما تراهُ وكذلك امر العاشر اي الكمرك في المراسي البحريَّة استبدَّت بهِ الدولة وحدها بمأمورين ترسلهم من طرفها ونشأ عن ذلك في اول الامر قلاقل ومحاربات افضت الى ابدال الامير بغيرهِ من فروع عائلتهِ الكريمة ولم يزل يزداد تداخل الدولة في التصرفات الداخليَّة الى ان جعلت والياً على الحجاز من احد كبار رجال دولتها مثل بقيَّة ولاياتها مع بقاء سيادة الامير على منصبهِ واعتبار نفوذ اوامره

على الاطلاق ولا يخفى ما في وجود آمرين على مأمور واحد في زمن واحد من الاضطراب ونشأ ايضاً عن ذلك الاحتراس ان الدولة صارت تستدعي من يلي سيادة الامير في السن من عائلته ليبقى بتخت السلطنة ويتخلق بأخلاق الدولة ويتعرف سياستها الداخلية والخارجيَّة لانهُ هو وليُّ عهد الامير فاذا آلت لهُ الولاية كان عالمًا بأحوال الدولة التي هو خاضع لها وتقلدهُ الدولة مدة اقامته بتخت السلطنة رتبة الوزارة والمشيريَّة وتجعلهُ عضوًا بمجلس شورى الدولة الذي يرجع اليهِ غالب التدبير في اغلب مصالح الدولة الداخليَّة هكذا ظاهر الحال ونعم المسلك لو يكون هو الامير والوالي بحيث تحدد لهُ الدولة تصرفاتهُ على نحو بقيَّة ولاتها غير انهُ ينفرد بكونهِ ممتازًا بعدم خروج الامارة عنهُ وعن عائلتهِ وبكون الادارة في امارتهِ تجري على طبق الشريعة المطهرة مع غاية الاحتراس عن البدع التي لا داعي لشيء منها هناك لكنهم اقتصروا على خصوص الفائدة في ابقاء ولي العهد بالتخت لمآرب للدولة ربما احتاجت اليها مع سيادة الامير نسأل الله التوفيق

والجاري الآن هو ان يختص سيادة الامير بالامر والنهي والولاية والعزل في جميع قبائل الاعراب وكذلك الوظائف المتعلقة بالبيت الحرام من امامة وخطابة وغيرها الاَّ انهُ ينهي الى الدولة ما يراهُ في كبارها لتصدر الاوامر السلطانيَّة على حسب ما ينهيهِ وعلى نحو من ذلك الوظائف الدينيَّة بخصوص مكة كالفتوى في المذاهب ونقابة الاشراف وما شاكلها واما القاضي فانهُ يرسل الى مكة قاضٍ والى المدينة المنوَّرة قاضٍ من تخت السلطنة على نحو بقيَّة ولاياتها وكذلك بقيَّة الولايات العرفيَّة كلها تتصرف فيها الدولة والحاصل ان الذي استقرَّ عليهِ الحال الآن هو اختصاص الامير بأمر قبائل الاعراب ما لم يستدعِ الحال محاربتهم وبعض الوظائف في خصوص مكة مما مرجعهُ الديانة كائمة الصلاة في البيت الحرام من المذاهب الاربعة وهم وان كانوا اربعة الآن لكنهم لم يقع استقرارهم هكذا في زمن واحد بل كان الامر اولاً امام واحد شافعي ثم زيد ثانٍ من المذهب الحنفي ثم آخر من الحنبلي ثم آخر من المالكي في ازمان متباعدة بحسب المناسبات في اتباع ذلك المذهب ونفوذهم لدى الدولة الحاكمة وهكذا الامر في ائمة المسجد النبوي على صاحبهِ اكمل الصلاة والسلام وعلى آلهِ فان الامام المالكي لم ينصب الاَّ في عشرة التسعين من القرن الثالث عشر

واما بقيَّة مدن الحجاز التي هي المدينة المنوَّرة وجدَّة فاما المدينة المنورة ففيها محافظ وهو كبير العساكر وشيخ الحرم النبوي على صاحبهِ اكمل الصلاة والسلام وقاضٍ

وكلهم يأتون من تخت السلطنة وفيها مفت وائمة وخطباء وامين الخزنة مع وظائف أخر صغيرة وهؤلاء المتوظفون سيما اصحاب الادارة والحكم تابعون لوالي الحجاز مع بعض امتياز لهم في مخاطبتهم للدولة رأساً

واما جدَّة فمتوظفوها مثل متوظفي بقيَّة مدن المملكة العثمانيَّة ما عدا المجالس الحكميَّة القانونيَّة لان الاحكام سيأتي بيانها وانها على خلاف بقيَّة الممالك العثمانيَّة اذ لا مجالس عرفيَّة بها فاجمال الحال ان الادارة السياسيَّة مرجعها هو سيادة الامير مع الوالي اللذان يرجعان جميعاً الى ما تراهُ الدولة العثمانيَّة

وكليات الادارة الآن هناك ليس فيها مكوس ولا ضرائب ما عدا الكمرك على الواردات البحريَّة وبعض اعشار على النخيل في القبائل الخاضعة حقيقة وكل هؤلاء القبائل لا يدفعون شيئاً الى الحكومة ولا الى الامير بل ان خضوعهم الذي ذكرناهُ الى سيادة الامير في الحقيقة هو ظاهري فقط وانما يختلف الحال فيها بحسب الزمان وشدة الطغيان في الانقياد وعدمهِ وبعض الجهلة ينسبون ذلك الى ارادة بعض الامراء من العائلة الشريفة معللين ذلك لان بقاءهم في الامارة انما هو لاخضاعهم تلك القبائل فهم لا يريدون ان يكسروا شوكة القبائل بالمرة حتى تجري فيهم الاحكام مثل غيرهم ويدخلون تحت قياد المذلة اذ ربما استغنت اذ ذاك الدولة عن الامراء الاشراف والحق ليس كذلك فان بعض هؤلاء الامراء قد اخضعوا جميع القبائل الى الاحكام حقيقة منذ عهد ليس ببعيد زمن السلطان عبد المجيد وولاية المولى المقدس الامير الشريف عبدالله بن عون عند ما ساعدتهُ الدولة وعملت برأيهِ وامدتهُ بالعساكر مثل ما اراد والباعث الحقيقي على اهمالهم هو عدم مساعدة الدولة للامراء على اخضاعهم متعللاً رجالها في الظاهر باحترام هاتيك البقاع الكريمة ومراعاة مجاوريها وسلاطين آل عثمان احترامهم وتعظيمهم لشعائر الدين وتوقيرهِ شنشنة معروفة قديماً وحديثاً ولذلك يوافقون على مثل تلك النصيحة على انها ربما كان باطنها غير ذلك وهو عدم استفادة اولئك الرجال من انقياد تلك القبائل لانهم وان خضعوا حق الخضوع فلا مساغ لضرب شيءٍ من الضرائب عليهم لا سرًّا ولا جهرًا فتكون فائدة خضوعهم راجعة لسيادة الامير وحدهُ من نفاذ احكامهِ واوامرهِ فيها فيظهر اولئك الرجال النصيحة الى السلاطين على نحو ما قدمناهُ مع ان اخضاعهم واجب شرعاً لأمن السبل وحفظ الحجاج من التعدي واقبال تلك القبائل على عمران اراضيهم لانهم الآن زيادة عن عدم دفعهم للدولة ولا للامير حتى اعشار ابلهم فهم يأخذون من الدولة

اموالاً في كل سنة بمجرد محافظتهم على امن السبل ولا يؤخذ منهم شيء من المال قل او جل غير انهُ قد كان في اواسط القرن الثالث عشر رجل من قبيلة حرب يسمى الشيخ سعد قد تقوى بدهائهِ على اتحاد جميع قبيلتهِ وعظمت شوكتهُ بانقياد غيرهم من القبائل ايضاً ولم يخضع الى الحكومة قط الّا انهُ اذا اخذ المرتبات التي اشرنا اليها امن طريق الحاج الى المدينة وعند ما تسافر القوافل اليها يعد جمال كل قافلة ويأخذ على كل جمل نصف ريال اي اثنين فرنك ونصف ضريبة منهُ على اصحاب الابل وبعد موتهِ وخضوع ابنهِ وانقياد القبائل نوعاً ما ابقيت تلك الضريبة على اصحاب الابل عند ما يكترونها الى الحجاج وليس للدولة غير ما مر ذكرهُ من انواع المداخيل الّا انواع من الضرائب الخفيَّة اكثرها يستفيدهُ افراد من المتوظفين لانفسهم مما يؤخذ على الحجَّاج بأسماء سموها كضريبة على تنظيف منى في العيد من الضحايا وغيرها مما لا يصرف منهُ في الحقيقة الّا نزر يسير في الجهات التي يذكرون الصرف لاجلها وكل المصاريف اللازمة لكلٍ من الحرمين سواء كانت الوظائف الدينيَّة او السياسيَّة او شعائر المسجدين او اقامة المواسم كلهُ تصرفهُ الدولة من خزائنها وهو مقدار يبلغ نحو مليونين ونصف فرنك لان الاقامة بخصوص شعائر المسجدين الشريفين مبالغ في اقامتها ولا اقول على حسب الاستحقاق لان حقهما لا يبلغ اليه ولو ببذل النفس والنفيس . ومن المعلوم ان الشريعة المطهرة كان منبعها تلك الاماكن المكرمة وقد اجريت فيها الشريعة حق الاجراء واستقر الامن في سائر جزيرة العرب وكانت القبائل تؤدي الى بيت المال الاسلامي ما اوجبهُ الشرع على كل مسلم فكيف يغير ذلك الآن حتى يتجرؤا على ابدال حرم الله بعد الامن بالخيفة والاتيان بما يسود منهُ الوجه يوم القيامة وتثقل بهِ في الذنوب الصحيفة مع ان حملها على الاستقامة امر سهل يسير

وما اجدر هاتيك الاماكن الشريفة بالمحافظة فيها على ادارة تحافظ على السنة واعمال الخلفاء الراشدين الذي هو الامر الوحيد في جلب قلوب سائر المؤمنين الى الدولة التي تجري ذلك فضلاً عن خصوص اهالي الحجاز ولا ريب ان ذلك يرسخ قدم الدولة وتستغني عن الاحتراسات الناشئة عن الدسائس في رمي بعض ذوي الامر بمعاضدة بعض الدول الاجنبيَّة لتطلب الخلافة او الاستقلال نسأل الله اصلاح الحال

مطلب في السياسة الخارجيّة

اعلم ان الحجاز مرتاح ولله الحمد من امر السياسات الخارجيّة اذ ليس في دواخله ومدنه ما عدى جده وينبع اجانب ولا يدخلهُ الاّ المسلمون وليس لواحد الادعا بحماية احدى الدول الاجنبيّة وكل من دخل فهو خاضع لاحكام البلاد ولا ريب ان المسلمين يحجون في كل عام من جميع آفاق الارض وعلى الكثير منهم استيلاء الدول الاجنبيّة التي يبلغ عددها في هذا الوقت الى ثلاثةعشرة دولة منها القوي ومنها الضعيف ومنها المنصف ومنها المعتسف ومع ذلك كله ليس لهم أدنى تداخل او تكلم فيما يتعلق برعاياهم المسلمين هناك والله يديم ستره الجميل نعم ان جده يوجد بها قناصل كثيرون للدول الاجنبيّة الذين لهم عناية او علقة بالمشرق ولهم تجار افرنج في تلك المرسى وكذلك بعض الدول الاجنبيّة الذين ليس لهم هناك شيء يذكر تجد لكثير منهم قناصل يستولون تلك الوظيفة برغبة منهم للدولة الموظفة لمجرد الفخر لهم من غير داع ولا مرتب وعلى كل حال فسياسة اولئك القناصل متعلقة بالدولة العثمانيّة اما بواسطة واليها هناك او بواسطة سفرائهم في تخت السلطنة فالسياسة الخارجيّة حينئذٍ في خصوص جده تابعة لسياسة الدولة العثمانيّة التي سيأتي الكلام عليها في محله ان شاء الله تعالى

مطلب في عوائد وصفات الاهالي

اعلم ان البلدين الاكرمين سكانهما الآن اغلبهم من غير العرب الاصليين فان المدينة لا يوجد بها الاّ العائلة الشريفة حقيقة من العرب وقد كنت رأيت رجلاً واحدًا من ذريّة العباسيين قيمًا في ضريح عمهم سيدنا حمزة ولم يبق من الانصار هناك الاّ بقيّة عائلة واحدة وبقيّة سكانها كلهم من الآفاق واكثرهم مغاربة واما مكة فلا يوجد بها من العرب المحققين الاّ عائلة السادة الاشراف وعائلة الشيبي والبقيّة كلهم من الآفاق واكثرهم هنود ولا يخفى ان العوائد والصفات تغلب على السكان باعتبار اصلهم غير انهُ لا بدّ ان تحدث فيهم تغيرات تناسب حالة السكان الاصليين فأخلاق هذين البلدين على الاجمال مناسبة لاخلاق العرب غير ان اهالي مكة تعتري اخلاقهم الحدة بخلاف اهالي المدينة فانهم ليني الاخلاق كرام الطباع ويغلب على الجميع الحشمة والحياء وسلامهم بالمصافحة او الاشارة باليد ويقفون لكل داخل ولو تكرر دخولهُ واهالي المدينة اشد حريّة في الطباع

وعدم المذلة والتمكن في اخلاق الرجولية والجلد فيركبون الخيل ويسافرون الى الحج ركوباً على الهجين من غير تخوف ... الخبيث مع التمكن في معرفة الرماية والفروسية ولكل منهم سلاح مستوفر . واما المدارس فلا يلتفتون اليها ولا وجود لها كما هو الواجب سيما في تلك الاماكن نعم قد وجد من بعض الوافدين تساهل وتجري على استعمال الخمر وآلات السماع سرًّا وكاد ان يكون من بعضهم جهريًّا سيما من بعض اجلاف العساكر او المتوظفين الذين لا يخافون الله ومن المعلوم ان الفساد ملائم لطباع البشر فيسرع فيه التقليد لكنهم مع ذلك لا يزال الامر بحمد الله مستورًا فلا تجد المحارم متجاهرًا بها ولا ترى حانة لخمار او دارًا معينة للفسوق وان وجد شيء فانما يكون في بيت صاحبه في الستر . وعلى قريب من هذا المنحى اهالي جدة . واما بقيَّة البلدان فهم على اخلاق بقيَّة السكان من قبائل العرب الذين لم تبقَ فيهم من الاخلاق العربيَّة التي قال فيها صلى الله عليه وسلم (بعثت لاتمم مكارم الاخلاق) الاَّ القليل وعاد اليهم التفاخر بالتظالم وهجوم القوي على الضعيف فلا تجد الامن مستقرًّا الاَّ قليلاً الاَّ انهم بقي فيهم حفظ الذمار وتوقير الصغير إِلَى الكبير فاذا جعل الرجل من بيوتاتهم يدهُ على ذقنهِ كناية عن حفظ ذمة المستجير بهِ فانهُ يوفي بعهدهِ ولو حملهُ ذلك على الحرب وهلك فيها هو وقبيلتهُ هذا غاية ما يمكن ان يذكر لهم من الصفات الحميدة مع اكرام الضيف واطعام الطعام . واما بقيَّة الاخلاق السابقة العربيَّة فكادت ان لا يوجد منها شيء كجودة القريحة والدهاء في الامور ومعرفة احوال العالم فمن عجيب ما شاهدتهُ من السذاجة في بعضهم وبلههِ ان كان احد الجمَّالين ماشياً بقرب منى في طريق المدينة المنوَّرة على صاحبها افضل الصلاة والسلام وعلى آلهِ وهو كهل يخاطب شابًّا في حساب بينهما فقال لهُ الشاب سبعة وعشرون مع سبع كم هو فقال لهُ الكهل هيه فأَعاد عليهِ السؤَال فأَجابهُ بالجواب الاول ثم اعادا ذلك ثالثًا ايضاً فقال حينئذ الشاب هي سبعة وعشرون فقال لهُ صاحبهُ هيه ايضاً وانفصلوا على ان ذلك هو الحساب وعلى ذلك فقس فلا تكاد تجد من عامتهم من يصلح للخطاب في البديهيَّات وانما لخواصهم بعض من الآداب التي ينقه بها الضروريَّات غير ان حفظ الحريم والبنات من صغرهنَّ فلهم فيهِ مبالغة كليَّة بحيث لا يمكن ان يرَ الرائي امرأَة ولو معتجرة وما اصبر نسائهم على الجلد في التخدر فقد كان رئيس الجمَّالين في قافلتنا استصحب معهُ عيالهُ من مكة الى بلد الجديدة وكان مردفًا لها على جمل لهُ فكانت من ساعة ظهورها الى ساعة دخولها لبيتها التي هي مدة تنيف عن ستة ايام وهي ملتحفة

بعباءة ثخينة من الصوف سوداء لا يظهر منها مقدار ظفر ولو من اصابع رجليها فضلاً عن يديها او وجهها ليلاً ونهارًا لاتفارق حويّة البعير وعلى هذا النمط النسوة في المدن فلم أرَ بالمدينة امرأة قط . واما مكة فكان بعض نسائها يخرجنَ لاداء مناسك الحج لكنهنَّ في غاية التستر بحيث لا يظهر منهنَّ شيءٌ وعادتهنَّ في الجميع ان لا يخرجنَ الاَّ ليلاً مع شدة التستر بالخمار والخاف وان اضطررنَ للخروج نهارًا فلا يمررنَ بالاسواق ولا بالطرقات الكثيرة المرور. وتوجد قبيلة تسكن في عوالي المدينة اي خارجها بقرب من فنائها يسمون النخاولة وهاته القبيلة اصلها من قوم قد تفرقوا في آفاق الارض وهم في كل قطر مستقلون بأنفسهم لا يداخلون احدًا ولا يخالطون الناس الاَّ في ضرورة البيع والشراء ولهم في كل قطر لقب بحسب عرف اهله فيقال لهم في بلاد الترك شنكانة وفي تونس جمازيّة ويتبعون في كل جهة الصنائع الخسيسة مثل اصلاح اواني النحاس وصفائح الخيل وقد اتخذوا في جهة المدينة صناعة خسيسة ايضًا ويتمذهبون بمذهب الشيعة على دعواهم ويستحلون نكاح المتعة فاذا قدم بعض حجّاج الفرس ممن يرى مذهبهم يأوي الى بيوتهم لقضاء الوطر بنكاح المتعة وامرهم في ذلك شهير وليس عليه نكير والامر لله الذي اليه المصير

مطلب في التجارة بالحجاز

اعلم ان بلد جدة هي مرسى تجاريّة عظيمة لانها مركز للبضائع الهنديّة وغيرها من البضائع في الاقطار الشرقيّة ومنها يرسل لبقيّة الممالك الاسلاميّة التي تجارها مسلمون وكذلك لكثير من البلاد الاورباوية كما ان البضائع الاورباويّة والبضائع الغربيّة من بلاد المسلمين وكذلك بلاد الترك ومصر والشام يؤتى بها الى هناك وترسل الى الهند وغيره من الاقطار الشرقيّة فبذلك كانت جدة مرسى تجارية كبرى فضلاً عما يدخل منها الى جزيرة العرب على طريق البر سواء كان للحجاز او لغيره من بقيّة الاقطار ومركز تجارة جزيرة العرب هي مكة المشرفة فتأتيها البضائع من جدة وتوزع منها على القوافل الى سائر جهات جزيرة العرب الاَّ ما قرب من الجزيرة الى جهات اليمن التي بها مراسي تجاريّة مثل الحديدة وقليل ما هي فكانت مكة حينئذٍ هي المعتبرة لتجارة العرب والتجار المعتبرون فيها اغلبهم هنود واما جدة فتجارها من اجناس مختلفة وفي اسواق كل من هذين البلدين تقاسيم حسنة تجعل لكل

صنف من التجار جهة مخصوصة وتجارتهم غنيَّة جدًّا واما المدينة المنورة فالتجارة فيها مقصورة على اهلها غالبًا فيؤتى اليها بالبضائع المحتاج اليها فيها وتباع لاهلها والقبائل تحمل البضائع على قوافلهم الى مراكز القبائل والى جهات جزيرة العرب مع الامان على البضائع التي يحملونها فالقافلة لها رئيس يكون ذا ثروة ولهُ كفال اغنياء في الجهات التي يذهب اليها ويحمل منها فتسلم اليهِ البضائع والمكاتيب البريديَّة ويبلغها بامان الى اصحابها وان يحصل ضياع لشيء منها ولو بتعدي بعض القبائل بالاغارة فكفلاؤهُ يؤدون لاصحاب البضائع جميع ما يضيع لهم ومن اهم انواع التجارة التجارة في المأكولات من الحبوب كالقمح والشعير وقد علمت ان البريد موكول الى هولاء القوافل التجاريَّة فامرهُ غير منتظم كما انهُ غير محتاج اليهِ في اغلب تلك الجهات غير انهُ يوجد بين مكة وجدة بريدًا منتظمًا يوميًّا صباحًا ومساء يحمل على الحمير السيَّارة فيصل في نحو تسع ساعات كما انهُ يوجد في مكة مركز للتلغراف اي السلك الكهربائي ويصل الى جدة ومنها يتصل بجميع العالم كما انهُ يوجد بريد منتظم في كل شهر مرة بين مكة والمدينة الَّا ان يكون امرًا مستعجلاً فيرسل مع سيَّار مخصوص وهذا البريد كلهُ ما عدا اصحاب القوافل مرتب من الحكومة والمباشرون لهُ من قبائل الاعراب الساكنون في اماكن مرورهِ وفي كل سنة في موسم الحج تروج التجارة في مكة لان اغلب الحجاج يشترون منها البضائع التي لا تعلم في بلادهم مما على وجه التجارة فيها وهو القليل او على وجه الاهداء الى اقاربهم واحبائهم وكذلك تروج التجارة بالمدينة المنورة لان سكانها يأتيهم في ذلك الوقت واردهم المالي اما من اموالهم في بلدانهم او من الهدايا التي ترسل من الآفاق او من الاوقاف والارصادات المعينة لذلك في بعض الجهات وهاتهِ الجهات هي الدولة العثمانيَّة وهي الركن في ذلك لانها ترسل في كل عام للقيام بشعائر الحرمين الشريفين ولمرتبات المجاورين واهل الوظائف ما يبلغ مقدارهُ سنويًّا نحو المائة الف ليرة اي مليونين ونصف فرنك وكذلك الحكومة المصريَّة ترسل كل عام احدى وعشرين الف اردب من القمح مع اموال عينًا يبلغ مقدار جميعها الى نحو العشرين الف ليرة اي نحو خمسمائة الف فرنك فضلاً عن قيامها بمدرستين كل منها في احدى الحرمين لها اوقاف مخصوصة بمصر يرسل منها قدر كفاية القائمين هناك في كل عام وكذلك القطر التونسي يرسل من اوقافهِ المعينة على الحرمين الفين ليرة في كل سنة لكل حرم الف اي خمسة وعشرين الف فرنك فاهالي المدينة اذا فرقت عليهم تلك الاموال يدفعون منها ما كان عليهم من ديون ترتبت عليهم في ضروريَّات اشتروها

نسيئة ثم يشترون كفايتهم للسنة القابلة اكلاً ولبساً وان فضل شيء بعد ذلك ادخروهُ لبقيَّة السنة فلذلك يحصل في ذلك الوقت رواج للتجارة وهذا بالنسبة لغير ذوي الثروة منهم اما هولاء فهم على نسق غيرهم من ذوي الثروة وكذلك بعض قبائل الاعراب المقيمين بين الحرمين لهم نصيب مما ترسلهُ الدولة والحكومة المصريَّة فيحصل منهم ايضاً رواج في التجارة بما يشترونهُ من ضروريَّاتهم والحاصل ان التجارة المعتبرة مركزها هو جدة ادامها الله بلد اسلام

مطلب في الصنائع

لا يخفى ان الصنائع شعبة من شعب التمدن فتتكاثر او تقل على حسب ما في المكان التي هي بهِ من التمدن وحيث تطاول زمن بعد الخلافة عن الحجاز وتكاثر بعد عهدها فيهِ الهرج وقل العمران وتغيرت طباع العرب السكان على حسب ما اشرنا اليهِ فلم يكن الآن بالحجاز الاَّ الصنائع الضروريَّة وبعض الحاجيَّة فاما الفلاحة فكادت ان تنعدم الى ان صار اهل الحجاز عيال في قوتهم جميعهِ على ما يرد اليهم من خارج بلادهم الاَّ ما ندر والمسافر في تلك الاقطار لا يرى من الزراعة الاَّ نزر يسير حول بعض البلدان لا يسد من عوز مع ان عشر ما حول المدينة وحدها قد كان في خلافة سيدنا عمر يبلغ الى اربعمائة الف اردب من الشعير وحدهِ فضلاً عن بقيَّة الجهات ولو جمع الآن حاصل جميع ما بالحجاز لما بلغ الى عشر المعشار من ذلك المقدار وعلى نسبة من ذلك امر زراعة الاشجار فانهُ يوجد بالطائف بساتين بها كثير من انواع الشجر الليمون والرمان والعنب وغيرها من الفواكه المتعارفة كثيراً وغير هاتهِ البلد لا يوجد بها الاَّ بعض شجيرات من تلك الانواع لا تستحق الذكر وان كان حول المدينة بعض من البساتين لكنها ليست على ما ينبغي الاَّ النخيل فيوجد بها كثيراً كما يوجد بجهات اخرى حول المدن والقرى وفيهِ انواع كثيرة جداً من انواع التمر منها الحسن للغاية ومنها دون ذلك وفيهِ بعض تجارة سيما في موسم الحج لشراء الزائرين للتمر وحملهِ الى آفاقهم كل على قدر سعة حالهِ تبركاً بذلك واما البقول فكادت ان لا يوجد منها الاَّ النادر كالبصل وما شاكلهُ من البقول المتعارفة الشهيرة وكذلك الازهار واما بقيَّة الصنائع فيوجد منها البناية والخياطة والتجارة وبعض صنائع اخرى من الحاجيات كالسروج وحوايا الابل وغيرها مما يحتاج

اليهِ اكيدًا من غير تحسين والسبب في هذا الانحطاط في كل من الفلاحة وبقيَّة الصنائع هو اعتياد السكان اعني اغلبهم على المرتبات والجرايات من الدولة والاوقاف وتعويل الاعراب على مثل ذلك ايضاً لان الدولة جاعلة للقبائل جرايات سنويَّة من مال وحبوب للقوت ليقوموا بحفظ امن الطرق ومن الطبيعي ميل الانفس الى ما يرد بلا تعب فصاروا حينئذٍ عيالاً على تلك الواردات ونشأ عن ذلك اعتساف الاعراب بقطعهم للطرق وتعديهم على قوافل الحجاج اذا تأخرعنهم ذلك المرتب او شيء منهُ حتى ان بعض المتوظفين الذين لهم يد في توزيع ذلك المال ربما تساهل في تنقيص شيء باولئك الاعراب من مرتباتهم فيثورون ويعثون في الارض بالفساد ونشا عن ذلك قلة الامن في جميع الجهات حتى ان المدينة المنوَّرة على صاحبها وآلهِ افضل الصلاة والسلام كثيرًا ما تبقى محصورة ويدافع عن اسوارها وابوابها من حصونها بالمدافع والطرق منقطعة عنها وتتضايق اهلها لقلة القوت والحبوب ويتطاول الاعراب على ما حولها من البساتين بالتخريب والفساد فاذا كان هذا حال المدينة فما بالك بغيرها الاَّ القرى التي هي لنفس القبائل ممَّا لا يزرع حولهُ الاَّ النخيل فلذلك ضعف الامن وقل العمران وجدبت الارض مع انها صالحة للزراعة وفيها عيون كثيرة احدثها المتقدمون في عصر الخلافة وما قرب منهُ وقد شاهدت في كل من بلدي الصفرا والجديدة عيناً غزيرة الماء عرضها ازيد من ذراع ونصف وعمقها ازيد من ثلاثة اذرع جارية في غاية العذوبة غير ان ماءها حارٌّ فاذا رفع في الاواني برد وصلح للشرب وهو صالح جدًّا للزراعة لكنهُ الآن ليس عليهِ الاَّ بعض نخيلات وباقيهِ يسيح على الارض الى ان يغور فيها وقد ذكر في خلاصة الوفاء في اخبار دار المصطفى صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم عيونًا وآبارًا كثيرة على ذلك النحو لم يبقَ الآن منها منتفعاً بهِ سوى ما ذكرناهُ وكذلك الغابات والآجام التي بقرب المدينة وغيرها كلها ذات اشجار مثمرة وغير مثمرة صالحة لاخذ الاخشاب للبناء وهي الآن مهملة ولا ينتفع اهالي البلدان الاَّ برقاب شجر النخل ممَّا حولهم وبقيَّة الخشب يؤتى بهِ اليهم من الهند وغيرهِ مع انهُ حولهم مبذول والمانع من الوصول اليهِ عدم الامن والجهل بكيفيَّة القطع هذا فضلاً عن الاراضي الخصبة الوسيعة الصالحة للزراعة واما بقيَّة النباتات فقد كان سيدنا عمر رضي الله عنهُ حمى في وادي القرى جهة تكفي اربعين الفاً من الخيل المسبلة للرعي فيها ثم زاد بعدهُ سيدنا عثمان ومن بعدهُ الى اضعاف ذلك المقدار فيا اسفا على الخوف في بلاد الامن وتلك العوائد وان كان القصد منها حسنةً فقد آلت الى سيئةٍ اذ لو انقطع عنهم ذلك المدد

ومن تجرأ على السبل عوقب وأُقيمت الشريعة حتى القيا [illegible] السكان على العمران وكفى الله المؤمنين غوائل الطغيان وما الله بغافل عما يعملون

مطلب في المعارف

من البديهي ان الذي ذكرناهُ في الصنائع من جهة الرواج والكساد هو اساس ايضاً في المعارف فالمعارف الآن بالحجاز على غاية من الخمول وما يوجد منها انما هو محصور ومقصور على خصوص البلدين المكرمين فيوجد في كل منها بعض دروس في المسجدين المحترمين في بعض العلوم الدينيّة وبعض وسائلها فيوجد من الوسائل قليل من دروس النحو والمعاني ومن المقاصد بعض دروس في التفسير والحديث والفقه على اختلاف مذاهبهِ وان يكن يوجد بكل من البلدين الاكرمين علماء اجلة لكنهم نبغوا في اقطار أُخرى ثم جاوروا الآن هناك الَّا ما ندر من بعض الاهالي الذين تلقوا العلم هناك من العلماء الوافدين من الاقطار على احوال خصوصيَّة غير منتظمة ولا مفيدة للعموم وفي هاتهِ المدة الاخيرة أنشأ بعض الهنود ذوي التوفيق بواسطة العالم الجليل الشيخ رحمة الله مؤلف كتاب اظهار الحق مدرسة بمكة المشرفة يقرأ بها الشيخ المذكور ومن معهُ من العلماء المجاورين بعض دروس في الهيئة والجغرافيا والطب وبعض علوم اخرى رياضيَّة وعلم التصوُّف ايضاً وبما ذكرناهُ بلغ السكان لاسيما الاعراب الى درجة عالية في الجهل وفساد الاخلاق غير ان لطف الله حف بما حدث منذ مدة قريبة من انتشار طريقة الشيخ السنوسي الذي كنا ذكرناهُ عند ذكرنا لرجوعي من فرانسا لان هذا الشيخ كان استقرَّ بمكة المشرفة وأنشأ في جبل ابي قبيس زاوية لنشر فيها طريقتهُ فأنبثت في قبائل اولئك الاعراب حتى كادت ان لا توجد قبيلة الَّا وفيها زاوية وشيخ يرشد الى الطريق فحصل في القبائل نوع من معرفة اصول الديانة الاسلاميَّة والفروض العينيَّة والمحرمات الذاتيَّة ودب في هؤلاء شيءٌ من صلاح الحال وان لم يكبحهم عن التعدي على عباد الله القاصدين لاحد الحرمين فيا اسفا على اهمال المعارف وضياعها في مكان ينبوع الحكمة وظهورها ولولا وجود افراد من اطباء الدولة الذين ترسلهم لاحد البلدين الاكرمين او البعض من الهنود العارفين بالطب على الطريقة القديمة لكن معرفتهم لذلك عن علم وتدريس للكتب على طريقة اخذ العلم حقيقة فلهم باع حسن في علاج الامراض ولولا هؤلاء لحرمت السكنى في البلد التي

يفترض على عموم الامة تعميرها فان ابا حنيفة وغيرهُ من الائمة يقولون بحرمة سكنى البلاد التي لا طبيب بها وكل من المدينة المنوَّرة ومكة المشرفة يفترض حمايتها فكيف يسوغ اهمالها بأمر المعارف واهلها حتى تخلو من طبيب لولا أُولئك وانما قلت في اطباء الهند انهم عالمون بالطب على الطريقة العلميَّة احتراساً من المدجلين ممن يدعي هذا العلم مع جهلهِ المطبق بهِ المتكاثر ظهورهم بالبلدان التي لا تنتبه حكوماتها لمنعهم من ذلك التدجيل لانهم يضرون بجهلهم وقد شاهدت ذلك في نفس مكة عياناً حيث كنت مريضاً بابهام رجلي اليمنى حيث انقلب الظفر تدريجاً وغاص في اللحم واشتدَّ امرهُ حتى كاد يمنعني عن المشي وكان حصل لي مثل ذلك وانا بباريس فجيء لي بطبيب خاص بذلك النوع من الامراض وعالجني برفع الظفر بآلات وكيفيَّة في عملها لم يحصل لي منها شدة ألم وجعل تحت ظفري ورقة من الرصاص صفيقة لكيلا يغوص ثانياً وقطع الظفر الى محل التصاقهِ باللحم وعافاني الله بسبب ذلك فلما كنت بمكة وعاودني مثل ما وقع سابقاً وذكرت لبعض الحاضرين عندي ما كان وقع اخبرني بانهُ يوجد حكيم يفعل مثل ذلك فجيء بهِ اليَّ وكنت محترساً منهُ لكنني رايت معهُ آلات للقطع وغيرهِ كثيرة متقنة وابتدأ في العمل من غير كثرة ألم فظننت انهُ عن علم فلم يفعل الاَّ قطع الظفر لكن عقبهُ ألم كدت معهُ ان لا استطيع المشي لولا لطف الله لانهُ اراد الزيادة في القطع بعد ذلك فامتنعت لانهُ ليس لهُ من العلم شيء سوى كونهِ حلاقاً حجاماً تعوّد على فصد بعض الناس فامثال هذا يمنعون شرعاً عن مباشرة اعمالهم

ولكن البلاد اذا اقشعرت   وصوح نبتها رعي الهشيم

فاذا خلت البلاد عن حكماء عارفين بعلم الطب يضطر الناس الى هؤلاء الدجالين والحق ان امر المعارف مع كونهِ واجباً في كل صقع وبلاد فهو في الحرمين اشد تاكيداً وانَّا لله وانَّا اليهِ راجعون

مطلب في الاحكام

قد علمت ممَّا مرَّ في مبحث السياسة الداخليَّة الاصول التي تجري عليها الاحكام وحاصلها ان سيادة الشريف امير الحجاز هو مرجع الحكم في قضايا الوقائع التي تقع بين القبائل وهو ايضاً مرجع الشكايا من مظالمهم فيحذر رؤساءهم ومشايخهم ويأمرهم بما يراهُ

وينفذ الحكم في الظالم بحسب اجتهاده هكذا الاصل ولكنهم الآن مستبدون بامورهم كل قبيلة لا تخضع الاّ لمشائخها ورؤسائها مما يذكر في زمن الفترة وكلٌّ يحكم باجتهاده واستبداده ولو في القصاص في الانفس واذا تعدت قبيلة على اخرى كان الامر لمن هو اقوى فطاعتهم الآن لسيادة الامير انما هي ظاهرية وهو وان استطاع على اخضاعهم ولو بدون عساكر الدولة بل بمن ينضم اليه من بقية القبائل لكنهُ لا يقتدر على تنفيذ ذلك لما مرّ في احوال السياسة الداخلية كما يرجع الى سيادة الامير فصل المظالم في اهل مكة والوالي هو الذي يجلس الى فصل المظالم فيما يقع بين السكان في مكة ايضاً فكانها مشتركة بين الامير والوالي لكن الوالي ينفرد بسائر مظالم جدة. والمدينة المنورة يجلس فيها المحافظ في مثل ما ذكرناهُ وفي كل بلد حاكم يلقب قائمقام يجري ما ذكر ايضاً في المسائل الخفيفة والمسائل الثقيلة ترفع الى الوالي بمكة او الى سيادة الشريف الامير والقبائل كلها مشايخها هم مرجع الحكم في سائر القضايا ثم ان كلاً من البلدين الاكرمين بها قاض هو مرجع الحكم في كافة النوازل الشخصية يجريها بمقتضى الشريعة وفي كل من البلدين مفت حنفي يسترجعهُ الخصوم في احكام القاضي لكن القاضي ليس ملزوماً باتباع فتواهُ بل لا يجري الاّ ما يراهُ وان كان جاهلاً والمفتي عالماً ولا يخضع القاضي الاّ لاوامر باب مشيخة الاسلام في تخت السلطنة ان اقتدر الخصم الى البلوغ اليه ولا يخفى ما في ذلك من المشقة لبعد الشقة كما يوجد في كل من البلدين الاكرمين محتسب لهُ النظر في امر المعاشات وقيم المبيوعات وغش البائعين وخسران الكيل والميزان ويحكم في ذلك كله بما يراهُ من الاجتهاد ولو بالضرب المبرح كما يوجد بهما مفات أُخر على بعض المذاهب الاخر يرجع اليهم اهالي ذلك المذهب في الاحوال الشخصية ويفتونهم بحسب مذاهبهم وهؤلاء المفتيون كلهم يولون بأمر من الدولة العثمانية

واما بقية البلدان فجدة بها قاض يُولى مثل السابقين وغيرها من البلدان يولى فيها نائب عن القاضي يعينهُ قاضي مكة لاجراء الاحكام الشرعية في البلد التي هو بها وبقية الادارات والاحكام ترجع الى القائمقام او الشيخ وهو الذي يحكم بما يريد. والحاصل ان ادارة الاحكام بالحجاز لا زالت الى الآن على شبه من النمط القديم اعني انها ليس بها مجالس للاحكام العرفية وغيرها من القوانين الجارية بالممالك العثمانية الآن ويا ليت الامر يجري حقيقة على المنهج الذي سلكهُ الخلفاء الراشدون كيف وهو مكان ظهور الشريعة واقامة العدل وتأسيس التمدن الحقيقي الصالح لاستقامة الدنيا والآخرة والامر لله وحدهُ لارب سواهُ

مطلب في هيئة المساكن

المساكن بالحجاز تختلف بين حالها بالمدن وحالها بالقرى فاما المدن فالديار بها هي شبيهة بالنوع الذي ذكرناهُ في مصر غير انها في مكة تكثر طبقاتها حتى انها ربما بلغت الى الست طبقات كل منها مستكمل اللوازم لا يحتاج الى غيرهِ في السكنى والطبقة الارضيَّة لا يعتنى بها للسكنى وانما هي للمرافق وجلوس الرجال بخلاف المدينة المنوَّرة فان دورها كل منها بها طبقة ارضيَّة يسكن فيها في الصيف لانها ابرد من العلوية غير ان المبيت بكل منهما يكون غالبًا في الصيف في السطوح التي يجعل لها حرم كاف لوقاية السكان من السقوط والابنية كلها لا تجصص حيطانها الَّا في بعض الديار الحسنة لاهل الثروة فانها تجصص وتبيض حيطانها وتدهن سقوفها التي تجعل من عيدان النخل ويجعل عليها من اسفل ألواح لاصقة منظمة ويعلق فيها ثريَّات . واما بقيَّة الديار وسائر الابنية فان الحيطان يسد فيها ما بين الاحجار بطين البناء المركب من الجير والطين ثم تبيض بماء الجير والسقوف تكون من عيدان النخل مكشوفة للرائي وفوقها حصير من انواع الحلفا وفوقهُ التراب وليس في الحجرات بلاط ولا غيرهُ بل الارض تكون ترابًا عليها الحصير او الزرابي (الابسطة) الَّا المدينة المنوَّرة فان الطبقة الارضيَّة مبلطة بأنواع من الاحجار الشبيهة بالمرمر والدرج في كل غير محسنه متعبة الَّا نادرًا وديار مكة لا سيا المعدة للاجرة كل طبقة منها لا يوجد فيها مطبخ وانما يطبخ اهلها باحدى حجراتها بالفحم او الحطب نادرًا لاحضار مياه الاغتسال في الشتاء واما في الصيف فلا يسخنون الماء للاستغناء عنهُ ولهذا لا يوجد في كل من مكة والمدينة الَّا حمَّامان بكل منهما لان السكان يغتسلون في ديارهم غالبًا وهكذا بقيَّة البلدان ليس بها حمَّامات ومفروشات الديار على النحو الذي هو جارٍ بمصر وغيرها من التشبه بالمفروشات التركيَّة والاورباويَّة ومن غريب صناعتهم المغالق التي تقفل بها الابواب فان المفاتيح نحو عود مستطيل في آخرهِ اسنان تدخل في ثقب في المغلاق وترفع الى فوق ويجذب المغلاق بعجلة اذ ذاك فينفتح ولا ريب انهُ سهل السرقة اذ تقليد المفاتيح على ذلك النحو يسير لكن الامر الفظيع هو ان تلك المغاليق على شكل الصليب وقد رأيت على باب الحجرة النبويَّة مغلاقًا من تلك المغاليق وهو من ذهب تقشعر من رؤيتهِ الجلود وقد خاطبت من يقتدر على تغييرهِ فتعلل بان ذاك لا يخطر على فكر احد من الاهالي لجهلهم الصليب وبقي الحال على ما هو ولله الامر

هذا في المدن واما في بقيّة البلاد الاخرى فكل دار توءلف من طبقة واحدة الاّ نادرًا من طبقتين وهي في الحقيقة بيوت لا ديار والفرق بين الدار والبيت ان الدار هي المسكن الذي يشتمل على جميع المرافق المحتاج اليها وابواب حجراته الى فسحة تكون في وسطها غالبًا مكشوفة الى السماء واما البيت فهي التي مثل ما ذكر غير انها لا فسحة بها مكشوفة اعني الفسحة التي فيها ابواب الحجرات وهذا هو الفرق اللغوي وان كان الاستعمال مختلف بحسب الاصطلاح في البلدان فالحجاز ومصر مثلاً يطلقون على الكل بيوت وتونس والمغرب يطلقون على الكل ديار وهاتيك البيوت في القرى الحجازيّة مظلمة غالبًا اذ لا يجعل لها شبابيك على الطرقات وليس بها فسحة مكشوفة فغاية الامر ان يجعل للحجرات منافذ للضوء بقرب السقوف احتراسًا من كشف النساء لانهم يشددون بحجبهنّ كما تقدم سابقًا فتلك البيوت شبيهة بالغيران ولا تبيض بالجير الاّ نادرًا ما عدا سطوحها التي هي على نحو سطوح المدن من الاتقان في تجصيصها لكيلا تخترقها الامطار فتكاد هاته القرى ان لا تبين للناظرين الاّ اذا بلغوها خصوصًا التي هي في مرتفعات الجبال السود فانها لا تكاد تبين والحاصل ان الابنية على العموم نسبتها للتمدّن كنسبة بقيّة الصنائع التي مرّ ذكرها في مطلبها غير انهُ يوجد في صناعة النجارة اتقان للرواشن وبعض الابواب والشبابيك على العموم اي الطواقي المطلة على الطرقات او غيرها لا يوجد بها زجاج يمنع دخول الريح الاّ نادرًا في بعض الديار المترفه اهلها ومن الغريب ان ترى البيوت مفروشة بالزرابي في مدة الصيف مع شدة الحر هناك فهم في الحقيقة غير مستعدين للتوقي منهُ الاّ اهل المدينة فانهم معدون الطبقات السفلى لذلك فيجعلون فيها بيتًا رحيبًا لهُ جهتان يمنى ويسرى مرتفعتا الارض عن الوسط الذي بهِ حوض للماء غالبًا وسقفهُ مكشوف الى السماء ينجذب منهُ الهواء الى اسفل ويكون الماء جاريًا الى ذلك الحوض ويجلس السكان باحدى الجهتين التي يجعل بها مساطب وارائك وكل تلك الطبقة مبلطة بنحو الرخام كما ذكرنا سابقًا وذلك مناسب لشدة الحر على خلاف من اهل مكة وغيرهم الذين ليس لهم مثل ذلك واما الطرقات على العموم بالبلدان وغيرها فهي طبيعيّة ليس بها تحسين ولا صناعة وغاية الامر انها تكنس في المدن فهي نظيفة واغلبها ضيق حتى يكاد ان لا يمشي ببعضها الاّ انسان واحد مع ان اصل الشريعة على خلاف ذلك * فان سيدنا عمر رضي الله عنهُ لما استشير في بناء بلد للصحابة والجيش الذي فتح الفرس لما استوخموا ارض فارس وامرهم باختيار ارض تشبه ارض العرب فاختاروا الكوفة فامرهم ببناء بلد بها وان تكون دورها لا تتجاوز الطبقتين

وان تكون طرقها العامة كل منها ثلاثة عشر ذراعاً والطرق الخاصة سبعة اذرع عرضاً والبطحاء التي تكون امام المسجد ستون ذراعاً في ستين وهذا هو الاصل الذي يستند اليهِ المذهب الحنفي في ذلك فانظر كيف كانت حالة البلدان في صدر الاسلام ويؤيد هذا ان بئر حا التي هي بستان كان لابي طلحة الانصاري رضي الله عنهُ قد كان في زمن النبي صلى الله عليهِ وسلم تجاه المسجد النبوي كما هو مذكور في صحيح البخاري رضي الله عنهُ فاين هو الآن من المسجد النبوي اذ بينهما الآن ابنية وديار وطرقات واسوار وغير ذلك فيا اسفاعلى وقوع مثل هذا التغيير المخالف للشريعة المكدر للتمدن ومصالح الناس حقيقة فليس توسيع الطرق وتنظيفها من تقليد الافرنج كما يدَّعيهِ الجهلاء بل هو من شريعتنا التي تنوسي الالتفات لمثل ذلك فيها وحيث كانت الطرق على نحو ما مر ذكرهُ يكثر فيها الوحل زمن المطرغير انها تنور ليلاً من قبل الحكومة بفوانيس من القصدير والزجاج تعلق في الحيطان او سقوف الاسواق لان كل صناعة لها سوق يخصها وبعض هاتهِ الاسواق بل اكثرها مسقوف بالالواح على نحو ما ذكرنا في اسواق تونس والحوانيت هيئتها ايضاً على ذلك النحو وليس للديار جنائن ولا بطحاآت خاصة وانما ابوابها في الطريق تفتح الى سقائفها المختلفة كبرًا وصغرًا واما الطرقات خارج البلدان فهي على طبيعتها الاصليَّة واغلب الطرق بين مكة والمدينة صالحة لمشي العجلات وتمر فيها المدافع الآن وهي مثل العجلات وكذلك الطريق بين جدة ومكة فيا ليت شعري اي مانع لاستعمال العجلات في السفر هناك فاني لم أرَ الاَّ عجلة واحدة لوالي الحجاز بمكة وقالوا انهُ ليس بها غيرها ورأيت بالمدينة عجلة قيل انها لركوب بعض المرضى هي اشبه شيء بعجلات حمل السلع ملقاة في الطريق وكأن امر الامن هو الاساس

مطلب في اللبس وبقيَّة العادات

اما اللبس الرسمي فهو كاللبس بالدولة العثمانيَّة الذي تقدم مثلهُ في مصر وكذلك لبس الرجال هو مثل لبس اهل مصر والاعيان يلبسون جبة واسعة الاكمام كعلماء مصر الاَّ انها لها رقبة مرتفعة خصوصاً للسادة الاشراف ويجعلون على رؤوسهم كوفيَّة مطرزة بالحرير على اشكال حسنة بديعة تكون مكشوفة الوسط وعليها عامة مكورة عظيمة يشدونها شدًّا محكمًا جميلاً وهي بيضاء . واما الاشراف في القبائل فيجعلون على رؤسهم

منديلاً من الحرير ملوّناً وعليهِ عوض العمامة عقال من وبر الابل مقصب بخيوط الفضة المذهبة ولكل واحد منهم مطلقاً في البلدان او القبائل خنجر يجعلهُ في حزامهِ في وسطهِ من امام وكانها هي علامة الشرف مع لبسهم لعباءة يمانيّة او عراقيّة مقصبة بالذهب ونحوهِ في هذا سائر الاعيان من القبائل وبقيتهم يلبسون عباءة على قميص ويتمنطقون على القميص بمنديل او غيرهِ وكثير منهم يعلق على جنبهِ خنجرًا والكل يلبسون في الارجل النعال الحجازيّة ذات الشرطان التي تدخل بين الاصابع وتختلف جودةً ورداءةً على حسب ثروة اللابس وربما تدثر بعض اهل البلدان بالجبائب ذات الفراء المعروفة بالكرك وليس نسائهم سراويل من نسيج الحرير او المقصب بالذهب بحيث انهنَّ يتنافسنَ في صنعهِ على حسب الثروة والمكان والزمان للابسهِ ومثل السراويل فيما ذكر منتان يفتح صدرهُ ويغلق ذو اكمام ضيقة لا تبلغ المرفقين وفوق الجميع نحو عباءة من المنسوجات الثمينة مشقوقة الى السرّة من اعلا بلا اكمام واسعة جداً حتى انها تغطي اصابع الكف وان كان لها ثقوب في محل الاكمام تخرج منها الايدي وعلى رؤوسهنَّ نحو المناديل من منسوجات صفيقة يحيطون باطرافها شريطاً مكعباً بخيوط الفضة او الحرير على حسب الاحوال وفي ارجلهنَّ احذية من نوع البشامق التونسيّة واذا خرجنَ من البيوت زدنَ على ذلك خفاً من الجلد الاصفر مع رداءٍ واسع جداً ذي اكمام ساتر للاصابع وخمار مسدل الى السرة مثقوب جهة العينين ويلبسن ايضاً المصوغ بانواعهِ كلها . واما الاكل فانهم يجلسون لهُ على الارض ويوضع على الخيوان وهو مثل ما تقدم في اكل اهل مصر غير انهُ اكثر اداماً من السمن واكثر ابهرة والاعراب اكثر اكلهم الارز مع العدس ولا ياكل الجميع لحم البقر الاَّ نادرًا بحيث يستعيذ بهِ الاعيان في المدن وياكلون الجمل بكثرة ويبخرون الماء بالمصطكي او بعود القرنفل ثم يجعلونهُ في اواني ويضعونها في ممرّ الريح لاكتساب البرودة

واما المواكب فأعظمها موكب الحج وقد تقدّم الكلام عليهِ ولاهل مكة موكب يسمى الرجبيّة يسافر به ذوو اليسر الى زيارة النبي عليهِ وعلى آلهِ اكمل الصلاة وازكى السلام ويحصل من ذلك في المدينة المنورة موكب حافل في رجب ولكثرة اسراف اهل مكة في حجهم والتباهي بينهم فيما يفعلونهُ فيهِ يضطرُّ بعضهم الى تأخير فرضهِ الى ان يبلغ سن الشيخوخة خشية المعرة من كونهِ لم يفعل تلك العادات الاسرافيّة في الرحل والمركب والخيام والمآكل واما الاعراس فهي اقرب عندهم الى الطريقة المشروعة

من جهة عدم وجود المغنيات جهرة والملاهي الاّ الدفوف وشيءٌ من غيرها مع حفظ التستر في النساء ولاهل المدينة عادة وهي ان الرجل اذا تزوج ببكر ودخل بها فلا يخرج من بيتهِ اسبوعاً تاماً الاّ انهُ يجتمع باحبابهِ في بيتهِ وان خرج يوماً ولو للصلاة استاء اهل المرأة لان ذاك دليل على انها غير مستحسنة عند زوجها واما الثيب فلا يعتبرون ذلك فيها . واما المآتم فهي على الوجه المشروع من اكثر وجوهها فلا عياط ولا زياط ولا قراءة بالطرقات ولاَ ولائم من صاحب المأتم وانما يفعلون في ذلك ما هو المشروع في السنة اجرى الله احوالنا واحوالهم جميعاً على الوجوه المشروعة

مطلب في اللغة

لا يخفى ان الحجاز هو ميدان بلاغة العرب ومجال تسابق فرسان الكلام لكن ذلك كلهُ قد انعكس على ضدهِ فلا تكاد تجد متكلماً باللغة العربيّة المعربة حيث دخلت العبارات العجميّة بين القوم منذ تغلب الاعجام على الدولة الاسلاميّة لان الناس على مذهب امرائهم فيقلدون الغالب والقوي حتى في نحلتهِ وكلامهِ وما كفى ذلك في ادخال المفردات الاعجميّة حتى سرى الامر الى اللحن في الاعراب كما هو مقرر من قديم حيث ذكروا في سبب وضع علم النحو سماع سيدنا علي عليهِ السلام للحن في الكلام فاشار بوضع ذلك العلم ومن البديهي ان الامر يتفاقم بطول المدة وشدة الاسباب ففي ذلك الوقت لم يكن الاّ اختلاط الامة بامم اخرى ثم ازداد بعد ذلك بتمكن الاعاجم من الدولة ففسدت اللغة في الحجاز فساداً كلياً حتى لم يبقَ من يكتب كتابة مستقيمة في الاعراب والالفاظ الاّ النادر ممن هم اهل علم وربما اضطروا الى كتابة كثير من المفردات الاعجميّة لشهرتها وتعارفها وهجران ما يرادفها من اصل العربيّة وسبحان مقلب الاحوال وهو لا يتغير ولا يزال

النبأ العاشر

في المملكة العثمانيّة

(تنبيه) * لما كانت هاته المملكة ليست كسائر الممالك التي مرّ الكلام عليها لا من جهة الذات ولا من جهة المعنى اما الذات فانها مركبة من ممالك شتى كانت كل واحدة منها مستقلة بنفسها ولا يزال كل منها لهُ صفات خاصة من جهة جغرافيته وجنسيّة اهله وعوائدهم واخلاقهم وغير ذلك فيمتنع الكلام عليهم كلهم من هاتيك الجهات بصفة واحدة وان تكلمنا على كل واحدة منها بانفرادها ربما عدل الكلام فيها جميع ما تقدم وما يأتي في الممالك التي شاهدناها ولذلك راينا ان نتكلم عليها من الحيثيّة التي يدلّ عليها اسمها وهو كونها مملكة عثمانيّة اذ ليس هناك قطعة من الارض تسمى في الاصل بهذا الاسم وانما لكل منها باعتبار ذاته اسم خاص والجامع بينها في هاته التسمية انما هو كونها تحت سلطة دولة سلطانها من هاته العائلة وهي العثمانيّة اي المنسوبة الى عثمان الذي هو اول من تسلطن من العائلة وبقيت في ذريته الى الآن هذا من جهة الذات واما الحامل على مخالفة ما سبق في مثلها من جهة المعنى فلصعوبة الامر او تعسره لان قول الحق صعب والكذب حرام ونحن وان كنا في هذا القطر السعيد بأمنه في ظل خديوينا المعظم التوفيقي لا زال قرة لاعين اهل الاسلام ولكل سكانه من الامن والحريّة ما يسيغ لهُ ان يقول الحق ولا يخشى لومة لائم غير ان بعض مقتضيات الحال تستدعي الاقتصار في المقال فلا مخلص في الكلام على هاته المملكة العثمانيّة الاّ الاقتصار على الاجمال على حسب ما تسيغهُ الاحوال الى ان ييسر الله بفضله افراد هاته المملكة بتأليف خاص يحتوي على التفاصيل في الحقير والجليل ورحمتهُ تعالى قريبة لا يعزب عن امره شيء وهو على كل شيءٍ قدير

فصل في سفري اليها

قد تقدّم انا ركبنا من مرسى ينبع في رجوعنا من الحج وقد كان ركوبنا في باخرة نمساويّة من اجمل البواخر البريديّة السيّارة بين الهند واوربا فاجتازت بجدة وحملت منها ذلك الطود الشهير ذا النسب الخطير والحسب المنير السيد سلمان القادري حفيد قطب الاقطاب الاكبر مولانا سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنهم وهو نقيب اشراف

بغداد ايضاً واكبر عائلته وكان حاجًّا في ذلك العام فمن الله تعالى عليَّ برفقتهِ عند ما اجتازت الباخرة بمرسى ينبع وركب في الباخرة ايضاً بعض من الحجاج الترك العثمانيين والروسيين غير انهُ لم يركب في الطبقة الاولى سوى السيد وبرفقتهِ اخوهُ السيد احمد وابن عمهِ السيد عبد القادر وجوار لهُ وبعض من الخدمة القائمين بين يديهِ لانهُ ابقاهُ الله قد اتخذ في الحجرة الكبرى في الباخرة احدى زواياها واختص بها وفرش بها فرشاً عربيَّة وكانت خدمتهُ هم القائمون بشؤونهِ زيادة عما يباشرهُ خدام الباخرة مثل كونهِ ياكل منفرداً هو ومن معهُ على مائدتهِ الخاصة في الارض من خصوص طعامهِ الذي يطبخهُ لهُ طباخهُ الخاص غير انهُ من مكارم اخلاقهِ كان يتحرى للاكل وقت اكل الرفقاء بحيث كنَّا نتخاطب وكل منا على مائدتهِ حتى على الطعام الذي بين يدي كل منا اذ كنت اجلس مع بقيَّة ركاب الطبقة الاولى أنا وتابعي في ذلك الايوان للفطور والعشاء وسارت بنا الباخرة ثلاثة ايام فوصلنا جبل الطور ووقفنا هناك مدة الحمية وهي يومان وانزل كل من كان بالباخرة الَّا اصحاب الطبقة الاولى ومن انزل ابقى رحلهُ في الباخرة الَّا القدر الذي يحتاجون اليهِ واخبرونا عند صعودهم انهُ لم تحصل لهم مشقة لقلة الازدحام وكان من هولاء الترك رجل من اهل بوسنه يعرف قليلاً من العربي حصلت بيني وبينهُ مودة حتى استأذنت عليهِ رئيس الباخرة وأذن لهُ في الجلوس معي بايوان الطبقة الاولى وهو جميل الاخلاق لهُ بعض مشاركة في النحو والفقه وقد ترجم يوماً بيني وبين احد الترك الروسيين من اهل ولاية قازان وان كان تفهمهُ منهُ عسر جدًّا لان لغتة مخالفة للغة التركيَّة العثمانيَّة ولهُ بعض اطلاع على العربيَّة من جهة كونهِ قرأ بضاعة مزجاة في الفقه فسألتهُ عن حالة المسلمين اهل بلدهِ من جهة الاحكام الروسيَّة فكان مآل كلامهِ ان الروسيَّة لا زالت محترمة لهم في احوالهم الشخصيَّة ولا يتداخلون فيما شجر بينهم اذ مرجعهم في ذلك الى حكام منهم وكأن هذا خاص باهل تلك الولاية التي صارت مع الروسيَّة على توافق لطول عهد استيلائها عليهم ومحافظتهم على الشروط التي خضعوا بها اليها لان الروسيَّة مجرية في الولايات التي استولت عليها في الحرب الاخيرة مع الدولة العثمانيَّة ما هو جارٍ في بقيَّة ولاياتها والزمت جميع السكان من مسلمين وغيرهم بان يكون التعليم بلغتها فقط لان اللغة هي التي توحد الجنسيَّة فاذا تنوسيت لغتهم صاروا روسيين حتى في الجنسيَّة ثم انَّا وصلنا الى خليج السويس الموصل بين البحر الابيض والبحر الاحمر وهو احدى مآثر هذا القرن لان السفن صارت تصل من شطوط المغرب في افريقيا الى

شطوط الصين والهند في ايام قليلة لا تتجاوز الشهر الى ابعدها بعد ان كانت يلزمها عدة اشهر لانها كانت يلزمها الخروج من خليج طارق ثم تحيط بجميع قارة افريقية بالبحر المحيط ثم بحر الهند فلعمري انها لمأثرة مفيدة للتجارة على العموم وان كانت فيها مضرَّات سياسيَّة بالنسبة لكثير من المسلمين وقد روي ان عمرو بن العاص استأذن سيدنا عمر بعد فتحهِ لمصر ليفتح خليجاً موصلاً ما بين البحرين ولعلهُ بهذا المكان الذي هو عليهِ الآن لانهُ اصلح الاماكن لذلك حيث كانت بالوسط بحيرات عميقه مغنية عن حفر خليج فيها . ثم ان سيدنا عمر سألهُ عن هذا الخليج الذي يراد فتحهُ هل يحصل بهِ فصل بين ارض جزيرة العرب ومصر فاجابهُ بنعم فقال لا افصل بين ارض المسلمين بالبحر . ويقال ان سيدنا علي رضي الله عنهُ قال للخليفة عند ما استشار كبار الصحابة في ذلك انهُ اذا تمَّ ذلك الخليج تصير سفن الروم تضرب الى جده وغيرها من مراسي بلاد العرب وليس للمسلمين سفن تعارضهم فيسهل عليهم غزو بلاد الاسلام ولذلك كتب سيدنا عمر رضي الله عنهم اجمعين الى عاملهِ عمرو بن العاص بان يضرب عن ذلك صفحاً ويمكن ان يكون الخليج في اصلهِ موجوداً في العهد القديم . ثم ان الرمال تراكمت في احدى جهاتهِ على ما سيأتي ذكرهُ فسدت البحر وامتدَّ عرضها الى ان صارت الارض واحدة ما عدا البحيرات التي في الوسط على سمة واحد التي ربما دلت على اتصال البحر سابقاً . ويدل على هذا ان بعض المفسرين روى في تفسير قولهِ تعالى "حتى اذا بلغا مجمع البحرين" في قصة موسى والخضر عليهما السلام ان بعض المؤرخين يقول ان المراد بالبحرين هما بحر فارس والروم اما بحر الروم فهو معلوم واما بحر فارس المعروف الآن فيستحيل ان يتصل ببحر الروم الذي هو البحر الابيض خصوصاً في هذا الزمن القليل نسبيًّا من زمن موسى عليهِ السلام الى ما قبل البعثة المعروف فيهِ حالة الارض على ما هي عليهِ الآن فلا يصح ذلك الكلام الَّا اذا كان البحر الاحمر يطلق عليهِ بحر فارس سابقاً لانهُ متصل بهِ وقريب منهُ جدًّا لانهما يلتقيان الآن في جزيرة العرب اي شطوطها الجنوبيَّة فلا يبعد ان يكون الاسم يطلق سابقاً على الجميع سواء. واتصال البحر الاحمر ببحر الروم سهل جدًّا لما مرَّ بيانهُ ولما هو مشاهد بالفعل حيث اتصلا في هذا الزمن وسبب هذا الاتصال هو ان رجلاً فرنساويًّا يقال لهُ فردنان دي ليسبس لهُ مهارة في الهندسة وهو من مشاهير قومهِ بدى لهُ يوماً امكان اتصال البحرين بهذا الخليج واعانتهُ على مرغوبهِ دولتهُ لمآرب سياسيَّة في قرب الاتصال بالهند لعلهُ يمكن لها

يوماً ما اخذ الثار من الانكليز على نحو ما سبق في تاريخ الدولتين فساعفهم على قصدهم والي مصر اذ ذاك سعيد باشا ابن محمد علي باشا وكان الانكليز من اشد المعارضين في ذلك سرًّا وكأن الاقدار تقول لهم (وعسى ان تكرهوا شيئًا وهو خير لكم) فانهم حصلوا فيه على اكبر فائدة اذ صارت سفنهم هي اكثر السفن المارة بهِ مع تحصيلهم على مآرب اخرى سياسيَّة كتداخلهم في القطر المصري وغير ذلك زيادة عن كونهم صاروا هم المالكين للقسط الاوفر منهُ ومحصلين على ارباحهِ الباهرة وذلك لان فردنان دي ليسبس ألف جمعيَّة لذلك العمل وجعلت هاتهِ الجمعيَّة التي هو رئيسها رأس مال لمصاريف العمل وجعلتهُ على اوراق ذات أسهم تباع وتشترى لكل من اراد وكان للحكومة المصريَّة من تلك الاوراق ما مقدار قيمتهِ نحو المائة مليون فرنك وآل الامر بعد ذلك الى بيع اسماعيل باشا خديو مصر لاسهم حكومتهِ فاشترتها الدولة الانكليزيَّة تمامًا زيادة عما اشترتهُ سابقًا ولا حقًا من الاسهم افذاذًا وصار دخل هاتيك السهام يوازي اصل قيمتها حتى صارت كل رقعة منها اصل سعرها خمسمائة فرنك تباع الآن بالفين وثلاثمائة فرنك او نحو ذلك لان تلك الجمعيَّة شرعت في العمل وتممتهُ بحفر خليج من البحر الاحمر بمحاذات مرسى السويس واوصلتهُ بالبحيرة الاولى ثم حفرت خليجًا بين هاتهِ البحيرة والبحيرة الثانية الى ان وصلت الى البحر الابيض وعند ما تم عملها عقد اسماعيل باشا خديو مصر لفتح هذا العمل الغريب موكبًا مشهودًا جعل بهِ القطر المصري كانهُ دار عرس واستدعى اليهِ ملوك اوربا كلهم لمشاهدة مرور اول باخرة تمر في ذلك الخليج وكذلك اعيان غيرهم من الاوربَّاويين وكل من قدم منهم فمصاريفهُ مدة اقامتهِ بالقطر المصري على الحكومة المصريَّة ولهم ان يتفرجوا حيث شاؤوا وقد ساح بعضهم حتى الى السودان مع القيام بكل منهم على حسب مقامهِ اعظم قيام ووفد عليهِ من ملوك اوربا العظام امبراطور النمسا وامبراطورة الفرنسيس اي زوجة الامبراطور وولي عهد كل من انكلترا والروسيا وبروسيا فضلاً عن بقيَّة الملوك المتوسطين والصغار وصرفت في ذلك كلهِ من الحكومة المصريَّة اموال تكاد ان لا تحصى تعاظمت بها ديونها وذلك كلهُ لمآرب سياسيَّة لم ينجح منها المقصود ونشأ عنها وحشة مع الدولة العثمانيَّة آلت الى الرضاء بعد صرف اموال باهظة ثم استقر عمل جمعيَّة الخليج على اقامة فعلاء ومراقبين على محافظة الخليج ويستخلص على كل سفينة تمر فيهِ مقدار معلوم من الاموال على حسب حمولتها ونوعها حربيَّة او تجاريَّة وفي رأس كل سنة تقسم الارباح على اصحاب الاسهم بعد

اخراج المصاريف المستمرة لان الخليج من جهة السويس لم تزل الرمال تنثال عليهِ منذ فتحهِ الى الآن لولا شدة العمل في رفع تلك الرمال ليلاً ونهارًا على مسافة طويلة تزيد عن العشرة اميال ومع ذلك كلهِ فقد شاهدت في الباخرة التي اجتزنا فيها ان سيرها كان بطيئًا جدًا هناك وكذلك غيرها احتراساً من الغرز في الرمل مع كثرة العلامات المجعولة في المياه لمحل المرور ومع ذلك كلهِ قد اصطدمت الباخرة في الرمل عدة مرار حتى اني خلت انهُ عمل لا يدوم لشدة التعب الذي شاهدتهُ من العملة في جلبهم للسفن والبواخر المصطدمة في الرمال حتى كانها تجر بالايدي مع كثرة ومداومة العمل بالآلات الرافعة للرمال ومع ذلك كلهِ لا تجتاز فيهِ الاَّ سفينة واحدة وفيهِ اماكن لوقوف السفن اذا كانت تعارضها سفينة اخرى اي احداها غادية والاخرى رائحة فتلك الاماكن وسيعة تمر بها السفينتان ولذلك يجعلون علامات على اعمدة مرتفعة في البر يمينًا وشمالاً ايدرك منها رئيس الباخرة ما يأمرهُ بهِ محافظو الخليج من الوقوف او المشي السريع او البطيء او غير ذلك ولذلك رأيت رئيس باخرتنا قد اخرج كتابًا فيهِ تلك العلامات وشرح المراد منها ليعمل بمقتضاها عند دخوله الى الخليج وبسبب ذلك كانت السفن لا تتحرك فيهِ ليلاً في تاريخ مرورنا وقد وقفنا مرة لمعارضة باخرة انكليزيَّة حربيَّة ذاهبة الى الهند حاملة للعساكر فلما مرت بنا خيل الينا انا راكبون في زورق مع انا راكبون في اعظم البواخر البريديَّة لكن عظم تلك الباخرة الحربيَّة التي هي من نوع الفرقطين خيل الينا ذلك فانها كانت ذات ثلاث طبقات من المدافع وحاملة لاربعة آلاف وخمسمائة عسكريًا وكثير منهم معهم عيالهم وكانوا على همجيَّة فانهم لما رأونا صاروا يصرخون ويضحكون ثم وصلنا الى مرسى الاسماعيليَّة التي هي بوسط الخليج وبقربها ينصب جسر يصل بين اسيا وافريقيا ولا ينصب الاَّ عند وجود المارين ويدفعون عليهِ خراجًا للحكومة المصريَّة وبتنا بالخليج ليلتين وفي صبيحة اليوم الثالث وصلنا الى بورت سعيد ووقفنا بضع ساعات وكان عمال الحكومة المصريَّة حارسون لباخرتنا لكيلا ينزل منها احد لانهم رسموا في ذلك التاريخ بان لا يدخل الى القطر المصري حاج الاَّ من هو من اهلهِ لانهُ كان كثير من المغاربة يدخلونهُ وهم فقراء فربما حملوا الاهالي والحكومة مصاريف لرجوعهم الى اوطانهم ولذلك اعلنوا بذلك التحجير ثم قفلنا من هناك الى ان وصلنا الى مرسى بيروت اعظم مراسي ولاية الشام المعروفة بسورية فطلب مديرو جمعيَّة تلك الباخرة من الركاب ان ينزل منهم الى تلك البلدة كل من كان قاصدًا القسطنطينيَّة وما حولها واما القاصدون بوسنه وهرسك وغيرها ممن تكون لهم

مرسى تريست طريقاً فانهم يبقون في الباخرة لانها قاصدة هناك توًّا والذين ينزلون وكانت الباخرة تعهدت لهم بالوصول الى القسطنطينيَّة وما حولها فانهم ينتظرون هناك الى ان تأتيهم بعد خمسة ايام باخرة اخرى لجمعيَّة الباخرة الاولى وتحملهم الى مقاصدهم وكل من اراد من هولاء اخذ مصاريفهِ مدة انتظارهِ فلهُ ذلك يدفعها اليهِ القيمون بامر شركة تلك البواخر البريديَّة النمساوية المسماة بشركة لويد وقد اخذ منهم بالفعل كثير ممن نزل لكن بعد مشقة لعدم التفاهم حيث كان اغلبهم من الترك الروسيين الذين قل من يعرف لغتهم ولاستشاطة بعضهم في مقدار المصاريف التي طلبها مع ان اللجنة مقومة لاهل كل طبقة مقداراً عن كل يوم لم اعلم ما هو لاني صرفت النظر عنهُ حيث كان النزول هناك من اعظم مرغوباتي لمزيد التأنس بذلك السيد الجليل القادري وللتعرف بتلك البلاد

فنزلت هناك وكانت المرسى صعبة جدًّا لبعد ارساء الباخرة عن الشط وركوبنا في زوارق مع هيجان البحر وبعد ان خلصنا رحلنا من الكمرك الذي لم نرَ من اهلهِ الاَّ خيراً دخلنا الى البلاد راجلين لقربها وعدم وجود ما يركب حول الكمرك فدلني رجل من المتشبثين بخدمة المسافرين على منزل المسافرين قريب من جهة طريقنا كاشف على البحر فاذا هو منزل لاحد الافرنج مثل منازل اوربا المتوسطة الحسن واخذت بهِ بيتاً واسعة ذات حجرة للنوم والصناديق وحجرة للجلوس واغتسلت في حمَّامهِ وبتنا تلك الليلة والاكل فيهِ حسن ومن غد شرعنا في زيارة بعض اعيان البلاد والتفرج على منازهها ومنافعها فاذا هي بلد جميلة الوضع في سفح جبل مطلة على البحر وحولها كثيب رمل وجبل لبنان بحيث ان حدودهُ منها على نحو ربع ساعة مجعول لهُ علامات ولهُ ادارة ممتازة كما سيأتي في محلهِ وواليهِ يسكن في الشتاء في بيروت وهو اذ ذاك رستم باشا وقد رايتهُ يوماً راجعاً من الجبل الى دارهِ متخذاً ابهة فاخرة في عجلة يجرها ثلاثة من الخيل العتاق وامامهُ فارس ووراءهُ اربعة من العساكر الخيالة متسلحين وبندقيةٌ كل منهم حاملها في وجههِ وهذا الباشا هو شيخ مسن اصلهُ طلياني خدم الدولة العليَّة بنصح وشاخ في خدمتها وسمعت الثناء عليهِ في تلك البلد وغيرها من مسلمين وغيرهم غيور على الدولة محافظ على ناموسها ومصالحها ومن غريب ما سمعتهُ عنهُ انهُ كان مرة يتفقد في جهات ولايتهِ على ذلك الجبل فصادف انهُ يتفقد الجهة القريبة من طرابلس الشام ويصل الى تلك الجهة آخر النهار وليس بقربهِ مكان صالح للمبيت الاَّ بلد طرابلس فارسل من صباح اليوم الى متصرفها اي حاكمها يعلمهُ بانهُ يبيت ضيفهُ وكان الوقت رمضان فعرضهُ آخر النهار ذلك المتصرف وعلماء البلد

ووجهاؤها ثم دخلوا جميعاً الى دار المتصرف وجلسوا في ايوانها كلهم فدخل الخدمة باطباق المشروبات المبردة والحلويات وكان الغروب لم يقع وكان هو اسيء رستم باشا لا زال على دين نصرانيته لكنهُ لما راى تلك الاطباق داخلة وعلماء البلد ووجهاؤها جالسون اكفهر وجههُ وقال للمتصرف ما هذا فاجابهُ بانهُ مشروبات مبردة فقال الباشا أليس هذا رمضان فتبسم المتصرف وقال تملقاً من غير ان يريد اظهار قصده لمخالفة الدين نعم هو رمضان ولكن جنابكم مسافر وانا ايضاً مثلكم وها انا ابتدئ بذلك واخذ الكاس وشرب فاشتد حنق الباشا عليهِ وخاطبهُ بشدة بما معناهُ انك ان كنت لم تراعِ ديانتك فانا يجب عليَّ ان اراعي دولتي ووظيفتي لاني متوظف ووزير لخليفة المسلمين وهذا المقام انما جاءني منهُ وهاتهِ البلاد بلاد مسلمين وهؤلاء الجمع مسلمون جاؤني لاجل وظيفتي فهبني نصرانياً فاني اذب على الشعائر الاسلامية التي صرت بها انا من انا واقتدر بها على احتقارك وطردك ايضاً من هنا فاخرج حالاً حيث لم تراع سلطانك وامامك الذي هو خليفة المسلمين ولا اهل البلاد التي انت عليها ولا انا الذي تعدني ضيفاً فخرج المتصرف من المجلس وشكر الحاضرون كلهم عمل ذلك الباشا فقال لهم ما فعلت هذا لاشكر وانما هي واجباتي اديتها ولعمري ان مثل هذا الرجل يحق ان يستخدم ويا ليت متوظفي الدولة كلهم على نمطهِ كثر الله من المخلصين الناصحين امثاله ووفقهُ لسعادة الدارين . وحاصل وصف هاتهِ البلد هي انها بلد جميلة المنظر لان ديارها محسنة الحيطان من خارج وحسن اكثر طرقها غير ان بجانبي الطريق مجاري للمياه على عمق شبر مكشوفة ربما اضرت بالمارين والبناء طينهُ مخلط بالجير فهو حسن المنظر ويقرب شكل الديار من ديار تونس غير انهم يجعلون لبعض الديار ذات الطبقات درجاً مكشوفة في البطحاآت الخاصة بالديار وجعل في البلد طريق للعجلات وهذا الطريق واصل الى دمشق الشام جعلتهُ جمعيةٌ افرنجيةٌ منتظم السير في اوقات معلومة وكراء معين وتغيير الخيل في مراكز معينة ليلاً ونهاراً وكنت اردت الذهاب فيهِ الى دمشق لكن قصر الوقت مع تعطل السير في الطريق لكثرة الثلوج منعني من ذلك

واعظم جوامع البلد الجامع المنسوب لسيدنا يحيى عليهِ السلام وهو جامع واسع نظيف وكذلك بقيّة جوامعها نظيفة وحماماتها جميلة نظيفة جدّاً متقنة التحسين بأنواع المرمر وفوارات المياه وبها اسواق جميلة وان كانت صغيرة على نسبة البلاد لان البلد الاصليّة صغيرة وكثر حولها البناء المتقن على اشكال شتى منها قصر بديع صالح للملوك

وحولهُ بستان موّاق غاية التأنيق فيهِ من المرمر في البناء والرخام وانواع المفروشات البديعة والاشجار وتقاسيم الماشي وهو لاحد الاهالي النصارى ذوي الثروة الكبيره التي حصلت لهُ من بعض خدمات لهُ عند خديو مصر السابق ثم استحصل على ان يكون قنصلاً للروسيا في بلدهِ وتوجد بيوت اخرى حسنة تقرب من ذلك كما توجد مدارس علميّة اسسها القسوس من البورتيستانت الاميركانيين ومن الجزويت الفرنساويين وقد اثرت هاتهِ المدارس تأثيرًا واسعًا في المعارف هناك فتقدمت النصارى سكان بيروت في التحصيل على معارف جيدة من اللغة العربيّة نحوًا ولغة وانشاء وفي معرفة بعض اللغات الاجنبيّة واغلب مبادي الفنون الرياضيّة حتى صاروا متاهلين للتقدم وتقلد الوظائف في بلادهم وغيرها ويحصلون ذلك في مدة قليلة لسهولة التعليم بالكتب التي اخترع بعضها نفس الاهالي وغيرها غير ان انشاءهم بالعربيّة يكون غالبًا على غير اللهجة الفصيحة والاسلوب العربي القح لان غالب التلامذة يولعون باللغات الاجنبيّة فينسجون كتاباتهم العربيّة على منوال تلك اللغات فيصير السبك اعجميًا في قوالب عربيّة يمجها من ذاق طعم البلاغة ودونك ما كنت رايتهُ من رسالة لاحد برعاء ذلك الوطن وهو البارع المتفنن رشيد الدحداح كتب بها في ذلك المعنى نص محل الحاجة منها بعد ان ذكر ما طرأ على اللغة العربيّة الشريفة وما حصل لها من التغيير بالاساليب الاعجميّة الى ان قال " وكذلك لاجل تحبيب الفرنسيس للمسلمين يجب ترويج لسان العرب باللغة الفرنساويّة حتى تصير لباسًا لهُ ويصير لباسًا لها فيبدأ بتبديل الاسماء فيجعل اسم المعلم ميخائيل ميشال افندي ويبدل مريم بماريا واذا كتب رسالة قلب رجلاً على قدم. وتناول ريشة عوض القلم. وقال اخذت الحريّة لاكتب لكم اوعندي الشرف ان اخبركم اني قبلت رسالتكم المكرمة وبالطبع صرت ممنونًا لما تضمنتهُ من الاحساسات الوديّة. والشعائر الوطنية. ورايتها ملهومة من روح الصداقة . وراغبة في دوام العلاقة. واخذت الاحتياطات اللازمة لادخالها في اعمدة الجرائد ليس فقط لاجل مسرتكم بل بالسبب الاقوى لاجل مصلحتنا ولكن من سوء البخت مراعاة الظروف توجبنا على نوع ما ان نتخذ التمهل بالعمل الى فرصة وفوق كل شيء لانهُ الآن حاصل هنا افكار واستعدادات حريّة واما عاملو الالقاب فبالضد ومع الاعتبار يقدم لكم الشكر ويهدي لكم السلام محبكم فلان وقس على ذلك الف داهية. من التعبيرات الواهية. التي هي بالمقت حريّة والتي في اعجميتها سرف. كعندي الشرف. وما هو احط من السفالة. كقبول الرسالة. وآلم من الصفع. كطبيعيًا وبالطبع. وامر من ريب

المنون. كالممنون. واسمج من الخسائر. كهذا الاستعمال للروح والافكار والتقدم والاستعدادات والاحساسات والشعائر". الى ان قال" اما تشبثهم بمادة اخذ فدالا اصفر وموت احمر ولو حرمت عليهم اليوم هذه المادة لكسروا الاقلام وعجزوا عن الكلام فتراهم يعبرون بها عن كل الافعال العربيّة فيقولون اتخذ الباشا مادبة للقناصل واتخذ الملاطفة لهم واتخذوا الدعاء للدولة الى ان قال فيا للخسارة والاسف. على مرض اللغة واشرافها على التلف. فوأيم الله انهُ لصدع لا يلتئم. وجرح لا يلتحم" الى آخر ما اطال بهِ في تلك الرسالة المنشورة في جرائد عديدة عربية ومنها العدد ٩٥ من مرآة الشرق وهذا الكاتب وان كان من اهل لبنان البارعين في العربيّة والفرنساويّة لاقامتهِ بفرنسا وصيرورتهِ من اغنيائها لكنهُ استفاد من ذلك التعليم لان هذا التعليم شمل اهل لبنان ايضاً بفوائدهِ والحق يقال ان فوائدهُ جليلة لحسن التعليم وان اثر بعض تأثيرات سياسيّة في جلب طباع سهل الطبيعة الى حب جنسيّة المعلمين لكنهُ من حيث التعليم لهُ مزيّة معتبرة تقدم بها النصارى هناك على المسلمين حتى تفطن في المدة الاخيرة بعض المسلمين الغيورين لهذا المدرك ووجدوا والياً يمد اليهم يد المساعدة وهو مدحت باشا فعقد لهم جمعيّة تسمى جمعيّة المقاصد الخيريّة ومكنها من الاوقاف التي في البلد وكانت استولت عليها ايدي الاغتصاب والمنافع الشخصيّة فاستعانوا بها مع ما يوزعونهُ على اهل البلد من كل ذي حميّة وعلى اباء التلامذة وانشأُوا بذلك مدارس على نحو النوع السابق ذكرهُ وكنت دخلت الى كِلاَ القسمين فرايت من تلامذتها ما يسر القلب ولعمري انها لمأثرة جليلة تحق ان تذكر * وهذا الرجل وهو مدحت باشا هكذا دأبهُ في كل ولاية وليها لا بد ان يترك فيها مأثرة تذكر وان اعترى كثيراً منها بعدهُ بعض الخلل الا انها لا تزال قائمة لما فيها من المصلحة المشاهدة وهو في الحقيقة من افراد رجال الدولة الذين يشتمل عليهم تاريخها نصحاً وتدبيراً وعملاً وعملهُ اكثر من قولهِ بحيث لا يجد القادح فيهِ قولاً لولا عجلة فيهِ كأنهُ حملهُ عليها مداومة ما يشاهدهُ في وظائفهِ من التأنيات والتسويف الذي يستعملهُ الرؤساء في وظائف الدولة حتى صار لهم طبيعة والوقت لديهم ليس لهُ اعتبار فاداهُ ذلك الى انتهازهِ للفرص التي يجدها لاجرائهِ المصالح فعلا وجرأَهُ ذلك لما اوقعهُ اخيراً فيما اداهُ الى الوقوع في حتفهِ رحمة الله عليهِ رحمة واسعة. وقد حصل من تلك الجمعيّة فائدة لا تنكر في المعارف لاهل تلك البلاد وهي وان تأسست في جميع البلاد الشاميّة لكنها كانت في بيروت اشد تقدماً في المعارف حتى صارت هي اول البلاد الشاميّة في المعارف على العموم وان كان لدمشق

مزيد التقدم في الفنون الشرعيّة ثم ان اهالي بيروت وان كانوا قسمين مسلمين ونصارى لكنهم جميعاً في غاية الالفة بعضهم مع بعض وعوائدهم جميعاً واحدة حتى في محاسن اخلاقهم وقد شاهدت من فضلاء القسمين ما اشكرهم عليهِ من محاسن الاخلاق والفرح بالضيف مثل الشيخ الدراكة البليغ البارع ابرهيم الاحدب ولهُ ديوان شعر شهير ومثل الاعيان الاجلاء حسين بيهم ونخري بك رئيس الجمعيّة الخيريّة وعبد القادر القباني صاحب جريدة ثمرات الفنون احدى الجرائد العربيّة المتكاثرة في هاتهِ البلد لما في اهلها من التقدم الذي اشرنا اليهِ مع بعدها عن مراكز السياسة ومن اصحاب الجرائد الذين اجتمعت بهم هناك ايضاً البارع المجيد المتفنن سليم البستاني صاحب جريدة الجنة وجريدة الجنان وهو من النصارى اعيان البلاد وممن اجتمعت بهِ منهم ايضاً الوجهاء الاعيان ابرهيم اليازجي ابن الحسن الذكر المتفنن اللغوي البليغ ناصيف اليازجي صاحب المقامات الشهيرة ومنهم سليم ثابت وغيرهم ومنهم الكاتب البارع حسن الجابي وهو وان كان من اهالي دمشق الّا اني اجتمعت بهِ في بيروت لانهُ قدم اليها صحبة والي الشام اذ ذاك مدحت باشا رحمهُ الله لانهُ كان من كتّاب الولاية المجيدين عربيّة وتركيّة فاستصحبهُ الوالي لنصحهِ ونجابتهِ ثم ترقى بعد ذلك في خدمات الدولة العليّة وكذلك اجتمعت بالوالي المشار اليهِ هناك لما لي معهُ من المعرفة السابقة في باريس ولاقيت عندهُ مرة النصوح رائف باشا متصرف بيروت اذ ذاك ولقد شاهدت من هؤلاء الجمع اكراماً يوجب عليّ الثناء عليهم جازاهم الله عني كل خير واجل ما حصلت عليهِ في هاتهِ البلاد اخذي للاجازة في الطريقة القادريّة من مولاي وسيدي السيد سلمان القادري ومثلهُ ابقاهُ الله من يجيز ويحافظ على شريعة جدهِ الاعلى عليهِ وعلى آلهِ الصلاة والسلام فانهُ عند ما اجازني قال لي ما معناهُ في امر الاذكار وآداب الطريقة ليست هي الّا الشريعة فقف على ما ورد بهِ الشرع واعمل بهِ فهكذا يكون المرشدون وما اجازني بذلك الّا بعد مزيد الالحاح تواضعاً منهُ ابقاهُ الله الى ان اتت ليلة سفري فساعفني برغوبي فودعتهُ وسافرت صبيحة تلك الليلة الى القسطنطينيّة في احدى البواخر السابق ذكرها * فوقفت بنا بضع ساعات على ازمير التي هي قاعدة احدى ولايات الدولة ونزلت متفرجاً على مرساها وما حولها فاذا هي ذات مرسى جميل حصين صنعهُ احد الافرنج برخصة من الدولة وفيهِ بواخر جمة وتصل سكة الحديد الى رصيفهِ وهي ذات فرعين يمتدان الى داخل الولاية شرقاً وغرباً وحول المرسى قشلاقات عسكريّة وبعض ديار للافرنج والطريق فيها واسع جميل وبقيّة الطرقات والاسواق ضيقة عليها

آثار الهرم لان غالب الابنية من الاخشاب وقدم عهدها فلم ارَ ما يذكر الا كونها بلاد تجاريّة لغنى الولاية بما منحها الله تعالى من كثرة الغلال والفواكه التي تحمل منها الى سائر الآفاق مثل التين المجفف وغيره ثم مررنا على جزر كثيرة تابعة للدولة العليّة ذات جمال باهر لكثرة اشجارها وجبالها الخضر المتعممة اذ ذاك بالثلج ومن اجملها جزيرة رودس وجزيرة استانيكوى التي تشرح الخاطر بما كساها الله من حلل النبات والاشجار العظيمة ثم وصلنا الى جنه قلعة قبيل الغروب من اليوم الثاني وهي باب الخليج القسطنطيني والبلدة ليست بشيء يذكر سوى انها مقام حربي اذ حولها وامامها من الحصون والطوابي والاستحكامات ما يدهش الناظر وهي كثيرة ممتدة على طول مضيق ذلك الخليج على فوهته الى البحر الابيض التي هي ضيقة جدًّا لا تسع ازيد من مرور اربع بواخر جسيمة وتلك الحصون اكثرها لا يكاد يبين لتخلله وسط الجبال المحيطة بالجانبين وما يظهر منها تلوح منهُ مدافع ضخمة تكاد تخرق الجبال عند انطلاقها ولذلك يعد هذا المركز اعظم المراكز الحربيّة تحصنًا بحيث لا يمكن ان يجتازهُ مجتاز بغير رضاء صاحبه ولا تدخلهُ سفينة الآن ولو تجاريّة الاّ بالاذن من موظفي الدولة هناك ولذلك وقفت الباخرة هناك لاخذ الاجازة وهي لا تطول مدتها الاّ نحو نصف ساعة في اثنائها طافت بنا القوارب من البياعين لسلع تلك البلاد والمأكولات والفواكه والذي يمكن ان يذكر من سلعها ليس هو الاّ اباريق من طين مطلي بمعدن اخضر يصير به الطين صقيلاً ويذهّب باشكال وعلى نحو هاته الاباريق اوان أُخر على اشكال مختلفة للمياه ثم دخلنا الى بحر مرمره المتوسط بين فوهتي خليج الاستانة التي مر ذكر احداها التي على البحر الابيض والاخرى بجنب الاستانة على البحر الاسود فبقينا سائرين الى طلوع الفجر وما انفلق الصبح الاّ وقد بانت مآذن جوامع القسطنطينيّة التي هي مثل غابة من النخيل وبينها قباب الجوامع الضخمة فأرست الباخرة في داخل الخليج على مقربة من القنطرة الموصلة بين استانبول وغلطه وطافت بالباخرة القوارب لمن يكتري من الركاب وقوارب السلع ثم بعد هنيهة قدم اليّ البعض من اصدقائي مع زورق مخصوص للوزير خير الدين باشا التونسي الاولي فيه وتكفلت اتباعهم مع تابعي بانزال صناديقي فنزلت ضيفًا عند الوزير المذكور ثم بعد بضع ايام اكتريت دارًا جميلة على الخليج وسكنت بها بعد ان اشتريت لها جميع مفروشاتها اللازمة واحضرت من الخدمة اللازمين والطباخ مقدار الحاجة واقمت ساكنًا من صفر سنة ١٢٩٧ الى شعبان سنة ١٢٩٨ واحضرت اليّ ابني البكر من

تونس وبقيت بالقسطنطينيّة مستريح الفكر والبدن متنعماً بهوائها الحسن متأنساً بالاصدقاء ذوي الوفاء الى ان حل بالوطن ما حل في سنة ثمانية من استيلاء الفرنساوبين عليه مما كنت به انذرت ولم تفد النصيحة لغلبة الهواء والله يقضي ما اراد فذهبت الى ايطاليا لاخابر عائلتي في نقلتهم وبيع املاكي وفي اثناء ذلك ذهبت الى جنيف من مملكة سفيسرا فوضعت بها ابني في مكتب خصوصي ثم رجعت الى ايطاليا لاتمام ما ذكرناهُ ثم رجعت الى القسطنطينيّة بعد ان اعلمتني عائلتي بسفرها اليها فمررت على مملكة المانيا ثم النمسا ثم الرومانيا ثم الصرب والبلغار وسيأتي ذكر هاته الممالك ان شاء الله كل منها منفردًا ببابه ثم رجعت الى القسطنطينيّة مقيماً فيها بعائلتي من اول سنة تسعة الى اول سنة اثنين وثلثمائة التي توجهت فيها الى مصر حيث لم اجد من الراحة الفكريّة والبدنيّة ما يستقيم به الحال وكذلك امر المال وان كانت الحضرة السلطانيّة تفضلت عليّ بمرتب وكراء بيت لم يمكن استطرادها لما في خزنة الدولة من التضايق المجحف حتى بالقيام بالضروريّات الواجبة في اغلب الجهات نسأل الله تفريج الكربات

مطلب في صفة القسطنطينيّة

هاته البلدة قديمة الانشاء وتأسست تختاً لمملكة الرومان المعروفين بالروم سابقاً على ما تقدم في تاريخ ايطاليا وسميت البلدة باسم احد ملوكهم ذوي الصيت المنتشر وهو قسطنطين المتولي سنة ٢٢٣ ميلاديّة واتخذ موقعها في اجمل مواقع الكرة الارضيّة في نصفها المعروف قديماً وموقعها ايضاً احصن هاتيك المواقع لانها متحكمة بين البحر الاسود والبحر الابيض ويوصل بينهما الخليج الذي بوسطه بحر مرمرا وهذا الخليج بمكان البلدة يكتنفهُ جبال يميناً وشمالاً والجبال مكساة بجمال النبات الباهر في جميع الفصول وقد وضعت البلد على سفح ثلاث جبال يفصل بينها الخليج اما قسم منها فيفصل بينهُ وبين غيره الخليج الكبير وهذا القسم هو المسمى باسكودار الواقع في قارة آسيا والقسمان الآخران يفصل بينهما فرع من هذا الخليج داخل في قارة اوربا الى ان يتصل بجدول يعرف بكاغدخانة فالقسم الشرقي من القسمين يسمى بغلطه والقسم الغربي يسمى باستانبول وقد كان في القديم محل البلدة مفصولاً عن بقيّة القارة بخليج واصل الى بحر مرمرا وهو قرب مقام سيدنا ابي ايوب الانصاري الآن فكانت جزيرة منفردة

وهذا القسم هو مقر البلاد الاصليَّة الذي يشتمل على مركز الادارة والاسواق وغير ذلك وحيث كانت البلد واقعة في عرض سبعة واربعين شمالي كان هواؤها يغلب عليهِ البرد وتنزل عليها الثلوج في كل سنة وربما جمد الخليج في بعض السنين فهي في جميع اوقاتها لها منظر منفرد في الارض لمن يراها داخلاً من الخليج حيث كان الخليج في الوسط وتحفهُ على جميع شطوطهِ الممتدة نحو ٢٢ ميلاً قصور ودساكر جميلة الصنع ذات ألوان لان البناء بالاخشاب ويدهن ظاهرًا وباطنًا بألوان جميلة مع كثرة طاقاتهِ ويتخلل هذا البناء الصوامع المتناغية في الجوّ مع جودتها وتعدد ادوار مآذنها وبينها القباب الشاهقة ثم وراء هاتهِ البناآت على سفح الجبال البساتين والجنائن والاشجار الملتفة والعيون المتدفقة فتدهش رؤيتها ابصار الناظرين وتستمر البواخر خارقة لهذا الخليج في ذلك المنظر البديع مدة نحو ساعتين فلا ريب ان كانت هي سيدة البلدان السياسيَّة خصوصاً ووضعها قد جاء على كل من قارتي اوربا وآسيا وعلى كل من البحرين الابيض والاسود ولهذا يسمونها في القديم بفاروق لفرقها بين البرين والبحرين لكن ذلك المنظر والجمال يحط درجات عديدة اذا نزل قاصدها الى البر وتخلل بالمشي في شوارعها لان طرقاتها اغلبها ضيق ومبلط بحجارات على اصل خلقتها مقلبة مكعبة تتعب الراكب والماشي وكثيرًا من الديار قد اخذ منهُ الهرم مأخذهُ خصوصاً في هذا الوقت الذي تفاقم فيهِ على اهلها الضيق المالي لان اهلها المسلمون وهم اكثر السكان اغلبهم لهُ جرايات ومرتبات بحيث ان اقامتهم مناطة بالدولة التي ضاقت خزينتها عن القيام بشؤونها وبقيتهم ذوو صنائع خسيسة كسائقي العربات والنوتية وما شاكل ذلك والقليل النادر لهم تجارة على قدر الحاجة والتجارة المعتبرة انما هي بيد الافرنج او النصارى من رعيَّة الدولة وكذلك اغلب الصنائع الضروريَّة والحاجيَّة والتحسينيَّة على كثرتها كلها بيد النصارى ايضاً الّا ما ندر وكأن سبب ذلك هو اختصاص المسلمين قديماً بالوظائف والرتب فانحصرت معيشة غيرهم فيما يجيدونهُ من صنائعهم وتجارتهم ولما انفتح الباب في الازمان المتأخرة شاركوا المسلمين في الوظائف وسابقوهم فيما كان خاصاً بهم لمد أيدي المساعدة لهم من الافرنج ودولهم الاجنبيَّة فاتسعت معارفهم الرياضيَّة واتقنت صنائعهم واتسعت تجارتهم وتقهقر المسلمون لوقوفهم فيما كانوا عليهِ بل لانحطاط درجة المعارف لديهم واعراضهم عن الصنائع وغيرها من اوجه التكسب لانحصار الامال في مجرد التوظف في الدولة ولهذا ترى البلاد ممتلأة بالقهاوي وبالقرائتخانات التي هي

قهاوي نظيفة ينتابها الوجهاء من الناس فلذلك صارت الديار الحسنة قليلة في هاته البلد العظيمة التي يتجاوز سكانها المليون وربع واذا ضممت القرى التابعة لها في جوارها مثل بيوك آطه اي الجزيرة الكبيرة وغيرها من بقية الخليج يكون مجموع سكانها مليون ونصف على ما يقال حتى انها كانت هي اعظم البلاد المعروفة وسميت بالقسطنطينية العظمى والحاصل ان طرقها الآن التي لها نوع من الحسن هي طريق يبتدى من بطحاء في وسط استانبول تسمى بميدان السلطان احمد وفي وسطها مسلة من المسلات المصرية متناغية في الهواء فيمر الطريق على الباب العالي ثم على القنطرة الموصلة الى غلطه ثم يمر منها الى الطوبخانة على سمت نحو المستقيم وهكذا يمتد على ذلك النحو الى قبطاش وبشكطاش واورطه كوى ثم قورى شيشمه ثم ارنؤوط كوى ثم الى بيك ثم الى روم ايلي حصار ثم الى يني محله ثم الى طرابيا ثم الى بيوك دره ثم الى نهاية الخليج المسمى بروم ايلي قواغي جهة البحر الاسود والاماكن التي تقدمت اسماؤها كلها حارات مثل البلدان متصل بعضها ببعض ممتدة على طول الخليج وانما كان هذا الطريق حسنًا لان اغلب اماكنه بها بناآت للدولة او للسلاطين او ابنائهم او بناتهم او وزرائهم او امرائهم او لسفراء الدول الاجنبيّة او للاغنياء من الافرنج والنصارى اتباع الدولة مع كون شركة افرنجية قد جعلت بذلك الطريق عجلات الترامواي برخصة من الدولة على شرط تحسينها للطريق وتوسعتها له حتى لا يعارض مروره العجلات الاخر وهكذا يمتد هذا الطريق أيضًا بفرع آخر من البطحاء المذكورة ويمر على بطحاء السلطان بايزيد ثم على آق سراي ويمتد هكذا مستطيلا على نحو استقامة الى ان يصل الى آخر استانبول في باب ادرنه ويوجد طريق آخر على ذلك النحو يبتدي من غلطه امام القنطرة ويصعد في جبلها ويمر في بايوغلي التي هي حارة السفراء في الشتاء واما في المصيف فانهم يسكنون في الخليج ومثلهم بقيّة الاعيان وحسن طريق بايوغلي فائق على الكل لمزيد التحسين في الديار الحافة بجانبيه وقد احدثت طرق اخرى كثيرة على النوع المتعارف في اوروبا في جهات سراية يلدز ونيشان طاش الى ان تتصل بطريق بايوغلي لكن هاته الطرق لم تنتظم الديار التي على حافتيها فاغلبها خالٍ عن البناء بالمرة ويمكن ان يقال ان البناآت الحسنة الموجودة في هاته البلاد تكاد اصحابها ان لا يخرجون عن الاصناف الذين ذكرناهم وهذه البناآت قديمها كلهُ من اخشاب ذو طبقتين او ثلاث نادرًا وجديدها من بناء اغلبهُ بالطوب المطبوخ الاحمر او الحجارة والمرمر متقاربة الشكل الحسن منها حسن الظاهر والباطن

وصورتها ان يدخل من الباب الى دهليز فيهِ درج قليلة يصعد منها الى الطبقة الاولى التي هي ايوان مثل وسط الدار مسقوف مع بقيَّة بيوتها وفيهِ ابواب هاتيك البيوت التي هي مربعة او مستطيلة وفيهِ ايضاً نحو المقعدين يميناً وشمالاً في الغالب ثم تلك الدرج تنبعث صاعدة الى الطبقة العليا التي هي على نحو التي تحتها وتختلف اشكال الدرج في كونها ذات فرع واحد الى آخرها او ذات فرع وفرعين وكل دار تشتمل على عدة مراحيض جميلة الوضع نظيفة كل منها بهِ محل للوضوء ومحل لمنديله بحيث ان الوضوء في هاتهِ البلاد ايسر شيء على صاحبهِ مع نظافة المكان والحق ان جميع الديار بل وجميع احوال السكان نظيفة للغاية كل على حسب حالهِ عسرًا ويسرًا وقصور السلطنة ومساكن السلاطين قد اشتملت على اشكال البناآت المستحسنة في اكثر البلدان واعظمها بهجة ورونقاً قصر دولما بغجشه الذي هو الآن قصر السلطنة الرسمي فانهُ لهُ باب عظيم ذو اتقان وتزويق بالذهب لم ارَ مثله قط ضخامة وزخرفة في جميع اوروبا وغيرها وهو ينتج الى بطحاء عظيمة امامهُ وفي مقابلتهِ جامع انيق لهُ باب مقابل ذو بهجة وقريب من باب القصر في الحسن باب ثان يفتح الى طريق بشكطاش وكلا البابين يدخل الى بطحاء عظيمة بها باب القصر الذي هو منقسم الى ثلاثة اقسام في الحجم متصلة ببعضها اوسطها ارتفاعهُ يوازي ارتفاع القسمين الآخرين مرتين وهذا القسم الوسط كلهُ ديوان واحد هو مجلس السلطان في المواكب فانظر الى هذا البيت الذي اتساعه قدر اتساع قصر تام سلطاني فان القسم الاول هو قصر ذو طبقتين وطبقة ثالثة سفليَّة نصفها تحت الارض ونصفها فوقها وتشتمل كل طبقة على دواوين واواوين وحجرات مزخرفة مكللة مزوقة بالذهب والفرش الفاخرة والثريات المتكاثرة وغير ذلك من الزخرفة والابهة التي تأنق فيها السلاطين للمباهاة وهذا القسم خاص بجلوس السلطان للرجال والقسم الثالث مثل هذا القسم وربما زاد عليهِ رونقاً في الفرش وهو مسكن حرم السلطان ثم عند الباب الاول في الذكر قصران يميناً وشمالاً لحاشية السلطان وخاصتهِ وبطانتهِ ووراء قسم الحريم قصر آخر مفصول عن السابق مثل احد القسمين السابقين هو مسكن ولي العهد لكنهُ لا يلقب بهذا اللقب وانما يقال فيهِ اكبر ابناء السلاطين بعد السلطان المستولي وهاتهِ القصور انشاها السلطان المنعم عبد المجيد رحمهُ الله وتسمى دولما بغجشه وقريب منهُ قصر آخر انشأهُ السلطان عبد العزيز يسمى تشارغان هو اشد رونقاً وزخرفة في داخلهِ من الاول لكن الاول ابهج منظرًا والجميع على

شاطيء الخليج تفتح اليهِ رواشينها المتكاثرة كما هو شان جميع الديار هناك فلا تجد بين الشباكين ازيد من نصف ذراع او ذراع وعلى نحو من هذين القصرين في قسم اسكودار قصر بناهُ السلطان محمود رحمهُ الله يسمى بكار بك وهو اصغر من الكل ثم قصر آخر بديع للغاية يسمى بيقوز حجارتهُ كلها داخلا وخارجًا من المرمر الاحمر والاخضر فنصنهُ الاعلى اخضر والاسفل احمر وهناك قصور أُخرى عديدة صغيرة دون هاتهِ الاَّ القصر السلطاني الآن المسمى يلدز الذي هو في الاصل مثل هاتيك الصغيرة لكنهُ لما رجحهُ السلطان المعظم عبد الحميد للانفراد فيهِ والسكنى بهِ دائمًا تزايدت قصورهُ شيئًا فشيئًا حتى صار ابهى في الداخل من الكل وان كان من خارج لا يظهر منهُ الاَّ القليل لوقوعهِ في وسط بستان متسع ملتف بالاشجار ومحيط بهِ اسوار ومساكن للعساكر على جميع محيطهِ

فصل

في مجمل تاريخ الدولة العثمانيَّة

اعلم ان الدولة العثمانيَّة كانت تأسست عند ما تفرقت الملوك الاسلاميَّة واستبد كل منهم بجهة مع الخروج عن العمل بالشرع بل اتبعوا الشهوات واسترقوا الرعيَّة وتصرفوا في الاموال بحسب الاغراض فضعفت شوكة الاسلام وصارت ممالكهم طعمة للاجانب فرحل من وراء النهر اي نهر سيحون ويعنون بما وراءهُ ما كان على عدوتهِ الشرقيَّة قبيلة من مسلمي الترك تحت رئاسة سليمان شاه جد عثمان خان ملتجئين الى السلطان السلجوقي لما شملهم من ظلم التتر فاظلهم بالامن واسكنهم ارضًا بالاناضول واذن لرئيسهم ارطغرل بعد وفاة ابيهِ سليمان شاه بالغزو حيث كانوا قومًا شدادا متمرنين على الحرب فافتتح بسيفهِ الباتر اراضي وبلدانًا وفوض امرها اليهِ السلطان السلجوقي والى ابنهِ عثمان من بعدهِ فتلقب بالسلطان عثمان وذلك في سنة ٦٩٩ وقد نظم الجد الشيخ محمَّد بيرم الثاني قصيدة تشتمل على انموذج من تاريخ هاتهِ الدولة مع اسماء سلاطينها ذكرناها هنا لا يفائها بالمقصود وسماها « عقد الدر والمرجان في سلاطين آل عثمان » وهي

اقدم قبل القصد شكرًا لمنعم   علينا بما اربى على كل انعم
على عز هذا الدين والملة التي   وان لحقت فازت بفضل التقدم
واتبعهُ ازكى الصلاة مسلمًا   على اشرف المخلوق قدرا واعظم
نبي لهُ وصف النبوة ثابت   وآدم بين الماء والطين فاعلم
﴿محمد﴾ من قد اظهر الله دينهُ   بمكة ذي البيت العتيق المعظم
واعلاهُ بالانصار اذ حل طيبة   فحيا بوجه مشرق ذي تبسم
وما زال محروس الجناب مؤيدًا   بكل امام بالعلا ذي تهمم
محوطًا الى ان آل تدبير امرهِ   وحفظ حماهِ بالخميس العرمرم
لحي حلال يعصم الناس امرهم   اذا طرقت احدى الليالي بمعظم
كرام فلا ذو الضغن يدرك تبلهُ   لديهم ولا الجاني عليهم بمسلم
ملوك بني عثمان سلسلة العلا   غصون نمت اذ فرعت عن غطمطم
فللهِ ما قد شيدوا من بنائهِ   وما هدموا للكفر من كل معلم
لقد احكموا امر الجهاد بما اتوا   باعظم صنع فيهِ من بعد اعظم
فكان لهم والله يكلأ مجدهم   بما فعلوا حق على كل مسلم
وقد رمت في ذا النظم جمع ملوكهم   وبعض مزاياهم لتروى فتعلم
فأولهم (عثمان) باكورة العلا   مذيق الردا من بأسهِ كل مجرم سنة ٦٩٩
لهُ فتحت برصا فاضحت سريرهم   فكان لها في ذاك فضل التقدم
وثانيهم (ارخان) من قد اتت بهِ   كريمة من صلب الولي المعظم سنة ٧٢٦
شجاعتهُ قد اظهرتها حروبهُ   فعنهُ بما تختار فيها تكلم
وثالثهم من نال فضل شهادة   (مراد) محلي القرن حمرة عندم سنة ٧٦١
فذاك الذي قد فض ختم ادرنة   فذاقت بهِ برد الهنا والتنعم
ورابعهم شمس العلا (بايزيد) هم   موافقهُ سيف الحرب مرة مطعم سنة ٧٩١
لئن كان مع تيمور ما انفذ القضا   فان ارتكاب الغدر منشا التثلم
ولا عجب للاسد ان ظفرت بها   كلاب الاعادي من فصيح واعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الردا   وحتف علي من حسام ابن ملجم
وخامسهم فخر الملوك (محمد)   مجدد هذا الملك بعد التصرم سنة ٨١٦
وسادسهم ثاني (مراد) ين من رقى   من العز مرقى لا ينال بسلم سنة ٨٢٤

تخلى عن الامر اختياراً لشبله ... وعاد لجبر الحال خوف تألم
وسابعهم فحل الفحول (محمد) ... له فتح اصطنبول اشرف مغنم سنة ٨٥٥
عقيلة عن صيد الملوك تمنعت ... وكلهم يبغي وصلها ذو تهمم
لقد جاءها يختال في العز مودعاً ... خبايا المنايا بين جيش عرمرم
لدى اسد شاكي السلاح مقذف ... له لبد اظفاره لم تقلم
فدحرج عنها سيد الروم خاسئاً ... لدى حيث القت رحلها ام قشعم
وحل بها لما تنادت جنوده ... بتكبير منشي العالمين ومعدم
وقدوسم السيف العدافي رؤوسهم ... كأنهم قد خضبوها بعظلم
فما الحرب الا ما رأوا من بلائه ... وما هو عنها بالحديث المترجم
وثامنهم فرع له (بايزيد) هم ... ابو الجود ما ذا سد خلة معدم سنة ٨٨٦
وتاسعهم مفتاح فتح ممالك ... غدت في جبين الدهر غرة ادهم
(سليم) الذي قدحل بالشاه بأسهُ ... فادبر يطوي الارض من قرب جهضم سنة ٩١٨
ولاح بتبريز سناه فاصبحت ... عروساً تجلت في وشاح منمنم
ومذ برقت بالشام انوار برقه ... دعته دعاء البائس المتظلم
فسكن منها روعة بقدومه ... وضمت عليه سورها ضم معصم
وواجه مصراً بالاذى اذ تلكأت ... فاجرى بها نيلاً تدفق بالدم
وقد غرها الغوري فغار بدابق ... واقبل طومان كذيب لضيغم
فاصبح مصلوباً بباب زويلة ... يداس باقدام ويوطا بمنسم
ولم يبق من ابناء شركس ناعق ... كأنهم قد لامسوا عطر منشم
واضحى سليم للمقامين خادماً ... بذلك ينادي للسلاطين خدم
وعاشرهم ذو الرأي والبأس والندا ... (سليمان) جراع العدا كاس علقم سنة ٩٢٦
قد انتظمت بغداد في سلك ملكه ... فصار له امر العراقين ينتمي
وقد ظهرت آثاره فحديثها ... حداة الورى تحدو بها كل موسم
فمنها ويا لله غزوة رودس ... تغنى بها طير الفلا بترنم
وفي سكتوار بعد ان فتحت له ... اجاب الى المولى بقلب مسلم
فلاحت بافق الملك طلعة شبله ... (سليم) عظيم الملك فرع معظم سنة ٩٧٤
لهمته العلياء قبرص اذعنت ... تقابل مسعاه بوجه مقسم

وفي يمن من بعد بدء فتوحهِ لوالدهِ الارضي اتى بالمتمم
واحيا بهِ الرحمن تونس عند ما غدت بعد عزٍّ شامخ في تحطم
فشدَّ بضبعي سعدها فاقامهُ وكان بقهر الاسر صاحب مجثم
ومن بعدهِ قد بايع الناس فرعهُ (مرادًا) كريم النفس وابن مكرم سنة ٩٨٣
ويتلوهُ في دست الامامة شبلهُ (مُحَمَّد) مغضي الطرف عن فعل مأثم سنة ١٠٠٣
اقام على اغرى فابدى بافقها سحائب حرب امطرت كل لهذم
وعفر للرحمن في الارض وجههُ فآب بفتحٍ للطواغيت مرغم
وقام ابنهُ ذو الحسن (احمد) بعدهُ يحيي ببدر تحت تاج منظم سنة ١٠١٢
ومن بعد هذا (مصطفى) بن مُحَمَّد اقيم ولكن عقدهُ غير مبرم سنة ١٠٢٦
فبويع (عثمان) بن احمد بعدهُ وأُنزل عن قربٍ لامر محتم سنة ١٠٢٨
وقد عاد بعد الخلع خاقان مصطفى وأُنزل بعد العود مثل المقدم سنة ١٠٣١
فجاء (مراد) نجل احمد بعدهُ فكان كحلمٍ لاح اثر توهم سنة ١٠٣٢
اطل على دار السلام بجيشهِ فأنقذها من رافضيٍّ مذمم
وقد لبست ما زانها لمسرةٍ والقت بما قد شان من ثوب مأتم
وعادت الى عاداتها دار سنة تجرِّرُ اذيال الهنا والتنعم
وقد قام (ابراهيم) وهو ابن احمد فللّهِ من حزمٍ وحسن توسم سنة ١٠٤٩
بكندية منهُ وقد جاس ارضها باسياف اجنادٍ لها نهشُ ارقم
اقاموهُ عن كرسيهِ وتقدموا لمن هو في عهد الصبا والتعلم
(مُحَمَّد) فرع منهُ فانصدع البنا وهبَّ من الكفار كل تضرم سنة ١٠٥٨
ولكنهُ لما تكامل واستوى بدا منهُ حزمٌ فاضح كل احزم
فتمم فتحًا سنهُ والدٌ لهُ بكندية اعظم بهِ من متمم
وناهيك من فتحٍ يضيق بيانهُ عن النظم فانظر في التواريخ تعلم
ومن بعد هذا تمَّ بالخلع امرهُ فيالك من فعلٍ قبيحٍ مذمم
فقام (سليمان) اخوهُ مقامهُ ولم يألُ جهدًا في صلاح المحطم سنة ١٠٩٩
ومن بعدهِ قد قام (احمد) صنوهُ فبانت جراحٌ لا تداوى بمرهم سنة ١١٠٢
واعقب هذا (مصطفى) بن مُحَمَّد واخر عما نالهُ من تقدم سنة ١١٠٦
فقام اخوهُ (احمد) بعد خلعهِ وسلم لما شام برق التألم سنة ١١١٥

وقد فتحت تبريز قهرًا ومورة   بايامهِ وجه الزمان المطهم
فبويع للسلطان (محمود) بعدهُ   هو ابن اخيهِ مصطفى المتقدم سنة١١٤٣
سنه١١٦٨ ومن بعدهِ قدقام (عثمان)صنوه   ومن بعد هذا(مصطفى)ذوالتقدم سنة١١٧١
الى الموسقواذ وجه العزم نحوه   وجرد في حرب لهُ كل اصرم
ومن بعدهِ (عبد الحميد) امامنا   اخوهُ عظيم من عظيم مفخم سنة١١٨٧
ابان لهُ الله الهدى واناله   رشادًا وتبسديدًا لدى كل مبهم
فهاك سلاطين الزمان جمعتهم   بنظم كسمط باللآلي منظم
وعدتهم سبع وعشرون قد غدت   سماه العلا منهم تضيءُ بأنجم
ودولتهم خمس المئيدات عمرت   وفي طول هذا العمر لم تك تهدم
.وذا في ثمان بعد تسعين ضمها   الى مائة من بعدها الالف نعلم
وناظمها العبد الفقير محمد   اقل الورى المشهور فيهم بيبرم
يقول تناديني المعالي بقولها   اليك الذي قد قلت فيهم به اختم
ايا دولةً اربت على كل سابق   عليها لعز الدين والملة اسلم
وقد سلمت حتى رأت في سريرها   هماماً به الدين الحنيفي يحتمي
(سليم)ابن خاقان الخواقين مصطفى   لدينك يا مولاي صنهُ وسلم سنه ١٢٠٣
فلا زال منها قائمٌ اثر قائم   الى زمن المهدي وعيسى بن مريم
يقول حفيد الشيخ قدس سرهُ   موافقةً في الاسم لا في التعلم
لقد انجح الدعوى بفضل نوالهِ   كريم لهُ النعمى على كل مسلم
بتسليم هذا الامر لليث(مصطفى)   لعبد الحميد الفرد لقب بابنم سنة١٢٢٢
ولما قضي نحباً قتيلاً من الاولى   اضاعوا التقى واستبدلوا الامن بالدم
تعالى الى دست الخلافة حازماً   اخوهُ الرضى (محمود) خير ميمم سنة ١٢٢٣
لهُ صولة في الروسيا مع بغاتهِ   فارواهم ماء الردى والتقسم
ومن بعده قام ابنهُ من لمجدهم   غدى ينشر الاعلام فى كل معلم
ألا انهُ (عبد المجيد) وجيدهم   لهُ النصرة الغراء في كل معظم سنة١٢٥٥
بحرب القريم الخطب دام مصابرًا   فنال المنى من بعد طول تجهم
ونظم قانونًا الى الخير راشدًا   وتمم ما ابداهُ رأيه المقدم
فاصبح وجه للبسيطة مبهجاً   بما نالها من فرط عدل متمم

ومن بعد ذا وافى الى الدست ضيغم — لهُ مفخر اربى على كل ضيغم
فذاك الذي عم البسيطة عزه — وسلطانهُ فاق السوى بالتنظم
وان رمت عداً للمآثر تكتفي — بذكر اسمهِ (عبد العزيز) مترجم
لقد خضعت سود الجبال لعزمهِ — فاضحت لعز بالخلافة يأتمي
ومذ ارتقى فوق السرير تتوجت — بافعالهِ هام الزمان بانعم
لذاك تباشير الولاية ارخت — حسيبٌ بهِ الاسلام ما زال يحتمي سنة ١٢٧٧
ولكنها قد حل ما جلَّ امرهُ — تخيف من الخطب العظيم المطهم
فتم باهل الحل والعقد خلعهُ — ونادوا بنجل للهمام المقدم
(مراد) ولكن لم يطق عبء حملها — لاخلال شرط بالامامة مخرم سنة ١٢٩٣
فنادوا سراعاً مجمعين باسرهم — بمن يحسم الاهوال في كل معظم
الا انهُ ❊ عبد الحميد ❊ امامنا — عماد الورى والدين نجل المكرم
فاربى على كل الملوك مفاخراً — تحلى بها الافاق في كل موسم
تلافى بحسن الرأي ما جل خطبهُ — بدس العدو الموسقو المذمم
فارجع قهراً طاعة الصرب بوسنا — وهرسك بلغارا بنصر متمم
كذا الجبل المسودلان عريكة — بفتك وحلم ثم عاد لاعظم
فكان الى الروس الطغاة معاضداً — وحل القضا اعظم به من محتم
وابقى الله العرش حوط الخلافة — بابقاه جل للممالك محتمي
فاسدى لها سلطاننا فيض عدلهِ — باجرائهِ تأسيس عدل منظم
ولا زال يبدي كل يوم فضائلاً — تترجم عن شد النهى والتقدم
فنسأل من فيض الكريم لهُ حمى — بنصر لاعلام الخلافة مبرم
ودونك بشرى للولاية ارخت — مفتح ابواب الصفا والتقدم سنة ١٢٩٣
وان رمت بشرى الحال تاريخها اذاً — لعبد الحميد العيد اسعد موسم سنة ١٢٩٧

فتضمنت قصيدة الجد المشار اليهِ عليهِ سحائب الرحمة تاريخ السلاطين الذين اولهم السلطان عثمان وآخرهم السلطان سليم ابن السلطان مصطفى كما تضمن تذييلنا تاريخهم من السلطان مصطفى الى سلطاننا الخاقان عبد الحميد ايدهُ الله وتبين مما سبق ان الدولة العليّة لم تزل منذ ستمائة سنة ولله الحمد قائمة معتبرة بين الامم غير انها منذ نحو مائتي سنة تناقصت سطوتها عما كانت عليهِ لا سيما في حروبها مع الروسيا لان الدولة

الروسيَّة منذ وليها بطرس الاكبر في سنة ١٦٨٢ جعلت مطمح نظرها توهين شوكة الدولة العليَّة والاستيلاء على ما يسمح لها من ممالكها ثم الاستيلاء على بقيَّة المعمور اقتداء بدولة الرومان في استيلائها في عنفوانها على سائر المعروف من الكرة اذ ذاك ويبرهن لهذا صريح الوصيَّة المنسوبة الى ذلك القيصر واول من اشهرها في اوروبا هو فريدريك كياردي سنة ١٨٣٦ وهذا تعريبها

من بطرس الاول الخ — الى كل من يخلفني على تخت الروسيا التحيَّة . فان الله سبحانهُ لم يزل منذ بداية الابد في اعانتنا واسدل فضلهُ علينا بما حملني على الاعتقاد بان الامة المسكوبيَّة تتسلط ان شاء الله على الممالك الاوروباويَّة (لا قدر الله) والدليل على ذلك ان الامم الاوروباويَّة قد هرم اكثرهم واخذ البعض منهم في التلاشي فان ادركت الروسيا تمام قوتها لا شك انها تتغلب على سائر الممالك لما لها من شوكة الصغر وعندي ان هجوم الامم الشماليَّة على اوربا من احكام القدرة الالهيَّة التي لا بد من نفوذها كما وقع سابقاً عند هجوم الامم المذكورة على مملكة الرومانيين فاحيتها بعد اضمحلالها وانا وجدت الروسيا جدولاصغيرًا فتركتها نهرًا وارجو انهُ باعتناء من يخلفني تصير بحرًا عظيمًا يغطي بمياههِ اوربا باسرها ولا يتعرض لسيلانهِ عرمرم فحملني هذا الاعتقاد على ان اقرر هنا الاصول التي لا بد من اتباعها نظرًا الى ادراك هذا المقصود المعتبر وهي

اولا

على ملوك الروسيا ملازمة الحرب لتكون جيوشهم دائمًا على حال الرياضة والاستعداد فلا يكفوا عن الحرب الَّا لاصلاح شأن الماليَّة وجبر ما نقص من العساكر وتربص فرصة الهجوم على الاعداء فالحرب والصلح يتناوبان حسبما تقتضيهِ الحاجة نظرا الى توسيع دائرة شوكتنا وفلاح البلاد

ثانيًا

عليهم ان يجلبوا من سائر الاقطار الاوروباويَّة العارفين بالفنون الحربيَّة مدة الحرب واما مدة الصلح فعليهم جلب من اشتهر من العلماء لتنفيع الروسيا بما يلائم الامم الاخرى من دون خسارة ما لها طبيعة

ثالثًا

عليهم التداخل في سائر احوال الممالك الاوروباويَّة وخصوصًا المانيا لقربها الينا

رابعاً

التداخل في احوال بولونيا وفي انتخاب ملوكها حتى لا ينتخب الَّا المحب للروسيا وادخال جيوشنا بها لحماية هولاء الملوك الى ان يتيسر التسلط على البلاد راساً فان تعرضت الدول الاخرى تجب الاجابة الى مطالبهم الى ان نقدر على استرجاع ما سلمناهُ

خامساً

نأخذ من مملكة السويد ما يمكن اخذه ونجعل بينهم وبين الدانمرك عدواناً دائماً

سادساً

لا يتزوج اهل بيتنا الَّا بنات ملوك المانيا لتاكد المحبة بين الروسيا والمانيا وتكثير وسائل المواصلة بينهما

سابعاً

يجب الاعتناء بمحالفة انكلترا لما لها من الحاجة الى اشجارنا لسفنها ولما نستفيدهُ منها نظراً الى اصلاح شأن اسطولنا فضلاً عن تبديل فائدة تبديل ما لنا من الخشب وغيره من النتائج بذهب انكلترا وما ينشا منهُ من كثرة المواصلة بين تجارها وتجارنا

ثامناً

نمتد بقدر الامكان من جهة الشمال وعلى شواطيء البالتيك كما يجب السعي بالامتداد من جهة المغرب وعلى شواطيء البحر الاسود

تاسعاً

نقرب من القسطنطينيَّة والهنود بقدر الامكان فمن ملك القسطنطينيَّة فقد ملك الدنيا فبناء على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع الترك ومملكة الفرس وجعل ترسخانات بشواطيء البالتيك والبحر الاسود وهذا من اللازم لنجاح ما قصدناه وينبغي ايضاً تعجيل مملكة الفرس من الاضمحلال وتنشيط التجارة التي كانت بين الشام وجبل قاف فنتقدم الى الهند التي هي مخازن الدنيا وان حصلنا على ذلك لا حاجة لنا بذهب انكلترا

عاشراً

يجب السعي في تاكيد المحبة مع دولة النمسا باسعافها ظاهراً على ما قصدتهُ من التسلط على المانيا مع اننا نحرض عليها ملوك المانيا سراً

حادي عشر

نشارك النمسا فيما قصدناهُ من اخراج الترك من اوربا فان ظفرنا بالاستيلاء على القسطنطينيَّة واظهرت دولة النمسا شيئًا من الغيرة لاجل ذلك فاننا نحث دولة من دول اوربا على محاربتها او نسلم لها جانبًا مما حصلنا عليهِ ونسترجعهُ في اول فرصة

ثاني عشر

نجمع سائر الاغريق ببولونيا وبممالك النمسا ونسعفهم بقدر الامكان بالحماية والدفاع عنهم حتى يكونوا لنا احباء ما بين الاعداء

ثالث عشر

بعد الاستيلاء على مملكة السويد وغلبة الفرس وبولونيا والتسلط على الممالك العثمانيَّة وجمع جيوشنا ودخول اساطيلنا بالبالتيك والبحر الاسود نشرع في المفاوضة السريَّة مع فرنسا ودولة النمسا في قسمة الدنيا بيننا فان ارتضت احدى الدولتين ما نعرضهُ عليها نستعين بها على قهر الاخرى ثم نهجم عليها ونغلبها ولا يصعب علينا ذلك حينئذ حيث يكون بيدنا ملك المشرق ومعظم اوربا

رابع عشر

ان امتنعت كلا الدولتين المذكورتين مما نعرضهُ عليها وهذا مما يبعد وقوعه يجب السعي بتحريض احداها على الاخرى فنتربص الفرصة ونهجم على المانيا بجيش عظيم ونوجه اسطولين الى البحر المحيط والبحر الاوسط للاستيلاء على فرنسا وبعد قهر فرنسا والمانيا لا يصعب الاستيلاء على بقيَّة ممالك اوربا . اه

وهاتهِ الوصيَّة وان انكرتها رجال الدولة الروسيَّة لكن السيرة السياسيَّة والعسكريَّة الموجودة في الخارج من ذلك التاريخ الى الآن تصدق وجودها اذ هي مطابقة لها مطابقة النعل للرجل فلا زالت تمد سطوتها في اسيا واوربا ولما كانت الدولة العليَّة هي الدولة ذات الشأن المجاورة لها في كل من القارتين مع مخالفة الديانة جعلتها مطمح نظرها ووجدت سبيلاً لمخادعة الدول الاورباويَّة بالانتصار للمسيحيين الموافقين لهم في الديانة لما تدعيهِ من التعدي عليهم فتريد تحريرهم من استيلاء الدولة العليَّة عليهم على ما سيرد بسطهُ في الفصل الاول من الخاتمة فجعلت تثير ثورات في احد الاقسام ثم تنتصر لهُ بان يجعل لهُ ادارة مستقلة في داخليتهِ وبعد مدة تغريهِ بالاستقلال وتنتصر لهُ فاذا تمَّ

استقلاله لا تلبث ان تبتلعهُ ثم تنتقل الى قسم آخر بواليهِ وهكذا ولما تفطنت الدولة العليَّة الى هذا المقصد تداركت الامر باصلاح الادارة على حسب ما تقتضيهِ الاصول الشرعيَّة ويزيل تلك الاعتراضات حتى تتقوَّى وتمنع نفسها وتستميل بقيَّة الدول الاوروباويَّة الى انصافها من مشاحنها فتعاطى المرحوم السلطان محمود مبادي الانتظام بعد ان لاقى متاعب شديدة مع العساكر الينكشاريَّة الذين كانوا اعظم اسباب التخضرم في الممالك العثمانيَّة العليَّة حيث عاثوا في الارض بظلم الرعيَّة والاستيلاء على الاحكام السياسيَّة في القاعدة وانحاء الممالك وخروجهم عن طاعة السلاطين وتلاعبهم بهم هذا بعد ان كانوا هم عدة الاسلام وناشري اعلام انتصارهِ عند ما نظَّمتهم الدولة الى خلال القرن الحادي عشر فابتدأوا بما سبق ذكرهُ وتمادوا عليهِ الى ان وهنت الشوكة وتداركها السلطان محمود فازال ذلك الصنف بالمرة بعد حرب ذريعة ونظم عوضهم العساكر النظاميَّة على نحو انتظام العساكر الاوروباويَّة في الممالك المتمدنة مع انهُ كان اذ ذاك في تعب عظيم من حرب الروسيا التي كانت خاتمتها معاهدة ادرنة الموهنة لتمام استقلال الدولة العليَّة والجاعلة للروسيا اليد في احوال الممالك العليَّة وكذلك كان السلطان في مهم من ثورة الاغريق في جزيرة مورا وأُضيف اليهِ غدر الاسطول الانكليزي باسطولهِ واساطيل الولايات التابعة للخلافة كمصر وتونس والجزائر اذ بينما تلك الاساطيل العظام راسية في بحر الجزر للاحتراس في شأن ثورة مورة واذا بالاسطول الانكليزي وارد عليها في صورة المعاضد لان السلم متأكد بين الدولتين ولم تكن بينهما شائبة حرب بالمرة واشارت الاساطيل الى بعضها بعلامات السلم فلم تلبث ان تخللت بين الاساطيل العثمانيَّة حتى اذا تم تمكنها منها اطلقت عليها النيران من جميع الجهات في آن واحد مع شدة الالتحام والتداخل والمسلمون في حال الدعة اعتمادًا على السلم المحقق فهلكت جميع تلك الاساطيل وغرقت في لجة البحر دفعة واحدة بمن فيها فكانت حادثة لا تنسى ولا تمحي من صفحات التواريخ حتى ان اعضاء مجلس الاعيان ومجلس النواب من الانكليز انفسهم هاجوا وماجوا على دولتهم من تلك الفعلة والزموا الوزراء بالمحاكمة والقصاص فانكر وزير البحريَّة اذنهُ بذلك وقال ان فعل رئيس الاسطول لما فعل هو افتيات منهُ ولا علم للدولة بهِ فألزموا احضارهُ والحكم عليهِ بالقتل وعند ما أُحضر وروفع في مجلس الحكم وصدر الحكم بقتلهِ وعلم انهُ لم يبقَ لهُ مفر اقبل على وزير البحريَّة وسارَّهُ في اذنهِ بقولهِ ايها الوزير ان تلك البطاقة التي بخطك قد نسيت ان احرقها وها هي الآن في جيبي فبهت وجههُ واطرق صامتًا ثم عقد جلسة

سرية واطلق سبيل الرجل ويقال ان الحامل على ذلك ما هو مركوز في طباع الدول سيما اذا كان القصد هو ارتكاس المسطو عليهِ لما يأمر بهِ الساطي بيد ان الدولة الانكليزية لم تزل من ذلك الوقت الى الآن تعاضد الدولة العليَّة وتنصح لها وتظاهرها متى استطاعت كما ياتي ومع هاتهِ الشدائد التي تقدمت الاشارة الى بعضها فالسلطان محمود رحمهُ الله ونعمهُ لم يزل جادًا مقدامًا حتى انهُ لما بلغهُ خبر الاسطول وهو يحادث احد كبراء دولتهِ لم يزد على سؤالهِ عن تحقق الامر من غير انزعاج ثم عاد لحديثهِ الذي كان فيهِ وشمر عن ساعد الجد في تجديد الاسطول واقرار الراحة بانتظام العساكر النظامية والاحكام السياسيَّة والشرعيَّة فاخترمتهُ المنيَّة قبل الاستتباب وتسلطن ولدهُ السلطان عبد المجيد فاخذ في السعي في الانتظام وتغيير السيرة القديمة الى التهذيب الوقتي الذي هو موافق للشرع العزيز كما ياتي في الفصل الرابع من الخاتمة واصدر الفرمان العالي المحدث للتنظيمات وتعريبهُ هو

من المعلوم عند الجميع ان دولتنا العليَّة لم تزل من مبدإ ظهور امرها معتنية بكمال الرعاية للاحكام القرآنيَّة الشريفة والقوانين الشرعيَّة المنيفة وان سلطنتنا السنيَّة قد وصلت بذلك الى الدرجة القصوى من القوة والمكانة ورفاهيَّة الرعايا وعمارة المدن والقرى الَّا انها منذ مائة وخمسين سنة تناقصت قوتها ومعموريَّة ممالكها واخذت في التاخر والضعف وذلك لغوائل متعاقبة واسباب متنوعة نشأ منها تجاوز الحدود الشرعيَّة والقوانين المرعيَّة ولا يخفى ان الممالك التي لا تنسج ادارتها على منوال القوانين الشرعيَّة لا تدوم استقامتها فلذلك لم تزل افكارنا منذ جلوسنا على سرير الملك مصروفة الى تدبير وسائل عمارة الممالك ورفاهيَّة الاهالي مما يحصل بهِ المطلوب في مدة يسيرة بعون الله تعالى نظرًا الى حسن الموقع الجغرافي المحتوي على ممالك دولتنا العليَّة ذات الاراضي الخصبة والاهالي ذوي الاستعداد وتمام القابليَّة الى ان راينا من المهم وضع قوانين جديدة مؤسسة على القواعد الشرعيَّة المشيدة واعتمادنا في وضع ذلك على العناية الربانيَّة متوسلين بحرمة سيد البريَّة صلى الله عليهِ وسلم ومدار القوانين المشار اليها على وجوب حفظ النفس والعرض والمال وعلى بيان المرجع في تعيين الاداء وجلب العساكر اللازمة اما وجوب حفظ النفس والعرض فلكونهما اعز الامور الدنيويَّة فاذا خشي الانسان عليهما اضطر الى التشبث بمن يرجو بهِ وقايتهما كائنًا من كان وان لم يكن في اصل فطرتهِ مجبولًا على الخيانة ولا يخفي ان ذلك مما يضر بالدولة والمملكة بخلاف ما اذا كان آمنًا

على نفسهِ وعرضهِ فانهُ لا يحيد عن طريق الصدق والاستقامة وصرف الهمة الى حسن الخدمة لدولتهِ وملتهِ. واما المال فان من نقد الامن عليهِ لا يتأتى لهُ القيام بحقوق دولتهِ اذ لا يخلو دائمًا من شغل بال واضطراب حال بخلاف ما اذا كان آمنًا على مالهِ فانهُ يشغل نفسهُ بما يعنيهِ في دينهِ ودنياهِ وينظر في توسيع دائرة معارفهِ وعيشهِ وبذلك يتمكن من قلبهِ حب الوطن وتشتد غيرتهُ عليهِ وعلى دولتهِ ويكون سعيهُ على حسب ذلك واما تعيين الاداء فالمرجع فيهِ ان كل دولة تحتاج في حفظ ممالكها الى القوة العسكرية كما تحتاج في ضبط تصرفاتها الى مصاريف لازمة فلا بد لها من مبلغ وافر من المال بحسب احتياجها وانما يتحصل ذلك بما يضرب على اتباع تلك الدولة فلزم ان يوضع للاداء المشار اليهِ طريقة مستحسنة وذلك ان الاستبداد وان بقيت معهُ ممالكنا سالمة والحمد لله على ذلك لكن ظهرت آثارهُ من الاختلال والخراب وذلك لان جعل زمام مصالح المملكة السياسية وامورها المالية بيد شخص واحد موكولة الى اختياره بل لا مانع ان يقال موكولة الى قهرهِ وجبرهِ يتسبب عنهُ ما ذكر خصوصًا اذا لم يكن ذلك الشخص من اهل الخير فانهُ يوثر منفعتهُ على منفعة الغير وتكون تصرفاتهُ مبنية على الظلم والضير فوجب لذلك ان نبادر بترتيب معيار مضبوط يعتبر في توزيع الاداء على الاهالي مراعى فيهِ قدر المكاسب واليسار بحيث لا يؤخذ من احد ما فوق مقدورهِ بعد ان يجعل لمصاريف الدولة اللازمة للعساكر وغيرها حد محدود بقوانين لا تتعداها واما جلب العساكر فهو من اهم ما يتوقف عليهِ حفظ الدين والوطن والذب عنهما فيلزم الاهالي ان يقدموا اشخاصًا منهم للخدمة العسكرية لكن الطريقة الجارية في ذلك الى الآن معا فيها من عدم الانتظام تؤدي الى اختلال اصول الزراعة والتجارة والى قلة التناسل (فيقع النقص في الاموال والانفس والثمرات) ومنشأ ذلك عدم اعتبار عدد النفوس الموجودة ببلدان المملكة فيؤخذ من بعضها اكثر من المقدور ومن بعضها اقل من الميسور واستمرار الجندي في الخدمة العسكرية مدة حياتهِ وبذلك يقل النسل ويحصل الضجر المخل بفوائد الخدمة المذكورة فبناء على ذلك نرى من اللازم اذا مست الحاجة لاخذ العسكر من الممالك ان يوضع لذلك اصول مناسبة جارية على منهج المساواة المطلوبة ثم يسلك في الاستخدام العسكري طريقة المناوبة بحيث لا يبقى الشخص في الخدمة المذكورة اكثر من خمسة اعوام مثلاً فبهذه الاصول التي عليها مدار القوانين والتنظيمات يحصل بمعونة الله نمو العمران والقوة والامن والراحة فلذلك نقول يلزم من الآن فصاعدًا ان لا يعامل احد

من ارباب الجرائم والجنايات بما يفضي الى اتلاف نفسهِ من سم ونحوهِ بدون مبالاة بل لا يحكم عليهم الاّ بما تقتضيهِ القوانين الشرعيّة وان لا يسلط احد على الوقوع في عرض آخر وهتك حرمتهِ وان يتصرف كل انسان في اموالهِ واملاكهِ بغاية الحريّة وعدم المعارضة وان من جنى جناية لا يحرم ورثتهُ من حق وراثتهِ بالاستيلاء على اموالهِ للجناية التي هم براء منها وهذه المساعدة منا جارية في حق المسلمين وغيرهم من اهل الملل التابعين لسلطنتنا بدون استثناء احد منهم ولاتمام الامان وتعميم الاطمئنان يزاد في اعضاء مجلس الاحكام العدليّة قدرما يلزم للنظر في سائر اللوازم وفصلها بما يتفق عليهِ الاكثر وعلى وكلاء دولتنا العليّة ان يحضروا المجلس المذكور في بعض الايام ويبدي كل واحد ما يستصوبهُ دون تحاش ولا مداراة واما المفاوضة في شأن التنظيمات العسكريّة فانها تكون بدار الشورى الكائنة بمحل السرعسكر وكل ما يستقر عليهِ الرأي من القوانين يعرض علينا لنوشحهُ بالخط الميمون ويكون دستور العمل الى ما شاء الله وحيث كان وضع القوانين الشرعيّة المشار اليها انما هو لاحياء الدين والدولة والملك والملة اكدنا ذلك بالعهد والميثاق من طرفنا الملكي على ان لا يصدر منا شيءٌ يخالفها واقسمنا على ذلك في بيت الخرقة الشريفة بمحضر جميع العلماء والوكلاء وسيحلف كل منهم على ذلك فاذا صدر بعد ذلك من احد الوزراء والعلماء ما يخالف تلك القوانين الشرعيّة فانهُ يجازى بالتأديب المناسب لجريمتهِ الثابتة بدون التفات لرتبتهِ ولا مراعاة لذاتهِ وحيث ان مأموري الدولة لهم مرتبات كافية ومن ليس لهُ ذلك الآن سيرتب لهُ ما يكفيهِ وجب ان نشدّد في قطع مواد الرشوة المستبشعة طبعًا وشرعًا بوضع قانون يخص عقوبتها ولاستبقاء التنظيمات المشار اليها والاصول المبنيّة هي عليها المغيرة للعوائد الجورية القديمة وجب ان ننشر هذه الاوراق السلطانيّة الى سفراء الدول المحابة المقيمين بالاستانة العليّة ليكونوا شاهدين على امضائها كما ننشرها الى اهالي الاستانة وسائر ممالكنا المحميّة فمن سعى في حل عرى هاتهِ القوانين الموضوعة على اساس شرعي متين فعليهِ لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ولا ينال فلاحًا الى يوم الدين ونسأل الله تعالى ان يوفقنا لاجراء هذا الخير العميم آمين ".اه

ثم ان الجهلاء واصحاب الفوائد الشخصيّة من المنتسبين للعلم او من اهل السياسة كادوا ان يحدثوا تحييرًا في الممالك باشاعة ان التنظيمات تضادد الديانة الاسلاميّة فاضطر المرحوم السلطان عبد المجيد الى ازالة هذا الوهم من الافكار بارسالهِ شيخ الاسلام احمد عارف الى الممالك فقام فيهم خطيبًا يشرح ان الشرع المحمدي لا يخالف التنظيمات بل

يقتضيها ولما كان هذا العالم معروفاً بالرسوخ في العلم والورع انقادت العامة لمواعظهِ اما ذوو الغايات الخصوصيَّة من ذوي الرياسات فلم يألوا جهدًا في تعطيل اجراء التنظيمات بالفعل الى ان وجدت الروسيا سبيلاً الى المداخلة سنة ١٢٧٠ فاضطرت الدولة العليَّة الى حربها المعروفة بحرب القريم وظاهرها كل من دولتي فرنسا وانكلترة وسردانيا حيث توجه نامق باشا الى فرنسا والقى على مسامع الامبراطور نابليون الثالث باعانة وزيرهِ دوروان دولويز ان غض النظر عن تطاول الروسيا لا تأمن بوائقهُ الدول الغربيَّة لان الروسيا لا سمح الله لو تسلطت على الاستانة اما حسًّا او معنًى لمكنت التسلط على البحر المتوسط وبحوت التجارة عن سائر الممالك الشرقيَّة من الممالك الغربيَّة وايضاً تحصل على النفوذ السياسي الذي تخضرم بهِ الدول الغربيَّة اذا لم نقل انها تستولي عليها وحيث كانت فرنسا ناشرة راية الفخر في المعمور لا يسوغ لها اغضاء النظر عن هذا الحادث وترك الدولة العليَّة منفردة مع خصمها الالد وبسط هذا المعنى بحرارة نفس حركت النخوة الفرنسوية في الامبراطور فاجابهُ الى معاضدة الدولة العليَّة واشار عليهِ بان يستوثق من انكلترا محالفتها ومعاضدتها فما وصل الى لندرة حتى وجد القوم في قلق من انتظارهِ وكادوا ان يحملوهُ على الاعناق وفتحت دار الندوة لمطلبهِ وتلقاهُ اهلها بالرحب والقبول وحماية الذمار فلم تلبث الحرب بضع اشهر حتى اعلنت فرنسا وانكلترا حربهما للروسيا وانضمت اليهما دولة سردنيا اذ كان ذلك تسبباً منها لاتحاد ايطاليا ودخولها في زمرة الدول العظام وامتدت الحرب واستعرت نيرانها الى ان سلمت الروسيا للصلح على شروط معاهدة باريس ومضمونها هو ابقاء استقلال الدولة العليَّة في جميع اجزاء ممالكها واستقلالها في سائر تصرفاتها الداخليَّة التي يشترط فيها الحرية والامن التام لرعاياها على اختلاف اصنافهم واما الممالك التي لها استقلال في ادارتها وهم من النصارى كالصرب والجبل الاسود والافلاق والبغدان فتبقى ممتازة تؤدي الخراج للدولة تحت حمايتها واما البحر الاسود فيكون حائدًا حتى لا يسوغ لاحدى الدولتين المالكتين لشطوطهِ جعل سفن حربيَّة فيهِ سوى عدد يسير لمجرد حفظ الراحة الداخليَّة وكذلك نهر الطونة يكون نهرًا تجاريًّا فقط تحت مناظرة جمعيَّة اوروباويَّة ومن ذاك الوقت تخلصت الدولة العليَّة من اثقال الروسيا السابقة ودخلت في سلك الدول الاوروباويَّة العظام وتكفلت الدول باستقلالها ومن سوء البخت لم يزل اغلب المتوظفين في غفلاتهم مصرين على السيرة الاستبداديَّة والعدو منهم بالمرصاد فالف جمعيات سريَّة في قواعد ممالكتهِ وارسلت عمالها الى الولايات العثمانيَّة التي اغلب

سكانها نصارى والقوا دسائسهم بتعليم الثوران والقاء العداوة بين الراعي والرعيَّة هذا وسفير الروسيا في قاعدة الخلافة يحسن اوجه التودد الى الروسيا والاستماع الى نصائحها الملائمة لطباع من استمالهُ من الرجال من الاستمساك بالسيرة الاستبداديَّة التي هي سيرة الروسيا لكن على شرط التسليم في الولايات التي يسكنها الصقالبة وبذلك تعقد دولة الروسيا مع الدولة العليَّة معاهدة على الذب والاقدام وتعوضها بمعاضدتها ممالك اسلاميَّة عوضاً عمَّا يخرج من عندها وتساعدها ايضاً على الحط من ديونها الى المقدار الذي يظهر لها فاثرت هذه الوساوس واعلنت الدولة العليَّة بعدم اقتدارها على دفع فائدة ديونها حتى اغتاظت منها سكان اوربا واستعمل الاهمال في شأن تلك الجمعيات السريَّة حتى ثارت ولايتا بوسنه وهرسك ثم البلغار ثم الجبل الاسود ثم الصرب وتدارك رجال الدولة الصادقين الخطب بتفطنهم الى الدسائس الباطلة التي ليس القصد منها الاَّ اضعاف الدولة بيدها وجعلها في قبضة عدوها وافرادها عن الدول الناصحة لها مع انها استقرضت من رعاياهم منذ سنة ١٢٧٠ نحو خمسة الاف مليون فرنك ولم يحصل منها ومن مداخيل الدولة التي هي نحو عشرين مليوناً ليرة في السنة على ممر تلك السنين التي تي نيف وعشرون سنة مما يصح ان يعد الاَّ ما تضمنهُ التقرير الذي قراهُ الصدر الاعظم بحضور السلطان عبد العزيز في الباب العالي وهذا مضمونهُ « انهُ قد اتخذ جميع الوسائل اللازمة لاصلاح شأن المجالس الحكميَّة واتقان تنظيمها وترتيب خدمتها على اعدل وجه ممكن حتى ينال جميع رعايا الدولة منها غاية مأمولهم من حسن المعاملة والانصاف من غير مراعاة الجنسيَّة ولا المذهب وانهُ بذل جهدهُ في اصلاح قوى الدولة وتنظيمها على ما يعادل تنظيمات الدول الاخرى وان جملة العساكر مع الرديف تبلغ الآن ثمانمائة الف نفر مجهزة الجهاز التام ومصحوبة بما يلزمها من المدافع المتقنة حسب الاختراعات الجديدة وان الاساطيل اعتني باصلاحها غاية الاعتناء حتى اصبحت الدولة العثمانيَّة الآن عندها منها ما يجعلها بمنزلة الدول البحريَّة الكبار وانهُ متى نجزت السفن المشروع الآن في انشائها في الترسانة العليَّة يكون للدولة من الفرقاطات المدرعة والمونيتور (وهي سفن ذات ابراج) سبعة عشر فلكاً وانهُ أبرز الاوامر اللازمة لتحصين سائر حدود السلطنة بالابراج والحصون حسبما تقتضيه ضروريات الوقت وانهُ جهز ترسانات الدولة بالادوات والماكينات والمهمات اللازمة حتى صارت الآن تستطيع ان تجاري ترسانات اوربا في انشاء السفن الحربيَّة او اصلاحها وانهُ يفرغ عما قريب من انشاء المصنع الجديد الذي شرع في انشائهِ

منذ مدة في الطوبخانة وهو مصنع يستطيع ان يصب ثلاثمائة مدفع في كل عام من أحسن مدافع الشيشخان وان اهتمامهُ الآن بمساعدة وزير المعارف واقرانهِ الوزراء الاخر موجه الى تكثير عدد المكاتب والمدارس توفيرًا لاسباب التعليم وترتيبها على وجه يمكن سائر الناس من الانتفاع بها الانتفاع المطلوب وان الاعمال المتعلقة بالسكك الحديديَّة والطرق المعدة لسير العجلات واقع الاهتمام بها من غير انقطاع ولا توانٍ وان في اواخر اغسطس الآتي تكمل سكة الحديد المشروع في انشائها بين اسكودار وازميد وان الحراثة لا يزال موجهًا اليها كل ما تستحقهُ من عظيم اعتنائهِ واهتمامهِ وتنال يوميًا من التسهيلات سائر ما تحتاج اليهِ منها دوام اعفاء الادوات والآلات اللازمة لها على اختلاف انواعها من اداء رسوم الكمرك على الاطلاق في سائر اقاليم السلطنة وهذا كلهُ لزيادة ترغيب الناس في الاشتغال بها حالة كونها هي اعظم ينابيع الثروة في الممالك وختم الصدر الاعظم تقريرهُ بقولهِ ان ماليَّة الدولة باقية على ما كانت عليهِ » . هذا وبعض التقرير لم يكن في الخارج طبق ما ذكر ولهذا تفاقم الامر فيما بعد الى ان استندت رجال السياسة والعساكر الى فتوى من شيخ الاسلام في اختلال فكر السلطان واولوا السلطان مرادًا وحيث كان ضعيف المزاج وانزعج بكيفيَّة ولايتهِ وبموت عمهِ وبالثورة على الوزراء من بعض المعينين لم يطق تحمل عبء الخلافة فاستند اهل الحل والعقد الى فتوى ايضًا واولوا سلطاننا عبد الحميد ايدهُ الله فتدارك امر الادارة باصدارهِ الخط الهمايوني عند تقلدهِ البيعة وهذا تعريبهُ

" انهُ لما اعتزل اخي الاكرم حضرة السلطان مراد الخامس عن مشاغل السلطنة والخلافة وفرغ منها جلسنا بموجب القانون العثماني على تخت اجدادنا العظام وقد وجهنا لعهدتكم مسند الصدارة العظمى ورياسة مجلس الوكلاء ابقاء وتجديدًا بناء على ما لذاتكم من الرويَّة المسلم بها والحمية المجربة وما لكم من الوقوف والاطلاع على مهم امور الدولة وكذلك اقررنا جميع الوكلاء على مناصبهم واني شديد الاتكال في جميع الاحوال على تسهيلات جناب موفق الامور (هو الله سبحانهُ وتعالى) وتوفيقاتهِ الصمدانيَّة وقصارى آمالي ومقاصدي معطوفة بالحصر لتأييد اساس شوكة دولتنا ومكنتها بحيث تنال صنوف تبعتنا بلا استثناء الحريَّة ويتنعمون جميعًا بنعمة العدالة والرفاهيَّة فاؤمل بثقة تامة ان جميع وكلاء دولتنا وعمالها يشاركوننا في هذا الاثر ويعاونوننا عليهِ وقد عرف الناس اجمع بان حال البحران والاغتشاش الملم بدولتنا لهُ جهات واسباب متنوعة وصور واشكال متعددة فاذا امعنا النظر في ذلك من اي جهة كانت تجتمع مباديهُ واسبابهُ في نقطة واحدة وهي عدم

جريان القوانين والنظامات المؤسسة على الاحكام الجليلة الشرعيَّة التي هي المسند الاساسي في دولتنا على حقها وتمامها واتباع كل فرد اهواء نفسهِ في ادارة الامور اما اتساع ميدان عدم الانتظام الطارىء على ادارة دولتنا ملكاً ومالاً وما حصلت عليهِ امور ماليتنا من عدم الامنية في الافكار العموميَّة وتعذر وصول الحاكم الى الدرجة المتكفلة بتأمين حقوق الناس وتاخر استفادة مملكتنا حالة كونها قابلة لانواع وسائل العمران كالحرف والصنائع والتجارة والزراعة كما هو مسلم فهو من عدم الثبات الذي وقع على كل ما شرع بهِ من الاجراآت وكل ما حصل من التشبثات الصادرة عن نيَّة خالصة لقصد اعمار مملكتنا ورفاهيَّة حال رعايانا وتبعتنا وسعادة حالهم ونوالهم بدون استثناء الحريَّة الشخصيَّة وكون ذلك باجمعهِ صار عرضة لتغييرات متنوعة منعت انتاج المقصد الاصلي فلا ريب في انهُ تولد ونشأ عن عدم الثبات باتباع القانون والنظام ولذا كان من اهم ما يلزم ان التدابير الواجب وضعها اولاً فاولاً في مطلب قوانين المملكة المقتضي وضعها وتنظيمها في صورة تتكفل بامنية العموم وثقتهم ينبغي ان يبتدا بها من هذه النقطة المهمة وهي ان يترتب مجلس عمومي تكون افعالهُ وآثارهُ مستوجبة لثقة العموم واعتمادهم ويكون موافقاً لقابليَّة مملكتنا واخلاق اهاليها كافلاً باتمام تامين اجراء القوانين حرفاً بحرف سواء كانت القوانين الموجودة او التي تتأسس من الآن فصاعدًا توفيقاً (موافقة) لاحكام الشرع الشريف المقدسة ولما هو بالحقيقة ضروري ومشروع لمملكتنا وملتنا وناظرًا في موازنة واردات الدولة ومصاريفها فليبحث الوكلاء في هذا المطلب ويتذاكروا فيهِ بتدقيق وتأمل ويعرضوا قرارهم لدينا ويستأذنوا عنهُ ثم لما كانت مسئلة توديع الماموريات الى غير اهلها من المامورين وتبدلاتهم المتوالية من غير سبب مشروع هي من جملة الامور الباعثة على ايقاع جريان القوانين والنظامات كما ينبغي في حيز الاشكال وهذا مما ياتي بكبر المضرة ملكاً ومصلحة فينبغي ان يتعين من الآن فصاعدًا مسلك مخصوص لكل نوع من الخدم والماموريات وتتخذ قاعدة ثابتة يستخدم بمقتضاها في كل عمل من يكون اهلاً لهُ ولا يعزل احد او يبدل من ماموريتهِ بلا موجب على وجه ان تكون كافة الوكلاء وماموري الدولة كبارًا وصغارًا مسئولين عن الوظائف الموكولة لهم كل بحسب درجتهِ وكما هو معلوم لدى الخافقين ان ترقيات ملل اوربا الماديَّة والمعنويَّة انما هي حاصلة بقوة الفنون والمعارف ولما كان استعداد كافة صنوف تبعتنا وما فطروا عليهِ من الذكاء والحمد لله يؤهلهم من كل وجه للترقيات واهم ما لدينا من الامور

الاسراع بتعميم المعارف فاخص ما نتمناهُ والحالة هذه ان يحصل الاجتهاد بابلاغ تخصيصات المعارف الى الدرجة الكافية حسبما يساعد الامكان وان تستحصل الوسائل الموصلة لتعميم نشر اصول المعارف على الفور ويبادر عاجلاً لاصلاح الاصول الملكيّة والماليّة والضبط في الولايات بحيث توضع ضمن دائرة الانتظام في صورة مناسبة للقاعدة التي تتخذ في المركز وحيث ان الحادثة التي ظهرت في العام الماضي في اطراف هرسك وبوسنة باغراء ارباب الاغراض قد انضم لها ايضاً مسئلة عصيان الصرب والدم المهرق من الطرفين انما هو دم اولاد وطن واحد وكان دوام هذه الحال التي يرثى لها موجب لكدرنا وتاثرنا الشديد يلزم التشبث بالتدابير المؤثرة المفضية لاستئصالها وفيما نؤيد مجدداً كافة احكام المعاهدات المنعقدة مع الدول المتحابة نؤثر رعايتها على الوجه الحسن فينبغي المثابرة بالاجتهاد على ازدياد روابط الحب والمسالمة المتبادلين بيننا وبين الدول ونسئل حضرة الرب المتعال ان يقرن مساعينا جميعاً بتوفيقاته السبحانيّة في كافة الاحوال آمين . يوم الاحد في ٢٢ شعبان سنة ١٢٩٣ »

ثم اعمل الحزم في الثورة وقهر جميع العصاة في سائر الانحاء وعند ما رأت الروسيا تهلهل الوسائل التي اعدتها لم تطق صبراً حتى جيشت الجيوش ووقفت على قدم الحرب بدعوى ان تعهدات الدولة العلية في حق النصارى لم تجرِ وانهم لا زالوا في الظلم من الولاة والتعدي من المسلمين وان تعهداتها الجديدة الموافقة للائحة الكونت اندراسي وزير النمسا التي قدمها على وجه المودة والنصح والمساعدة للدولة العليّة للاصلاحات المطلوبة للولايات الثائرة هي غير كافية ولم ترضهم فتريد اذًا الدولة الروسيّة ان تطلب الاستقلال في الادارة لتلك الولايات على ان تكون تحت حمايتها وانها تنفذ هذا بقوة السلاح لولا ان انكلترا جاشت في حلقها وصرحت لها عند ما كانت تمد الثائرين حسًّا ومعنى انها ان لم تكف عن هذا الحرب السري فانها تدخل معها في الحرب الجهري وكذلك دولة النمسا اظهرت التحرش من جهتها خوفاً من كل منهما على مصالحها اذ دولة الانكليز تخاف من تملك الروسيا لخليج فارس وخليج السويس وبذلك تسقط من يدها مستعمراتها في الهند ودولة النمسا تخشى علو كعب الصقالبة بجوارها فيظهرون عليها ولتلاشى فيما بينهم مع سابقيّة التآلف بين العثمانيين والهنكاز بين الذين هم قسم مستقل من مملكة النمسا حتى ان رئيس الدولة يلقب بامبراطور النمسا وملك هنكاريا وهذا التآلف جاء من مساعدة العثمانيين لهم عند ما كان قسم النمسا قاهرًا لهنكاريا ومستبدًّا عليها في التصرفات السياسيّة غير

انهُ منع كل من الدولتين مانع من انفاذ قصدها بالفعل . فاما دولة انكلتره فانها لما كانت دولة حريَّة بجنة لم يكن في قدرتها التصرف الأعلى طبق ارادة الامة وامتها منقسمة الى حزبين احدها يسمى حزب المحافظين والثاني يسمى حزب الاحرار ولقدم بسط هذه التسمية في الكلام على انكلترا وكان الحزب الثاني مضادًّا لانتصار دولته للدولة العليَّة حتى انهُ لما كان بيدهِ زمام التصرف في سنة ١٢٨٨ وانتهزت الروسيا الفرصة من حرب جرمانيا وفرنسا فطلبت تغيير معاهدة باريس فيما يتعلق بتقوية شأنها في البحر الاسود ساعدت اذ ذاك دولة انكلترا على ذلك المطلب وغير شرطهُ وفي هاتهِ النازلة المتكلم عليها كان التصرف بيد حزب المحافظين لكن الحزب الآخر مضاد لهم وكاد ان يجذب اليه الحزب الآخر فلم يكن في وسع زعماء هذا الحزب الذين بيدهم زمام تصرف الدولة ان يخالفوهم بالمرة سيما والباعث على انفاذ سياستهم مع المخالفة لم يحصل في هاتهِ المسألة كما يفقههُ البصير واضف الى ذلك عدم تحقق محالف ذي قوة بريَّة معتبرة يمكن لانكلترا ان تتعاضد معهُ للانتصار للدولة العليَّة لان فرنسا الوحيدة لمثل ذلك لم يكن في وسعها الارتباك في الحرب لما تقدم في الفصل الثالث من المقصد في الكلام على فرنسا وهذا السبب المتعلق بفرنسا ذاتهُ هو الذي نكص دولة النمسا عن انفاذ قصد الهنكاريين في معاضدة الدولة العليَّة حيث ان الموازنة الاوروباوية تغيرت وتحالف الامبراطرة الثلاثة اي امبراطور المانيا والروسيا والنمسا امَّا حقيقة واما حكمًا على مساعدة بعضهم ونفعهم كما بينتهُ الحوادث فلاجل الجواذب المتباينة المشار اليها غاية ما استطاعتهُ كل من انكلترا والنمسا لكبح الروسيا ان عقدوا مؤتمرًا في الاستانة للاتفاق ما بين الدول الموقعين على معاهدة باريس على ما ينصلح بهِ الحال ويرجع السلم بين الدولتين المتنافرتين فأرسى امرهم فيه على ان طلبوا من الدولة العليَّة ما يأتي

اولاً. تغيير حدود الجبل الاسود باعطائهِ بعض اراضي من المملكة العثمانيَّة. ثانيًا تشكيل لجنة من مرخصي الدول الاوروباويَّة لتعيين تلك الحدود الجديدة. ثالثًا ابقاء حكومة الصرب على الحالة السالفة بأن تكون لا لها ولا عليها وتتقرر حدودها من جهة بوسنة عملاً بمقتضى الخط السلطاني الصادر سنة ١٢٣٢ . رابعًا الولاة الذين يتعينون الى بوسنة وهرسك والبلغار ينتخبون من جانب الباب العالي مع موافقة دول اوروبا في ذلك وابقائهم في مأمورياتهم مدة خمس سنين خامسًا نظرًا الى الموقع الجغرافي تقسم تلك الولايات الى الوية ويتعين لها متصرفون من جانب الباب العالي بعد انتخاب اولئك الولاة لهم. سادسًا

انشاء مجلس مركب من ثلاثة اعضاء بكل من الولايات تنتخبهم مجالس الولايات لتحرير دخل الولاية وخرجها وانتخاب اعضاء مجالس الادارة وتوزيع الضرائب السلطانيّة على الاهالي ما عدا رسوم الكمرك والدخان الراجعة للدولة العليّة . سابعاً ابطال طريقة التزام مداخيل الدولة واسقاط البقايا السابقة بكل من الولايات الثلاث . ثامناً دخل الولايات المذكورة عدا ما هو راجع للدولة كالدخان والكمرك يعطى منهُ قسط لخزينة الدولة العليّة والقسط الباقي يصرف في مصالح الولايات المذكورة وينظم لكل منها دستور للعمل بذلك . تاسعاً ترتيب المحاكم النظاميّة . عاشراً اعطاء حريّة الاديان . حادي عشر تنظيم الحرس الاهلي . ثاني عشر العفو العمومي عما سبق من الجنايات السياسية . ثالث عشر اعطاء رخصة للاهالي في شراء الاراضي السلطانية . رابع عشر الشروع في تنفيذ تلك الشروط قبل مضي ثلاثة اشهر . خامس عشر تعيين لجنتان من طرف دول اوربا للاحتساب على اجراء تلك الشروط . غير ان الدولة العلية امتنعت من قبول الاقتراحات المذكورة محتجة بانها صارت دولة قانونية حريّة لجميع اصناف رعاياها على السواء بالقانون الاساسي الذي أحاط بهِ المملكة السلطان الغازي عبد الحميد ايد الله ملكهُ وقد سبقت الاشارة اليهِ في الفرمان الذي اصدرهُ عند البيعة العامة وابرزهُ للعمل بالفعل عند ما كان المؤتمر في مفاوضاتهِ واصحبهُ بالخط الشريف الآتي نص تعريبهِ في موكب مشهود وكانت تلاوتهُ في يوم كأَنهُ يوم عيد وهو

" وزيري سمير المعالي مدحت باشا

" ان سطوة سلطنتنا كانت في حالة القهقرة في الايام السالفة واسباب ذلك التقهقر لم تكن ناشئة عن المشاق الخارجية فقط بل انما وقعت لاجل الانحراف عن الطريقة المستقيمة في الأدارة الداخلية حتى ضعفت اماني وثوق الرعايا بالدولة ولذلك كان المرحوم والدنا الماجد السلطان عبد المجيد منح بعض اصول في تحسين الادارة معروفة بالتنظيمات الخيريّة اشتملت على تأمين جميع الرعايا في انفسهم واموالهم وعرضهم وشرفهم طبقاً لقواعد الشريعة المطهرة والتنظيمات المذكورة هي التي كانت سبباً لابقاء السلطنة محافظة على لوازم الامنيّة الى الآن ومن آثارها المشكورة انها سهلت لنا نجاح مساعينا في تأسيس هذا القانون الجديد الذي اقتضتهُ اراء رجال دولتنا التي نتجت عنهم بحريتهم حيث استندوا الى تلك الامنيّة وقد تيسر لنا في هذا اليوم الاعلان بهِ . ولما كان هذا اليوم من الايام السعيدة فانهُ يلزمني ان نذكر الآن المقدس المرحوم والدنا ونصفهُ بعنوان محيي الدولة وان نذكر

مقاصده الحسنة ولا شك انهُ كان سعى بنفسهِ في ادخال السلطنة في العهد القانوني الذي سنستظل بهِ الان ولو توفرت مدة تأسيس التنظيمات الخيريَّة الاسباب المتوفرة الان لكان والدنا المرحوم اسس اذ ذاك احكام هذا القانون الاساسي ولكن العزة الالهيَّة قدرت ان يكون هذا التبديل السعيد الذي هو الكفالة العظمى لخير رعايانا في مدة ولايتنا ولله المنة على ذلك،ومن المعلوم المقرر ان اصول ادارة الدولة صارت مغايرة للتبديلات المتتابعة التي وقعت شيئاً فشيئاً في تصرفاتنا الداخليَّة وفي زيادة خلطتنا مع الدول الأحباب وغاية مرغوبنا ازالة جميع الاسباب المانعة للامة وللبلاد من الانتفاع بالنتائج الطبيعيَّة التي لهم حق فيها كما يلزم وان نرى جميع رعايانا قد جاوزوا الحقوق التي من علائق الامم المهذبة بحيث يكون كلهم متعاضدين بنيَّة سالمة في التقدم والالفة والاتحاد فكان من الواجب اتخاذ طريقة نافعة مستقيمة للحصول على المقصد المذكور ووقاية حقوق الدولة ومحو الخطيئات والغلطات الناتجة من الاعمال الغير المباحة الناشئة من وجود التصرف الاستبدادي بيد نفر واحد او بعض النفار وان نمنح حقوقاً متساوية لجميع الطوائف المركبة منهم الامة وان نجعلهم في حالة يمكنهم معها الانتفاع بخير الحرية والعدل والتسوية ولا فرق بينهم في ذلك وهذا هو الوجه الوحيد الصالح لحماية جميع المصالح وضماناتها وهذه القواعد الكليَّة انتجت وجوب عمل آخر مفيد للغاية وهو وجوب تقييد اساس ادارتنا بصورة شوريَّة قانونيَّة ولذلك لما اصدرنا خطنا عند صعودنا على كرسي السلطنة قررنا لزوم احداث مجلس للامة (وفي الاصل برلمنتو) وقد اشتغلت جمعيَّة خاصة مشكلة من رجال دولتنا واهل العلم والمتوظفين الاعيان في تاسيس اصول هذا القانون بغاية التدقيق ثم وقع التامل منها بمجلس وزرائنا والموافقة عليها وهذا القانون اشتمل على اثبات الحقوق الراجعة للذات السلطانيَّة وحريَّة جميع الرعايا العثمانيين السياسيَّة والعرفيَّة وتسويتهم لدى الاحكام السياسيَّة والعرفيَّة ايضاً وبيان مسئوليَّة الوزراء والمتوظفين ومتعلقات وظيفتهم وحق مجلس الامة في الاحتساب على اعمالهم واستقلال المجالس الحكميَّة في خدمتها والمعادلة بين دخل الدولة وخرجها معادلة حقيقيَّة وقسمة التصرفات الحكميَّة بالاوطان مع بقاء النظر الاعلى فيها للدولة وجميع هذه الاصول المطابقة لاحكام الشريعة المطهرة ولضروريات الوقت ولمرغوبنا قابلت النيَّة الحسنة التي شأنها تحقيق خير الجميع حيث ان ذلك غاية المراد وقد جعلت اتكالي على الله وعلى امداد رسولهِ في ذلك وانطت لعهدتهم هذا القانون بعد ان وافقت عليهِ بامضائي السلطاني ويقع العمل بهِ حالاً بحول الله في جميع جهات السلطنة

فالآن ارادتنا انكم تعلموا بهذا القانون وتجروا العمل بمقتضاه من هذا اليوم كما يجب عليكم ايضاً اتخاذ جميع الوسائل اللازمة المتأكدة للاشتغال في تهيئة الترانيب التي تضمن ذكرها القانون المذكور والله تعالى المسئول ان يقارن بالنجاح سعي كل من اشتغل فيما يؤول الى نجاة السلطنة والامة وكتب في ٧ ذي الحجة الحرام سنة ١٢٩٣ ".

غيران اعضاء المؤتمر لم يقنعهم ذلك وسافروا جميعاً من الاستانة دفعة واحدة مظهرين الضديَّة للدولة العليَّة والدولة لم تكترث بذلك حيث ان ما فعلتهُ من الرفض لمطلبهم كان عن رأي الامة لانها عقدت مجلساً عامًّا من جميع وجوه اصناف رعيتها حتى انهُ حضرهُ المعروف بالدراية والديانة اميرالامراء(الفريق)رستم باشا وزيرالحربيَّة اذ ذاك في المملكة التونسيَّة حيث كان رسولاً عن اميرنا في تهنئة حضرة السلطان بالولاية واجمع جميع اولئك الاعيان على اختلاف دياناتهم على رفض تلك المطالب بل ان النصارى واليهود منهم قالوا نؤثر اراقة آخر نقطة من دمنا وصرف آخر درهم من مالنا على حفظ شرف مملكتنا من الاهانة بالتجزئة وان كان هذا لم يبد فيما بعد حقيقة الأمن البعض دون البعض هذا بعد ان كان عرف جميعهم الرجل الوحيد مدحت باشا صاحب الصدارة اذ ذاك بعواقب الانفراد عن الدول واحتمال تعصبهم جميعاً لكي يتبصروا وليعلم حقيقة ضميرهم فلم يتزحزحوا شيئاً فانفذ السلطان ووزيرهُ هذا الرفض ولله درهم من رجال اذ لم يسع سائر الامم الاَّ انصافهم والاذعان بان لهم الحق في رفض ذلك الاقتراح بل ان اللوردصالسبوري اشد المخاصمين في المؤتمر قال عند ما استقرَّ بمجلس الوزراء في انكلترا لقد انصف القوم في رفضهم للمطالب نعم ان الخصم زاد تألباً وأعلن بان الدولة العليَّة اهانت اوربا لكي يموه احقاقهُ في اشهار الحرب بيد ان انكلترا مع ذلك لم تسمح لهُ بما اراد وألحت على التعلل للدولة العليَّة واجتمع سفراء الدول في انكلترا واستقرَّ امرهم على لائحة هذا نص تعريبها

« ان الدول التي تعاطت عموماً اسباب سلم المشرق واشتركت لهذا المقصود في مؤتمر الاستانة قد رأت ان الطريقة الوحيدة في بلوغ المقصد الذي اعتمدت عليهِ هي المحافظة على التوافق الذي وقع من حسن البخت بينهم ومع ذلك يجددون تقرير امر يهمهم وهو من مصالح العموم اعني تحسين حالة امم النصارى بالممالك العثمانيَّة واجراء الاصلاحات في بوسنه وهرسك والبلغار حسبما قبلهُ الباب العالي على ان يجريها من عند نفسهِ ولذلك اعتبر عقد الصلح مع الصرب حجة اما ما يتعلق بالجبل الاسود فان الدول تعتبرعقد الصلح معهُ امراً مرغوباً فيهِ ولا بد لهُ من توطيد بهِ يقع تعديل الحدود وتعطى حريَّة الجولان في

نهر البويانة لان الدول تعتبر التأويلات التي تقع او ستقع بين الباب العالي وهاتين الولايتين كأنها تقدمت خطوة الى السكون الذي هو الداعي لرغبتهم العمومية ولهذا يستدعون الباب العالي لتوكيده بترجيع العساكر على قدم السلم ولا يبقى منها هنالك غير عدد العساكر اللازمة لتقرير الراحة ويبادر الى اجراء الاصلاحات اللازمة للراحة وخير الولايات في اقرب وقت حتى يقع ما اشتغل به المؤتمر وقرروا بمقتضاهُ ان الباب العالي حاضر الى اجراء القسم المهم من تلك المطالب واتخذوا منشورهُ المؤرخ في ١٣ فبراير سنة ١٨٧٦ وما قررتهُ الدولة العثمانية في المؤتمر حجة سيما وذلك كان على يد وكلائها وقد كان ظهر للدول بالنظر الى استعدادات الباب العالي الحسنة ومصالحهِ الحقيقية في اجرائها انها متيقنة بما أملتهُ من ان الباب العالي حيث انتهز هذه الفرصة الحاضرة فانهُ يقوم بحزم لاجراء الوسائل المعدة لتحسين حال النصارى حقيقة وهذا المطلوب من الامور الضرورية لراحة اوربا وحيث سلك هذه الطريقة علم يقيناً ان من شرفهِ ومصلحتهِ ان يجتهد في ذلك بعزم على وجه مستقيم فتطلبت الدول اذ ذاك ان تلاحظ كيفية اجراء الدولة العثمانية مواعيدها بواسطة وكلائهم في الاستانة ونوابهم واذا بات مأمولهم عديم النجاح مرة اخرى بان لم تحسن حال النصارى رعايا حضرة السلطان بكيفية تمنع رجوع التشعبات التي تضطرب بها دائماً راحة المشرق فلعلهُ سيظهر لهم من الواجب ان يقرروا ان مثل هذا الحادث لا يوافق مصالحهم ومصالح اوربا عموماً وفي هذا الحال تحفظ الدول باعلان ما يرونهُ عموماً من الطرق التي ستظهر لهم التزاماً لتقرير خير الامم النصارى ومصالح السلم العمومي . وكتب في لندرة في ٣١ مارس سنة ١٨٧٧ »

وارسلوها للدولة العلية كالبلاغ الاخير فرفضتها ويا ليتها قبلتها اذ هي مطابقة لما كان اصدرتهُ من الفرمان المطابق للائحة الكونت اندراسي والمراقبة من الدول اذا كان اجراء الاصلاح حقيقة مقصوداً لا ضير فيها سيما ونفس معاهدة باريس المصرحة بكمال استقلال الدولة العلية في ادارة ممالكها هي ايضاً مصرحة باشتراط اصلاح الادارة المتضمن لمراقبة الدول لها اذ لا معنى لجعلها شرطاً في معاهدتهم الا ان يكون لهم حق في طلب اجرائها كما يطلبون اجراء سائر شروط المعاهدة نعم في ذلك ما ينافي النخوة لكن باب ارتكاب اخف الضررين لا ينسى ولا يخفى ان دولة الروسيا تشمل ما ينيف عن الثمانين مليوناً واذا اضيف لها مظاهروها من اتباع الدولة العلية كانت نحو تسعين مليوناً من النفوس وهي مرتاحة من الحرب وتهيأت لها منذ عشرين سنة واوصلت سكك الحديد الى اطراف

ممالكها التي يعتني بها ولا ينسي انهُ منذ ثلاثة وعشرين سنة فقط قد حاربتها اربع دول معاً وكانت الحرب بينهم سجالاً والدولة العليَّة لا تشمل اكثر من اربعين مليوناً منهم خمسة عشر مليوناً اكثرهم معاضد لعدوها بالمال والرجال واقلهم لا يعينون بالمال الاَّ عن مضض فضلاً عن الانفس وقد كانت اذ ذاك في حرب اهليَّة دامت نحو السنتين ولم تتهيأ بكمال الاستعداد لتوهم انتصار الدول لها فاذا هم قد انفردوا عنها وتركوها وخصمها فقامت الحرب على ساق وظهر من صناديد العثمانيين ما هو معروف حتى اقر سائر الاجناس لهم بانهم امة لم تزل حيَّة سيما ما بدا من عسكر البطل الغازي عثمان باشا المشير فانهُ قاتل في پليفنا التي صيرها حصناً عظيماً في مدة حربهِ بجيش لا يبلغ الاربعين الفاً جيشاً عرمرماً من الروس والرومانيا يتجاوز المائة والعشرين الفاً وقتل منهم ما ينيف على عدد جيشهِ ولولا سبقيَّة القدر بعدم انجادهِ لما تيسر للروس مجرد حصار جيشهِ حتى اضطر الى الهجوم لخرق الحصار بمن بقي سليماً من جيشهِ الذي قدرهُ سبعة وعشرون الفاً فتراكمت عليهِ مائة الف او يزيدون الى ان خرج واضطر للتسليم فاقبل عليهِ القيصر نفسهُ ولما سلم لهُ سيفهُ قال لهُ " ان مثلك ايها البطل يحق لهُ الفخر الدائم "ورد اليهِ السيف وكفى بذلك شهادة لهُ فصحى الجو للروسيا وتقدمت الى ان بلغت جوار القسطنطينيَّة وامتنعت من توسط الدول في الصلح حتى طلبتهُ الدولة العليَّة منها رأساً وعقد على شروط تضمنتها معاهدة صان استيفانوس وهذا نص تعريبها

« الشرط الاول — انهُ بموجب الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة وبمقتضى الشروط والوجوه الآتي ذكرها تقرر تصحيح حدود ممالك الدولة العليَّة والجبل الاسود وذلك لاجل انهاء المنازعات والمصادمات المتتابعة الوقوع فيما بينهما فالحدود تمتد من جبل دوبروزيجه على الوجه الذي عينهُ المؤتمر الذي كان حصل في الاستانة الى غوربتو ويلكه والحد الجديد يستطيل الى غاجقة وعلى هذا متوتركيا غاجقو تبقى في تصرف الجبل الاسود وتمتد الحدود ايضاً من مجمع انهر بيوه وتارة وتمر من نهر درين الى جهة الشمال وتنتهي الى مجمع هذا النهر مع النهر المعبر عنهُ فيم واما حدود الجبل المذكور الشرقيَّة فتبتدئ من نهر فيم الى بريرة بولرة ومن روستراق الى سوق بلاتينا وبيهور وروستراق تبقيان داخل الجبل فعلى ذلك يكون تحديد الخطوط هكذا اعني من الجبال المسلسلة الجامعة لروغوة وبلاو وكوزنره الى شلب باقليني ومن رؤوس جبال قوبريونيق وباباور وبورور حذاء حدود بلاد الارناوط الى اعلى ذروة جبل بروقليني ومن هذه النقطة الى

كثيب يسقاشيق وينتهي الحد على الخط المستقيم الى عين الماء في جيسني هوتي ويفصل فيما بين جيسبني هوتي وجيسيني قاستراني ويتجاوز ماء اشقودرة الى ان ينتهي لنهر بويانة وهكذا مع النهر الى مصبهِ في البحر وبموجب ذلك تبقى نكسيك وغاشقه واشبوزي وبودغوريجة وزابلياق وبارضمن الجبل المذكور وقد يصير تعيين حدود امارة الجبل قطعيًا بمعرفة لجنة مركبة من بعض مأموري دول اوربا بشرط ان تكون وكلاء الباب العالي والجبل معهم ايضًا فهذه اللجنة تلاحظ منافع الطرفين وامنية البلاد الكائنة في الجهتين ثم تشير في الخريطة الى التعديلات التي ترى لها لزومًا وتعلم انها هي الحق وتوضح في ذلك ما رأتهُ من صالح الجهتين ثم لا يخفى ان امر سير السفن في نهر بويانة لم يزل يجلب النزاع فيما بين الباب العالي والجبل الاسود فلاجل قطع هذا النزاع يصير تحرير نظام ذلك بمعرفة اللجنة المذكورة

الشرط الثاني. ان الباب العالي يثبت استقلال امارة الجبل الاسود على الوجه القطعي ثم فيما ياتي تتقرر فيما بين دولة الروسيا والدولة العليَّة والامارة المذكورة كيفية المناسبات التي ستكون بين الباب العالي والجبل وقضية تعيين وكلاء من طرف الامارة في الاستانة وفيما يقتضيه الحال من ممالكها ويتقرر ايضًا امر اعادة ارباب الجنايات الذين يفرون من بلاد الدولة العلية الى الجبل ومن الجبل الى بلاد الدولة وامر اطاعة اهل الجبل المقيمين او المارين في بلاد الدولة العلية وانقيادهم الى نظامات ومأموري الدولة طبق الحقوق الجارية بين الدول والعادات والمعاملات القديمة التي كانت تجري بحقهم في بلاد الدولة وستنعقد ايضًا مقاولة فيما بين الباب العالي والجبل الاسود لاجل توضيح وتنظيم المسائل المتعلقة بالانشاآت العسكريَّة في قرب الحدود واحوال ومناسبات الاهالي المتجاورة هناك واذا اختلف الباب العالي مع الجبل في بعض مسائل ولم يكن فصلها باتفاقها فتحكم بينهما دولتا الروسيا واوستريا ومن بعد هذه المعاهدة اذا وقعت مباحثة او مصادمة فيما بين الباب العالي والجبل ما عدا المطاليب الملكية الجديدة ينبغي ان يفوضا امرها الى دولتي الروسيا واوستريا وهما باتفاقهما يفصلانها بينهما وقد تقرر انهُ من بعد امضاء مقدمات الصلح الى عشرة ايام يجب على عساكر الجبل الاسود ان تخرج من البلاد الغير الداخلة ضمن الحدود المذكورة اعلاه

الشرط الثالث. ان امارة الصرب تكون مستقلة ويكون حدها بموجب الخريطة المربوطة لهذه المعاهدة مجرى نهر « درين » وتبقى « كوجك ازورنيق » و « سقار » في

ادارة الصرب ويمتد هذا الحد الى منبع نهر « ره زه وه » الكائن جوار « استايلاق » على حسب الحدود القديمة وتبتدىء الحدود الجديدة من هنا اعني مع مجرى نهر رزوه الى نهر راسقة ومنهُ الى « يكي بازار » ومن يكي بازار يصعد الخط الفاصل ويمر من جوار قريتي « مهتاره » و « ارغويج » الى اعلى النهر المذكور حتى ينتهي الى منبعهِ ويمتد الى بوسور بلاتينا الكائنة في وادي ايبار وينزل مع الماء الجاري الذي يصب في النهر المذكور ومنهُ يسير مع انهر ايبار وسيديج ولاب الى منبع نهر ياتسه الكائن في جبل غرابا شينجة بلاتينا وبعدها يمر من التلال الفاصلة بين نهري قربوه وترنجة ومن اقصر الطرق الموجودة على مصب نهر ميو واجقة حتى ينتهي ايضاً الى نهر ويرنجة ويسير مع هذا النهر ويقطع ميو واجقة وبلاتينا ويصل الى جهة مورواة في قرب قرية قاليانس ومن هنا يسير الى قرب قرية استابقوجي ويجتمع هناك مع نهر بلوسينة وهكذا مع النهر الى موراوة ويمتد مع النهر الى اعلى حتى يصل الى « قولتاويجة » ويقطع سوق بلاتينا ويجتمع بنهر ليساوة ويتصل بقرية قرونجاج ومنها يمر من اقصر الطرق ويمتد على حدود الصرب القديمة الى جنوب شرق « قرة ول بور » وعلى هذا الخط يتصل بنهر الطونة وتقرر اخلاء « اطه قلعة » وهدمها وترتيب لجنة مركبة من مأموري الدولة العليّة والصرب لاجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعي في برهة ثلاثة اشهر ويكون ذلك بمعاونة مأمورين من طرف دولة الروسيا وهذه اللجنة تفصل ايضاً المسائل المتعلقة بجزائر نهر « درين » وتقطعها وحينما تبتدىء هذه اللجنة بتعيين الحدود الفاصلة بين بلاد الصرب والبلغار ينبغي ان يكون وكيل واحد من طرف البلغاريين يشترك معهم في هذا الامر

الشرط الرابع . ان المسلمين الذين لهم املاك في البلاد التي صار الحاقها بالصرب اذا لم يريدوا الاقامة هناك فلهم الخيار ان احبوا اجروا املاكهم وان احبوا اقاموا وكلاء من طرفهم لاجل حفظها واستغلالها والمسائل المتعلقة باموالهم الغير المنقولة تفصلها لجنة مركبة من مأموري الدولة العلية والصرب باعانة مأمورين من طرف دولة الروسيا في ظرف سنتين وهذه اللجنة تفصل ايضاً في برهة ثلاث سنين امر فراغ املاك الدولة والاوقاف والمسائل المتعلقة ببعض الاشخاص الذين لهم علاقة ونفع في الاملاك المذكورة وذلك يكون غب انعقاد المعاهدة فيما بين الدولة العليّة والصرب والاناس المقيمون او الذين يجولون في بلاد الدولة العليّة من تبعة الصرب تكون المعاملة معهم على القواعد الكلية بمقتضى الحقوق الكائنة بين الدول وقد تقرر انهُ من بعد امضاء مقدمات الصلح الى خمسة عشر يوماً

يجب على عساكر الصرب ان تخرج من البلاد التي ليست داخلة في ضمن الحدود المذكورة اعلاه

الشرط الخامس. ان الباب العالي قد اثبت استقلال رومانيا اعني المملكتين ولها ان تطلب من الدولة العليّة غرامة الحرب وتجري المذاكرة بهذا الشأن فيما بينهما وعند ما تنعقد المعاهدة بين الدولة العليّة ورومانيا تنال تبعة رومانيا الامن والامتياز طبق تبعة دول اوربا

الشرط السادس. تقرر ان تكون البلغار امارة مختارة في ادارتها تدفع مبلغاً معلوماً الى الدولة العليّة ويكون مأمورو الحكومة والعساكر الاهليّة من المسيحيين ويصير تعيين حدودها على الوجه القطعي بمعرفة لجنة مركبة من مأموري الدولة العليّة والروسيا وذلك قبل خروج عساكر الروسيا من الروم ايلي وهذه اللجنة تبين هناك في الخريطة التعديلات التي ينبغي اجراؤها وتلاحظ مليّة اكثر الاهالي وتوضح المنافع المحلية تطبيقاً لفن تخطيط الاراضي وتقرر تعيين وتبيين مقدار اتساع ملك الصقالبة في خريطة وجعلها اساساً في قطع الحدود وخط الحدود يبتدئ من حدود الصرب الجديدة ومن غرب « ورانجه » الى سلسلة الجبل الاسود ومن جهة الغرب يمر من غرب « قومانوه » و « قوجاني » و « قلقان دلن » الى جبل « قوارب » ومن هناك يمر من نهر « وبوجيجه » الى درينه ويلتفت الى جهة الجنوب الى حدود غرب قضاء اخرى حتى ينتهي الى جبل ليناس ومنهُ يمر من غربي كوريجه واستاوره ويتصل بجبل غراموس وكذلك يمر من ماء « قاستريا » ويلتصق بنهر موغلينجه ويسير مع النهر الى « يكيجه » ويمر من نهر وارديكيجه ومن مصب نهر « واردار » وقرية « غاليقو » الى قراء « بارغه » و « صاري كوي » ومناك يمر من وسط عين الماء المعبر عنهُ « بشيك كل » الى مصب نهري « استروما » و « قره صو » ومن السواحل الى « بوروكل » ويمتد الى الشمال الغربي ويمر من سلسلة جبل « رودوب » الى جبلي « جالتبه » و « اشوه » ويمر من جبال « اشك قولاج » و « جيبليون » و « قره قولاس » و « جيقلر » الى « نهر ارده » ويلتفت لجهة الجنوب ويمر من قراء سوكوتلين وقره حمزة وارنأود كوي واقارجي واينجه الى « تكه دره سي » سيف قرب « ادرنه » ومن تكه دره سي و « جورلي دره سي » الى « لوله برغوسي » ومن هنا وعن نهر « صوجق دره » الى قرية « سوركن » ومنها من التلال ويقطع « حكيم طابيه سي » حتى يتصل في ساحل البحر الاسود ويبتدئ ايضاً من « منقاليه » ويترك السواحل ويمر من شمال حدود لوا طولجي ومن فرق راسوه الى نهر الطونه

الشرط السابع . ان امير البلغار يصير انتخابهُ من طرف الاهالي بالحرية التامة والباب العالي يثبتهُ بانضمام اراء الدول ولا يجوز انتخاب احد من اقارب ملوك دول اوربا الجالسين على سرير الملك للامارة المذكورة وحينما تنحل الامارة كذلك يكون انتخاب الامير الجديد على هذا المنوال وهاتهِ الشروط وقد تقرر انهُ ينبغي من قبل انتخاب الامير ان يجتمع مجلس معتبري البلغار اما في « فلبه » واما في « طرنوفا » تحت نظارة مامورين من طرف الروسيا وفي حضور مامورين من طرف الدولة العليَّة وتؤسس نظامات هذه الادارة المستقلة توفيقًا لامثالها اعني لنظامات المملكتين التي تنظمت في سنة ١٨٣٠ غب انعقاد مصالحة «ادرنه» وعند تاسيس تلك النظامات ستصير رعاية حقوق ومنافع الاهالي من المسلمين والروم والاولاخ وغيرهم الموجودين والمختلطين مع البلغاريين وتقرر ايضًا احالة تاسيس هذه الادارة الجديدة في البلغار مع ما يلزم من النظر في صور اجرائها لعهدة مأمورين موظفين من طرف دولة الروسيا من هنا الى سنتين وفي انقضاء السنة الاولى من تاسيس الادارة الجديدة اذا لم يحصل اتفاق بهذا الشأن فيما بين الروسيا والباب العالي ودول اوربا يكون للدول المشار اليهم حق ان يوظفوا مأمورين يرافقون المأمورين الروسيين

الشرط الثامن . ليس لعساكر الدولة العثمانيَّة حق بعد هذا للاقامة في البلغار وسيصير هدم القلاع القديمة الكائنة هناك بمعرفة الحكومة المحليَّة وان الباب العالي لهُ حق ان يتصرف بالادوات الحربيَّة الموجودة في قلاع الطونة التي صار اخلاؤها من العساكر بموجب سند المتاركة الذي تحرر في ٣١ يناير والآلات الحربية الكائنة في مدينتي شمني ووارنه وجميع الاملاك المتعلقة بالحكومة العثمانيَّة كيفما شاء وتبقى عساكر الروسيا في البلغار مقيمة الى ان ينتهي ترتيب العساكر الاهليَّة الكافلة لحفظ الراحة وتوطيد الامنية واذا اقتضت الحال يقومون فعلاً باعانة المأمورين وسيصير تعيين عدد العساكر الاهليَّة بالاتفاق فيما بين الدولة العليَّة ودولة الروسيا وان مدة اقامة عساكر الروسيا في البلغار تكون سنتين والعساكر التي تبقى هناك بعد خروج جميع العساكر الروسية من بلاد الدولة العليَّة تكون عبارة عن ست فرق مشاة وفرقتين خيالة وجميعها خمسون الفًا ومصروف هولاء العساكر يكون على البلغار ويكون لها طرق مراسلات في المملكتين في شطوط البحر الاسود من جهة وارنة وبرغوس وفي مدة اقامتها هناك يكون لها المخازن المقتضية على الشطوط المذكورة

الشرط التاسع . ان المرتب السنوي الذي يلزم على البلغار ايفاؤهُ للدولة العليّة يتسلم الى البنك الذي يعينهُ الباب العالي وهذا البنك يصير تعيينهُ بمعرفة دولة الروسيا والدولة العليّة وسائر الدول وذلك في انتهاء السنة الأولى من ابتداء اجراء اصول الادارة الجديدة ومقدار ذلك المرتب يتأسس بالنظر لايراد البلاد والاراضي التي تكون في ادارة الامارة على الحساب المتوسط والبلغار تتعهد بالقيام في التعهد الذي على الدولة العليّة الى شركة سكة الحديد في طريق وارنة وروسجق غب المذاكرة مع الباب العالي وادارة الشركة المذكورة ومسألة سكة الحديد الاخرى الموجودة ضمن الامارة يصير فصلها بمعرفة الدولة العليّة وحكومة البلغار وادارة الشركة

الشرط العاشر . ان الباب العالي لهُ حق في مرور العساكر ونقل المهمات والذخائر من الطريق المعينة في داخل البلغار الى الايالات العثمانيّة التي وراء البلغار ولاجل عدم وقوع مشاكل في هذا الخصوص وتأمين الايجابات العسكريّة العثمانيّة سيوضع نظام بالاتفاق مع الباب العالي والامارة من ابتداء تعاطي هذه المعاهدة الى ثلاثة اشهر في ذلك وهذا الحق المتعلق بالمرور والعبور يختص بالعساكر النظاميّة فقط دون الباشبوزق والجراكس والعساكر المعاونة والباب العالي كذلك لهُ ان يتعاطى البوسطة عن طريق الامارة ويستعمل مسالك التلغراف في مخابراته فهذان الامران كذلك يصير تعيينهما وتنظيمهما في المدة والشروط المحررة اعلاه

الشرط الحادي عشر . ان المسلمين وغيرهم من اصحاب الاملاك اذا ارادوا الاقامة في خارج الامارة لهم ان يحفظوا املاكهم ويؤجروها او يفوضوا امر ادارتها الى من يريدونهُ ثم ان مأمور الدولة العليّة ومأمور البلغار يجتمعان تحت نظارة مأمور الروسيا ويفصلون المسائل المتعلقة بتصرف الاملاك وفي منافع مسلمي البلغار وذلك يكون في ظرف سنتين واملاك الدولة والاوقاف يصير تعيين امرها اما بالبيع واما باستعمالها على الوجه الذي يكون فيهِ النفع الزائد لجهة الباب العالي ويصير تعيين ذلك بمعرفة لجان مخصوصة محدودة في السنتين المذكورتين والاراضي التي تبقى بدون صاحب عند انقضاء السنتين تباع بالمناداة والمزايدة ويؤخذ ثمنها ويدفع الى ايتام وارامل المصابين في الاحوال الاخيرة من المسلمين والمسيحيين

الشرط الثاني عشر . ان القلاع الكائنة على نهر الطونة يصير هدمها جميعاً ولا يبقى من بعد هذا على سواحل نهر الطونة قلعة ما مطلقاً ولا يجوز وجود سفن حربيّة في مياه

رومانيا والصرب والبلغار سوى السفن الصغيرة والزوارق المختصة والمستعملة في الامور الانضباطية فقط وحقوق ووظائف وامتيازات لجنة الطونة المختلطة تبقى بتمامها على اصلها

الشرط الثالث عشر . ان الباب العالي يتعهد بتنظيف البحر في مضيق «سنه» وارجاعهِ الى حالهِ السابق ليصلح لمرور السفن منهُ ويتعهد ان يضمن العطل والضرر الذي حصل للتجار بسبب منع مرور السفائن من نهر الطونة مدة الحرب وسيصير فصل ٥٠٠٠٠٠ فرنك من اصل دين لجنة الطونة الى الباب العالي لاجل هذا الامر

الشرط الرابع عشر . ان الاصلاحات التي قدمت الى مرخصي الباب العالي في اول جلسة مؤتمر الاستانة ينبغي حالاً اجراؤها بالفعل في بوسنة وهرسك مع التعديلات التي ستقرر فيما بين دولتي الروسيا واوستريا ويجب ان لا يطلب من هاتين الايالتين بقايا الخراج وان لا يؤخذ شيءٌ من الواردات الى ابتداء شهر مارس سنة ١٨٨٠ بل تصرف كلها في الاحتياجات المحليَّة ويسد بها عوز الاهالي والعيال الذين اصيبوا في الاحوال الاخيرة ومن بعد انقضاء المدة المذكورة يتعين المبلغ الذي يلزم على الاهالي دفعهُ في كل سنة الى الحكومة المركزيَّة بالاتفاق فيما بين الدولة العليَّة ودولتي الروسيا واوستريا

الشرط الخامس عشر . يتعهد الباب العالي باجراء احكام النظام الاساسي الذي وضع في سنة ١٨٦٨ المختص بجزيرة كريد طبق مطلوب الاهالي الذي بينوه مقدماً ويلزم اجراء الاصلاحات المماثلة لنظامات كريد في «ترحاله» و«يانيه» وفي سائر جهات الروم ايلي التي ليس لها نظامات مخصوصة ويصير تشكيل لجنة مركبة من الاهالي المحلية في كل ايالة لاجل ترتيب وتأليف النظامات الجديدة ثم يصير تقديمها الى الباب العالي ليتذاكر مع دولة الروسيا في ذلك

الشرط السادس عشر . ان خروج عساكر الروسيا من ارمينيَّة وارجاع تلك البلاد الى الدولة العليَّة يمكن ان يفضي الى المناقشة والاختلاف فيما بينهما فلهذا يتعهد الباب العالي حالاً باجراء الاصلاحات على حسب الاحتياجات المحليَّة في الولايات التي سكانها ارمن وتأمين المسيحيين من تعدي الاكراد والجراكسة

الشرط السابع عشر . ان الباب العالي سيعلن العفو العمومي عن المتهمين في الاحوال الاخيرة ويطلق سبيل المحبوسين والمنفيين بسبب ذلك

الشرط الثامن عشر . ان الباب العالي يتعهد بالتبصر بعين الدقة الى ما بينهُ وكلاء الدول المتوسطة في خصوص قضاء قوتور وتعيين الحدود الايرانية على الوجه القطعي

الشرط التاسع عشر. ان مبالغ الغرامة الحربية التي طلبها حضرة قيصر الروسيا هي في مقابلة الاضرار والخسائر التي تكبدتها دولة الروسيا بسبب هذه الحرب والباب العالي قد تعهد بدفعها فمن هاته المبالغ (اولاً) ٩٠٠،٠٠٠،٠٠٠ روبل في مقابلة مصروف العساكر والادوات الحربية والاشياء التي بليت. (ثانياً) ٤٠٠،٠٠٠،٠٠٠ روبل لاجل الاضرار الحاصلة في سواحل بلاد الروسيا الجنوبية وفي اخراجات البضائع التجاريَّة وفي طرق الحديد (ثالثاً) ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ روبل بمقابلة الضرر الحاصل من الهجوم على قوقاس (رابعاً) ١٠،٠٠٠،٠٠٠ روبل لاجل الخسائر التي حصلت لتبعة الروسيا المقيمين في الممالك العثمانية ولتأسيساتها فعلى ذلك تكون هذه المبالغ من حيث المجموع عبارة عن ١،٤١٠،٠٠٠،٠٠٠ روبل يعني ٢٤٥،٢١٧،٣٩١ ليرة عثمانية وريال مجيدي ابيض ونصف هذا وان القيصر المشار اليهِ قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة المال وتامل في مقاصدها التي لوحت عنها في هذا الشان ووافق بالقبول على ان تترك الدولة العلية الاراضي المحررة اسماؤها ادناه عوضاً عن القسم الاكثر من المبالغ المذكورة. (اولاً). لواء طولجي يعني قضاء كيليا وسنه ومحمودية وايساقجي وطولجي وماجين وباباطاغي وخرسوه وكوستنجة ومجيديه والجزائر الكائنة في نهر الطونة قد تركتها الدولة العلية جميعاً الا ان الدولة الروسية ليس لها فكر بالحاق هاته البلاد الى ملكها بل انها تحفظ حق مبادلة هذه البلاد بقطعة بسارابيا التي اخذت منها بموجب معاهدة سنة ١٨٥٦ لحدود قطعة بسارابيا من جهة الجنوب طرف من اراضي كيليا ومصب نهر الطونة والجهات التي يصطادون بها السمك في النهر يصير تفريقها بمعرفة مامورين من طرف الروسية ومن حكومة المملكتين في برهة سنة واحدة اعتباراً من تاريخ تعاطي هذه المعاهدة. (ثانياً). اردهان وقارص وباطوم وبايزيد مع الاراضي الحاوية عليها الى جبل صوغانلي سيصير تسليمها الى دولة روسيا وحينئذ الحدود الفاصلة تكون هكذا اعني يبتدئ الخط الفاصل من الجبال التي فيها بين المياه الجارية والمنصبة في نهري «هوبا» و«جورق» ويمر من الجبال المتسلسلة الواقعة في جنوب قضاء «وارتوين» ومن جوار قريتي «والات» و«بشاكت» ومن فوق «درونيك» و«كقي» و«هوجه زار» و«بجقين طاغ» ومن الجبال الفاصلة للمياه التي تختلط بنهري «تورتم» و«جورف» ومن فوق قراء «يالي» و«هين» و«لم كليسا» الى ان ينتهي الى نهر تورتم ومن هنا يمر من سيوري طاغ ومن مضيق سيوري طاغ ويتصل بقرية نريمان ويلتفت الى جهة الجنوب حتى يصل الى «زوين» ومن زوين يمر

من غربي طريق اردوست وخراسان الى جنوب جبل صوغانلي ويتصل بقرية «كيلجان» ومنها يمر من جبل «ثريا» ومن قرية خميرومن اون رست مسافة ومن تلال «طاندور» ومن جنوب وادي بايزيد وينتهي في الجهة الجنوبيّة من «قازلي كول» وهذا المحل هو الحد الفاصل قديمًا في ما بين حدود اراضي الدولة العليّة واراضي دولة ايران وان الاراضي التي صار الحاقها بمالك الروسيّة ومذكورة في الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة يصير تعيين حدودها قطعيًا بمعرفة مأمور من طرف الروسيّة ومأمور من طرف الدولة العليّة وهما يلاحظان قواعد تخطيط الاراضي وقضيّة تأمين حسن ادارة القضوات . (ثالثًا) . ان الاراضي التي صار تركها لدولة الروسيا كما هو محرر اعلاه قد اعتبرت بمبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر١٠ ار١ روبل (مليار ومائة وعشرة ملايين روبل) واما الباقي من الغرامة وهو ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٠٠ روبل (يعني ثلاثمائة مليون روبل) ما عدا ٠٠٠ر٠٠٠ر١٠ روبل التي هي في مقابلة خسائر تبعة الروسيّة وتأسيساتها ستتفق دولة الروسيا مع الدولة العليّة على قضيّة دفعها وتأمين ايفائها . (رابعًا) ان العشرة ملايين روبل التي تخصصت لتبعة الروسيّة ومؤسساتها يصير تسويتها هكذا اعني ان سفارة الروسيّة في الاستانة تجري التدقيقات اللازمة بهذا الشان على مستدعيات ارباب العلاقة وتعرض الكيفيّة الى الباب العالي والباب العالي يجري التسوية على مقتضى عرض السفارة

الشرط العشرون . ان الباب العالي يتعهد بان يستعمل التدابير المؤثرة سريعًا في فصل الدعاوي المتنازع فيها منذ سنين عديدة المتعلقة بتبعة الروسيّة وانهُ اذا اقتضى الامر يدفع غرامة وينفذ احكام الاعلامات

الشرط الحادي والعشرون . ان اهالي البلاد التي تسلمت الى الروسيّة ان ارادوا الهجرة منها لهم ان يبيعوا املاكهم واراضيهم ويهاجروا وقد اعطي لهم مهلة في ذلك ثلاث سنين من تاريخ تعاطي هاته المعاهدة فالذين لا يبيعون املاكهم في هاته المدة ولا يهاجرون يدخلون في حكم الروسية عند انقضاء تلك المدة واملاك الدولة والاوقاف يصير بيعها على حسب الاصول التي يعينها مامور الروسيّة ومامور الدولة العليّة في مدة السنتين المذكورة وهما يتمان ايضًا كيفيّة نقل الادوات الحربيّة الموجودة في المحلات التي هي الآن في يد الروس سواء كانت من البلاد التي تسلمت الى دولة الروسيا او غيرها

الشرط الثاني والعشرون . ان القسيسين والزوار الذين يسكنون او يسيحون في الممالك العثمانية في الروم ايلي والاناطولي من تبعة الروسيا سينالون الحقوق والامتيازات

التي ينالها القسيسون والزوار من تبعة سائر الدول سويَّة وسفارة الروسيا الكائنة في الاستانة وقناصلها يحمون حقوق الاشخاص المذكورة وذواتهم ومؤسساتهم والرهبان وغيرهم الموجودين في الاماكن المقدسة وبالخصوص في « اينوروز » فهم حائزون حقوقهم التي كانوا حائزين عليها في السابق ويحفظون الديورة الثلاثة الكائنة في اينوروز مع مشتملاتها المتعلقة بهم كسائر الديورة والمؤسسات المذهبية الكائنة لغيرهم هناك سويَّة

الشرط الثالث والعشرون . ان المعاهدات والمقاولات التي كانت موجودة فيما بين الدولة العليَّة والروسية المتعلقة بالتجارة والمحاكمة وبتبعة الروس المقيمين في بلاد الدولة العلية وتعطلت احكامها بسبب هذه الحرب ينبغي ان تجري احكامها كما في السابق وان دولتي الروسية والعثمانية قد اعادوا المناسبات التي كانت قبل هذه الحرب في الامور التجاريَّة وغيرها بمقتضى احكام المعاهدات والمقاولات المذكورة ما عدا المواد التي نسختها هاته المعاهدة

الشرط الرابع والعشرون. ان خليج الاستانة وخليج جناق قلعه سواء كان في زمن الحرب او زمن الصلح يكون مفتوحًا للسفن التجاريَّة التي تريد المرور منهُ الى بلاد الروسيا من الدول التي تكون على الحيادة والباب العالي ليس لهُ من بعد هذا ان يضع الحصر الغير المؤثر على الشطوط الموجودة فيما بين البحر الاسود وبحر الازاق والمخالف لمضمون معاهدة باريس التي صار امضاؤها في ٤ ابريل سنة ١٨٥٦

الشرط الخامس والعشرون. ان عساكر الروس يخرجون من بلاد الدولة العليَّة الكائنة في اوربا (الروم ايلي) ما عدا البلغار وذلك من تاريخ انعقاد الصلح القطعي الى ثلاثة اشهر هذا وان العساكر المذكورة لهم ان يأتوا الاساكل الموجودة في البحر الاسود وبحر مرمرة عند السفر للركوب في السفائن التي تحضرها او تستأجرها دولة الروسيا حتى لا يكونوا مجبورين على اطالة مدة الاقامة في الممالك العثمانيَّة وفي رومانيا واما خروج عساكر الروسيا من الاناطول فيكون بعد انعقاد الصلح القطعي بستة اشهر ولهم ان يأتوا الى طرابزون لاجل الركوب في السفن ومن هناك يسافرون الى القريم او القوقاس

الشرط السادس والعشرون . ان اصول الادارة والاوامر التي وضعتها دولة الروسيا في البلاد التي دخلتها عساكرها والتي ينبغي تسليمها الى الدولة العليَّة بموجب هاته المعاهدة تكون باقية وجارية الى حين توجه العساكر منها وليس للباب العالي المشاركة في الاحكام ولا للعساكر العثمانيَّة الدخول اليها قبل ذلك بناء على هذا

ان امير العساكر الروسية يخبر الضابط الذي يعينهُ الباب العالي عن سفر عساكر الروسيَّة وليس للباب العالي ان يجري الاحكام من قبل ان تسلم لهُ القلاع والايالات

الشرط السابع والعشرون. ان الباب العالي لا يجازي احدًا بسوءٍ من تبعتهِ الذين دخلوا في المناسبات مع دولة الروسيا في زمن الحرب وليس لمأموري الدولة العليَّة ان تمنع او توقف احدًا من الاهالي الذين يرغبون ان يسافروا مع العساكر .

الشرط الثامن والعشرون . ان اسرى الحرب يصير ارجاعهم تحت نظارة مامورين مرتبين من طرف الدولتين وذلك عقيب تعاطي مقدمات الصلح وهولاء المأمورون يسافرون الى اودسا وسباستبول واما مصروف اسراء العساكر العثمانيَّة تدفعها الدولة العليَّة في ظرف ست سنوات تحت ثمانية عشر قسطاً بموجب الدفتر الذي يحررهُ المأمورون المذكورون واما قضيَّة مبادلة الاسرى فيما بين حكومتي رومانيا والصرب وامارة الجبل الاسود فيصير اجراؤها على هذا الاساس لكن يطرح مقدار الاسرى الذي عند الدولة العليَّة من مقدار اسرى عساكرها ولا تلزمها فيهِ تلك المصاريف

الشرط التاسع والعشرون. ان حضرة امبراطور الروسيا والحضرة الملوكانيَّة سيثبتون هذه المعاهدة وامضاء تثبيتها يكون في بطرسبرغ في ظرف خمسة عشر يومًا او بوجه اسرع من ذلك ان امكن وكذلك يجري التصديق رسميًا على الشروط المذكورة في هذه المعاهدة على حسب الاصول الجارية في المعاهدات الصلحيَّة وان الدولتين المتعاهدتين من تاريخ تعاطي المعاهدة يعدون انفسهم رسميًا بانهم متعهدون بان مرخصي الطرفين قد امضوا هذه المعاهدة كما يأتي تصديقًا لمضمونها.— حرر في ايا ستفانوس في ١٩ شباط الرومي (فبراير) و٣ ايار (مارس) الافرنجي سنة ١٨٧٨ الامضاء

الكونت اغناتيف صفوت نليدوف سعدالله

لكن انكلترا لم تسمح بالاقرار بذلك حتى ادخلت اسطولها بحر مرمرا وعاضدتها بقيَّة الدول في طلب تعديل تلك المعاهدة وعقدوا لذلك موءتمرًا في برلين وارسى الامر فيهِ على معاهدة نص تعريبها

بسم الله القادر على كل شيء

لما كان حضرة سلطان العثمانيين وحضرة ملكة مملكة بريطانيا العظمى وارلاندة وامبراطورة الهند وحضرة امبراطور جرمانيا وملك بروسيا وحضرة امبراطور اوستريا وملك بوهيميا وملك هنكاريا وحضرة رئيس جمهوريَّة فرنسا وحضرة ملك ايطاليا وحضرة

امبراطور جميع الروسيا يريدون لاجل اقرار الراحة العامة في اوربا انهاء المسائل التي ظهرت في الشرق بسبب تقلبات الاحوال فيها في هذه السنين الثلاث وبسبب الحرب التي عاقبتها معاهدة ايا سطفانوس استقرّ رأيهم جميعاً على عقد مؤتمر يكون احسن الوسائل لاجل الاتفاق بحسب ما تقرر في معاهدة اياسطفانوس وبناء على ذلك عينت الذوات الملوكيّة المشار اليهم وحضرة رئيس جمهوريّة فرنسا مرخصين وهم

حضرة ملكة مملكة بريطانيا العظمى وارلاندا وامبراطورة الهند عينت الاونورابل بنيامين دزرائيلي الذي هو كبير وزراء انكلترا والاونورابل روبرت ارثرتالبت غاسكون سيسل موكيز صالسبري الذي هو ناظر خارجية انكلترا والاونورابل لورد اود وليم ليوبولد روسل الذي هو سفير من الطبقة الاولى لانكلترا لدى حضرة امبراطورجرمانيا وملك بروسيا

وعين حضرة امبراطورجرمانيا وملك بروسيا البرنس بسمارك كبير الوزراء في بروسيا ويرنارد ارنست دوبولوى مستشار الخارجية والبرنس هوهنلوه شلنغفورست سفير المانيا لدى رئيس جمهوريّة فرنسا

وعين حضرة امبراطور اوستريا وملك بوهيميا وملك هنكاريا الكونت اندراسي وزيرهُ الخاص ووزيرهُ في الامور الخارجية والكونت لويس كارولیني سفيرهُ لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا والبارون هنري دوهايل سفيرهُ لدى ملك ايطاليا

وعين حضرة رئيس جمهوريّة فرنسا موسيو وليم هنري وادنطون احد اعضاء مجلس الاعيان ووزيرهُ في الامور الخارجية وشارل رايموند كونت دوصان فاليه من اعضاء مجلس الاعيان وسفير فرنسا لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيا وفيلكس ديسبرز المكلف بادارة الامور السياسية في دائرة الخارجيّة

وعين حضرة ملك ايطاليا الكونت لويس كورتي احد اعضاء مجلس الاعيان ووزيرهُ في الامور الخارجية وادورد كونت دولوني سفيرهُ لدى امبراطورجرمانيا وملك بروسيا

وعين امبراطور جميع الروسيا البرنس الكسندر غورچيقوف وزيرهُ في الامور الخارجيّة والكونت دوشوفالوف من قرناء الحضرة الامبراطوريّة ومن اعضاء المجلس الخاص وسفيرهِ لدى دولة بريطانيا وبول دوبربل سفيرهُ لدى امبراطور جرمانيا وملك بروسيه

وعين حضرة سلطان العثمانيين الكسندر قره تيودوري باشا وزيره في الامور النافعة ومحمّد علي باشا المشير في عساكرهِ وسعد الله بك سفيره لدى امبراطور جرمانيا وملك

بروسيا فاجتمعوا في برلين بحسب اشارة دولة اوستريا هنكاريا وبموجب استدعاء دولة جرمانيا ومعهم سائر المحررات المؤذنة بالترخيص فبعد ان وجدت مطابقة للاصول وقع بينهم الاتفاق على المواد الآتية

(المادة الاولى) صارت لآن البلغار امارة مستقلة في امورها الداخلية (ادارة مختارة) تدفع خراجاً في كل سنة الى الباب العالي وتكون تحت تابعية الحضرة السلطانية ويكون لها حكومة مسيحية وعساكر وطنية

(المادة الثانية) تكون امارة البلغار عبارة عن الاراضي الآتي ذكرها وهي ان حدود تلك الاراضي من جهة الشمال تبتدئ من حدود الصرب القديمة وتمر عن يمين ساحل نهر الطونة وتنتهي الى محل في شرقي سيلستريا وهذا المحل سيصير تعيينهُ من طرف المؤتمر الذي يشكل من ماموري دول اوربا ومن هنا ايضاً يتصل الحد في البحر الاسود ويمر من جنوب منقاليا التي صار الحاقها برومانيا اما من جهة الجنوب فانهُ يبتدئ من مصب النهر ويمر من جوار القرى المسماة « هوجه كوي » و « سلامكوي » و « ايواجق » و « قولبة » و « صوجيلق » على شاطئ النهر الى جهة فوق المحاذية « اوادي قامجق » ومن جنوب « بلبية » و « كمحالق » على بعد من « جنكة » مقدار متر ٢ ونصف ويتجاوز « دلي قامجي » ويمر من شمال « حاجي محله » ويصعد الى ذروة المحل الكائن فيما بين «تيكنلك» و « ايدوس برهسا » ومنهُ الى بلقان « قرين اباد » وبلقان « ويره زويقه » ومن بلقان « قرغان » الواقع في شمال المحل المسمى « قوتل » الى ان يتصل بمحل « تيمورقبو » وعلى هذا يكون مرورهُ من سلسلة البلقان الكبير الاصلية ويمتد على جميع مساحتهِ الى ان ينتهي الى ذروة « قوزيقه » ومن هنا يترك ذروة البلقان ويلتفت الى جهة الجنوب ويسير من بين قريتي « بيرتوب » و « دوزنجي » ويغادر قرية بيرتوب المذكورة الى البلغار وقرية دوزنجي الى شرق الروم ايلي ويتصل بنهر « طوزلي دزه » ويسير مع مجرى النهر الى مصبهِ في نهر « طوبوليتجه » ثم الى نهر « اسموسكيو » الذي يصب في نهر طوبوليتجه المذكور بجوار قرية « پتريجوه » ويترك من الاراضي الكائنة فوق نهر اسموسكيو المذكور مقدار كيلومتر ٢ الى شرقي الروم ايلي ويمر من مقسم المياه فيما بين اسموسكيو ونهر قامنيقه ويلتفت الى الجنوب الغربي من التل المسمى وونجاق وينتهي رأساً الى النقطة المذكورة في خريطة اركان حرب دولة اوستريا عدد ٨٧٥ ومن هنا يقطع بخط مستقيم الجهة العليا من وادي اهتمان ويمر من بين بوغدينه وقره ولي ويتصل بالخط في مقسم انهر

المريج فيما بين اسقر وقرلي وحاجيلر ويسير مع الخط المذكور من تلال « ولنيا » و « موغيلا » الى الممر الواقع في نقطة عدد ٥٣١ والى المحلات المسماة « ازمايليقا » و « ره وسومناتيقه » ويدخل من بين « سيوري طاش » و « قادرتبه » ويتصل بحدود لواء صوفية ومن هنا يبتدىء من « قادرتبه » الى جهة الجنوب الغربي ويمر من بين نهر قره صو ونهر « استروما قره صو » ويسير مع خط مقسم المياه ومن تلال الجبال المسماة « تيمورقبو » و « اسقوفنيه » و « قاضيسار بلقان » و «حاجي كدك» تجاه بلقان قابتنيق ويتصل بحدود لواء صوفية القديمة وكذلك يمر من بلقان قابتنيق المذكور ومن بين وادي « ريلاسقارقا » ووادي « بسقرارقا » ويسير مع خط مقسم المياه ويدور تل « ودينجه بلانينا » وينزل الى وادي استروما في المحل الذي يختلط به نهر استروما مع نهر ريلاسقارقا ويدع قرية « برانلي » للدولة العليّة ويصعد من جنوب قرية « بلشينقة » الى فوق ويمر من اقصر خط الى سلسلة « غولما بلانيانا » وتل « غيتقة » ويتصل بحدود لواء صوفية ويترك كامل منشا صوهارقا للدولة العليّة ويلتفت الى جهة الغرب من جبل « رجينقا » ويدور جبال قارونا يابوقه وحدود لواء صوفية القديمة من جبل « قرني وره » ويمر من فوق مياه « آكريصو » ولبنيقه ويطلع الى تلال « بابنابولانا » حتى ينتهي ايضاً الى جبل قرني وره المذكور ومن هذا الجبل يمر من تلال « استرزر » و « ويله غوصو » و « مسيدبلانينا » ومن بين « استروما » و « موراوه » مع خط مقسم المياه الى غاسينا وقرنه طراوه ودار قوسقة ودرانيقة بلان وبعدها من فوق دوشا قلادانق ومن مقسم انهر صوقوه وموراوه ويذهب رأساً الى المحل المدعو « استول » ومن هنا ينزل الى الطريق الموصلة الى صوفية وبيروته ويقطع في هذه الطريق الف متر ومنهُ عن طريق ويدليا بلانينا ويصعد على خط مستقيم الى جبل « رادوجينا » الكائن في سلسلة البلقان الكبير ويترك قرية دويقنجي الى صربستان وقرية سناقوس الى البلغار ثم يلتفت الى جهة الغرب ويدور تلال البلقان المسمى سبروق من صوب استاره بلانيا ويتصل بشرقي حدود امارة الصرب القديمة بجوار « تولا اسميلوه قوله » ويسير على هاته الحدود حتى ينتهي الى نهر الطونة عند « راقوبجه » ثم ان هذه الحدود جميعها سيصير تعيينها بمعرفة لجنة مركبة من وكلاء الدول الممضية على المعاهدة وحصل الاتفاق اولاً على ان هاته اللجنة تنظر بالاعتناء في خصوص محافظة حدود بلقان شرقي الروم ايلي الكائن تحت سلطة الدولة العليّة وثانياً ان لا يصير انشاء استحكام في اطراف « صمافو » بمسافة ١٠ كيلو متر

(المادة الثالثة) يكون انتخاب امير البلغار من اهلها بحريّة تامة واقرارهُ من الباب العالي برضى دول اوربا العظام ولا يصح انتخاب امير عليها من بيوت الدول المذكورة فاذا توفي عن غير ولد يكون انتخاب امير بعدهُ على الشروط والاصول المقررة

(المادة الرابعة) بعد انتخاب الامير تجتمع اعيان البلغاريين في طرنوفا لترتيب احكام ونظامات تخص الامارة وفي الجهات التي تكون سكانها من الترك واهل رومانيا والروم وغيرهم يلزم مراعاة حقوقهم ومصالحهم فيما يتعلق بقضيّة الانتخاب وترتيب الاحكام الاساسيّة

(المادة الخامسة) المواد الآتية تكون اساسًا للحقوق العموميّة في البلغار وهي « ان الاختلاف في المذاهب والاعتقادات لا يخرج احدًا من الاهليّة والجدارة من تمتعهِ بالحقوق المدنيّة والسياسيّة او بدخوله في الوظائف الميرية اوالعموميّة او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرهُ فان الحريّة ومباشرة جميع الاعمال الدينيّة ينبغي تأمينها لجميع الناس القاطنين في البلغار من اهلها ومن الاجانب ايضًا ولا يسوغ اتخاذ مانع ما لترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او لعلاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين »

(المادة السادسة) تكون ادارة « البلغار الموقتة » تحت ادارة مأمورين من دولة الروسية الامبراطوريّة الى ان تنتظم فيها القوانين الاساسيّة ويستدعى مأمور من طرف السلطنة العثمانيّة والقناصل الذين تنتخبهم الدول الذين وقعوا على هذه المعاهدة بقصد مراقبة اعمال « الادارة الموقتة » المذكورة فاذا حصل خلاف بين القناصل المذكورين فابرام العمل يكون على حسب اكثرية الاراء كما انهُ اذا حصل خلاف بين اكثرية اراء المذكورين والمامورين من طرف امبراطورية الروسية او المامورين من طرف الحضرة السلطانيّة تجتمع سفراء الدول بالاستانة الذين وقعوا على هذه المعاهدة في مؤتمر (كنفرانس) ليقر رأيهم على انهاء الخلاف المذكور

(المادة السابعة) تشكيل « الادارة الموقتة » المذكورة لا يبقى اكثر من تسعة اشهر اعتبارًا من يوم التوقيع على هذه المعاهدة وبمجرد انتخاب الامير تضير مباشرة اجراء الاحكام الجديدة فتصير تلك الاحكام دستورًا للعمل وتكون الامارة قد حازت استقلاليتها الاداريّة (ادارتها المختارة) حوزًا تامًّا

(المادة الثامنة) جميع المعاهدات التجاريّة والسفريّة والاتفاقات التي جرت بين الدول الاجنبية وبين الباب العالي والتي لم يزل عملها جاريًا تبقى مرعيّة الاجراء مع امارة

البلغار فلا يصح تبديل شيء منها مع احدى الدول المذكورة بدون رخصة منها ولا يسوغ وضع شيء من الضرائب على البضائع التي ترسل الى احدى الجهات في مرورها على البلغار وتكون معاملة جميع الاهالي ورعايا الدول وتجارتهم في الامارة على قدم مساواة تامة وتبقى امتيازات وخصائص الاجانب المقررة في المعاهدات (التي امضيت بين الدول والباب العالي) مرعيّة الاجراء في الامارة ما دام لم يحصل تعديلها برضى الدول

(المادة التاسعة) الويركو السنوي الذي يجب على امارة البلغار ان تدفعهُ في كل سنة الى متبوعها الحضرة السلطانيّة يكون دفعهُ الى البنك الذي يعينهُ الباب العالي ويكون تعيين المبلغ عند ختام السنة الاولى من جريان نظاماتها الجديدة باتفاق بين الدول الموقعين على هذه المعاهدة وهذا الويركو يحسب بمناسبة ايراد الامارة وحيث انها ستحمل جانبًا من ديون السلطنة العموميّة يلزم للدول ايضًا ان يتذاكروا على مقدار الدين الذي يعين على الامارة وذلك عند مذاكرتهم في امر الويركو

(المادة العاشرة) جميع التعهدات والاتفاقات التي وعدت السلطنة العثمانيّة باجرائها مع شركة سكة الحديد بين وارنه وروسچق تدخل في عهدة امارة البلغار اعتبارًا من مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة اما تسوية الحسابات السابقة التي كانت بين الشركة المذكورة وبين الباب العالي فامرها يكون بين الباب العالي وحكومة البلغار والشركة المذكورة وكذلك دخل في عهدة البلغار سائر تعهدات الباب العالي مع دولة اوستريا وهنكاريا ومع الشركة المنوط بعهدتها تشغيل سكك الحديد في الروم ايلي فيما يتعلق باتمام السكك المذكورة واتصالها في الاراضي التي دخلت الآن في حوزة البلغار ويكون عقد شروط الاتفاقات اللازمة لتسوية هذه المسائل بين دولة اوستريا وهنكاريا والباب العالي والصرب وامارة البلغار عند اقرار الصلح

(المادة الحادية عشرة) بعد هذا لا تبقى العساكر العثمانيّة في البلغار وهدم سائر القلاع والحصون يكون على مصروف حكومة الامارة في ظرف سنة واحدة او اقل من ذلك ان امكن وينبغي لتلك الحكومة ان تتخذ وسائط معجلة لذلك ولا يسوغ لها ان تبني بدلها حصونًا جديدة ويكون للباب العالي حق في ان يتصرف في المهمات الحربيّة وغيرها من الاشياء التي هي ملك لهُ الباقية في حصون الطونة التي اخلتها العساكر العثمانيّة بموجب الهدنة التي حصلت في ٣١ جنيواري (كانون الثاني) وكذلك التي في شمله (شمنى) ووارنه

(المادة الثانية عشرة) المسلمون وغيرهم الذين لهم املاك في البلغار ويريدون السكنى

خارجاً عنها يبقون متمتعين باملاكهم فيمكنهم والحالة هذه ايجارها الى غيرهم وادارتها بمعرفة من ينتخبونهُ وتشكل لجنة مؤلفة من الترك والبلغاريين لتسوية جميع المسائل المتعلقة بكيفيَّة نقل وتشغيل املاك الوقف لحساب الباب العالي والمسائل المتعلقة بالذين لهم مصالح فيها وهذه التسوية تكون في ظرف سنتين ثم ان البلغاريين الذين يسافرون يسكنون في باقي اطراف الممالك العثمانية يكونون تحت الاحكام والقوانين العثمانية

(المادة الثالثة عشرة) تشكل على جنوب البلقان ولاية تحت اسم « ولاية الروم ايلي الشرقيَّة » وتكون تحت تابعيَّة الحضرة السلطانيَّة تابعيَّة سياسيَّة وعسكريَّة بشرط ان تكون مشمولة باستقلاليَّة ادارتها ويكون واليها نصرانيًّا

(المادة الرابعة عشرة) حدود « ولاية الروم ايلي الشرقيَّة » تكون متصلة بحدود البلغار من جهتي الشمال والشمال الغربي والولاية المذكورة تكون عبارة عن الاراضي الكائنة ضمن الدائرة الآتي ذكرها « لحد هذه الولاية يبتدىء من البحر الاسود ويسير على النهر الواقع في جوار القرى المسماة هوجه كوى وسلام كوى وايواجق وقوابه وصوجيلق » الى جهة فوق محاذياً لوادي « دلي قامجق » ويمر من فوق « چكنه » مقدار مسافة كيلومتر ٢ ونصف تقريباً ويتصل بجنوب قراء « بلبيه » و « كمحالق » ثم يصعد الى التل الكائن فيما بين « تبكنلك » و « ايدوس برءسا » ويمر من بلقان « قرين اباد » و « يره زويجه » و « قزغان » حتى يصل الى « تيمورقبو » بالجهة الشماليَّة من « قوتل » وبعدها يدور جميع سلسلة البلقان الكبير وينتهي الى تل « قوزيقه » وفي هذه النقطة اعني من ذروة البلقان الكائن على غربي حدود الروم ايلي ينزل الى جهة الجنوب مارًّا من بين قرية بيتروب التي تركت للبلغاريين قرية دوزانس الباقية في الروم ايلي ويصل الى نهر « طوزلي دره » ويسير مع النهر الى مجمعهِ مع نهر طوبولينقا وكذلك يمر مع هذا النهر الى مجمعهِ مع نهر « سموسقيور » في جوار قرية « بتريسووا » وعلى هذا يترك لروم ايلي الشرقيَّة في شطوط مجاري هاته الانهر محلاً مقدار كيلو مترو ٢ ثم يتبع الخطوط الفاصلة للمياه المذكورة ويسير الى جهة فوق على طول انهر « سموو سقبور » و « قامنيقا » ويلتفت الى الجنوب الغربي في تل « ووانجاق » ويصل الى المحل المبين في خريطة اركان حرب دولة اوستريا عدد ٨٧٥ ثم يقطع على خط عمودي مجرى نهر « ايجان دره » من الاعلى ويمر من بين « بوغدينا » و « قارولا » حتى يصل الى الخط الفاصل الكائن فيما بين نهري « اسقر » و « ماريقا » ويسير على طول الخط الموضح في الخريطة المذكورة تحت رقم ٥٣٠

من تلال « وولينا موجيلا » و « حمابليقا » و « روه سومناتيقا » ويجتمع بحدود لواء صوفيه فيما بين « سيوري طاش » و « قادر تبه » فعلى هذا تفرق حدود الروم ايلي والبلغار من جبل « قادر تبه » ثم الخط الفاصل المذكور يمر الى قدام من بين انهر ماريقا وتوابعه وبين انهر « مستاقره صو » واتباعه تابعاً استقامة الخطوط الفاصلة لهذه المياه ويتوجه الى جهتي الجنوب الشرقي والجنوب ماراً من تلال جبل « دسبوط » الى صوب جبل « كروشووا » وهذا الجبل كان مبدأ الحد الّتي عينتها معاهدة ايا سطفانوس ثم الخط المذكور يتبع الخط المعين في المعاهدة المذكورة اعني انهُ يبتدئ من هذا الجبل ويمر على سلسلة « قره بلقان » من تلال « قولا قلي طاغ واشك جبلي وقره قولاس » وايشيقلر ويسير جهة الجنوب الشرقي حتى ينتهي الى نهر « واردا » ويسير مع هذا النهر على طولهِ حتى يصل الى قرية « اطه قلعه » وتبقى هذه القرية في سلطة الدولة العليّة ومن هنا يصعد ذروة جبل « بش تبه » ثم ينزل ويمر من جسر « مصطفى باشا » ويتجاوز نهر المريج من جهة فوق بمسافة خمسة كيلومتر ثم يتوجه الى جهة الشمال مع بين الانهر الصغار الّتي تصب في نهري « خانلي دره » و « مريج » ويسير على خط مقسم المياه الى المحل المسمى « كودلرباير ي » ومن هنا يلتفت الى جهة الشرق ويمتد الى « صقار بايري » ومنهُ الى وادي « طونجه » والى « بيوك دربند » ويترك « بيوك دربند » « و صوجاق » الى جهة الشمال ثم يسير من بين الانهر التي تصب في نهر طونجه من جهة الشمال وفي نهر المريج من جهة الجنوب على خط مقسم المياه ويصعد الى تل « قبيلر » وتبقى قبيلر في الروم ايلي الشرقيّة ثم يلتفت الى جهة الجنوب ويمر من بين المياه الكائنة فيما بين نهر المريج من جهة الجنوب وبين قريتي « بلورن » و « التلي » الّتي تصب في البحر الاسود ويصل الى جنوب قرية « المالي » ويدور تلال « ووسنه » و « زواق » من شمال المحل المسمى « قرا كلق » ويسير مع الخط الفاصل فيما بين نهري « دوكه » و « قره اغاج » حتى يتصل بالبحر الاسود

(المادة الخامسة عشرة) يكون للحضرة السلطانيّة حق في ان تباشر محافظة الحدود البريّة والبحريّة وذلك بان تبني في تلك الحدود استحكامات وتقيم فيها عساكر ولتأمين الراحة العموميّة في ولاية « الروم ايلي » الشرقيّة يشكل فيها ضبطيّة وعساكر داخليّة ومذاهب الاهالي الذين تؤلف منهم هذه العساكر والضبطيّة تكون مرعيّة ويكون تعيين ضباطهم من طرف الحضرة السلطانيّة وقد تعهدت الحضرة السلطانيّة بان لا توظف في

حصون الحدود عساكر غير نظاميَّة كالباشي بوزق والجراكسة وفي جميع الاحوال لا يسوغ للعساكر النظاميَّة المذكورة ان تتعدى على الأهالي وعند مرورهم في الولاية (لاستقرارهم في الاستحكامات) لا يسوغ لهم الاقامة فيها

(المادة السادسة عشرة) يكون للوالي حق في ان يستدعي العساكر العثمانيَّة اذا حصل ما يخل بالراحة الداخليَّة والخارجيَّة فاذا وقع ما يوجب ذلك يخبر الباب العالي نواب الدول بالاستانة عن قراره وعن السبب الذي احوجهُ اليهِ

(المادة السابعة عشرة) يكون تعيين والي «ولاية الروم ايلي الشرقيَّة» مدة خمس سنين من طرف الباب العالي باتفاق الدول

(المادة الثامنة عشرة) بمجرد مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة تشكل لجنة اوروباويَّة للنظر في تراتيب ادارة «ولاية الروم ايلي الشرقيَّة» بالاتفاق مع الباب العالي ومن خصائصها ان تبين في ظرف ثلاثة اشهر وظيفة مأموريَّة الوالي وما لهُ من الاستطاعة وترتيب الولاية الاداريَّة والنظاميَّة والماليَّة ويكون ابتداء اشغالها تنظيم اختلاف احكام الولايات وما حصل عليهِ المذاكرة في الجلسة الثامنة من المؤتمر الذي عقد في الاستانة وبعد ان يحصل القرار على جميع المصالح المتعلقة بالولاية المذكورة يصدر فرمان من طرف الحضرة السلطانيَّة فيبلغهُ الباب العالي الى الدول

(المادة التاسعة عشرة) يناط بعهدة اللجنة الاوروباويَّة المذكورة بالاتفاق مع الباب العالي ادارة الماليَّة في الولاية الى ان تنجز القوانين الجديدة المراد وضعها

(المادة العشرون) جميع المعاهدات والاتفاقات والمعاملات التي جرى تداولها بين الباب العالي والدول الاجنبيَّة او التي ستعقد فيما بعد يكون معمولاً بها في «ولاية الروم ايلي الشرقيَّة» كما هو جارٍ في سائر السلطنة العثمانيَّة وجميع الامتيازات والخصائص التي حازتها الاجانب على اختلاف وظيفتهم ومصلحتهم تبقى محترمة في الولاية المذكورة وقد تعهد الباب العالي بان جميع احكام السلطنة هناك فيما يخص المذاهب المختلفة يكون معمولاً بها ومرعيَّة الاجراء

(المادة الحادية والعشرون) تبقى حقوق الباب العالي وتعهداتهِ فيما يتعلق بسكك الحديد في الروم ايلي الشرقيَّة معمولاً بها ومرعيَّة الاجراء

(المادة الثانية والعشرون) تكون قوة الروسيَّة في البلغار وفي «ولاية الروم ايلي الشرقيَّة» مؤلفة من ست فرق من المشاة وفرقتين من الخيالة وجميع ذلك لا يزيد على

٥٠٠٠٠ نفر وتكون مصاريفهم على الولايات التي يتبوأونها وتبقى علاقتهم ومواصلتهم مع الروسيا بواسطة رومانيا بحسب الاتفاق الذي يحصل بين الحكومتين المذكورتين وفضلاً عن ذلك تكون بواسطة مراسي البحر الاسود مثل وارنه وبورغاس حتى يمكن لهم ان يتخذوا هناك مخازن للوازمهم مدة اقامتهم وتقرر ايضاً ان اقامة العساكر الامبراطوريَّة في «ولاية الروم ايلي الشرقيَّة» والبلغار تكون مدة تسعة اشهر اعتبارًا من يوم مبادلة التوقيع على هذه المعاهدة وقد تعهدت دولة الروسيَّة الامبراطوريَّة انهُ قبل انقضاء هذه المدة تمنع مرور عساكرها من رومانيا فتخلو منهم امارة البلغار

(المادة الثالثة والعشرون) قد تعهد الباب العالي بان يجري في جزيرة كريد النظامات ٱلَّتي تقررت فيها في سنة ١٨٦٨ والتعديلات ٱلَّتي يرى من العدل اجراؤها وكذلك يجري في بقية الولايات نظامات وقوانين على ما تقتضيهِ المصالح الداخليَّة كما في كريد مما لم ينص عليهِ في هذه المعاهدة نصًّا خصوصيًّا الَّا فيما يتعلق بالغاء الضرائب كما هو جارٍ الآن في كريد ويشكل من طرف الباب العالي لجنات مخصوصة يكون اكثر اعضائها من الاهالي للنظر في متعلقات النظامات اللازم اجراؤها في كل ولاية ثم تعرضها على الباب العالي للتروي فيها وقبل ان يعمل بها وتجعل دستورًا للعمل يلزم الباب العالي ان يستشير اللجنة الاوروباويَّة المنعقدة للنظر في احوال الروم ايلي الشرقيَّة

(المادة الرابعة والعشرون) اذا فرض انهُ لم يقع اتفاق بين الباب العالي ودولة اليونان فيما يتعلق بتعديل الحدود كما تقرر في المادة ١٣ من مضبطة موتمر برلين فدول جرمانيا واوستريا هنكاريا وفرنسا وبريطانيا العظمى وايطاليا والروسيَّة تحفظ لنفسها عرض التوسط بين الفريقين تسهيلاً للمذاكرات

(المادة الخامسة والعشرون) تتبوأ عساكر اوستريا وهنكاريا ولايتي بوسنه وهرسك ويناط بها ايضاً امر ادارتهما وحيث انها لا تريد ان تتولى ادارة سنجيقة يكي بازار الممتدة بين الصرب والجبل الاسود على الخط الجنوبي الشرقي ما وراء ميتروونسه فالادارة العثمانيَّة تبقى معمولاً بها هناك وحيث ان المراد اقرار الاحوال السياسية الجديدة وحرية المواصلات وتأمينها فدولة اوستريا وهنكاريا تحفظ لنفسها الحق بأن يكون لها قشل وطرق تجاريَّة وعسكريَّة في جميع الجهات المذكورة ولهذهِ الغاية تحفظ لنفسها هي والدولة العثمانية ان تتفقا على المواد المتعلقة بهذه المسألة .

(المادة السادسة والعشرون) قد اعترف الباب العالي استقلال الجبل الاسود

وكذلك اعترفتهُ بقيّة الدول الموقعين على هذه المعاهدة الذين لم يعترفوهُ سابقاً

(المادة السابعة والعشرون) اتفق الموقعون على هذه المعاهدة على ان استقلال الجبل الاسود يكون مربوطاً بالمواد الآتية وهي « لا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينيّة في الجبل فلا يخرج احدًا من الاهلية والجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنيّة والسياسيّة او بدخولهِ في الوظائف الميريّة او العموميّة او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرهُ فلجميع الاهالي التابعين للجبل الاسود وللاجانب ايضاً الحرية التامة في جميع المتعلقات المذهبيّة ولا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او في علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين »

(المادة الثامنة والعشرون) قد صار تعيين حدود الجبل الاسود كما سيأتي وهي انها تبتدئُ من « ايلينو برودو » وتسير الى شمال « قلوبوق» وتمر من فوق « تره بنيجه » وتصل بمحل « غرانقارو » وتبقى غرانقارو ضمن لواء هرسك ومنها يصعد الخط الفاصل الى جهة فوق من نهر غرانقارو ويصل الى محل يبعد عن النهر الذي يصب في « سيلقه» مقدار كيلو متر فقط ومن هنا يسير على اقصر طريق ويصعد الى التلال التي في جوار « تره بنيجه » ثم يذهب الى « بيلاتوه » ويترك هذه القرية للجبل يسير من التلال الى جهة الشمال وعلى قدر الامكان يمر بعيدًا عن طريق « بيلكه » و « قوريتو »و « غاجقه » مقدار ٦ كيلومتر ويصل الى الطريق الكائنة فيما بين « سوينا بلاينا » وجبل قوربله ومنها عن جهة الشرق يمتد الى جبل اورلين ويترك قرية « وارنقوبجي » لهرسك ثم يمتد من الشمال الشرقي ويدع « روانه » داخل الجبل ويمر من تلال « لبوسليك » و « ولجاق » ويسير من اقصر طريق وينزل الى نهر « بيوه » ويتجاوز هذا النهر ويصل الى « تاره » الكائنة بين « قرقويقه » وبين « وندوينه » ومن تارة يصعد الى « موجقواق » ويتصل بمحل « سقوج زرو » ومن هنا الى قرية « صوقولار » ويجتمع بالحدود القديمة ثم يمر الى تلال مقرا بلاينا وتبقى قرية مقرا داخل الجبل ويمر ايضاً من السلسلة الاصليّة الى الطريق المذكور في خريطة اركان حرب اوستريا تحت رقم ٢١٦٦ ومن فوق مقسم المياه الواقع بين « ليم » و « درين » وبين « سيونه زم » ثم يتصل بالحدود الجديدة بعد مروره فيما بين قبيلة « قاجي دره قالوبجي وبين قوسقار جنه » و «قلامنتي» و « غرودي » وبعد ذلك ينزل الى صحراء بودغوريجه ويترك قبائل قوسقارجنه وقلامنتي وغرودي وهوتي لبلاد الارناووط ويتصل « ببلاونيقه » ومن هنا يمر من جوار جزيرة « غوريقه طوبال»

ويتجاوز ماء اشقودره ويسير رأساً من « غوريقه » طوبول الى التلال ويمر من مقسم المياه الكائن فيما بين « مئورد » و « قاليمد » مع خط المقسم المذكور ويترك « ميرقويق » داخل الجبل وينتهي الى بحر ونديك (فينيسيا) عند قرية « فروجي » ثم يلتفت الى الشمال الغربي ويمر في الساحل من بين قرى « شوسانه » و « زويسي » ويتصل بمنتهى الحدود الجديدة في جهة الجنوب الشرقي فوق « ورسوته بلانينا »

(المادة التاسعة والعشرون) انضمام انتواري (باري) وشطوط البحر التي تخصها الى الجبل الاسود مشروط على الصورة الآتية وهي ان يعاد على الدولة العثمانية الاراضي الكائنة على جنوب تلك الجهة الى بويانا من ضمنها دولسنجو ويضم الى دلماتيا مرسى سبزا والاراضي المتعلقة بها الى غاية حدودها الجنوبية كما هي مبينة بالتفصيل في الخريطة ويكون للجبل الحرية المطلقة التامة للسفر في نهر بويانه ولكن لا يسوغ لهُ ان يبني على النهر حصوناً او استحكامات الاّ ما لزم للمحافظة على اشقودرة خاصة فتكون تلك الحصون والحالة هذه غير خارجة عن دائرة مسافتها حول المدينة المذكورة بستة كيلومتر (٦٠٠٠ متر او نحو عشرة اميال) ولا يكون لهُ بواخر حربية ولا راية ولا يسوغ لاي دولة كانت ان تدخل بواخرها الحربية الى مرسى انتواري اما الحصون الكائنة في ارض الجبل بين النهر وشط البحر فتهدم بالكلية ولا يسوغ اعادة بنائها ويفوض لعهدة اوستريا وهنكاريا ادارة البحرية والصحية في انتواري وفي شطوط الجبل وعلى الجبل ان يستعمل القوانين والاصطلاحات البحرية على موجب القوانين والاصطلاحات الجارية في دلماتيا (باوستريا) وقد تعهدت اوستريا وهنكاريا بان تحمي بواخر الجبل الاسود التجارية ويلزم للجبل ان يتفق مع اوستريا وهنكاريا على مد سكك الحديد وانشاء طرق عادية في الاراضي التي دخلت حديثاً في حوزته وعلى تأمين حرية المواصلة عليها

(المادة الثلاثون) المسلمون وغيرهم الذين يملكون عقارات في الاراضي التي انضمت الى الجبل الاسود ويريدون ان يستوطنوا خارجاً عن الامارة لهم حق بان يبقوا مالكين عقاراتهم بايجارها او تشغيلها بواسطة من يختارونهُ وتشكل لجنة مؤلفة من مأمورين من العثمانيين واهل الجبل الاسود لتسوية المسائل التي تتعلق بكيفية نقل الاملاك او حرثها او ادارتها سواء هي من املاك الوقف او الاملاك الميرية التي للباب العالي فتجري تسوية جميع متعلقات الذين لهم مصلحة فيها وهذه التسوية تكون في ظرف ثلاث سنين

(المادة الحادية والثلاثون) على امارة الجبل الاسود ان تتفق مع الباب العالي على

ما يتعلق بتعيين وكلاء من طرفها في الاستانة او في جهات اخرى من السلطنة العثمانية مما يرى لازماً اما اهل الجبل المقيمون في السلطنة العثمانية او المسافرون فيها فيكونون تحت احكام الدولة العثمانية على حسب الاصول المقررة بين الدول وعلى حسب العوائد المقررة مع الجبل

(المادة الثانية والثلاثون) يلزم ان عساكر الجبل الاسود تخلي الاراضي ألتي هم الآن مستولون عليها مما لم يدخل في حدود امارة الجبل الجديدة وذلك في ظرف عشرين يوماً اعتبارًا من يوم التوقيع على هذه المعاهدة او اقل من هذه المدة اذا امكن كذلك يلزم للعساكر السلطانية ان تخلي في المدة المذكورة الاراضي التي دخلت الان في حوزة الجبل

(المادة الثالثة والثلاثون) حيث انهُ يلزم الجبل الاسود ان يتحمل جانبًا من الديون العثمانية العمومية في مقابلة الاراضي الجديدة ألتي دخلت في حوزتهِ بموجب شروط الصلح تعين نواب الدول الاجنبيّة في الاستانة هذا المبلغ بالاتفاق مع الباب العالي على اصول عادلة

(المادة الرابعة والثلاثون) لما كان الموقعون على هذه المعاهدة معترفين استقلالية امارة الصرب ربطتها بالشروط المحررة في المادة الآتية

(المادة الخامسة والثلاثون) لا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينية في الصرب ضد احد حتى يخرجهُ من الاهلية والجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنيّة والسياسيّة او بدخولهِ في الوظائف الميريّة او العموميّة او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرهُ فلجميع الاهالي التابعين للصرب والاجانب ايضًا الحرية التامة في جميع المتعلقات المذهبيَّة ولا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او في علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين

المادة السادسة والثلاثون) امارة الصرب تكون مالكة للاراضي الموجودة في ضمن الحدود الآتي ذكرها وهي ان الخط الفاصل يمر على طول الخط الحالي ومن مصب نهر « درينا » في نهر صاوا ويذهب مع المجرى ويترك « ازرونيق وزخار » للامارة ولا يترك الخط المذكور اعني الحدود القديمة الى « قابونيق » ثم يفترق في ذروة جبل قابونيق عن الخط المذكور ويسير من جنوب الجبل على طول حدود نيش الشرقيّة ويمر من تلال « ماريقا ومارداز بلانينا » وهذه التلال هي الخط الفاصل بين انهر « ايباروسيتنيقا

وطوبليقا » وعلى هذا تبقى « بره بولاد » للدولة العليَّة وبعدهُ يسلك خط مقسم المياه الى جهة الجنوب من بين « برونيقا » ومدودجا ويترك وادي مدودجا كلهُ للصرب ويصعد الى تل « قولجاق بلانينا » ويكون هو الخط الفاصل فيما بين الانهر المسماة « بولجنيقا وترنيقا ومورروا » ويصل الى تل « بولجنيقا » ثم يذهب من تجاه «قاينابلانينا» الى مجمع انهر « قوانسقا ومورراوه » ويتجاوزهُ ويسير على الخط الفاصل فيما بين مياه النهر الذي يختلط بنهرموراوه في جوار « قوانسقا ونره دوس» ويتصل « بولانينا ايليجه» فوق « ترغوبست » ومن هنا اعني من ذروة جبل ايليجه يمتد الى ذروة جبل « قلتروق » ويمر من المحلات المدروجة في الخريطة تحت عدد ١٥١٦ و١٥٤٧ ومن « باينا غورا » وينتهي الى جبل « قرني وره » ثم يبتدئ من هذا الجبل ويجتمع بحدود البلغار يعني يمر من تلال « استره سرو وبلوغلو ومسيد بلانينا » ويسير على خط مقسم المياه الواقع فيما بين استروما و « موراوه » وينتهي الى المحلات المدعوة «غاسينا وقرنه تراوه ودارقوسقوه ودراينيقه بلان » وبعدها يمر من فوق « دشاني قلادنق » ومن اعلى مقسم مياه « صوقوه وموراوه » ويذهب رأساً الى « استول » ومن هنا ينزل الى قرية « سفوزه » من جهة شمالها الغربي ويقطع طريق « بيروت » بمسافة مقدار الف كيلومتر عن صوفية ويصعد على خط مستقيم الى « ويدليق بلانينا » ويمر من جبل « رادوچينا » الواقع في سلسلة البلقان الكبير ويترك قرية « دوقنجي » لامارة الصرب وقرية « سناقوس » الى البلغارستان ثم يسير من ذروة هذا الجبل الى جهة الشمال الغربي ويمر من بلقان «سيروق » ومن « استارا بلانينا » ويصعد الى تلال البلقان وفي جوار « قولا اسميلجوه قوقا » يتصل بحدود الصرب الشرقيَّة القديمة ويسير على هذه الحدود الى نهر الطونة وينتهي عند النهر في « رافويجه »

(المادة السابعة والثلاثون) لا يغير شيء في الصرب من الشروط الحاليَّة فيما يخص العلاقات التجاريَّة الكائنة بين الممالك الاجنبيَّة وبين امارة الصرب الى ان يجري بدلها اتفاقات جديدة ولا يسوغ ان يؤخذ على البضائع الَّتي تمر في الصرب مرسلة الى جهة أُخرى شيء من العوائد او الرسومات اما المزايا والامتيازات الشاملة الآن رعايا الدول الاجنبيَّة في الصرب وحقوق الاحكام وحماية القناصل لرعاياهم على الاصول المعمول بها الآن فتبقى مرعيَّة الاجراء الى ان يحصل اتفاق بين امارة الصرب والدول الاجنبية على تعديلها

(المادة الثامنة والثلاثون) المتعهدات التي تعهد بها الباب العالي مع دولة اوستريا وهنكاريا او مع شركة سكة الحديد في الروم ايلي او فيما يتعلق باتمام السكك الحديدية وتشغيلها في الاراضي التي دخلت في حوزة الصرب تبقى مرعية الاجراء عند امارة الصرب وعند التوقيع على هذه المعاهدة يجري اتفاق بين دولة اوستريا وهنكاريا والباب العالي والصرب وامارة البلغار على قدر ما يخصها لتسوية هذه المسائل

(المادة التاسعة والثلاثون) المسلمون الذين يملكون عقارات في الاراضي التي انضمت الى الصرب ويريدون ان يستوطنوا خارجاً عن الامارة لهم الحرية بأن يبقوا مالكين عقاراتهم بمؤاجرتها او تشغيلها بواسطة من يختارونهُ وستتشكل لجنة مؤلفة من مأمورين من العثمانيين والصربيين لاجل تسوية جميع المسائل التي تتعلق بكيفية نقل وادارة الاملاك المتعلقة بالوقف او الاملاك الميرية التي للباب العالي وكذلك تسوية جميع متعلقات الناس الذين لهم مصلحة فيها وهذه التسوية تكون في ظرف ثلاث سنين

(المادة الاربعون) تكون معاملة رعية الصرب القاطنين في السلطنة العثمانية او المسافرين فيها بحسب اصول الاحكام والقوانين المتداولة بين الدول الى ان تحصل معاهدة بين الدولة العثمانية والصرب

(المادة الحادية والاربعون) يلزم لعساكر الصرب اخلاء جميع الاماكن التي لم تدخل في حوزة امارتهم في ظرف خمسة عشر يوماً اعتباراً من يوم التوقيع على هذه المعاهدة كذلك يلزم للعساكر السلطانية ان تخلي في المدة المذكورة الاماكن التي دخلت في حوزة الامارة

(المادة الثانية والاربعون) حيث انهُ يتعين على الصرب حمل جانب من الديون العثمانية العمومية في مقابلة الاراضي الجديدة التي حازتها بموجب هذه المعاهدة فسفراء الدول الاجنبية في الاستانة يعينون مبلغ قيمة الاراضي المذكورة على صورة عادلة بالاتفاق مع الباب العالي

(المادة الثالثة والاربعون) لما كان الموقعون على هذه المعاهدة معترفين استقلالية رومانيا ربطتها بالشرطين الآتيين

(المادة الرابعة والاربعون) لا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينية في رومانيا ضد احد حتى يخرجهُ من الاهلية والجدارة لجميع ما يتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنية والسياسية بدخولهِ في الوظائف الميرية او العمومية او نواله الشرف او استعماله الصنائع والحرف

المختلفة كيفما كان مقرهُ فلجميع الاهالي التابعين لرومانيا والاجانب ايضاً الحريَّة التامة في جميع المتعلقات المذهبية ولا يسوغ اتخاذ مانع ما في ترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او في علاقتهم مع رؤسائهم الروحانيين فتكون معاملة رعايا جميع الدول سواء كانوا من التجار او غيرهم في رومانيا بدون تمييز في المذهب على قدم مساواة تامة

(المادة الخامسة والاربعون) امارة رومانيا تعيد على حضرة امبراطور الروسية اراضي بيسارابيا ٱلَّتي كانت انفصلت من الروسية بموجب معاهدة باريس ٱلَّتي امضيت في سنة ١٨٥٦ وحددوها في الجهات الغربية من مجرى نهر البروث وفي الجنوب من نهر «كيليا» وفم «ستاري استانبول»

(المادة السادسة والاربعون) يضم الى رومانيا الجزر الثلاثة ٱلَّتي على الطونة وجزر «يلان طاغ» وسنجقية ـلجه وهي تشمل قضاآت كيليا وسولينا ومحموديَّة وزانجه وطولجي وماجين وبابا طاغ وهرسوا وكوستنجه ومجيديَّة وما عدا ذلك يعطى لها ايضاً الاراضي الكائنة على جنوب الدبروجه الى ان تصل الى خط يبتدىء من شرق سيليستريا ويمتد الى البحر الاسود على جنوب منغاليه ويكون تعيين تخوم تلك الحدود في تلك المواقع بمعرفة اللجنة الاورباويَّة المنوط بعهدتها تعيين حدود البلغار

(المادة السابعة والاربعون) مسألة تقسيم المياه والصيادة تعرض على لجنة الطونة الاورباويَّة فتكون حكماً عليها

(المادة الثامنة والاربعون) لا يجوز وضع رسومات او عوائد في رومانيا على السلع ٱلَّتي ترد اليها بقصد ارسالها الى جهة اخرى

(المادة التاسعة والاربعون) يسوغ لرومانيا ان تعقد مع الدول الاجنبيَّة اتفاقاً لتسوية مسألة امتيازات ووظائف قناصلهم فيما يتعلق بحماية رعاياهم في الامارة الَّا ان الحقوق الحاليَّة تبقى مرعيَّة الاجراء ما دام لم يحصل اتفاق عمومي بين الامارة والدول

(المادة الخمسون) تبقى رعيَّة رومانيا القاطنون في الممالك العثمانيَّة او المسافرون فيها او رعايا العثمانيين المسافرون في رومانيا او القاطنون فيها متمتعين بالحقوق ٱلَّتي تشمل رعايا بقية الدول الاورباوية الى ان تعقد معاهدة لتسوية امتيازات القناصل ووظائفهم بين الدولة العثمانية ورومانيا

(المادة الحادية والخمسون) تعهدات الباب العالي ووظائفه فيما يتعلق باتمام الاشغال النافعة وما اشبهها في الاراضي ٱلَّتي دخلت في حوزة رومانيا تعود الى عهدة رومانيا

(المادة الثانية والخمسون) لاجل زيادة تأمين حريّة السفر في نهر الطونه ٱلَّتي اعترف انها من المصالح الاوربلوية قرّ رأي الموقعين على هذه المعاهدة بان جميع الحصون والاستحكامات الموجودة الآن على النهر من عند المحل الذي يقال له « ابواب الحديد » الى فم النهر تهدم بالكلية فلا يسوغ بعد هذا بناء غيرها ولا يجوز سفر احدى البواخر الحربية على الطونة منحدر « ابواب الحديد » الاّ البواخر الصغيرة المعينة لخدمة الضبطية في النهر وخدمة الكمارك ولكن يسوغ لبواخر الدول الموجودة في فم نهر الطونة لاجل الحراسة ان تسافر في النهر الى غاية « غلاتس »

(المادة الثالثة والخمسون) تبقى لجنة الطونة الاوربلويّة مقررة في وظائفها ولرومانيا فيها نائب وتجري اعمال وظائفها الى «غلاتس» بحريّة تامة مستقلة عن مداخلة مأموري تلك الاراضي وتبقى ايضاً سائر معاهداتها واتفاقاتها واشغالها واعمالها وقراراتها فيما يتعلق بامتيازاتها وخصائصها ووظائفها ثابتة الاجراء

(المادة الرابعة والخمسون) قبل نهاية الاجل المقرر لبقاء لجنة الطونة الاورباويّة بسنة واحدة يلزم للدول ان يتفقوا على تطويل سلطتهم او على التعديلات ٱلَّتي يرون اجراءها من اللازم

(المادة الخامسة والخمسون) جميع النظامات المتعلقة بالسفر في النهر وبوظائف الضبطية فيهِ من « ابواب الحديد » الى « غلاتس » يكون ترتيبها وتنسيقها من طرف اللجنة الاورباويّة بمساعدة نواب من طرف الممالك الكائنة بسواحل النهر ويصير تأليفها بالنظامات الموجودة او ٱلَّتي ستحدث في امور النهر اسفل من غلاتس

(المادة السادسة والخمسون) يلزم للجنة الطونة الاورباويّة ان تتفق مع الدول فيما يتعلق بتنوير الفنارات الكائنة على جزر « يلان طاغ »

(المادة السابعة والخمسون) قد فوض لاوستريا وهنكاريا الاشغال اللازم اجراؤها لازالة موانع السفر التي تحدث من « ابواب الحديد » والشلالات ويلزم على الممالك المجاورة النهر من الجهة المذكورة ان تجري جميع التسهيلات اللازمة لمصلحة تلك الاشغال اما المواد المقررة في المادة الرابعة من معاهدة لندرا ٱلَّتي امضيت في ١٣ مارس سنة ١٨٧١ فيما يتعلق باخذ ضرائب موقتة لسد مصاريف تلك الاعمال والاشغال فتبقى منوطة بدولة اوستريا وهنكاريا

(المادة الثامنة والخمسون) الباب العالي يسلم الى امبراطوريّة الروسية في اسيا

(الاناطول) اراضي اردهان وقارص وباطوم مع مرسى باطوم وجميع الاراضي الكائنة بين تخوم الروسية والتركية القديمة والتخوم الآتي بيانها وهي « الحدود الجديدة » تبتدئ من البحر الاسود على حسب الخط المقرر في معاهدة اياستفانوس الى نقطة في الجهة الشمالية الغربية من « خورده » وعلى جنوب « ارتوين » وتمتد على خط مستقيم الى نهر « جوروك » وبعد عبوره هذا النهر يسير شرقي « اشمشين » ويستمر على خط مستقيم في الجنوب وهناك يلاقي حدود الروسية المشروحة في المعاهدة المذكورة وذلك في نقطة على جنوب «ناريمان» مع بقاء مدينة « اولتي » في حوزة الروسية ثم يبتدئ الخط بالقرب من « ناريمان » الى الجهة الشرقية ويكون مروره من « تربنيق » وبعد دخول مدينة تربنيق في حوزة الروس يسير الى « بنك شاي » مجارياً نهره الى ان يصل الى « باردوز » وبعد دخول مدينة باردوز ويكي كوى في عهدة الروسية يؤخذ نقطة من غرب قرية « قره اوغان » تجعل الحدود عليها على خط الى ان يصل الى « مجنجرت » ومنها على خط مستقيم الى ان يصل الى تلال « قباداغ » فيستمر على خط مصب نهر « الاركس » في الشمال ومصب نهر « مرادصوى » في الجنوب الى ان يصل الى حدود الروسيا القديمة

(المادة التاسعة والخمسون) امبراطور الروسية يصرح هنا بان غاية مقصده ان يجعل باطوم مرسىً حرًّا (معنى حر ان تكون البضائع معفاة من جميع رسومات الدخول او الخروج)

(المادة الستون) تعيد الروسية على تركية اودية الشغراد ومدينة « بايزيد » ٱلَّتِي سلمت للروسية بموجب المادة ١٩ من معاهدة اياسطفانوس وقد سلم الباب العالي الى مملكة ايران مدينة « قطور » واراضيها كما قرَّ عليهِ رأي اللجنة الانكليزيَّة والروسيَّة ٱلَّتِي نيط بعهدتها تعيين تخوم تركية وايران

(المادة الحادية والستون) الباب العالي يتعهد بان يجري بدون تأخير في الولايات ٱلَّتِي سكانها من الارمن سائر الاصلاحات والتحسينات ٱلَّتِي تحتاج اليها امورها الداخليَّة وان يتعهد بتأمينهم من تعدي الجراكسة والاكراد عليهم ويفيد الدول الاجنبية المرة بعد المرة التشبثات ٱلَّتِي اتخذها لهذه الغاية وهي تراقب كيفية اجرائها

(المادة الثانية والستون) حيث ان الباب العالي اظهر رغبتهُ في ابقاء اصول حرية الديانة وتوسيع مداها توسيعاً مطلقاً فان الموقعين على هذه المعاهدة ينزلون هذه الرغبة منزلة الفعل فلا يسوغ التمييز في الاعتقادات الدينية في جميع اطراف السلطنة العثمانية

حتى يخرج احدًا عن الاهليَّة والجدارة بجميع مايتعلق بتمتعهِ بالحقوق المدنيَّة والسياسيَّة او بدخولهِ في الوظائف الميريَّة او العموميَّة او نوالهِ الشرف او استعمالهِ الصنائع والحرف المختلفة كيفما كان مقرهُ ويؤذن لجميع الناس بان يؤدوا الشهادة في جميع المحاكم بدون تمييز احد في الدين واستعمال سائر الامور الدينيَّة يكون بحريَّة فلا يكون مانع ما لترتيب درجات ارباب المذاهب المختلفة او لعلاقتهم مع رؤسائهم ويكون الاكليروس (اصحاب الرتب الكنائسيَّة) والزوار والرهبان من جميع الامم الذين يسافرون في المالك العثمانيَّة في الروم ايلي والاناطول حائزين حقوقًا واحدة وامتيازات وخصائص واحدة ونوض الى القناصل ونواب الدول الاجنبيَّة في تلك المالك حق في حماية اولئك المذكورين وحماية محلاتهم الدينيَّة والخيريَّة حماية رسميَّة في الاماكن المقدسة او غيرها اما الحقوق المسلمة لفرنسا فلم تزل مرعية الاجراء وصار من المعلوم المقرر هنا انهُ لا يسوغ تبديل حال من الاحوال الحاضرة في الاماكن المقدسة اما زوار جبل اثوس من اي جنس كانوا فيبقون حافظين لاملاكهم وامتيازاتهم ومنحهم السابقة ويبقون متمتعين بمساواة تامة في الحقوق والمزايا

(المادة الثالثة والستون) تبقى معاهدة باريس ألَّتي امضيت في ٣٠ مارس ١٨٥٦ ومعاهدة لندرة ألَّتي امضيت في ١٣ مارس ١٨٧١ مرعية الاجراء وذلك فيما يتعلق بالمواد ألَّتي لم تنسخها ولم تعد لها هذه المعاهدة

(المادة الرابعة والستون) يقع التصديق على هذه المعاهدة بعد ثلاثة اسابيع او اقل ان امكن وللشهادة بذلك اثبت الموقعون اسماءهم على هذه المعاهدة بعد ان وضعوا عليها اختامهم

تحريرًا في برلين في اليوم الثالث عشر من شهر يوليه (تموز) سنة ١٨٧٨

الامضـــــــاء

فون بسمارك	صالسبري	هايمول	شوفالوف
فون بولوى	اود روسل	وادنطون	دوبريل
هوهنلوه	كورتي	صان فاليه	قره تيودوري
الدراسي	لاوني	دبيريس	محمَّد علي
كارولي	غورجيقوف	بكنسفيلد	سعد الله

وعند الاخذ في العمل بمقتضى هذه المعاهدة طلبت الروسيا عقد معاهدة نهائية لتصحيح ما سلم من معاهدة صان استيفانوس لتخرج عساكرها من الاراضي العثمانية فاستقر الامر على معاهدة تعريبها

(المادة ١) يقع بعد هذا صلح ووداد بين السلطنتين

(المادة ٢) قد وقع الاتفاق بين الدولتين على ان تصرحا بان المواد ٱلَّتِي تضمنتها معاهدة برلين ٱلَّتِي صار اجراؤها بموجب توسط الدول السبع جرى العمل بها عوضاً عن شروط صلح معاهدة اياسطفانوس ٱلَّتِي صار تعديلها او تبديلها في مؤتمر برلين

(المادة ٣) جميع مواد معاهدة اياسطفانوس ٱلَّتِي لم يحصل تبديلها او تعديلها او الغاؤها في معاهدة برلين جرت تسويتها في المواد الآتية من هذه المعاهدة تسوية قطعيةً

(المادة ٤) بعد اسقاط قيمة الاراضي التي سلمتها تركية الى الروسية بموجب معاهدة برلين يبقى مبلغ الغرامة الحربيةّ المتعين على الباب العالي اداؤهُ ٨٠٢٫٥٠٠٫٠٠٠ فرنك وكيفيةُ اعطاء هذا المبلغ والضمان عليهِ تكون بالاتفاق بين دولة الحضرة العليةّ السلطانيةّ ودولة قيصر الروسية ما عدا ما صرح بهِ في الضبطة الحادية عشرة من معاهدة برلين فيما يتعلق بالغرامة الارضيةّ والحقوق الاولوية المختصة بالدين لهم مطالب على الدولة العليةّ

(المادة ٥) مطالب رعيةّ الروسيةّ القاطنين في تركية بصفة تعويض عن الضرر الذي حصل لهم في مدة الحرب الاخيرة تعطى عند رؤيتها وتسويتها بمعرفة سفارة الروسية بالاستانة واطلاع الباب العالي عليها وعلى كل حال لا يمكن ان تزيد على ٢٦٫٧٥٠٫٠٠٠ فرنك ويلزم تقديمها الى الباب العالي في ظرف سنة واحدة اعتبارًا من يوم مبادلة هذه المعاهدة المصدق عليها وبعد مضي سنتين لا يقبل الباب العالي شيئًا منها

(المادة ٦) يعين من طرف الباب العالي ومن طرف دولة الروسية مأمورات مخصوصان لتسديد حساب تموين العساكر العثمانيةّ الذين كانوا اسرى في الحرب الاخيرة وهذه المصاريف تعين الى يوم التوقيع على معاهدة برلين ويسقط منها المبلغ الذي صرفتهُ الدولة العثمانية على مؤونة الروس الذين كانوا اسرى عندها وبعد تسوية هذا الحساب يدفع الباب العالي المبلغ الى الروسية في احد وعشرين قسطاً متساوية يكون دفع آخر قسط منها في ظرف سبع سنين

(المادة ٧) سكان الاماكن التي الحقت بالروسية الذين يريدون الاقامة في غيرها يسوغ لهم الخروج منها بحرية تامة كما انهُ يسوغ لهم ايضاً بيع املاكهم وعقاراتهم « الغير المنقولة » ولاجل هذه الغاية تعطى لهم مهلة ثلاث سنين اعتبارًا من يوم التصديق على هذه المعاهدة فاذا انقضت هذه المدة ولم يخرجوا من الاماكن ولم يبيعوا عقاراتهم يصيرون رعية للروسية

(المادة ٨) قد تعهد الموقعون على هذه المعاهدة بان لا يعاقبوا او يسببوا معاقبة رعيَّة الدولتين الذين كان لهم علاقة او مشاركة مع عساكرها في الحرب الاخيرة واذا اراد احد من العثمانيين ان يتبع عساكر الروس عند خروجهم من ارض الدولة العلية فلا يسوغ لمأموري هذه الدولة ان يمنعوهم

(المادة ٩) منحت رعيَّة الدولة العثمانية الذين اشتركوا في الانقلاب الاخير الذي وقع في ولاياتها بالروم ايلي الامان والعفو التام بحيث ان كل من حبس منهم لهذا السبب او نفي او ابعد من بلادهِ يعفى عنهُ ويخول الحريَّة التامة

(المادة ١٠) جميع المعاهدات والاتفاقات والتعهدات التي كانت حاصلة بين الموقعين على هذه المعاهدة فيما يتعلق بالاحكام وحال رعيَّة الروسية القاطنين في تركية ثم الغيت بسبب الحرب الاخيرة تصير معمولاً بها كما كانت سابقاً فتبقى علاقة كل من الدولتين من جهة تعهداتها وعلاقتها التجاريَّة وغيرها على الحالة الَّتي كانت عليها قبل الاعلان بالحرب ما عدا ما صرح بهِ في هذه المعاهدة او في معاهدة برلين

(المادة ١١) يتشبث الباب العالي بالوسائط الفعالة لتسوية جميع الدعاوي والمنازعات المختصة برعية الروسية الموقوفة منذ بعض سنين ويعطى لهم تعويض اذا اقتضتها الحال مع المبادرة الى انهاء جميع الدعاوي التي صدر بها لهم اعلامات وقرار من المجالس

(المادة ١٢) بعد التصديق على هذه المعاهدة يقع تبادلها في سان بطرسبرج في ظرف اسبوعين او اقل اذا امكن

تحريرًا بالاستانة العلية في ٨ شباط (فبراير) ١٨٧٩

فتلخص مما تقدم ان سائر الممالك العثمانيَّة هي آمنة للوارد عليها واحكام الدولة المعلنة بها لكل من حوتهُ ممالكها شرعيَّة سياسيَّة منظمة ولها مجلس شورى ومجلس اعيان

ومجلس مبعوثان (نواب) وان اعترض الآن من القلاقل الخارجيّة ما اوجب تأخير اجتماع المجلسين الاخيرين لاتمام اجراء الاصلاحات حقيقة واما تعيين قواها البريّة والبحريّة والدخل والخرج فقد تقدم ذكرهُ مع بقيّة الدول

﴿ الى هنا وقف بالمؤلف رحمهُ الله القلم * وبذلك اختتم هذا الكتاب وتم ﴾

تقاريظ

كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

مكتوب

وارد من فخر العلماء والاشراف السيد علوي السقاف شيخ السادة بمكة المكرمة سابقًا حرسها الله

الحمد لله تعالى

حضرة العالم العلامة والحبر الفهامة الملاذ الافخم والماجد الهمام الاكرم مولانا الشيخ محمّد بيرم ادام الله النفع بهِ امين

بعد اداء تحيات عاطرة . واشواق متكاثرة . هو اني بعد ان تشرف ناظري بالمرور على جملة صالحة من تحريراتكم البديعة العالية المنار . وجدتها جديرة بما سميت بهِ من صفوة الاعتبار . بمستودع الاقطار والامصار . اضاء بسياحتي فيها ناظري . وتنزه من الغموم بجولاني بها خاطري . كيف وهي خريدة غراء عربيّة الاّ انها غريبة في بلاد الروم . وعروس تجلت في منصتها الاّ انها لا يكافئها كل خاطب لها يروم . اشرقت فيها كواكب التدقيق . واضاءت في آفاقها شموس التحقيق . ابدعتم معانيها واحسنتم . واحكمتم مبانيها واتقنتم . فشكر الله تعالى لكم حسن هذا الصنيع . واسالهُ تعالى دوام النفع بكم لكل وضيع ورفيع . وها هي بيد الخادم عائدة اليكم . بمعية عريضتنا هذه النائبة عنا في لثم اياديكم . ودمتم . في عز كما رمتم

في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣٠٠ — مستمد دعواتكم الصالحة

علوي بن احمد السقاف

ترجمة مكتوب

وارد عن لسان صاحب الحشمة ملك السويد والنورويج اوسكار الثاني من مدينة او بسالا بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٨٨٩

حضرة السيد

بأمر من جلالة الملك انشرف بأن اخبركم بورود تأليفكم الموسوم بصفوة الاعتبار الذي تفضلتم بتقديمهِ الى مقامهِ السامي بصفة كونهِ حامياً ورئيس شرف للمؤتمر الثامن الدولي للمستشرقين وقد كلفني جلالتهُ بان ابلغ سيادتكم جزيل شكره على هذه الهديَّة النفيسة وتفضل يا حضرة السيد بقبول فائق اجلالي واحترامي رئيس الكتَّاب

دوسيلسنغ

وإسم الكتاب مذكور في الصحيفة ٦٢ من فهرسة الكتب التي قدمت الى جلالة الملك المشار اليهِ بتلك المناسبة

ترجمة مكتوب وارد باللغة التركيَّة

من اكبر كتاب عصرهِ الوزير المرحوم سعدالله باشا سفير الدولة العلية في ويانه سابقاً من مدينة ويانه بتاريخ ٤ مايس ١٨٨٨

فضيلتلو افندم حضرتلري

وصلت ليد الاعزاز نميقتكم الكريمة واني لفي غاية الابتهاج ممَّا تفضلتم باظهارهِ في حق هذا العاجز من آثار توجهاتكم الوداديَّة وارجوكم قبول عذري لتأخري عن المبادرة بالاجابة. هذا واني ابتاهي بوقوفي بالخبر على ما كنت اسمعهُ بالخبر عن فضائل ذاتكم العالية وكمالاتكم المشهورة وانكم تحرير صاحب قلم اوقفتموهُ لخدمة الملة والمدنيَّة الاسلاميَّة واقبالها وترقيها وقد حفظت ذكرى ملاقاتنا التي تشرفت بها عند ما حضرتم الى اوربا لتبديل الهواء واهنيكم على توفيقكم لتحرير رحلتكم المسماة بصفوة الاعتبار المشحونة بالفوائد العميمة التي اتحفتموني بنسخة منها لطفاً منكم وتكرُّماً « فخير الناس من ينفع الناس » واني ارجو ان لا تنسوني من دوام توجهاتكم والامر لسيدي في كل حال سعد الله

ترجمة
المرحوم السيد محمد بيرم الخامس

هو السيد مُحَمَّد بن مصطفى بن مُحَمَّد الثالث بن محمَّد الثاني بن محُمَّد الاول بن حسين بن احمد بن محُمَّد بن حسين بن بيرام حضر الى تونس قائدًا على احدى فرق الجيش العثماني عند فتحها مِن يد الاسبانيول على يد الصدر الاعظم سنان باشا سنة ٩٨١ هجريَّة وقد تزوج بيرام بنتًا من آل ابي عبد الله بن الابار القضاعي صاحب كتاب التكملة وإعتاب الكتاب وهو الذي ارسلهُ صاحب بلنسية زيان بن ابي الحملات الى صاحب افريقيَّة (تونس) ابي زكريا يحيى بن ابي حفص يستغيث بهِ لما حاصرهُ ملك برشلونة الاسبانيولي فانشدهُ قصيدتهُ المشهورة الّتي اولها

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا ان السبيل الى منجاتها درسا

وقد قدر الله ان الاسطول الذي ارسلهُ صاحب تونس لم يصل في الوقت المناسب لانجاد الاندلسيين فرجع ابن الابار لتونس حيث استوطن بها سنة ٦٣٥ وقد امهرها بيرام اربعة آلاف ريال هذا هو المنشأُ الاصلي لهذه العائلة

وقد ولد السيد مُحَمَّد بيرم بمدينة تونس في المحرم سنة ١٢٥٦ هجريًّ الموافق لمارس سنة ١٨٤٠ ميلاديَّة وامهُ بنت الفريق محمود خوجه وزير البحريَّة بالايالة التونسيَّة وامها بنت الغماد ذي الشرف المعروف ويتصل نسب آل بيرم

بالسادة الاشراف من جهات اخرى ايضاً اهمها جهة محمد بيرم الاول فان والدتهُ بنت السيدة الشريفة حسينة بنت محمّد بن ابي القاسم بن محمّد بن علي بن حسن الهندي الشريف وهذا السيد قدم الى تونس واجمعت عامتها وخاصتها على الاعتقاد بنسبه الطاهر والتبرك بهِ ونسلهُ فيها بركة اهل تونس الى الآن اما نسبهُ فيتصل الى الحسين السبط عليهِ السلام وقد تولى محمّد بيرم الثاني نقابة الاشراف في حياة ابيهِ مضافة الى خطة القضاء التي كانت بيده سنة ١٢٠٦ واستمرت النقابة في يد ولدهِ محمّد بيرم الثالث وحفيدهِ محمّد بيرم الرابع الى حين وفاتهِ سنة ١٢٧٨ كما ان رئاسة المفتيين الحنفيّة المعبر عنها في تونس بمشيخة الاسلام استمرت في يدهم ويد ابيهم محمّد بيرم الاول من ذي القعدة سنة ١١٨٦ الى ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٧٨ اي احدى وتسعون سنة وستة اشهر ولم تنقطع الاّ مدة قليلة بين وفاة بيرم الاول وولاية بيرم الثاني . وكان جميع آل بيرم منخرطين في سلك العلماء مفتخرين بخدمة العلم الاّ القليل منهم فقد دخلوا في الخدمة العسكريّة فاجتمع لهذه العائلة خدمة الدين من الطريقين طريق العلم وطريق الجهاد حتى ان احمد بيرم توفي بجراحة اصابتهُ في محاربة الجزايريين لمراد باي امير تونس اذ ذاك سنة ١١١٢ وكأن هذه الخدمة السياسيّة اثرت في صاحب الترجمة مع قرابتهِ لوزير البحريّة حينئذٍ فصار لهُ ميل كلي للتداخل في الامور الملكيّة ومعرفة احوال الحكومة وقد كان جدهُ محمود خوجه رام ادخالهُ في الخدمة العسكريّة لولا ممانعة عمه شيخ الاسلام بيرم الرابع فدخل صاحب الترجمة الى جامع الزيتونة وقرأ على مشائخ الوقت المعدودين ولم يمنعهُ ذلك عن اشتغال فكرهِ بما يهواه من

امور الادارة مع تباعد اهل العلم عادة عن كل ما هو خارج عن دائرة دروسهم وقد جرت عادة الكثير من العلماء والادباء بتونس ان يكون لكل واحد منهم سفر شبيه بالسفينة يسمونهُ "كناشا" يجمعون فيهِ ما يحلو لديهم جمعهُ من انشاآتهم او انشاآت غيرهم علمية وادبية نظماً ونثرًا متضمنة الفوائد المختلفة في فنون ومعانٍ شتى وقد خطى صاحب الترجمة على خطاهم وعمرهُ سبعة عشر سنة واول ما افتتح بهِ كتابهُ ما تجمع لديهِ من اوامر وقوانين واقامات في شؤون الحكومة اصدرها اذ ذاك صهرهُ الامير محمد باشا وهذا يدل دلالة واضحة لا شبهة فيها على ميل صاحب الترجمة وتعلقهِ باحوال السياسة وقد كان في حال صباهُ يرى العربان يفدون على والدهِ وهو مشغول بالزراعة يتضجرون ويتوجعون مما يصيبهم من ظلم الحكام وتشديدهم في نهب الاموال بسائر الطرق التي اخترعوها في ذلك الوقت مما هو مبسوط في الكلام عن سياسة تونس الداخلية في صفوة الاعتبار فاثر فيهِ تحيبهم وبكاؤهم فاوقف حياتهُ من ذلك العهد على الانتصار للرعايا وتخفيف الاستبداد عليهم والسعي وراء نشر القوانين وتأسيس المجالس النيابية والميل بكل جوارحهِ للحرية مع ما جرت بهِ العادة من تباعد ذوي البيوتات عن مثل ذلك حتى لقد بلغ به الولع بالحرية وحب المجالس الشوروية ان تخالف رأيًا يومًا وهو صغير السن لا يتجاوز من العمر عشرين سنة مع ابيهِ وابن عمهِ عندما افتتح الامير الصادق باشا المجلس الاكبر واسس قوانين عهد الامان (كونستيتسيون) فكان صاحب الترجمة ينتصر لهذه المستحدثات ويترسم فيها خيرًا للبلاد وذانك يخالفانهِ مع ان احدهما كان من جملة اعضاء المجلس لما غرس في اذهان اصحاب

البيوتات من التنحي عن مثل هذه المستحدثات التي لا تروق في اعين حكامهم وبعد وفاة عمهِ الشيخ بيرم الرابع ولاهُ الامير مشيخة المدرسة العنقيّة في ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٧٨ فباشر التدريس فيها ومن عادة علماء تونس من مشايخ المدارس ان يقرأوا فيها صحيح البخاري خصوصاً في الاشهر الثلاثة المكرمة واختبارًا من ١٥ رمضان يبتدئ كل واحد منهم بحسب الدور بختم ما قرأهُ وذلك بان يتلو الحديث الشريف الذي وقف عليه ويكتب عنهُ ما يعن لهُ من الشروح والتعليقات ويكون لذلك مجلس حافل يستمر من العصر الى قريب الغروب وتتوالى الاحتفالات المذكورة الى الليلة السابعة والعشرين من رمضان حيث يكون ختم جامع الزيتونة ودور المدرسة العنقيّة في اليوم الخامس والعشرين منهُ وقد حضر الامير بنفسهِ ذلك الختم في تلك السنة تشجيعاً للشيخ الجديد وكان حديث الختم قوله عليهِ الصلاة والسلام " ان امتي يدعون يوم القيامة غرًّا محجلين فمن استطاع منكم ان يطيل غرتهُ فليفعل " وفي ٩ جمادى الثانية سنة ١٢٧٨ صار مدرساً في جامع الزيتونة من الطبقة الثانية وفي ١٥ رجب سنة ١٢٨٤ رقي مدرساً من الطبقة الاولى فاستمر مباشرًا للتدريس مشغولاً بادارة املاكهِ وعقاراتهِ واموره الخصوصية وتوفي والده الى رحمة ربهِ في ١٤ جمادى الاولى سنة ١٢٨٠ وترك لهُ ثروة عظيمة وفي تلك الاثناء ظهرت الفتنة العموميّة في الايالة التونسية متسببة عما كان يتوقعهُ ويخشاهُ من عاقبة ظلم الرعيّة واستبداد الحكام وقبيل ذلك اقفلت المجالس الشورويّة التي كان صاحب الترجمة يتولع بها ويهواها ولا يتوسم لخير المملكة سواها وكأن ذلك اثر عليهِ تأثيرًا شديدًا حتى انهُ كاتب احد

اصدقائهِ من امراء المسلمين المقيمين باوربا بما نص محل الحاجة منهُ" فيا لها مِنْ حال . يرثي لها من رام النزال . وتخر لشدّتها شامخات الجبال . الى ان قال فقد فاز من نهض بنفسهِ . واستراح من فتنة باطنهِ وحسهِ . اذ الآيات وردت على ذلك ناصة. فقال تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة. ففاز المخففون . وابتلى المتأهلون . ووالله العظيم ونبيهِ الكريم . طالما نهضت عزائمي الى الترحال . فاثقلتني قيود العيال . مع ما انا عليهِ من الوحدة عن اخ شقيق . اوقريب يخلفني فيهم عند الضيق . ولم استطع التخلص بكلي . الا لا يخفى مما يثقل كلي . واقسم بالقرآن . وصفات الرحمن . انني عرضت للبيع املاكي . لاتخلص بها من اشراكي . واستعين منها بالاثمان . فلم اجد من يصرف لهذا الوجه اي عنان . ولو من اعيان الاعيان . الخ" (والمكتوب كلهُ منشور في الصحيفة ٣٦ من الجزء الثاني من صفوة الاعتبار) ومن ذلك الحين اشتد اتصالهُ بالوزير خير الدين باشا اذ كان هو رئيس المجلس الاكبر الذي الغي وكانت مناسبة الوصلة بينهما حبهما للحرية وتعميم الشورى في المملكة وهما كما لا يخفى القوّتان الوحيدتان لحفظ استقلال البلاد من التلاشي ولذلك فانهُ لما تولى خير الدين باشا الوزارة الكبرى في تونس في رمضان سنة ١٢٩٠ كان صاحب الترجمة من اكبر انصارهِ ومحازبيهِ وتظاهر بذلك تظاهرًا كليًا حتى نشر في الرائد التونسي الذي هو جريدة الحكومة الرسمية مكتوبين اظهر فيهما انبساط الاهالي من تغيير الوزارة وبين غلط المنتصرين للحاكم السابق وانهم فئة قليلة لا تحب خير البلاد وكان بذلك اول تونسي جاهر بآرائهِ السياسية في الجرائد تحت امضائهِ على ما اظن وزاد

على هذا التظاهر الادبي بان سعى في اعمال تظاهر مادّي وذلك بان اتفق مع علماء جامع الزيتونة على اقامة احتفالات في الجامع شكراً لله على انقاذ البلاد من عهد الجور وادخالها في عصر الاطمئنان والرجوع لعهد الامان وحصل بالفعل ذلك الاحتفال واعقبهُ كثير مثلهُ في جهات الحاضرة وبقيّة بلدان المملكة فكانت نهضة حقيقيّة وطنيّة صادرة عن اخلاص نيّة حبّاً في الحريّة واستقامة الاحكام ولما استقرّ الوزير المشار اليهِ في المنصب ووجه عزيمتهُ لاصلاح الادارة رأى ان الاوقاف مشتتة قد استولت عليها ايدي الخراب والاطماع فرأى ان جمعها في ادارة واحدة يكفل حفظها ويجمع ريعها فيصرف في اوجههِ المشروعة وذلك على النحو الجاري في دار الخلافة السعيدة وقد رأى الوزير ان يعهد الى صاحب الترجمة امر هذه الادارة الجديدة لما يعهده فيهِ من معرفتهِ بالاحكام الشرعيّة واطلاعهِ على المقتضيات الوقتيّة فامتنع المرحوم اولاً من قبول اي وظيفة كانت لانهُ لم يكن يميل الى التقيد بشيء مّا يمنعهُ عن السعي وراء ضالتهِ المنشودة وهي الحريّة للرعيّة ودخولهُ في الوظائف يجعلهُ بلا ريب مقيداً مع الوزير بالآداب الّتي تقتضيها الوظيفة اما بقاؤه خارجاً عن دائرة الحكومة فيبقيهِ على حريتهِ الّتي تمكّنهُ من تذكير الوزير بما عساه ينساه من تتميمهِ لما كان تعهد باجرائهِ هذا فضلاً عما كانت عليهِ سجيّة صاحب الترجمة من الهمة واباءة النفس حتى كأن جدّهُ حسين بيرم المتوفي سنة ١١٥٥ قد نظر اليهِ بظاهر الغيب لمّا ذيل البيتين الشهيرين

شيآن لو بكت الدماء عليهما عيناي حتّى تؤذنا بذهاب

لم يبلغا المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الاحباب

بقوله

واشدّ من هذين ان يلقى الفتى ذل السؤال ووقفة الابواب

ومع ذلك فقد تغلب اصحابهُ عليهِ وقبل ادارة الاوقاف في ١٧ صفر سنة ١٢٩١ ولم ينفرد مع ذلك بامرها بل شارك معهُ مجلساً مؤلفاً من ثلاثة اعضاء احدهم من رجال الادارة والاثنان الآخران من اعيان الاهالي والتجار وجعل نظارهم في الاوقاف على قسمين الاول الاوقاف الاهلية اي الّتي هي موقوفة على ذرية الواقف او قرابتهِ والثاني الاوقاف الّتي على اعمال البر مثل الجوامع وقراءة القرآن وغير ذلك فاما نظارهم في الاول فهو مجرد نظر ارشاد واما القسم الثاني فنظارهم عليهِ نظر تصرف مطلق والمباشر للاعمال هو الرئيس بعد اخذ رأي الاعضاء عنها وقد جمع الاوقاف كل نوع منها لجهة واحدة بان ضم مثلاً جوامع الخطب كلها لجهة والمدارس كلها لجهة واوقاف القرآن لجهة وهكذا الى آخر انواع الموقوف عليهِ وجعل لكل قسم وكيلاً خاصاً يباشر العمل في ذلك تحت النظر الاصلي فيقبض الوكيل ويصرف في اقامة الشعائر وفي اصلاح الموقوف والموقوف عليهِ ولكنهُ لا يعمل شيئاً الاَّ بعد الاستئذان من رئيس المجلس وجميع حساباتهِ ترسم في دفترين مخصوصين بشهادة عدلين احد الدفترين للحسابات اليوميّة والثاني للحسابات العموميّة وانما جمع كل نوع من الاوقاف تحت نظر وكيل واحد لان الموقوف عليهِ مختلف الريع بعضهُ غني وبعضهُ فقير فاذا كانت ادارتها جميعاً متحدة فيصرف من دخل الغني على الفقير لانهما من نوع واحد وبذلك تيسرت سهولة الاصلاح ثم انهُ في آخر كل اسبوع يقدّم الوكلاء حساباتهم ويوردون

للخزينة العموميّة كل ما زاد عندهم من الايراد على المصروفات الضرورية وهذه الخزينة لها ثلاثة مفاتيح اثنان منها يبقيان بطرف امين المال والثالث يحفظ عند الرئيس ولا تفتح الاّ بحضور الجميع ثم ان جميع اماكن الاوقاف لا يحصل تأجيرها الاّ بعد الاعلان والمزايدة علناً بحضر القاضي ثم ان اموال الاوقاف اول ما يقام منها الوقف والموقوف عليه حسب نص الواقف ويقدّم الاهم على المهم وجميع مداولات المجلس ودفاتر الايراد والصرف في الخزينة العموميّة يمضيها جميع الاعضاء مع الرئيس يوميًا وكان يصرف من فواضل الاوقاف على الاوقاف الّتي لم يحضرها دخلها وذلك على وجه القرض ولمّا يحضر مالها تعيد ما استقرضتهُ للخزينة العموميّة ثم يدفع منها جميع مرتبات الحكام الشرعيين من قضاة ومفتيين في جميع المملكة والسادة الاشراف ويدفع منها مصروفات نظارة المعارف من موظفيها ومرتبات مدرسي جامع الزيتونة ومصروفات دواوين الشريعة المطهرة ومصروفات المجلس البلدي بحاضرة تونس واصلاح الطرقات وتنظيفها واقامة الجسور والقناطر ومصروفات المستشفى والمكتبة العموميّة وغير ذلك من مصاريف بعض المهمات الّتي تحدث احيانًا وترجع الى مصلحة عموميّة ان كان في الفواضل ما يوفي بها وبسبب اجراء قوانين الاوقاف حقيقة بدون محاباة تحسن حالها وزادت ايراداتها حتّى بلغت في السنة الخامسة من وجود هذه الادارة مليونين ومائة وخمسين الف ريالاً ونيفاً وكانت في السنة الاولى مليوناً واحدًا ومائتي الف ريال ونيفاً زيادة على ما ظهر من الاوقاف الّتي كانت تلاشتها ايدي العدوان حتّى بلغت الى مئات من قطع الاراضي والدكاكين والبيوت وآلاف من شجر

الزيتون كما هو مبسوط في العدد ١٨ من الرائد التونسي سنة ١٢٩٧ وظهرت اوجه من الموقوف عليهِ لم تكن في الحسبان كالوقف على تنوير الاماكن المظلمة في الليل والوقف على التقاط العقارب الى غير ذلك من اوجه البر. وقد التزم الرئيس ان يفرغ جهده لاصلاح هذه الادارة المستجدّة وتدريب عمالها على العمل حسب المرغوب حتَّى التزم في اول الامر ان يباشر جميع الاعمال بنفسهِ جزئيَّةً وكليَّةً ليلاً ونهارًا واستمر على ذلك مدة طرأ عليهِ في اثنائها مرضٌ عصبي لم يفارقهُ الى ان قضى عليهِ وكان ابتداء المرض في صيف سنة ١٢٩٢ وبسبب هذا المرض عزم على السفر للتداوي في اوربا فسافر اليها في شوال سنة ١٢٩٢ وكان ذلك سببًا لكتابتهِ صفوة الاعتبار ولم تكن هذه الرحلة اول تأليف لهُ بل قد سبق لهُ كتابة رسالة سماها "تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص" ومضمونها احتواه عنوانها وسبب تأليفها الخلاف الحاصل بين بعض العلماء في حل اكل الصيد المذكور من عدمهِ والف ايضًا في اول نشأتهِ مجموعًا مختصرًا مفيدًا في فن العروض وذلك عند بداية تعاطيهِ لنظم القريض وحرَّر مسئلة فقهيَّة في جواز اسدال شعر الرأس وسببها ان الامير امر رجال حكومتهِ باسدال شعرهم وكانوا يحلقونهُ فاستفتى في جواز ذلك من عدمهِ واختلفت فتاوى العلماء خشية القول بالتشبه بالافرنج فكتب المرحوم رسالتهُ بالجواز مستندًا على عمل النبي صلى الله عليهِ وسلم . وفي تلك السنة اي سنة ١٢٩٢ افتتحت في تونس اول مدرسة على حسب النظام الجديد المتبع في اوروبا سميت المدرسة الصادقيَّة نسبة للامير فكان المرحوم من اعضاء اللجنة الَّتي رتبت نظاماتها واهتم كثيرًا باقناع

الناس على ادخال ابنائهم فيها وكان هو من اول العاملين بقوله فجعل ابنهُ كاتب هذه الاسطر مِن جملة تلامذتها وقد حصل في بداية الامر نفور الناس منها اذ ان العادة جرت بنفرة غير المألوف ولم تزل تلك المدرسة ناشرة فوائدها بين التونسيين واكثر المتولين مناصب الحكومة بتونس الآن هم مِن الشبان الذين تغذوا بلبان معارفها

وفي ١٠ جمادي الثانية سنة ١٢٩٢ عهدت اليهِ نظارة مطبعة الحكومة فنظمها واصلح شأنها واصدر الرائد التونسي (الجريدة الرسميَّة) في مواعيده المعينة كل اسبوع مرة وكان لا يصدر الاَّ بحسب التيسير ولما كان الرائد التونسي هو الجريدة الوحيدة الَّتي تصدر في تونس بذل كل ما في وسعهِ لجعله مفيدًا لبني وطنهِ واستعان على تحريره بجهابذة اعلام كالشيخ حمزة فتح الله المصري والشيخ محمَّد السنوسي التونسي ونشرت فيهِ مقالات رنانة حاثة على الجامعة والوحدة والعدل والائتلاف لا سيما زمن الحرب بين الدولة العليَّة والروسيا وقد قسم المرحوم وقتهُ فكان يتوجه لادارة الاوقاف صباح كل يوم ويتوجه للمطبعة بعد الظهر وفي تلك الاثناء نظم المكتبة الصادقية بازاء جامع الزيتونة وهي مكتبة جمعت آلافًا من الكتب النفيسة في كل فن تبرع بجانب عظيم منها الوزير خير الدين باشا واكثرها كتب استولت عليها الحكومة من مملوكات الوزير القديم مصطفى خزندار وجعلها مفتوحة للمطالعة واستفادة العموم في جميع اوقات النهار بشرط ان لا يخرج منها كتاب وجميع مصاريف هذه المكتبة تحملت بها ادارة الاوقاف على ما مرّ بيانهُ

وفي سنة ١٢٩٣ لما ظهرت الحرب بين الدولة العليَّة والصرب بذل

صاحب الترجمة غاية مجهوده لمساعدة الدولة بالمال والخيل والبغال حيث لم تتيسر مساعدتها بالرجال لاسباب سياسيّة وموانع محليّة وقد نشر صاحب جريدة الجوائب الصادرة بالاستانة قصيدة لصاحب الترجمة في الحث على التعاون والائتلاف عند تلك المناسبة قال فيها

يا امة الاسلام صونوا عزكم بتعاضد وتمدن وتنافس
يا امة الاسلام احيوا ذكركم بتآلف وتودّد وتآنس
يا امة الاسلام نمّوا صيتكم بمعارف وصنائع ومجالس
يا امة الاسلام حوطوا امركم بتشاور وتدبر وحوارس
يا امة الاسلام اجلوا فخركم بديانة قد سترت بحنادس
يا امة الاسلام هبوا للفلا ح ولا تضيعوا نجحكم بتقاعس
يا امة الاسلام عوا واستيقظوا ان الهلاك مسارع للناعس
يا امة الاسلام زيدوا ثروة بتعاون ومصانع ومغارس
يا امة الاسلام شيدوا مجدكم بتناصر وتناصح وتجانس
يا امة الاسلام شدّوا عزمكم فثباتكم بين البرايا ما نسي

ولما خلت وظيفة شيخ الاسلام بتونس عند وفاة صاحبها توجهت الانظار لتولية صاحب الترجمة عليها حتى ان المنصب المذكور بقي خاليًا مدة شهرين لذلك فاعتذر بان الوقت غير مناسب لاعادة جاه هذا المنصب ورجوع عزه اليهِ كما كان عليهِ زمن عمهِ

ولما استعفى خير الدين باشا مِن الوزارة التونسيّة في رجب سنة ١٢٩٤ رام صاحب الترجمة التخلي عن وظائفهِ ايضاً غير ان مداخلة الامير الشخصيّة

منعتهُ من تنفيذ هذا العزم وقد رأى من الوزير محمَّد خزنه دار جميل العناية كما يستدل عليهِ من المكتوب الآتي

" الهمام الاوحد النحرير الشيخ السيد محمَّد بيرم رئيس جمعيَّة الاوقاف دام مجده اما بعد السلام عليكم وبركاتهُ فالواصل اليكم ترجمة مكتوب ورد من المكلف بامور دولة اسبانيا للاطلاع عليها وتعرفونا بما يجاب الرجل في النازلة وفي امن الله دمتم والسلام من كاتبهِ محمَّد في ٢٩ ذي الحجة سنة ١٢٩٤ " ومن ذلك الحين ايضاً صار الوزير مصطفى بن اسماعيل يظهر له كمال التودّد والتلطف وفي مصيف سنة ١٢٩٥ اثناء وجود المعرض الباريسي سنة ١٨٧٨ توجه المرحوم ثانياً الى باريس للمعالجة من مرضهِ الذي لم يفارقهُ وفي هذه السنة زار لندره من بلاد الانكليز وعند عودتهِ عرج على الجزائر وفي مدة اقامتهِ بباريس اكرمهُ المارشال مكماهون رئيس الجمهوريَّة الفرنسويَّة اذ ذاك باحضاره في الاوبره وهو التياترو الكبير في نفس لوجتهِ (حجرتهِ) وحضر بعض الاحتفالات الَّتي اقامها الوزراء اثناء المعرض وبالجملة فان القوم اكرموه اكراماً فائقاً وفي تلك السفرة احتفل ولي عهد الامارة بتونس وهو الامير الحالي بختن نجليهِ فكاتبهُ المرحوم بالتهنئة وكانت بينهما علاقة ودّيَّة قديمة فاجابهُ الامير بهذا المكتوب ونصهُ بعد الحمدلة والتصلية

تبدّت في حلا الحسن الجلي خريدة ذات ثغر ألعسي
تجرُّ مطارفاً وتميس تيهاً ويسطو لحظها في كل حي
فيا لله ما احلى دلالاً واعذب لفظها شهد الشهي

فما للبحر لم يصبح فراتاً		وقد امست بهِ زمن الملي
فقلت لها انتم يا خود فخر		فقالت بنت فكر البيرمي
لقد حاز المعارف والمعالي		وحيد الدهر ذو الحسب النقي
اتت من نحوكم درر التهاني		منظمة بسلك جوهري
وكيف يفوت حظك بابتعاد		وفي الاحشاء ذو ودّ خفي
وها ولدي الزكي يروم وصلاً		لجانبكم بباريس السمي
واني ارتجي بشرى الشفاء		وعودكما مع اللطف الخفي

الماجد الزكي العالم ابو عبد الله الشيخ السيد محمَّد بيرم حرسهُ الله تعالى . اما بعد اتم السلام فقد ورد نظمكم الرائق . وما تضمنهُ من التاريخ الفائق . في التهنئة بالختان واني اهنيك بذلك كما ارتجي هناءك . بتمام شفائك . وانت ان ترحلت عن حمانا جسماً . فلم يزل ودُّك مرتسماً . بدفاتر الاحشاء رسماً . والسلام من الفقير الى ربهِ امير الامراء علي باي امير الأمحال عفى عنهُ في ٢ رجب الاصب من سنة ١٢٩٥

ولما رجع من هذه السفرة واستقر مدة أحب ان ينظم المستشفى التونسي على النحو الذي رآه في اوروبا من اتقان المستشفيات والاعتناء بالمرضى وتقسيمهم كل قسم على حدة وكذلك تحسين حال المجانين اذ ان المستشفى التونسي واحد يقبل جميع المرضى واستعان على ذلك بحكماء ماهرين اهمهم الدكتور ماسكرو حكيم الامير الخصوصي وقد حسن للوزير مصطفى بن اسماعيل هذا العمل وتخصيص احدى القشلاقات العسكريَّة القديمة الواسعة لهذا الغرض وكانت معطلة خاوية تدمي بفراغها واقفال ابوابها ما كانت عليه

البلاد التونسيّة في العصر السالف من القوّة والاستعداد والتأهب للمكافحة والجلاد والمدافعة عن استقلال البلاد والقشلة واقعة في حي مرتفع نقي الهواء وفي تلك الاثناء حصلت منازعة بين الحكومة التونسيّة واحد الفرنساويين المدعو الكونت دو صانسي على ارض فسيحة تعرف بهنشير سيدي ثابت كانت تنازلت لهُ عنها الحكومة لتحسين حالة الزرع وانتاج الخيل ولما اخل بالشروط الّتي اعطيت له بمقتضاها وانتهت مدة التنازل رامت الحكومة استرجاعها وبينما هي تنازعهُ فيها اذا بالوزير وبعض اعوانهِ دخلوها عنوة فوقع لذلك هرج ومرج وانتهزها قنصل الفرنسيس الموسيو روستان فرصة لارهاب الامير والاستيلاء على الوزير وزيادة شوكة دولته في تونس فقطع العلاقات السياسيّة وطلب عدة مطالب للترضية اهمها عزل الوزير والتعويض على الكونت . وكل مطلع على تاريخ تونس الحديث ملم بما كتب عن مصطفى بن اسماعيل في صفوة الاعتبار وغيرها يعلم انهُ لم يكن اهلاً لتقليد الوزارة ولا لمباشرة شؤون المملكة باي وجه من الوجوه وهكذا جرت سنة الخلق كلما اخذت امة في الانحلال والاضمحلال تسلط عليها الوضيع . ونبذ الرفيع . وتقدّم الغافل . وتأخر العاقل . وتملك الغبيّ . واحتقر الذكيّ . وانتصر الجهل . وخذل الفضل . وقامت دولة الاوغاد والسفل . ليقضي الله امراً كان مفعولا ولولا سيطرة الظلم والاستبداد من الحكام والجامهم الاهالي بلجام من الجور والاعتساف . لما رفع مصطفى بن اسماعيل من حضيض الارض الى عنان السماء . ومن دائرة السوقة الى منصب الوزراء ولله الامر من قبل ومن بعد ولما كان الوزير المذكور يحس من نفسهِ بعدم

اللياقة لمركزه كان دائماً متوقعاً الشر من كل مقتدر على تفهيم الباي بحقيقة حالهِ وسوء اعماله ولذلك فان رستان علم ان لا شيء يقودهُ غير الارهاب فطلب عزله ارهاباً لهُ فسهل عليهِ قيادهُ من ذلك الحين فصار في يده كالميت في يد غاسله وقد اسرع الوزير بترضية القنصل ترضية رسميَّة على الاعتداء الذي حصل منهُ فداءً لمركزه واستقرَّ الرأي على تشكيل لجنة للتحكيم تحت رئاسة قاض فرنساوي يكون فيها عضوان تونسيان وعضوان فرنساويان تنظر في جميع مدعيَّات الطرفين وتصدر حكمها فيها فكان صاحب الترجمة احد ذينك العضوين التونسيين وقد ناضل عن حقوق حكومتهِ بجميع قواه وبلغ بهِ تعب الفكر والبدن منتهاه حتى عاد اليهِ المرض بعد ان كاد يشفى منهُ وقد اوصاه الحكماء الذين باشروا معالجتهُ في باريس وفي مقدَّمتهم شاركو الشهير بان يقلل ما امكن من الاشتغال بالفكر ويتباعد عن الانفعالات النفسانيَّة اذ ان مرضهُ عصبي واقع في الاعصاب الواصلة بين المعدة والقلب مع ضعف شديد في الدم تطرأ عليهِ ادوار غريبة في الوجع والالم التزم لتسكينها بتعاطي المرفين وهو روح الافيون وقد رجع من باريس آخر مرة وكاد يبطل استعماله بالمرة بل بقي عدَّة اشهر لا يستعملهُ اصلاً غير ان مسألة صانسي وما رآه فيها مِنْ حيف الاجنبي لاهتضام حقوق البلاد والتلاعب باستقلالها اعاد اليهِ المرض كلهُ باشد مما كان عليهِ وقد صدر الحكم بحقوقيَّة الحكومة التونسيَّة كما هي العادة في جميع المسائل الَّتي تقع من هذا القبيل في البلاد الشرقيَّة في مثل هذه الاوقات

وفي تلك الاثناء انهى تنظيم المستشفى الجديد المسمى بالصادقي وهو على

قسمين احدهما مجاني للفقراء يسع مائة مريض والآخر للموسرين باجرة معينة زهيدة وافتتحهُ الامير بنفسهِ في موكب حافل حضره في يوم ١٠ فبراير سنة ١٨٧٩ (١٨ صفر سنة ١٢٩٦) واعلن الوزير عن لسان الحكومة بحسن مساعي صاحب الترجمة في تنظيم هذا المستشفى بقوله في خطاب القاهُ على مسامع الامير في ذلك الاحتفال وهو "بمقتضى الاذن العلي وعناية سيدنا ادام الله تعالى بقاءه بمصالح بلاده وقع انجاز هذه المأثرة الجميلة التي هي احدى مآثر الحضرة العليَّة وهي هذا المستشفى الصادقي الذي شرفهُ سيدنا ايده الله تعالى بالحضور فيهِ هذا اليوم وقد اعتنى الشيخ السيد محمَّد بيرم ببذل الجهد في انجازه وترتيبه على الكيفيَّة المشاهدة بما نرجو من الله تعالى ان يحل ذلك من سيدنا محل الاستحسان" فاجاب الامير بالشكر والثناء واهدى الى صاحب الترجمة في ذلك اليوم علبة مرصعة ذات قيمة وافرة مكتوب عليها اسمهُ بالاحجار الكريمة. وفي اواسط تلك السنة تطاول احد اعوان الوزير على القاضي المالكي الشرعي بديوان الحكم وهو امر لم يعهد له مثيل في تونس حيث لم تزل الاحكام الشرعيَّة وحكامها مرموقين بعين التبجيل والاحترام اللائقين فهاجت البلاد لذلك وماجت واتفق الحكام الشرعيون على تعطيل الاحكام الى ان يسترضيهم الامير بعزل الوزير وعقاب تابعهِ العقاب الصارم واجراء القوانين والمجالس الشورويَّة في البلاد لتكون ضمانة كافية على عدم العود لمثل هذا الحادث المكدر وعدم تسليم الادارة لمن لا يكون كفوءًا لها وبعد ان اتفقت كلمتهم على هذه المطالب وكادوا ان يحصلوا عليها دخل بين بعضهم داخل الغرور والتفرقة فتشتتت آراؤهم وانحلت جامعتهم ورضوا

بتبعيد التابع المتطاول لاحدى معاقل المملكة في قابس الواقعة على حدود طرابلس وبتشكيل الامير لمجلس سماه مجلس الشورى للنظر في مهمات امور الدولة وجعله تحت رئاسة الوزير نفسهِ واعضاؤهُ بقية وزراء المملكة ومستشاروها وليس فيهم الاَّ اثنان من الاهالي والباقي كلهم من مماليك الجراكسة وزاد عليهم اثنين هما السيد محمَّد بيرم والعربي باشا زروق رئيس المجلس البلدي وكانا من اشد المعضدين لعزائم الحكام الشرعيين في مطالبهم التي طلبوها وكان ذلك في ١١ رجب سنة ١٢٩٦ ولا يخفى ما في رضاء المشايخ بمثل هذا المجلس خصوصاً بعد تعيين صاحبيهم فيهِ من الايقاع بهما والتغاضي عن صالح البلاد الحقيقي ولم تطل الايام حتى اختلق الوزير مأمورية لصاحب الترجمة وارسلهُ بها الى فرنسا وحاصلها السعي لدى كبراء القوم وخصوصاً غامبيتا رئيس مجلس النواب اذ ذاك وصاحب القول الفصل في بلاده لتغيير قنصلهم في تونس لانهُ اشتد على الحكومة اشتداداً لم يبق لها حريَّة للعمل في شؤونها الداخلية قط ولم يقف عند حدّ في القاء الدسائس والفتن وتوغير الصدور بين الراعي والرعيَّة حتى انهُ لما طلب اعيان الاهالي التونسيين ما طلبوه من تأسيس الحريَّة والشورى في بلادهم كان الموسيو رستان نائب الجمهوريَّة الفرنسويَّة ينصح الامير بعدم الاصغاء الى هذا الطلب وان العساكر الفرنسويَّة بالجزائر مستعدة لمعاضدتهِ وكسر شوكة الاهالي واذلالهم عند اللزوم وهي سياسة قديمة اتبعتها فرنسا في تونس نفسها فان قوانين عهد الامان السابق ذكرها المؤسسة في تونس سنة ١٢٧٤ كانت بمساعي فرنسا وانكلترا ظاهرًا وتهديدهما للامير باسطوليهما اللذين حضرا لذلك الغرض

وكان ذلك لمجرد قتل يهودي في اقامة حدٍّ اقتضتهُ الشريعة ولما اجريت تلك القوانين بالفعل سنة ١٢٧٧ وتوجه الامير لمقابلة الامبراطور نابليون الثالث في الجزائر واهدى اليهِ نسخة من تلك القوانين اقتبلها منهُ بالشكر ظاهرًا ولما اختلى الامبراطور بقنصلهِ ليون روش وبخهُ توبيخًا شديدًا على ما رواه المرحوم الجنرال حسين وافهمهُ غلطه من المعاضدة على اجراء القوانين الشورويّة في تونس حقيقة وقال له ان العرب اذا تأنسوا بالعدالة والحريّة فلا راحة لنا معهم في الجزائر مطلقًا ومنْ ذلك الحين وجه القنصل همتهُ لاقناع الوزير مصطفى خزنه دار بالغاء تلك القوانين ووجد منهُ اذنًا صاغية فالغاها وبقيت كذلك الى هذا الوقت . وقد قبل السيد محمّد بيرم مأموريتهُ كما قبل المرحوم حسين باشا وزير المعارف اذ ذاك بتونس مثلها لدي البرنس بسمارك ولما توجه صاحب الترجمة للسلام على الامير سلام الوداع واجههُ بكلام اللوم والعتاب على ما جرى منهُ من تعضيد المطالب الاهلية فاجابهُ الشيخ بيرم بكلام اثر في نفسهِ تأثيرًا لم يزل يكرّره بتوجع الى آخر مدتهِ وهو انهُ قال له اننا نطلب الحريّة الّتي قال سيدنا انهُ لا يعطيها لنا غيره فاجابهُ الاميرلمن اعطي الحريّة أللنجار والحداد ام لك او لهذا (واشار الى احد كبار الحاضرين)فان النجار والحداد اذا اعطيا الحريّة اساءا التصرف بها ولم تبقَ لنا معهما راحة فقال له السيد بيرم ان الحريّة الّتي يعطيها سيدنا للحداد والنجار تصيرهما مثلي انا ومثل هذا واشار الى ذلك الوجيه وسبب انزعاج الاميرمن هذا الجواب هو تكرار لفظة الحريّةِ فيهِ ولم يعهد انهُ سمعهُ من قبل حتى ان امراء تونس قديمًا كانوا يعتقدون انهم يمتلكون البلاد بمن فيها من

الارزاق والانعام والسكان امتلاكاً شرعيًّا لا ينازعهم فيهِ منازع واورد المؤرخ اللبيب الشيخ احمد بن ابي الضياف في تاريخهِ نادرة جرت له مع امير تونس حسين باشا الثاني في هذا الموضوع كادت ان توردهُ حتفهُ رحمهُ الله . ولما وصل صاحب الترجمة هذه المرّة الى باريس وكان ظاهر امره انهُ توجه للتداوي اجتمع بالموسيو غامبيتا وفاوضهُ في المسألة الّتي كلفهُ بها الوزير وسلمهُ تقريرًا فيها هذه صورتهُ

" اني اقدم على وجه خصوصي غير رسمي الى حضرتكم العليّة تقرير ما هو واقع في المملكة التونسيّة مما عساه ان يكدر صفاء القلوب حيث كنت أنا واهل بلادي على علم من ان الدولة العظيمة الحرّة لا يبلغها ما هو حاصل الآن من نائبها في تونس الذي اتخذ طريقة التشديد والتخويف ديدنًا في كل شيء حتى صير حكومتنا متحذرة من اصدقائها عوضاً عن زيادة الالفة والركون الذي هو الواجب مع الامة الفرنسويّة الّتي كل اهالينا يعلم انها وحدها هي الّتي تفيدنا ولهذا عند ما امتلأ وطابنا من الكدر لم نقصد الاّ ابلاغ الحال الى رجالها المنصفين من غير ان نطرق بابًا غير بابها وذٰلك ان موسيو رستان النائب المذكور بعد ان اوقع دولتنا في ارتباك وكاد يغير علينا الدولة الفرانساويّة في نازلة موسيو دو صالسي الّتي لا تستحق تلك الاهميّة حسبما يوضح ذٰلك التقرير الذي حررهُ مجلس التحقيق المعين من فرنسا وبعد ان اضطر حكومتنا الفقيرة الّتي لم تستطع دفع كبونها (فوائد ديونها) ولا مرتبات متوظفيها الى دفع مبالغ مجانًا من المال والاملاك الى اناس لا فائدة بهم لكلا الدولتين لاسباب نتحاشى عن ذكرها امام فخامتكم حتى انهُ خسرنا

في مدة الستة اشهر الاخيرة فقط نحو مائة الف وسبعة واربعين الفاً فبعد هذا كلهِ اذا هو الآن يتعرض رسمياً لتحسين ادارة البلاد التي بها تتمدن الاهالي ويدخلون في الحضارة وكانت الدولة الفرنساويّة انالتنا اياها على يد نائبها سنة ١٢٧٤ (١٨٥٨) انتصاراً للانسانيّة والحق فعوضاً عن زيادة التقدم مع تقدم العالم اذا هو الآن مضادٌ لذلك وقال الى سيادة سيدنا الباي لا تفعل مجلس الشورى الذي طلبتهُ منك الاهالي وابق على حالتك العتيقة بل اوعز اليهِ مع بعض اعوانهِ المنكشف حالهم بان يقتل نحو ثلاثة اشخاص وينفي نحو سبعة ويلتجي الى حمايتهِ ولا عليهِ في شيء فلولا مكارم سيادة سيدنا الباي لاوقع البلاد بل فرنسا ذاتها في ارتباكات مضادة للانسانيّة والعدالة المجبولة عليها الدولة الجمهوريّة الفرنساويّة . فيا ايتها الحضرة الفخيمة هل ترضى الامة والدولة التي ترسل ابناءها الى اقصى المشرق والمغرب لحفظ الانسانيّة ان يكون نائبها مضاداً لذلك في بلاد هي جارة لها عندما كانت الدولة العظيمة تخرج اهل الجزائر من الحكم العسكري الى الحكم البلدي متستراً في دعواهُ بعدم التعرف بالمجلس بانهُ سمع ان المقصد منهُ هو التعرض لمصالح فرنسا مع انهُ على علم بان مصلحة الامة الفرنساويّة يعتبرها ويراعيها كل من الآمر والمأمور في بلادنا لعلمنا بمقامها بيد انهُ اذا كانت المصلحة ليست لفرنسا وانما هي مجرد فوائد شخصيّة فان مصلحة البلاد تقدم عليها وهو الذي نؤمل المعاضدة عليهِ من الرجال المشهورين في العالم من الدولة الفرنساويّة وتبقى بمآثرهم مزينة صحف التاريخ فهذا انا انهي الى مسامعكم الشريفة اختصار ما هو حاصل ولحضرتكم ان تطلبوا الايضاح ممن يعلم حالة بلادنا من الذين لهم خبرة بها من الصادقين "

وقد بادر صاحب الترجمة بارسال تفصيل المقابلة وما حصل فيها من الكلام الى الوزير بمكتوب مؤرخ في ١٢ شعبان سنة ١٢٩٦ من جملة ما قالهُ لهُ فيهِ عن لسان غامبيتا " ان كنتم تريدون الارتياح من الرجل (اي رستان) فيجب ان تكتموا هذا الامر بل ولا اجتماعكم بي في شأنهِ والاَّ كان ذلك ينقض قصدكم " وما كاد يصل هذا المكتوب الى تونس حتى انتشر الخبر بسر المسألة ولم يعلم ان كانت الاشاعة حصلت من نفس الوزير او من المترجم الذي كان الواسطة في الكلام بين غامبيتا وصاحب الترجمة الذي لم يكن يتكلم اللسان الفرنساوي والحاصل ان القنصل انتهز هذه الفرصة الجديدة وارعد وابرق على الامير والوزير وزاد في ايغار صدورهما على صاحب الترجمة وساعده البخت او الصدفة بانهُ في الوقت الذي كان الاهالي في تونس يطلبون تأسيس الشورى في بلادهم كانت الدول مشغولة في مصر بخلع اسماعيل باشا وحصل ذلك على يد خير الدين باشا صاحب الصدارة حينئذٍ وارتباطات الباشا المذكور بتونس وخصوصاً بصاحب الترجمة مشهورة عند الجميع فاستنتجوا من ذلك ان طلب الشورى في تونس لم يكن القصد منهُ الاَّ احداث ارتباكات في المملكة تفتح الباب لمداخلة الباب العالي خصوصاً وكان صاحب الترجمة معارضاً شديد المعارضة في وصل سكة الحديد بين الجزائر وتونس وتعيين الحد الفاصل بينهما الاَّ بعد العرض للدولة العليَّة وزادوا في اقناع الباي بالتلغراف الذي ارسلهُ خير الدين باشا يعلمهُ فيهِ بفصل اسماعيل باشا عن خديويَّة مصر وقد استعمل الصدر الاعظم في تلغرافهِ عبارات اشتم منها رائحة التهديد والوعيد للباي حتى التزم الحال للاستفهام من الباب العالي

بواسطة السفارة الفرنساويّة عن الغرض من عبارات ذلك التلغراف مع انهُ في ذلك الوقت كانت العلاقات الخصوصيّة بين المرحوم وخير الدين باشا معكرة مكدرة من حين خروج الباشا المذكور مِنْ وزارة تونس ولم يصف ماؤُها الاَّ بعدذلك التاريخ كما يدل عليهِ المكتوب الآتي

"الفاضل الزكي الثقة المعتمد الشيخ سيدي محمّد بيرم حرس الله تعالى كمالهُ وبعد قد وصلنا مكتوبكم في ٢٢ من الشهر وعلمنا ما احتوى عليهِ من لذيذ الخطاب ونحن لله الحمد على ما يسر الاحباب من العافية التامة في امورنا الحسيّة والمعنويّة واما ما اشرتم اليهِ مِن الاحوال السالفة عن قدومنا لدار الخلافة فجوابهُ عفى الله عما سلف والسلام من خير الدين في ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٦ "

ومن راجع تاريخ مكتوب صاحب الترجمة المذكور اعلاه وجواب المرحوم خير الدين باشا عنهُ وقارن بينهما وبين تاريخ انفصال الباشا المشار اليهِ عن الصدارة العظمى الواقع في ٩ شعبان سنة ١٢٩٦ يعلم علم اليقين انهُ في مدة صدارة الباشا المشار اليهِ لم تكن بينهُ وبين الشيخ بيرم ادنى علاقة وان كل ما بناه اذ ذاك المرجفون بناءً على علاقاتهما الوداديّة القديمة هو محض اختلاق وكأن الوزير التونسي غفل او تغافل عن حقيقة المأموريّة التي اناطها بعهدة صاحب الترجمة فارسل اليهِ تلغرافًا رسميًا الى باريس نص ترجمتهِ

مِن باردو في ٧ اغسطس سنة ١٨٧٩ (الموافق ١٨ شعبان سنة ١٢٩٦)

" من الوزير الاكبر الى الشيخ سيدي محمّد بيرم . شاعت الاخبار بانك متداخل في امور سياسيّة خصوصًا وانهُ لم يصدر لكم ادنى امر فيها ولذلك

فان سيدنا المُعَظَّم يأمركم صريحاً بان لا تتداخلوا مطلقاً في هذه المسائل حيث انكم سافرتم لمعالجة صحتكم واذا انتهت مدّة التداوي فارجعوا الى تونس "

ثم بعد ذلك ورد له مكتوب من الوزير بتاريخ ٢٥ شعبان جواباً عن مكتوبهِ المؤرخ في ١٢ شعبان وفيهِ يقول " اما بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاتهُ فقد بلغنا مكتوبكم الخصوصي وعلمنا ما ذكرتم وما وقع مع موسيو غامبيتا فمثلك من يعتمد عليهِ وعلى صداقتهِ واما كتمان السر فيكون مهناً لان نفعهُ لنا وانما الله يحقق الامل من اتمام الوعد لان القنصل في غاية القوّة الخ "

فلم يسع صاحب الترجمة بعد هذا الاضطراب في اقوال الوزير الاَّ ان يستعفى من وظائفهِ فاجابهُ الوزير عن الاستعفاء بهذا المكتوب ونصهُ " الفاضل الزكي المدرس الشيخ السيد محمَّد بيرم رئيس جمعيَّة الاوقاف حرسهُ الله اما بعد السلام عليكم ورحمة الله فان ما عرضتموه علينا من طلب الاعفاء من رئاسة جمعيَّة الاوقاف علمناه ومن معلوماتكم انكم كنتم طلبتم هذا منا قبل سفركم على خير فلم نسعفكم لذلك والذي نعرفكم بهِ انني لم نزل على رأيي في عدم اسعافكم لما ذكر ونرجو الله ان يجمعنا بكم وانتم على حال كمال ودمتم بحفظ الله والسلام من الفقير الى ربهِ امير الامراء مصطفى الوزير الاكبر عفا عنهُ في ٣ رمضان سنة ١٢٩٦ "

وفي اليوم نفسهِ ارسل لهُ مكتوباً آخر نصهُ " اما بعد السلام عليكم ورحمة الله فانهُ بلغنا كتابكم المؤرخ في ٢٥ الشهر الفارط متضمناً ما نحن

على ثقة منهُ من سلوككم الطريق المستقيم في اقوالكم واعمالكم وتحرزكم في الاجتماع من ان ينسب اليكم غير ما قصدتموه ولا يستغرب ذلك من مثلكم ونرجو الله ان يجمعنا بكم وانتم على حال كمال ودمتم بحفظ الله والسلام"

وقد رجع صاحب الترجمة الى تونس بعد الالحاح الشديد عليهِ من اصدقائهِ فوجد الحال متغيرًا وملامح الوزير تظهر الشر ومع ذلك فقد ابلغهُ صاحب الترجمة ما رآهُ وسمعهُ في باريس بخصوص المسئلة التونسيّة وآراء رجال السياسة فيها ومن جملة ما بلّغهُ ان الاخبار رائجة هناك بان القنصل افهمهُ بمساعدة فرنسا على مرغوباتها من ضم تونس اليها وفي مقابلة ذلك تضمن للوزير ولاية العهد عَلَى الامارة واستيلائهِ عليها بعد سيده ونصحهُ بان لا يغتر بهذه الترهات فان القنصل اذا حصل على مرغوبهِ لا يوفي وعدهُ للوزير ولا تعود الخسارة الاَّ على البلاد واهلها وقد حقق الزمن حدس السيد بيرم فانهُ لما دخلت فرنسا في تونس سنة ١٢٩٨ لم تطل مدتها فيها حتى عزلت مصطفى ابن اسماعيل عن الوزارة واخرجتهُ من البلاد بالمرة ولم توفِ له بما وعدتهُ بهِ بل نظرت اليهِ نظر الخائن وكثيرًا ما تكلمت جرائدها وارباب الوجاهة فيها لتجريده عن نشان اللجيون دونور الفرنساوي وهو حامل اول درجة منهُ وبقي يتقلب متغرّبًا في البلدان تقذفهُ امواج الذل والسؤال بعد ان صرف ما ادّخرهُ ايام عزه من الاموال الطائلة واصبح

يومًا بحزوى ويومًا بالعقيق وبالـ ... عذيب يومًا ويومًا بالخليصاء

الى ان جاءت بهِ المقادير الى القسطنطينية حيث تغاضت الدولة العثمانيّة عن ذنوبهِ وابقتهُ يتنعم بلذيذ الحياة ويتحسر على ماضي عزه وغبن

صفقتهِ . اما صاحب الترجمة فانهُ بعد عودتهِ الى تونس من مأموريتهِ توجه الى (المرسي) للسلام على ولي عهد الامارة الامير الحالي السابق ذكره فوجد الامير المشار اليهِ في مركبته امام محطة السكة الحديد فاركبهُ معهُ وسارا الى بستان الامير فكبر هذا الامر على مصطفى بن اسماعيل وامر صاحب الترجمة بالكف عن التردد على ولي العهد وكثرت الدلائل على سوء نيَّة الوزير نحو السيد بيرم وتغلب دسائس موسيو رستان ضدَّه حتى انصحهُ بعض الاصدقاء من خواص حاشية الباي بالسفر خارج المملكة لان بقاءه في البلاد فيهِ خطر عليهِ فطلب بعد عيد الفطر التوجه لاداء فريضة الحج خصوصاً وقد تهدَّدهُ الوزير بانهُ اذا شاع الخبر الذي كان اعلمهُ بهِ بخصوص مساعيهِ لولاية الامارة يلقيهِ تحت اعباء المسؤوليَّة الثقيلة فامتنع الوزير من اعطاء الرخصة بالسفر وقد توسط حينئذٍ السيد الشريف نقيب الاشراف السابق في تونس للحصول على تلك الرخصة وبين للوزير عدم جواز منع المسلمين من اداء فريضة الحج وزيارة النبي صلى الله عليهِ وسلم وللسادة الاشراف في تونس النفوذ الكبير والكلمة المسموعة فالتزم الوزير بالاجابة وقد سافر صاحب الترجمة من تونس في ٢٦ شوال سنة ١٢٩٦ ولم يعد اليها بعد وقصد مالطه ومنها للاسكندريَّة ومصر القاهرة وفيها تقابل مع الخديو المرحوم توفيق باشا وكان ذلك في ابتداء ولايتهِ فقدَّم له قصيدة في التهنئة بالولاية وتاريخها

وقد دار الحديث بينهما عن كيفيَّة نظام اللجنة الماليَّة الدوليَّة المؤلفة في تونس لادارة اشغال الدين وعن النتايج التي انتجتها وهل البلاد متضررة منها ام لا وكان ذلك بسبب ما اقترحتهُ انكلترا وفرنسا اذ ذاك على الحكومة

المصريّة من اقامة لجنة للمراقبة الماليّة ثم ان المرحوم سار الى الحجاز وقد تقابل في مكة المكرمة مع المولى الشريف حسين الاميرالاسبق واكرم وفادتهُ ثم بعد اداء فريضة الحج والمناسك توجه للزيارة في المدينة المنورة حيث اقام ثلاثة ايام وكان مرضهُ العصبي مشتدًّا عليهِ في الطريق وهناك توسل للحضرة النبويّة بقصيدة طويلة طالبًا من الله الشفاء للبدن واللطف بالوطن ومطلع القصيدة

الى السدّة العظمى شددت عزائمي ... الى سدّة الاجلال شمس المكارم
الى باب خيرالخلق خصصت وجهتي ... ومن فضل باب الله املت راحمي
اليك رسول الله قد جئت ضارعًا ... وفضلك ممدود على كل قادم
فياخير خلق الله جدلي بالرضا ... وامِن مخافي من عقاب المآثم
ويا اكرم الامجاد هب لي توبة ... واسس على التقوى قيام دعائمي
وانت ملاذي في اموري كلها ... فعجل شفائي من سقامي الملازم
ألا يا رسول الله طهر بلادنا ... فقد جار في الانحاء ظالمًا مخاصمي
يريد خلاف الحق في الخلق جائرًا ... فننصحهُ رشدًا لذا كان ظالمي
فعجل بانقاذ البلاد من الذي ... تأبط شرًا وارتدى بالمظالم
وفرج همومي والكروب وعلتي ... وليس سواك يرتجى للعظائم
وللعدل ان ينقاد كل ملوكنا ... اكيما يحل الدين اعلى العواصم

ومن المدينة المنورة توجه الى ينبع وسافر منها الى بيروت مارًّا على خليج السويس وقد ذكر هذه الرحلة في اول هذا الجزء الخامس وما لاقاه في سفره من كرم واكرام صاحب السماحة السيد السند السيد سلمان افندي القادري نقيب اشراف بغداد

ولما وصل الى بيروت لاقاه والي سوريّة اذ ذاك المنعم المقام الجليل الذكر مدحت باشا بمزيد العناية الرعاية واحتفل بهِ اعيان المدينة من مسلمين ومسيحيين بما ابقى لهم في نفسهِ الذكر الحسن والثناء المستطاب وكان المرحوم من جملة المشتركين المساعدين في جمعيّة المقاصد الخيريّة التي تأسست في بيروت لانشاء مدارس خيريّة وقد زار تلك المدارس ولاقى من احتفال الاساتذة والتلامذة وانشادهم القصائد والمقالات الرائقة بين يديهِ ما زاد ابتهاجهُ وقد هنأه الشاعر الدراكة البليغ المرحوم الشيخ ابراهيم الاحدب بقصيدة شائقة ذات اربعة واربعين بيتاً مطلعها

بدر العلى تاريخهُ (من غربهِ) في الشرق اشرق نوره لمحبهِ

ومنها

من اين هذا الطيب هل ريح النقا ليلاً سرى ليدير راحة صبّهِ
او جاء بيروتاً محمَّد بيرم من طيبة فذكت نوافح قربه
حيث الزمان على تلوّن طبعهِ ادّى بهِ كفارة عن ذنبهِ

وقد مدحهُ ايضاً الاديب الفاضل واللوذعي الكامل الشيخ ابو حسن قاسم افندي الكستي البيروتي بقصيدة غراء منها

بهِ تونس الغرب استعزت واحرزت بصحبتهِ الفضل الذي ليس يجحد
يغار على الدين الحنيف لانهُ خبير بهِ لا يعتريهِ التردّد
عليهِ من العلم الشريف جلالة يقوم لها الدهر الحسود ويقعد
وسيرتهُ الحسناء في كل موطن بألسنة الايام تتلى وتنشد

وبعد ان اقام هناك اسبوعاً رام فيهِ التوجه لدمشق الشام لرؤية

معالمها العظام وملاقاة السيد الامير عبد القادر الجزائري غير ان الوقت لم يسعف بذلك اتراكم الثلج في الطريق وتعطيلهِ للسكة فتوجه توًا الى القسطنطينيةً وهناك ورد عليهِ مكتوب من الامير المشار اليهِ نصهُ

بسم الله الرحمن الرحيم — الحمد لله حمد المتوسلين . والصلاة والسلام على سيد المرسلين . وعلى آله وصحبهِ آمين . من خادم اهل الله عبد القادر بن محيي الدين الحسني الى جناب العالم الفاضل . والهمام الكامل . صاحب المقام السني . الشيخ السيد محمَّد بيرم افندي المحترم . ادام الله عليهِ سوابغ النعم . اما بعد اهداء تحيةً مقرونة بالاخلاص والتكريم . وادعية متوالية بدوام نفعكم العميم فالموجب لتحريرهِ اولاً السؤال عن راحة وجودكم السعيد . والابتهاج بسماع حديثكم المجيد . وثانياً قد بلغنا من ولدنا عبد القادر افندي الدنا سلامكم . ومزيد محبتكم ووِدادكم . وحصل لنا بذلك تمام السرور . زادكم الله نورًا على نور . ورغبة بربط اسباب المودّة بجنابكم . واستجلاب بدائع خطابكم . ومجاب دعائكم على الدوام . تحرّرت لكم هذه الارقام . وعليكم السلام في ١٦ جمادى الاولى سنة ٩٧ المخلص

عبد القادر الحسني

وكان المرحوم قبل توجههِ الى الاستانة ارسل مكتوبًا بواسطة بعض خواصهِ للوزير بتونس نصهُ " الصدر الهمام امير الامراء جناب الوزير الاكبر سيدي مصطفى اطال الله عمره اما بعد السلام التام فاني قضيت المناسك ولله الحمد ولم استطع المبادرة بالرجوع الى الوطن لاني في اضطرار الى اراحة البال والبدن للاسباب الّتي تعلمونها حقًا فلزمتني مراعاة الحال الى ان ينفس الله

الكرب لقوله تعالى ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة والله حفيظ وولي من يتوكل عليهِ والسلام في غرة صفر سنة ١٢٩٧ " الاَّ ان هذا المكتوب لما بلغ تونس منعهُ احباء صاحب الترجمة وخواصهُ من الوصول ليد الوزير وبقي المرحوم في وظائفهِ الى حين وصوله للاستانة ولما ورد خبر وصوله اليها اسرعت الحكومة التونسيَّة بتوجيه جميع وظائفه الى غيره وهو المرحوم الشيخ احمد الورتتاني ومما يجمل بي ذكره هنا ان عائلة صاحب الترجمة رأَت من مكارم اخلاق هذا الخلف وحسن تودُّده وتلطفهِ بها ما يندر وجود مثلهِ في الاعصر السالفة فضلاً عن هذا الزمان في وقت اضطهاد الحكومة لسلفهِ ومراقبتها الشديدة لكل ما يتعلق بهِ ثم ان صاحب الترجمة لما استقر بدار الخلافة مدح الحضرة السلطانيَّة بقصيدة مطلعها

النصر والتأييد والعمر المديد	قد توجت في عرشها عبد الحميد

وارَّخ سنة الجلوس الشاهاني بقوله

بشرى الولاية قد اتت تاريخها	لخلافة يسمى بها عبد الحميد

ولم تطل الايَّام حتَّى ارسل الوزير التونسي يطلب من الباب العالي ارجاع الشيخ بيرم الى تونس مدَّعياً انهُ سافر بدون رخصة الحكومة ولم يقدم حساباً عن ادارتهِ في الاوقاف والواقع ونفس الامر انهُ لم يطلبهُ الاَّ بالحاح قنصل فرنسا عليهِ من جهة لان فرنسا لا تحب حصول الارتباط بين تونس والدولة العليَّة باي وجه من الوجوه حتَّى انها من بين سائر الدول لم تعترف بفرمان سنة ١٢٨٨ المقرَّر لتابعيَّة تونس للخلافة الاسلاميَّة ومن جهة اخرى قد خشي الوزير من التحام صاحب الترجمة بخير الدين باشا وافسادهما مساعيهِ

لتولي الامارة واطلاع الدولة العثمانيَّة على دسائسهِ وسوء سياسة الحكومة التونسيَّة في مدة الصادق باي لانهُ سلم جميع الامور بيد وزيره المديم الخبرة وقد بذل مصطفى بن اسماعيل جميع مجهوده واغرى بعض كبار الرجال في الاستانة لمساعدتهِ على اخراج الشيخ بيرم منها غير ان حكمة مولانا امير المؤمنين وعدالتهُ حالت بين صاحب الترجمة وبين اعدائهِ واصدر امره العالي بانهُ اذا كانت هناك دعوى على ناظر اوقاف تونس المقيم بالاستانة فلترفع فيها اذ ان تونس لم تخرج عن كونها من الولايات العثمانيَّة الّتي تجمعها جامعة تخت السلطنة وبذلك سكت مصطفى بن اسماعيل عن دعواه الفاسدة اما اولاً فلانَّ صاحب الترجمة لم يخرج من تونس الَّا بجواز (باسبورت) رسمي ممضي عليهِ من الوزير نفسهِ بصفة كونهِ وزير الخارجيَّة لم يزل محفوظاً للآن وقد حضر لوداعه يوم السفر كثير من كبار رجال الحكومة بما فيهم وزير البحريَّة وأعدله بامر الوزير الاكبر زورق خصوصي من زوارق الباي لتوصيله للباخرة وقد اوصاه الوزير بحضر جمهور عديد من التونسيين لاحضار بعض هدايا من الحرمين المحترمين هذا ما يتعلق بالسفر واما حساب الاوقاف فقد جرت العادة بنشره سنويًّا في الجريدة الرسميَّة " الرائد التونسي " ولم يتأخر نشره قط وهو محفوظ في مجموعة الرائد يمكن مراجعتهُ ثم ان صاحب الترجمة قبل سفره للحجاز اخذ براءة من مجلس ادارة الاوقاف ممضى عليها مِنْ جميع الاعضاء ومن امين الصندوق وهي حجة قوية ناطقة بان لا شبهة في الحساب ولا شيءَ من اموال الاوقاف باقٍ في ذمة الناظر وتلك البراءة هي بنصها بالحرف الواحد

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا مُحَمَّد وسلم

ريالات فضه

١٠ ١/٢ ٣٥٣٩٣٩

٤٢ ٣/٤٠ ٣٠٤٨٧٩

١/٢ ٥ ٣/٤٠ ٤٩٠٥٩

٥"٠٠" ٨٦٢

١/٢ ٥ ٣/٤٠ ٤٠٤٣٤

اطلعت الجمعيةُ على حساب دخلها وخرجها سنة ١٢٩٦ التاريخ بانضمام حسابات السنين السابقة اليها فكانت جملة الدخل ثلاثمائة الف وثلاثة وخمسين الف ريال وتسعمائة وتسعة وثلاثين ريالاً ونصف ريال وعشرة نواصر فضة وجملة الخرج ثلاثمائة الف واربعة آلاف وثمانمائة ريال وثمانين ريالاً الاَّ ثمانية نواصر ونصف ناصري فضه الذي بتذاكر الجمعيةٌ وكان الفاضل ما قدره تسعة واربعون الف ريال وستون ريالاً الاَّ سبعة نواصر ونصف ناصري فضة اخرج منهُ الرئيس ثمانية آلاف ريال وستمائة ريال وخمسة وعشرين ريالاً فضة صرف خمسة آلاف فرنك صرفت في مصالح الدولة وخرجت فيها تذكرتين منها لقابضها يدفعها مصروفاً على يد الوزير الاكبر ولم يدفعها القابض الى الآن احداها تذكرة مؤرخة في ٢٧ القعده من عام ١٢٩٣ عدد ٤٦١٩ بها الفا فرنك اثنان وثانيتها مؤرخة في ١٥ الحجة سنة ١٢٩٥ عدد ٣٥٦٩ بها ثلاثة آلاف فرنك ولما كان الفصل الواحد والعشرون من ترتيب الداخليةّ للجمعيةّ قاضٍ بابقاء المفتاح الثالث

للخزنة الثانية عند الرئيس والفصل السابع عشر من الترتيب المذكور قاضٍ بان كاهية الجمعيّة يقوم مقام الرئيس عند غيبتهِ وقد اراد الرئيس السفر الى اروبا فبمقتضى ذلك ابقيت تذكرتا الدولة المذكورتان بالخزنة الثانية المذكورة وسلم الى الكاهية مفتاحها الثالث بحضر الجمعيّة بعد اطلاعها على الحساب المذكور وسلامة ذمة الرئيس مما في عهدتهِ وكان الباقي تحت يد امين مال الجمعيّة اربعين الف ريال واربعمائة ريال وخمسة وثلاثين ريالاً الّا سبعة نواصر ونصف ناصري فضة وكتب في ٢٠ يونيه الموافق لرجب الاصب ١٣ من عام ستة وتسعين ومائتين والف

صح احمد الورتاني صح محمد بن الامين

صح محمد الشاذلي السنوسي صح من محمود بن سالم

هذا وقد خرج صاحب الترجمة مِن القطر التونسي وترك وظائفهُ فيهِ ولم يكسب منها شيئاً مع انهُ كان يسهل عليهِ كثيرًا في تلك الاوقات الدخول في ابواب الكسب بلا معارض ولا ممانع كما جرت بهِ العادة عند الكثير محافظة منهُ على الاستقامة واحترام الحق لا سيما والاوقاف لم تكن في بادئ امرها مضبوطة ولا معلومة فامرها في الواقع موكول لذمتهِ وطهارة نفسهِ فكان كثيرًا ما يلتزم لبيع املاكهِ وعقاراتهِ لتسديد مصاريفه الواسعة حتّى ان مصاريف سفره الاخير لباريس حيث توجه بمأموريّة من طرف الوزير التونسي تحمل بها من عنده وبلغت اربعة عشر الف فرنك مع ان الوزير المذكور وعدهُ بتسديدها ولم يوفِ بعد. ولما استقرت اقامتهُ في دار الخلافة وجد المرحوم خير الدين باشا مهتمًا

بتقديم تقرير بشأن الاصلاحات المقتضي ادخالها في نظام الدولة العليَّة لزيادة سطوتها وتأييد عظمتها على حسب ما يفتكر وقد انهى التقرير المذكور بالفعل غير انهُ لم يحز محل القبول لانهُ لم يكن مطابقاً في بعض وجوهِ لاحكام الشريعة الغراء فاخذ الشيخ بيرم في تطبيقهِ عليها ولما انتهى منهُ حصل تقديمهُ للحضرة السلطانيَّة ومن ذلك الحين شملتهُ الانظار الشاهانيَّة بعين ملاحظتها لدقة علومهِ واتساع معارفه ثم انهُ تفرَّغ لتدوين " صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار " وتم الجزئين الاولين منهُ وكان يقصد تقديمه للحضرة المعظمة المشار اليها عند اتمامهِ خصوصاً وهو شارع في جعل خاتمة الكتاب المذكور على نحو مقدمتي ابن خلدون واقوم المسالك اي انها تتضمن ما يقتضيهِ الحال لاصلاح الاحوال في البلاد الاسلاميَّة لعود عصر شبابها اليها كما هو غرضهُ الوحيد الذي يدأب لهُ منذ زمان ويتحمل في سبيله كل مشقة وعناء وقد تحسنت صحتهُ اذ ذاك واستراح من اتعاب المرض وكاد ان يشفى منهُ تماماً حتى ان استعماله المرفين قل بحيث بلغ درجة تقرب العدم وبينما هو على ذلك الحال متنعم البال منتظراً الرحمة من الله بانقاذ بلادهِ من حكومتها الجائرة اذ ذاك وقد اعتذر عن العمل بمقترحات اقترحها عليهِ الموسيو فورنييه سفير فرنسا في ذلك الحين حاصلها الرجوع الى تونس تحت كنف فرنسا او الاقامة بالجزائر او بباريس اذ فاجأتهُ الاخبار بزحف العساكر الفرنسويَّة على الحدود التونسيَّة وابتداء حركة " خمير " المخترعة . ثم ان الشيخ بيرم كان عالماً بما ستأول اليهِ البلاد من السقوط في يد فرنسا ولكنهُ لم يكن ينتظر حصول ذلك في العصر الحاضر وكانت في تلك

الاثناء ترد عليهِ مكاتبات من بعض احبائهِ التونسيين وغيرهم بما يحصل في تونس مِنْ تلاعب الوزير بين قنصلي فرنسا وايطاليا وارضائهِ احدهما يوماً واغضابهِ الآخر يوماً ثانياً وكان الشيخ ينصح مكاتبيهِ ومحبيهِ بتجنب هذه الالعاب المضرة خصوصاً تظاهر الوزير بالميل الفجائي لايطاليا واغضائه مرة واحدة عن فرنسا حتى انهُ اهان كرامتها لان ذلك لا تؤمن عواقبهُ ولم يمض على ذلك شهر حتى ابدت الوقائع ما كان يخشاهُ وليس مِنْ غرضنا تكرار كتابة ما حصل في ذلك العهد لدخول فرنسا الى تونس واعلان حمايتها عليها اذ ان ذلك تكفلت بهِ كتابات غيرنا ولكنا نقول ان الحضرة السلطانيَّة اصدرت امرها لخير الدين باشا ولصاحب الترجمة بتقديم ما يريانهِ في هذه المسئلة لجانبها وقد كتب صاحب الترجمة في ذلك تقريرًا مفصلاً لخص فيهِ بيان حقوق الدولة العليَّة على البلاد التونسيَّة وارتباطاتها بها قديمًا وحديثًا واستنهض هم الدولة لانقاذ تلك المملكة المسلمة حيث انها مرقد المجاهدين ومدفن الصحابة والتابعين من الوقوع في يد دولة اجنبيَّة وختم التقرير بنتيجة ما يراه وهو انهُ اذا كانت الدولة تشغلها شواغل الحرب الروسيَّة وعواقبها من انقاذ تونس بالقسر من مغتصبها فلا اقل مِن انهُ يلزمها التحالف مع دولة اجنبيَّة اخرى للتساعد بها على نيل ذلك المرام ولو اقتضى الحال التنازل لها عن مدينة واحدة مثل مينا بنزرت في مقابل هذا التحالف وكانت الدولة جرت على مثلهِ مرارًا عديدة فان خسارة مدينة واحدة خير من خسارة مملكة برمتها وقد كان الشيخ بيرم يكتب هذا التقرير والدموع تقرح عينيهِ والالم العصبي الذي تحرك وتجدّد يفتك بجسده وكان يكرر القول على جلسائهِ بان

لا حذر مما قدّر لا سيما وان الفرصة المناسبة للدولة قد فاتت وهذا الزمن زمن قتال لا وقت جدال وسيأتي ذكر هذا التقرير في مجموعة منشآته ورسائله ولما رسخت قدم فرنسا في البلاد يئس المرحوم من قرب العودة اليها ورام التقرب من عائلته للمخابرة في شؤون بيع ما تبقى من املاكه ونقله العائلة من تونس الى بلاد اخرى فسافر الى ايطاليا لذلك الغرض واقام في مدينة ليفورنو لقربها من تونس وكان مدة اقامته في الاستانة معاشرًا لاهلها وخصوصاً ابناء العرب منهم معاشرة الصفاء والاخلاص متباعدًا عن المزاحمة في طلب المناصب او التداخل فيما لا يعنيه ولم يرَ منهم الاّ ما يسره وكان السيد سلمان القادري رجع من القسطنطينيّة الى بغداد فلما استقرّ بها كاتب صاحب الترجمة بما نصهُ

"كتابي هذا وانا ممتلي من الاشواق . ومضطرب لما لها من الاحراق . كيف لا وحب ذلك المولى الاجل . والنجيب الافضل . قد اخذ بمجامع القلوب . واحاط بالفكر على اتم اسلوب . لمزيد ما انطوى عليهِ من الاوصاف الحميدة . والمكارم السديدة . مع طبع رائق . وعلو جناب فائق . وشهامة كاملة . ونجابة فاضلة . وعلمٍ وافر . وفضل متكاثر . فكل فضيلة بهِ حريّة . وكل مفخرة لهُ سجيّة . وليكن معلوماً لسيدي ادام الله تعالى بقاه . وانالهُ كل ما يتمناه . باني لم اخل ذكر ثنائهِ الجميل من لساني . ولم ينفك تخيل شخصه المنير لحظة عن جناني . بل لا زلت آنساً بما ذكرتهُ من الذكر والخيال . مفتخرًا بما خصلتهُ من محبة ذلك المولى النبيل بين الاحباب في جميع الاحوال . ثم اني وان قدمت من قبل هذا عريضة لم احظَ بجوابها من ذلك الجناب

الرفيع لكني ابدي عذرًا لما وقع من القصور مدة من عدم ترديفهِ بكتاب آخر اذ ترادف المرائض . معدود لدي من جملة الفرائض . فلم يكن التأخير المذكور ناشئًا من قصور في المحبة. ولا عن تقصير في العلم بعلو الدرجة والمرتبة . بل ذلك نوع من التقدير . ووجدانك القوي عالم خبير . يصدّق ما يدعيه هذا الخالص الفقير . فالمرجو من بعد هذا ان تستمر المراسلات في البين . وينقطع بوجودها البين . افندم الداعي

في ١٩ جمادى الاولى سنة ١٢٩٩ پوست نشين حضرت كيلاني

نقيب بغداد

﴿ السيد سلمان القادري ﴾

وقد كان صاحب الترجمة على عادة اهل تونس وعلى ما امتاز بهِ من التشيع الكلي لآل البيت النبوي الكريم يميل ميلاً خاصًا للسيد المشار اليهِ لنسبهِ العالي وحسبهِ الغالي وفضلهِ المتلالي حتى ان ذلك كان من جملة البواعث على الايقاع بهِ تشفيًا من سيادة السيد النقيب حرسهُ الله ومع ذلك فقد كان المرحوم يسعى جهدهُ لجمل علاقاتهِ مع جميع من يعاشرهُ من العرب وغيرهم في الاستانة على احسن ما يكون من المجاملة وحسن المعاملة وكان مع صاحبي السماحة السيد احمد اسعد افندي والسيد ابي الهدى افندي على قدم الوداد وحسن الاعتقاد كما يظهر من آثارهما المحفوظة لديهِ ونذكرها هنا تبركًا بهما وافتخارًا بودهما

"اخذت يابهجة الفضلاء . وقرّة اعين العلماء .

كتابكم الكريم . وامركم المحترم الفخيم . واطلعت على رسالتكم الجميلة (١)

(١) عقد الدر والمرجان في سلاطين آل عثمان

الشاهدة لحضرتكم بايادي العلم الطويلة . واني بحمده تعالى ممن يحب ان يسدي المعروف لاهل الفضائل . سيما لمثل حضرتكم من ارباب المزايا العلية والفواضل . فاذا وفق المولى نقوم بتقديها لحملها . ودمتم ارباب المناقب واهلها "

الداعي

(ابو الهدى)

" قدوة الاماجد الكرام . ذو الفضل والاحترام . محبنا العزيز السيد محمَّد بيرام . حفظهُ الله آمين

وبعد مزيد السلام . مع التحيَّة والاكرام . اعرف سيادتكم هو ان الساعة ثلاثة ونصف في يومنا هذا لازم تشرفونا في البيت مع نجلكم المكرم لاجل ان نتبرك بكم . هذا ما لزم ودمتم . في عز وسرور . وانم حبور

في ٧ ذي القعدة سنة ١٣٠٠ "

الداعي

(احمد اسعد)

وبعد ان اتفق صاحب الترجمة مع عائلتهِ على العود الى الاستانة والسكنى بها حيث لم يرَ محلاً انسب منها من بلاد الاسلام ولا تليق السكنى بعائلة مسلمة في بلاد اجنبيَّة مع انهُ كان يخطر في بال بعض التونسيين اذ ذاك التوجه في عدد كبير الى امريكا للاستيطان بها غير ان هذا الفكر لم يمكن تنفيذه لصعوبات حالت دونهُ فقصد المرحوم التوجه الى القسطنطينيَّة وعرج على جنيفا من بلاد سويسره حيث ابقى كاتب هذه الاحرف في احدى مدارسها المعتبرة ثم قصد ويانه وبلاد المجر والصرب ورومانيا حيث اقام ليلة في بخارست ومنها توجه الى وارنه من اعمال البلغار

ومنها ركب الباخرة قاصداً دار الخلافة حيث لم تتصل السكة الحديد اذ ذاك بينها وبين اوروبا وقد قاسى في هذه السفرة آلام البرد واتعاب السفر الذي حق فيه القول بانه قطعة من العذاب خصوصاً ولم يكن صاحب الترجمة يتكلم بلغة اجنبيّة الاّ بعض كلمات فرنساويّة وليس في النمسا ولا في البلاد الّتي عرج عليها كثيرًا ممن يتكلم تلك اللغة وكان يسرع المسير للوصول قبل عائلتهِ الى الاستانة لتحضير محل لنزولها وقد وصل اليها قبل العائلة بنحو يومين او ثلاثة وبعد ان استراحوا قليلاً فاجأهم ذوو الدسائس والاغراض بوشايات اوغرت الصدور على صاحب الترجمة وكادت ان توقعهُ فيما لا تحمد عقباهُ وكان مبنى تلك الوشايات على حصول الحركة العرابيّة بمصر اثناء وجود الشيخ بيرم في اوروبا فبنى عليها اصحاب الاغراض اقوالاً فاسدة ومزاعم بعيدة منشأها الحقيقي حزازات في صدورهم من الحسد له وبغية الايقاع بارباب المناصب من اصدقائهِ واحبائهِ فارادوا الانتقام منهم بالاساءة الى صاحبهم وجعلهِ محل تهمة يستخرجون منها ما يروج غرضهم في النكاية باولئك الرجال فالتزم هذا المهاجر بدينه الى دار الخلافة الاسلاميّة ان ينزوي في بيتهِ ويلازمهُ مدة تقرب من الستة اشهر لا يخرج منهُ الاّ لقضاء الضروري او اداء فرض عين كصلاة الجمعة وقد رأى في تلك الاثناء من تودّد الهمام الابر الصالح الورع الشيخ محمّد ظافر افندي المدني وتلطف الفريق الغيور الحاج حسن باشا محافظ مركز بشكطاش محل سكنهِ وكلا هما من اقرب المقرّبين للذات الشاهانيّة المخلصين لها في السر والعلانيّة ما اطلق لسانهُ بالشكر وقلبهُ بالدعاء الصالح لهما والحق يقال ان

الحضرة الخاقانية لم تفترعن شمول صاحب الترجمة بعين رعايتها وكثيرًا ما
كان امير المؤمنين امر الله به الدين يظهر علائم رضائه وصفائه عليه حتى انهُ
لما اراد يهدي الى امبراطور المانيا فريدريك الثالث وكان اذ ذاك ولي العهد
بعض جياد الخيل امر احد الاعوان ان يتوجه الى الشيخ بيرم ليكتب رسالة
عربيةً يصحبها المأمور السلطاني معهُ عند ذهابهِ الى برلين ليقدمها مع الخيل
الى الامير المشار اليهِ وكان ذلك بعد صلاة يوم الجمعة الثالث والعشرين من
رجب سنة ١٢٩٩ وكان يطلق عليهِ عند ذكره من الفاظ العناية ما يستدل
بهِ على قرب منزلتهِ من خليفة المسلمين وبمجرد وصول جلالتهِ الى قصره
الفاخر يلدز بعد صدور ذلك الامر جاءهُ الرسول بالكتابة المطلوبة فسرَّ
بها كثيرًا واثنى على كاتبها وتلك الرسالة هي " الحمد لله بديع الخلق كما شاء
واراد . جاعل الصافنات الجياد . عدة مستمرة من أهم آلات الاستعداد .
وصلاتهُ وسلامهُ على رسولهِ متمم مكارم الاخلاق . الحاث على الفروسيةَ
واقتناء الخيل العتاق . وعلى آلهِ واصحابهِ فرسان ميادين الوفاق . اما بعد
فلا يعزب عن نباهة نبيه . ودراية خبير في المعارف وجيه . ما للخيل على
الاطلاق من المزيَّة . في المنافع البشريَّة . بسائر الآفاق . حتَّى ورد في الخبر
الشهير " الخيل معقود بنواصيها الخير " لا سيما نوع العراب منها . الجامعة
لاشتات المحاسن فلا مندوحة لاهل الفضل عنها . ألم تر انها قد حوت جمال
الصورة واستقلت بالحذق وتهذيب الاخلاق المشكورة . فكادت ان تشارك
النوع الانساني في الادراك . وفضلت سائر انواع الحيوان بلطافة الذات
والمزيةِ في مواطن العراك . ألا وهي العاديات ضبحاً . المغيرات صبحاً .

متوسطة الجموع . مستشرفات الفروع . مبلغات الآمال . مقربات الشواسع لهم الرجال . فلذلك توجهت اليها عناية اهل الفضل . وتسابقت اليها الرغبات في الخصب والمحل . ولم تزل كريماتها محفوظة الانساب . متوارثة الخصال الحميدة من الاجداد الى الاعقاب . لا يأتلي اهل العناية عن اقتنائها . ومعرفة اصلها ونسبتها وانتشائها . ويفوز عليها بالمزيّة ما صلح منها لاقتناء الملوك العظام . سيما ما اختص بان يعتلي صهوتهُ خليفة الاسلام . لا زال تاجاً على هامة الايام . وما تختارهُ اليهِ العرب مِنْ صفوة جيادها الكرام . وعلى الخصوص ما تميز باهدائهِ . لخلاصة اهل ولائهِ . من الملوك الفخام . وكان منها هاتهِ الخمس الجياد . العتيقات الاعراق الامجاد . ثلاثة منها عراب الآباء والامهات . واثنان من خلاصة الاعاجم الوطن وان ناكبت العراب في الصفات . وقد تحرر هذا التحرير في التعريف باصولها . وما جمعت من سمات الكمال وفصولها . فاما الثلاثة العراب . السابقة القرين في العراقة والانتساب . فاولها اشقرها المبارك . الذي لا يدانيه في استجماع المحاسن مشارك . واسمهُ المجلى . وقد طابق اسمهُ مسماه اذ هو لمفاخر الخيل مجلي . وهو من جياد نجد العربيّة . الشهيرة الصفات والمزيّة . سقلاوى القبيلة . شامل لما يحمد في امثالهِ من الفضيلة . كل سلسلة اصولهِ من قبيلته المحمودة . وكلا ابويهِ متفرع من ذلك القبيل الى جدود كثيرة معدودة . مسماة اجداده وجداته . خالصة من اشتباه النسب وكمالاته . واما ثانيها وهو الاشهب . الجاعل ابعد القصبات الهين الاقرب . واسمهُ السابق . فهو مناكب متقدمهِ في جميع صفاتهِ حتى غدى بهِ لاحق . سوى انهُ استعوض عن النجديّة . بان كان من العراق العربيّة .

ولا يخفى ما لعتاقها من شهرة المزيَّة . سيما في حفظ النسب من الاختلاط . وانتساق عمودهِ على اقوم صراط . لا جرم ان كان وحيد اقرانه . بنباهة شانه . واما ثالثها المسوّم . وهو الاحمر المستكمل المقوّم . واسمهُ ابو ليلى . فقد جمع لما في جياد الخيل يتلى . اذ هو من صنف كحيل العجوز . الذي هو لصفات العتاق من العراب يحوز . وعلى من جاراهُ في ميادينها يفوز . فهو لا يجارى اذا ما ضمر . لانهُ مِن خلاصة خيل قبيلة شمر . فلعمري ان هاتهِ الثلاثة وان اختلفت انسابها . فقد اتحدت عراقتها واحسابها . وكل منها قد استكمل صفات الجودة والفضيلة . واستتبت فيهِ محامد كل الخصال الجميلة . فلا بدع ان تبعها ما يكمل بهِ عدد الخمس . مما تنبسط لهُ الروح وتنشرح بهِ النفس . وهما الفرسان الاخضران . اللذان استكملا صفة العتاق ولو انهما اعجميان . وهما من جزيرة مدلي الشهيرة . ذات النقطة المهمة مِن البحر الابيض الفائزة بالخيل ذات المناقب الخطيرة . وهما وان افترقا هيكلاً . فقد تفردا منظرًا مجملاً . اذ هما فرسا رهان . متحدا الاخلاق والسمات والالوان . فاستكملت هاتهِ الخيل مزايا التناسب . وكانت لها جهة ملائمة بما للمتهادين من التوادد المتقارب »

وقد كان السلطان ارسل لهُ قبل ذلك ايضاً كتاب الشفاء لابن سينا في نسخة جميلة لتفحصهِ وتقديم كتابة بمضمونهِ وبعد مدة من الزمن صفا فيها الجوّ للشيخ بيرم من رمي الاعادي وحسد الحساد زاد السلطان في اكرامهِ باحتساب مصاريف اقامتهِ في الاستانة على خزينة الدولة باعتبارهِ ضيفاً من ضيوف الحضرة السلطانيَّة وذلك بان تدفع نظارة الماليَّة اجرة المنزل ولوازم

البيت وقدرت في الشهر بخمس وعشرين ليرة عثمانيةً وقد استمر صرف هذا المرتب مدة ثمانية عشر شهرًا اي لحين خروج صاحب الترجمة من الاستانة

وقد بادر المرحوم بكتابة المكتوب الآتي لاداء واجب الشكر على هذه العناية السلطانيةً ونصهُ

المقام الذي اناخت به مطايا البيان واستقرت . واعترفت البلاغة بانهُ وحيد عصرهِ واقرت . وعضد اليراع اشهادها اذ كان بعد ان جست يدها اسطاعته ونقرّت . فلا بدع ان ابصرت بهِ عين الوزارة وقرت . وكان يمين الخلافة المؤتمن منها على ما تشا . ألا وهو صاحب الدولة علي رضا باشا . باشكاتب الحضرة السلطانيةً . افاض الله عليهِ آلاءهُ القدسيةً . اما بعد سلام تحملهُ ايدي التعظيم . وتحفهُ آداب الاجلال والتفخيم . فقد بلغ العبد ما حصل لهُ من عناية مولانا صاحب الخلافة العظمى . والسلطنة الباذخة المجد الشمى . فوقع مني هذا الانعام الموقع الذي ليس وراءهُ حد في الاعجاب . وهزني السرور حتى اعجزني عن التلفظ بالخطاب . كيف لا وقد لاحت من ذاك الانعام بفضل الله علائم اخلاصي فيما اقتحمتهُ من مفارقة وطني وكسبي وعشيرتي وخواصي كما كنت بسطتهُ لدى جنابكم قبل ان تحدث على وطني الطامة الكبرى . المرجو من الله ان يبدل بأمير المؤمنين عسرها يسرا . من اني اعد عملي قربة لله جل وعلى . اذ في ذمتي ورقبتي بيعة لامير المؤمنين لا تبلى . ولا يجوز لي شرعًا ان ابتغي بعبد الحميد سلطاني بدلا . فقد ورد في صحيح البخاري " من خرج عن السلطان قيد شبر مات ميتة جاهليةً " فلم ابالي لذلك بالمضادات الوطنيةً والخارجيةً . واستقررت في ظل الخلافة

الاسلاميَّة . إلَى ان غمرتني الانعامات الخاقانيَّة . فكيف لا اطير لهذا الانعام سروراً . وهو علامة بارادة الله تعالى ان تنال النفس الرضى موفوراً . فقلت يا نفس قرّي عيناً . وردي من مناهل امير المؤمنين عذباً معيناً . فها انت شاهدت قسطاس عدله . واين انت من جودهِ وفضلهِ . وفوق ذلك الطاف العناية . التي ليس وراءها للتطلب من غاية . فحسبي حسبي . ولنتوجه ضارعاً الى ربي . بشراشر لبي . واخلاص قلبي . ونقول اللهم يا من تجلى بجلائل نعمائهِ . ويا من احتجب برداء كبريائهِ . يا من توجهت الى جنابهِ الاقدس عزائم الآمال . ويا من تعلقت بعميم جوده اطماع السؤَّال . نستوهبك من الصلوات والتسليمات . ما يناسب من فضلتهُ على جميع المخلوقات . وانرت بهِ اقطار الارض والسموات . سيدنا ومولانا محمَّد خاتم الرساله . ومنار الدلاله . وتنظم فيها معهُ صحبهُ الكرام وآله . ونتضرَّع اليك اللهم ان تكسو هاتهِ الدولة العليَّة العثمانيَّة حلة النصر . خافقة ألوية عدلها الى آخر الدهر . مؤَيدة اعلامها . مكتوباً على صفحات الايام اجلالها واعظامها . بتأْييد اسد غابها . وامام محرابها . قرة اعين المسلمين . مولانا امير المؤمنين . المحفوف بالتأْييد الرباني . الخليفة الاعظم السلطان عبد الحميد الثاني . اللهمَّ وكما جعلتهُ منخرطاً في سلك المدح من رسولك عليهِ الصلاة والسلام لامراء القسطنطينيَّة من آله الكرام حسبما هو في الصحيح المأْثور . فاجعله اللهمَّ مظهراً لوعدك حيث قلت " ولينصرنَّ الله من ينصرهُ ان الله لقويٌّ عزيز الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور " واطل اللهم في طاعتك عمره . واجعل السداد

والصلاح فيما دبره . منكسة اعداؤُه على الاعقاب . مستبشرة احباؤُه بعمله المستطاب . وألسنتهم بالدعاء اليهِ صادحة . خاتمين ضراعتهم باسرار الفاتحة . وبعد ان انتظمت دعواتنا بمشيئة الله في سلك الاجابة . واحرزت من حضها موقع الاصابة . حان لعصابة الشكر والحمد والثناء ان تكون لسدّة امير المؤمنين ايده الله مصروفة . ومن البديهي ان وقوعها موقع القبول لدى جلالتهِ على حسن تمهيد مثلك أيها الوزير بعد الاعتماد على الله تعالى موقوفة . فلتورِ لها زناد الحميّة . من تلك الغيرة الرضائيّة . لا زلتم صاعدين مدارج السعادة في العناية السلطانيّة "

وفي تلك المدة تفرغ الشيخ لتأليف الجزء الثالث من صفوة الاعتبار وتحرير رسالة سماها " التحقيق في مسألة الرقيق " بحث فيها عن كيفيّة معاملة الرق عند المسلمين بمقتضى الشريعة وبيان اسباب الرق ودواعيه واحكامه وذهب فيها الى ان العبيد المباعين الآن هم احرار وان منع الحكومات الاسلاميّة لتجارة العبيد هو شرعي محض لا يحتاج الحال فيهِ لطلب الدول الاجنبيّة وقد حرر قبل ذلك جوابًا علميًّا لبعض نبلاء الانكليز عن سؤال وجههُ اليهِ مضمونهُ هل ان التونسيين مسرورون من دخولهم تحت دولة اجنبيّة فاوضح السيد بيرم في جوابهِ بان التونسيين ليسوا اقل الامم حبًا في الاستقلال والتنعم بلذائذه والغيرة على الوطن وانهم مسلمون يتمنون بكل جوارحهم دوام صلتهم بالجامعة الكبرى الاسلاميّة واستدل على ذلك بادلة عقليّة ونقليّة طويلة مقنعة وقد كانت من عادة صاحب الترجمة منذ كان في تونس ان يحتفل كل سنة بالمولد النبوي الشريف احتفالاً

شائقاً واظب عليهِ لحين وفاته حتى انهُ كان آخر اعماله في هذه الدنيا رحمهُ الله وفي كل سنة يكتب رسالة مخصوصة في موضوع من المواضيع العلميَّة يتخلص فيها لذكر المولد الشريف وقد الف في الاستانة رسالتين لذلك الغرض احداها فيما يجب لآل البيت النبوي الكريم من التبجيل والتعظيم مبيناً حقوقهم على المسلمين بشرط ثبوت النسب العلي حتَّى لا يدخل في هذه السلسلة السامية دخيل تترتب له تلك الحقوق الواجبة وثاني الرسالتين فيما يجب للنبي صلى الله عليهِ وسلم على سائر المسلمين وألف رسالة اخرى في سكنى دار الحرب وذلك عند ما رأى ما طرأ على بلاد الاسلام من التقهقر المستمر نسأل الله اللطف والسلامة وقد ذهب في هذه الرسالة بعد شرح ما عليهِ البلاد الاسلاميَّة الآن الشرح الكافي وايراد الادلة والنصوص الشرعيَّة الى ان الانسان حر فيما يختاره حسب مصلحتهِ واجتهاده . وقد سأله بعض الافاضل عن رأيهِ في مسألة الاجتهاد والتقليد مستنداً عَلَى الرسالتين المطبوعتين في الاستانة المنسوبتين لملك بهوبال صديق حسن خان فشرع في الجواب غير انهُ لم يتمهُ ويظهر من فحوى كلامهِ واعماله الخصوصيَّة انهُ يرى تقليد احد الائمة الاربعة واجباً على حسب المشهور في مذهب اهل السنة . ولما تولى امير تونس الحالي منصب الامارة هنأهُ الشيخ بيرم بمكتوب مصدر بهذين البيتين

ألا بعلي ملك تونس سدّدا فلا زال فخرًا للبلاد مؤيدا
ونجح دعائي بان اذ قلت ارّخن ألا بعلي ملك تونس سدّدا

وقد توجهت في ذلك الوقت آمال احباء قائل هذين البيتين لرجوعهِ

الى تونس اذ ان نفوره الذاتي كان من الوزير مصطفى بن اسماعيل الذي افل نجمهُ بوفاة سيده الصادق باي ولم يبق من مانع له من العود الى بلاده ومسقط رأسهِ ومدفن اجداده خصوصاً ورستان نائب فرنسا استبدل بغيره وصفا الوقت وزال المقت فكاتبهُ بعض المتشيعين للسفارة الفرنسويَّة بتونس بمناسبة الفرصة لا سيما وقد كان وعد الامير عند توديعهِ وهو اذ ذاك ولي العهد بالعود الى الوطن عند ولايتهِ عليهِ فاعتذر صاحب الترجمة عن كل ذلك بان السيرة العموميَّة هناك لم تبقَ على الحالة المألوفة ثم ان صحتهُ لم تزل في تقهقر في الاستانة لتأثره من الانفعالات النفسانيَّة المتسببة عن دسائس ذوي الاغراض السابق شرحها الّتي لا يكاد يخلو منها من كان له شأن بين الناس او فضل يميزه بين اقرانه والمعالجة والعيال يلزمها الكثير من المال فباع صاحب الترجمة جميع املاكهِ بتونس وصار يصرف من ثمنها في حاجياته وعوائده الّتي لم يغير منها شيئاً بحيث رأى نفسهُ في تأخر مالي مستمر لا يأمن معهُ من الوقوع في مخالب الفقر وهو لم يحسن من العمل الاَّ مباشرة عقاراتهِ والتفرغ للاشغال العلميَّة وكان بعض كبار اصدقائهِ ينفرهُ من سائر الوظائف العادية لاعدادهِ الى وظيفة مخصوصة تليق بعلومه وما زال منتظراً حتى ضاق لذلك ذرعاً وزاد عليهِ اشتداد المرض العصبي اذ وجد عاملاً لتحريكهِ قويًّا وهو الانفعال النفساني المستمر فنظر في امره فلم يجد من البلاد الاسلاميَّة الّتي يمكنهُ الاقامة فيها براحة بال الاَّ القطر المصري وهو مع حرارتهِ الّتي يأباها مزاج صاحب الترجمة الاَّ انهُ اوفق من غيره من البلاد الاخرى . اما الولايات العثمانيَّة فقد اشار عليهِ بعض المطلعين على الاحوال على ان طلبهُ

التوجه اليها لا يحوز محل القبول خصوصاً وهو لم يكن لهُ ميل الاَّ للتوجه الى المدينة المنوّرة المجاورة او الى الشام ويمنعهُ عن الاقامة في الحجاز احتياجهُ المستمر للحكماء والعلاجات وهما شيئان مفقودان تقريباً من تلك الجهات المباركة فاستخار الله في القدوم الى مصر وساعدتهُ المقادير بالحصول على مكاتيب توصية لبعض ذوي النفوذ في هذه البلاد فاراد طلب الرخصة للقدوم اليها ولكنهُ استشعر ان طلب الاذن للتوجه اليها ربما لا يحوز قبولاً خصوصاً وانهُ تعذر عليهِ وجود من يبلغ الحضرة السلطانية تفصيل امرهِ وشكوى حالهِ على الوجه الحقيقي والاَّ فان احترام الخليفة لمثلهِ من علماء المسلمين كان يدفع شكواهُ ويرفع عنهُ ألم معيشتهِ ولكن دون الملوك من عقبات الاشغال ما يمنعهم عن الوقوف احياناً على مثل هذه الاحوال فاذا فقد الناصح الامين الذي يتيقظ لملافاة هذه الامور بحسن تبليغها الى مقام الخلافة حصل الاهمال الذي وقع فيهِ صاحب الترجمة وامثالهُ فالتزم التمحل بطلب العودة الى الوطن وقارن هذا الطلب الاجابة اذ كاتبهُ علي رضا باشا باشكاتب المابين الهمايوني بهذه البطاقة العربية وهذا نصها بالحرف الواحد بخط يدهِ

" العالم الفاضل والاديب الكامل محمَّد افندي بيرم سلمهُ الله

بعد التحية الوافية نبدي لكم اننا عرضنا مادة العزيمة الى بلدتكم فصدرت الارادة السنيَّة السلطانية على عزيمتكم الى ذلك الطرف ان شاء الله تكون مصحوباً بالسلامة ونروم منكم ان لا تنسونا من دعائكم الصالح في السفر والاقامة ودمتم في ٢١ ذي الحجة سنة ١٣٠١ (علي رضا) "

وممّا يذكر هنا مقروناً بمزيد الاسف ان القسطنطينيّة العظمى تشتمل على نحو المليون نفس من السكان من اجناس مختلفة اقلهم ابناء العرب او المنتسبون اليهم ومع ذلك لا ترى اشد منهم تهافتاً على الايقاع فيما بينهم فبينما ترى الروم والارمن واليهود يعاضدون بعضهم بعضاً ويسعون لبني جنسهم في الخير بحيث يصدق عليهم انهم كالبنيان المرصوص يشد بعضهُ بعضاً ترى اولاد العرب المسلمين ينتحلون ويتلهفون على اختلاق الاسباب وايجادها لابعاد بني جنسهم عن دار الخلافة وتنفير قلوبهم منها ولله في خلقهِ آيات. فقد راجت فيهم سوق التحاسد والتباغض والتنافر والتشاحن حتّى لا يكاد يخلو حديث من احاديثهم او حركة من حركاتهم الاّ في ايذاء بعضهم وايقاع السوء بأنفسهم والتخاذل فيما بينهم لا فرق في ذلك بين الكبير والصغير والعظيم والحقير بل الداء واحد في الكل الاّ من وفق الله ولا شك ان هذا من سوء حظ الاسلام الذي كان ينبغي ان يصرفوا لهُ اوقاتهم في خدمتهِ بما في يدهم من القدرة على نفعهِ نسأل الله ان يرفع من بينهم آفة الدسائس الّتي يشوشون بها على انفسهم وعلى بلادهم ويسقطون بها سائر الامة العربيّة في أعين الامة التركيّة

وقد غادر الشيخ مركز الخلافة والعين مغرورقة بالدمع والحشاء ممتلىء بالاسى والصدر مفعم بالاسف ليس ذلك لمنصب فارقهُ او لرفاهة عيش زايلها او لطمع في شيء من نعيم الدنيا الزايل وعيشها الفاني وانما كان يتحرق فؤادهُ لما كان يرى عليهِ الامة الاسلاميّة من الانحلال والاخذ في اسباب الضعف وكيف ان بلادهُ وقعت اولاً في يد الاجنبي وخرج لاجل ذلك

مشتتاً بعائلتهِ في البلاد ليسكن بها بلدة اسلاميةً فلم يرَ امامهُ مكانا هو اولى ان يقصد لهذا الغرض وأليق بعالم مسلم مثلهِ من اولاد نقباء الاشراف ان يقيم بعائلته فيهِ سوى دار الخلافة وعالل النفس بأن ما يراهُ هناك من صولة الاسلام وتشييد الدين واستقامة أُمور المسلمين واجتهاد امير المؤمنين ومن حولهُ من خاصتهِ وحاشيتهِ ورجالهِ لانقاذ الاسلام واهلهِ مما سيسلى مصابهُ بفقد بلادهِ ومنّى النفس بانهُ لا ييأس على ضعفهِ وعجزهِ من القيام بخدمة تفيد الاسلام او نصيحة تشيد الدين او اشتراك في عمل يجمع بهِ كلمة المسلمين او ما يماثل ذلك مماً يجب على كل فرد من المسلمين القيام بهِ وخصوصاً من كان من طائفة العلماء فرأى لسوء الحظ من تلك الدسائس ودنايا السعايات ومسابقة الوشاة اضراراً بكل من كان مثلهُ على رأيهِ حتى يخلو الجوّ لاولئك المسابقين ما اضطرهُ الى مبارحة دار الاسلام للتشتت مرة اخرى في البلاد بعائلتهِ بعد ان يئس من العمل في حقهِ بمقتضى الآية الشريفة "قل لا أسألكم عليهِ اجرًا الاّ المودة في القربى" والمرحوم يمت بحبل النسب الى البيت الطاهر النبوي من جهة ويتصل من الجهة الاخرى الى مجاهد في سبيل خدمة الدولة العليّة اراق دمهُ في افتتاح البلاد التونسيّة ولم تزل اعقابهُ تتوارث الولاء والاخلاص والصداقة المتينة للدولة العليّة في كل زمان ومكان حتّى انهُ لما اهدى السلطان عبد المجيد كركاً من السمور الفاخر من ملبوساتهِ الذاتيّة الى امير تونس احمد باشا لم يرَ الامير المشار اليهِ أَليق بلبسهِ من الشيخ بيرم الرابع فاعطاهُ اياهُ ولم يزل محفوظاً يتبرك بهِ في بيت بيرم بتونس وصار لبس الكرك مزيّة لهم لم يقلدهم فيها سواهم وقد اكتفى الشيخ

الرابع بذلك عن قبول نشان الافتخار التونسي لما عرضهُ الاميرعليهِ واتبعهُ في ذلك صاحب الترجمة ايضاً سنة ١٢٩٥ اذ صارت العادة في تونس ان العلماء لا يتقلدون النياشين وفي حرب الدولة مع الروسية سنة ١٢٤٤ لقاعست الولاية التونسيَّة عن نصرة الدولة مادّيًا وادبيًّا فلم يجد شيخ الاسلام بالاستانة من يستعين بهِ لحث المسلمين في تونس على مساعدة الدولة الّا جد صاحب الترجمة بيرم الثاني لما هو مشهور عن هذه العائلة منذ القدم انها متعلقة بخدمة الدولة لا تفتر عن ذلك ابدًا فاجابهُ بالمكتوب الآتي نصهُ

"ربنا افرغ علينا صبرًا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . ان احسن ما تشرفت بهِ الامة المحمديَّة . وتجملت بهِ العصابة الاحمديَّة . اتباع اوامر الله تعالى ونواهيهِ . وبذل الجهد في اعلاء هذا الدين وتشييد مبانيهِ . اقتداء بصدرها الاول . وعملاً بسنة نبيهِ المرسل . ولعمري ان هذا في العبارة وان كان سهلاً بيناً . ففي ابرازه للوجود ليس هيناً . لتوقفهِ على امدادات الهية . وهداية ربانيَّة . وداع الى هذا بلسانهِ . ورمحهِ وسنانهِ . وقد تطابقت حملة الانباء في سائر البلاد . مِنْ جميع العباد . ان القائم بهذا الشأن . والحائز قصب السبق في هذا الميدان . ومجدد الدين بعد الاندراس . ومظهر اعلامه اثر الانطماس . الدولة العثمانيَّة اعلى الله منارها . وضاعف اقتدارها . وانام الانام في ظلها . واعاد عليهم من فيض فضلها . فلم تخل والحمد لله من امام يهدي الى الحق والى طريق مستقيم . ولم يأل جهدًا في رمي اعدائهِ بالعذاب الاليم . مؤيد من الله بعلماء . عاملين هم ورثة الانبياء ناهجين في نصح العباد مناهج الاصفياء . وقد ورد علينا من حضرة مولانا شيخ

الاسلام . وامام العلماء الاعلام . ومرجع الحكام في الاحكام . ومن بيده مقاليد النقض والابرام . لا زالت اقلامهُ في بحار العلوم سابحة . ومواعظهُ للقلوب جارحة . وتجارتهُ عند الله تعالى رابحة . كتاب كريم . هادٍ باوامره ونواهيهِ الى الصراط المستقيم . لا يقابلهُ كل مؤمن الاَّ بالقبول والتسليم . وكيف لا وقد جاء بالذكرى الّتي تنفع المؤمنين . المأمور بها في الكتاب المبين . حاثاً على الجهاد . والتشمير عن ساق الاجتهاد . وتعاطي اسبابه . وطرح الامور الصارفة عن بابهِ . فاجتمع لقراءتهِ الاعيان من العلماء وغيرهم بحضرة الامير جمعاً . وفتحوا لهُ قلباً وسمعاً . وتلقوه بالاذعان والقبول . والمبادرة لامتثالهِ بالفعل والقول . واميرنا مثابر على تنفيذ اوامر الدولة العلية . الّتي طاعتها من طاعة رب البريَّة . وماهو الاَّ ان يؤمر فيطيع . ويكاف فيأتي بما يستطيع . والله تعالى يؤيد سلطاننا بمدد نصره . ويجعل اعداء الدين تحت قهره . ويعلي رايتهُ الشامخة في البر والبحر . ويكتب على صفحاتها سورة الفتح والنصر . والسلام اللائق بجلالكم . من العبد الفقير محمَّد بيرم »

وفي الحرب الاخيرة تأخرت الحكومة التونسيَّة عن مساعدة الدولة ايضاً لخوفها من معارضة فرنسا فقام الشيخ بمقتضى ما ورثهُ عن ذويهِ من محبة الدولة العليَّة يحرض الوزير وينصح الامير ويحض المسلمين جميعاً على اعانة الدولة ولم يكتف بذلك فقط بل سعي سعيهُ حتَّى توصل لاستخراج فتاوى شرعيَّة بوجوب القيام بواجب المساعدة للدولة حتى لا يبقى هنالك عذر لمعتذر في ذلك التقاعس وهذا صورة السؤال الذي طلب عليهِ الفتوى

" علماء الاسلام . بعد اهداء السلام . والتحيّة والاكرام . ما قولكم . رضي الله عنكم . في نازلة صورتها ان امام المسلمين قد اخبر اهل قطر من المسلمين ممن هم تحت طاعتهِ . وداخلون تحت بيعتهِ يخطب ائمتهم باسمهِ على منابرهم بان العدوّ قد فاجأ بلاد المسلمين معلناً بالحرب ووقعت منهُ المباشرة بالفعل في حدود المملكة وكان الامام استشعر من العدوّ ما آل امرهُ اليهِ من مباشرتهِ بالحرب فهيأ من العساكر بحدود المملكة للمدافعة عن بيضة الاسلام نحو الستمائة الف وحين اطلاعهِ على جيوش العدوّ وعلم ما امكن من اخبارهم رأى الامام ان الستمائة الف تحتاج الى ضم آخرين اليهم من العدد الكثير الذي تحصل بهِ مقاومة العدد ويمكن لهُ بهِ مدافعة العدوّ فاستنفر كل من استطاع من اهالي ذلك القطر الى الانضمام الى حوزة العساكر ثم الذي وقع في الخارج بعد استنفار الامام هو ان العدوّ قد استولى على بلدان وقرى من مملكة ذلك الامام واهاليها مسلمون جارية في تلك البلدان والقرى شعائر الاسلام كما استولى على قسم من مملكة ذلك الامام سكانه نصارى يؤدون الخراج ويذعنون بالطاعة للامام وهذا القسم له بال من المملكة يبلغ عدد سكانهِ نحو الخمس ملايين وقد جعله العدوّ مركزًا لذخائره وعَدَدهِ وعُدَدهِ بما فيهِ من الحصون ومع ذلك لم يقدر العدد الوافر المهيأ من عساكر المسلمين على اخراج العدوّ لما تسلط عليهِ ثم حصلت للعدو مضرات اخرى من غزو سفنهِ وثورة قسم ممن كان تحت سلطانهِ من المسلمين باعانة الامام لهم فهل يجب والحالة ما ذكر على احاد ذلك القطر المستنفر اهله من قدر على الزاد والكراع والسلاح ان ينفر للامام ويلبي دعوتهُ سواء كان

ذلك القطر موالياً لموضع الهجوم او بعيداً عنهُ وعلى تقدير ان يكون الموضع الموالي اهله تكاسلوا اوعرض لهم مانع يتعلق الوجوب حينئذٍ بمن يلي من يليهم وهكذا ام لا يجب واذا قلنا بوجوب ذلك على الافراد والاشخاص بذلك الشرط فلو كان هناك من له منفعة عامة كمثل عالم لا اعلم منهُ في البلد بفصل القضاء فهل ذلك مسقط للوجوب عنهُ ام لا جوابكم الشافي "

وما فتئ رحمهُ الله يخلص الخدمة للبيت العثماني عند كل فرصة وبكل وسيلة حتَّى انهُ رأى رأياً ينتج عنهُ نفع المسلمين وارتقاء شأنهم جميعاً من جهة توثيق عرى الجامعة الاسلاميَّة وائتلاف ممالك المسلمين وتنظيم احوالها على ما يضمن قوة المركز وثبات الوجود ومن جهةٍ اعتلاء شأن البيت العثماني بتشييد امر الخلافة فيهِ على جميع المسلمين وممالكهم وذلك الرأي هو ان تتحد الممالك المستقلة الاسلاميَّة والولايات العثمانيَّة المستقلة استقلالاً داخلياً ثم يصير الجميع عصبة واحدة ومملكة واحدة تحت رئاسة الخليفة السلطان العثماني ومن ضمن الامور الَّتي اوصى بها في روابط هذه الجامعة ان يجتمع امراء الممالك الاسلاميَّة في بعض السنين بالكعبة المطهرة لتكون شاهداً على قوة ارتباطهم وفي ذلك من اعلاء شأن الممالك الاسلاميَّة ما لا يخفى عَلَى كل من امعن النظر في نظام الممالك الالمانيَّة الَّتي كانت ضعيفة ضئيلة بتفرقها ممالك صغيرة يسهل على الطامع ابتلاعها كما حصل مراراً فلما اتحدت جميع المقاطعات الالمانيَّة على النمط الذي نراهُ الآن بمملكة بروسيا اصبحت اعظم الممالك شأناً واشدها قوة وصارت مملكة بروسيا الَّتي كانت تحت رحمة الطامع لضعفها وانفرادها اقوى الممالك باتحادها مع بقيَّة الممالك الالمانيَّة وقد

كتب المرحوم في هذا الباب كلاماً طويلاً مستشهدًا فيهِ بالشواهد الدينيَّة والتاريخيَّة كقول احد مشايخ اسلام الاستانة الاقدمين عند تحسينهِ هذا المشروع لمن كان يعارضهُ ان الاليق بمجد السلطان وفخر الدولة ان يكون السلطان سلطان السلاطين لاسلطان الولاة وربما ادخلناهُ في ضمن ما سننشرهُ مِن بعض كتاباتهِ الَّتي تركها عند الفرصة

وقد خرج الشيخ على تلك الحال يُقلب طرفهُ في البلاد لعلهُ يجد بلدة اسلاميَّة يشد اليها رحلهُ فلم يجد من بلاد المسلمين بلدة يطمئن فيها الساكن على نفسهِ وعرضهِ ولا يكون عرضة لمثل تلك الدسائس الَّا البلاد المصريَّة وان كان دمعهُ ليجري اسفاً على تلك البلاد ايضاً الَّتي اصابها ما اصاب غيرها من سيطرة الاجنبي عليها ولكن رب ضار نافع وبعض الشر اهون من بعض وقد انكر عليهِ المتشدقون عملهُ هذا وقدومهُ على مصر في حالة وجود الانكليز وتضارب الاحوال فيها غير انهُ كان يجيب على ذلك "بان لا حق لأحد في الاعتراض عليَّ اذ ان الدولة رضيت لي الاقامة في تونس تحت حماية فرنسا حسب منطوق الارادة السنيَّة المسطرة اعلاه وتونس انسلخت بالمرة عن الممالك العثمانيَّة ولا اثر لسلطة الدولة او المسلمين فيها. اما مصر فانهُ مع وجود الانكليز فيها فانها لم تزل ولاية من ولايات الدولة وسيطرة الحكومة المحليَّة فيها قائمة وعلى فرض المساواة في المعاملة لا قدَّر الله فلا فرق بين الانكليز والفرنسيس"

وقد انتقل المرحوم بعائلتهِ الى مصر معرجاً في طريقه على بلاد اليونان وذلك في المحرم سنة ١٣٠٢ (نوفمبر سنة ١٨٨٤) اي بعد الاحتلال الانكليزي

بسنتين وشهرين ولما استوطن بالقاهرة هنأهُ حضرة المصقع البليغ الشيخ حمزة افندي فتح الله بهذين البيتين البديعين

لئن اشرقت في الشرق مصر ببيرم واضحت بهِ تلك الكِنانة تونس
فكم شاد مع آبائهِ مِن مكارم اضاءت بها في الغرب من قبل تونس

وبعد ان استراح ايَّاماً قابل الجناب الخديوي التوفيقي المرحوم فاظهر لهُ مزيد العنايةِ وانزله منزلة الثقة الامين فحكى له سموّهُ جميع ما جرى في الثورة العسكريَّة وتفاصيلها وكلما يتعلق بما قاساهُ فيها وختم كلامهُ بقوله "اني ذكرت لكم كل هذا لتتأكدوا من صداقتي لكم" ثم اظهر له من علائم الاكرام ما جعله دائم الشكر له ومن ذلك انهُ امر بان تكون مصاريف الشيخ على نفقة الحكومة كما كان في ضيافة مولانا السلطان وفي ٢٥ ربيع الاول من تلك السنة اصدر جريدة الاعلام وهي جريدة علميَّة سياسيَّة يوميَّة غير ان صحة صاحب الترجمة وقلة اختباره بالقطر المصري لم تساعداهُ على توالي اصدارها يوميَّة فجعلها تظهر ثلاث مرات في الاسبوع ثم صارت اسبوعيَّة واستمرَّت كذلك مدة طويلة بحيث ان اول عدد منها صدر في التاريخ المذكور وآخر عدد وهو ٢٦٩ صدر في غرة جمادى الاولى سنة ١٣٠٦ ثم احتجبت الجريدة المذكورة عن الظهور بتولي صاحبها خطة القضاء في محكمة مصر الابتدائيَّة الاهليَّة وكان في نيتهِ عند تأسيسها مع فتح مطبعة مخصوصة بهِ ان يشغل نفسهُ بتحريرها وبطبع الكتب المفيدة طالباً لنفع العموم بما اكتسبهُ من الاختبار بالتجول في البلدان وبما يعلمهُ من العلوم الشرعيَّة الاسلاميَّة وتطبيقها على الاحوال السياسيَّة التي ينتج عنها تحرير البلاد وانتظام امورها كما كانت تتولع بهِ نفسهُ منذ القديم

حتى قال خير الدين باشا عن هذه الجريدة انها لا تلبث ان تكون "تيمس العرب" ودفعهُ الى ذلك ايضاً ما كانت عليهِ سجيتهُ من حب الاشتغال بالعلوم وفن التحرير والانشاء وما يتسع هذا الغرض الاَّ في مثل الاشتغال بطبع الكتب وانشاء الصحف ولكن قد خاب جميع امله اذ ان الجريدة لم تطل ايامها حتى رماها بعض الناس بانها تحث على الانتماء للاجنبي وهو امر لم نقله ابدًا وغاية ما هنالك انها كانت تحث علَى الاستفادة من الانكليز ما داموا موجودين في البلاد اذ ان معاكستهم وامر البلاد والامة جميعاً في يدهم لا تحمد عقباها كما بينتهُ التجربة بعد والذي ألجأَهُ لانتهاج هذا المسلك ما قاساه مِنْ ظلم الاستبداد وما رآه من وجود عوامل محركة في مصر باغراء بعض الاجانب لتوغير صدور الناس على حكامهم اذ ذاك وخشي من دوام الحال على ذلك المنوال ان يأتي بالضرر المادي والمعنوي على الطائفة الاسلاميَّة والحاصل ان كثيرًا من الناس لم يقدروا عملهُ حق قدرهِ هذا زيادة عن ان حال الجرائد في الشرق ليس هو على ما يشاهد في البلاد المرتقيَّة في التمدن والحضارة بحيث ان الجرائد هنا لا تنجح الاَّ اذا كان لها معضد قويٌّ ولم يتعوَّد الشرق لغاية الآن ان ينمي شيئاً ما لم تكن يد الحكام فيهِ والشيخ بيرم كان قليل المعرفة بالناس واخلاقهم في مصر فلم يجن من جريدتهِ ثمرة تذكر ثم ان الكتب الَّتي طبعها تحمل بخسارة مصاريفها ولم يكسب منها شيئاً وزد على ذلك انهُ تربى في ترف وعزة نفس وهمة عالية ومن تكن هذه اخلاقهُ قلما ينجح في عمل تجاري ثم ان الحرّ اضر بصحتهِ وزاد في تقهقرها فزاد في استعمال المرفين زيادة مفرطة حتى صار يستعمل نحو الغرام وكسور

في اليوم وهو مقدار كاف لقتل عدة من الانفس الغير المتعودة عليهِ فالتزم بعد سنتين ونصف من الاقامة بمصر ان يسافر الى اوربا وكان ذلك قريب احتفال ملكة انكلترا بمضي الخمسين سنة على توليها الملك فتوجه اولاً الى مدينة فلورنسا من اعمال ايطاليا لملاقاة صديقهِ المرحوم الجنرال حسين باشا التونسي حيث طلبهُ لتسوية شؤونهِ لما اعياهُ المرض فأوقف جملة من املاكهِ على بعض اخصائهِ وخصصها بعدهم لجيوش المسلمين ومن هناك قصد المرحوم مدينة باريس لاستشارة حكمائها في امر صحتهِ ثم سافر الى لندرة عاصمة الانكليز وهناك قابل جملة من نبلائها وكبار اعيانها كاللورد سالسبوري واللورد نورثبروك وقد تكلم مع من قدّر الله والاهمال ان يكون بيدهم زمام الاحوال المصريّة بما رآهُ نافعاً لبني جلدتهِ وجنسهِ وحامياً لذمارهم ومشيدًا في المستقبل لفخارهم وكان اذ ذاك النفور متمكناً بين نائب الانكليز في مصر وبين رئيس مجلس النظار فيها فكان القوم في حيرة من هذا الامر خصوصاً والمرشحون لمنصب الوزارة في مصر قليلون جدًّا والفكر القائم في اذهان بعضهم حينئذٍ ان رياض باشا مكروهٌ في البلاد مستدلين على ذلك بظهور الثورة فيها مدة وزارتهِ الاولى فبذل المرحوم جهدهُ لصرف هذا الفكر وسعى بقدر استطاعتهِ لما فيهِ اعلاء شأن المسلمين وبعد ان حضر الاحتفال رجع الى باريس لاتمام المعالجة ثم عاد الى مصر بعد ان تغيب عنها نحو الخمسة اشهر معرجاً في طريقه على برلين وويانه وفي الاثناء المذكورة سعى الساعون كثيرًا لارجاعهِ الى الاستانة وكاتبهُ بعض اصدقائهِ في ذلك حسب ما صدرت بهِ الاوامر السلطانيّة فأظهر المرحوم كمال

استعداده للرجوع اليها قائلاً ان بيعة امير المؤمنين لم تزل في عنقي واوقف رجوعهُ على تسوية احوالهِ المالية ثم يقدم الى القسطنطينية ومع ذلك فلم تكن الاعداء تكف عنهُ الاذى في غيابهِ ايضاً حتى انهُ لما طبع صاحب الترجمة احدى رسائلهِ المذكورة آنفاً المختصة بحقوق الاشراف دس ارباب الدسائس لهُ في دار الخلافة ما اوجب المخابرة مع الحكومة المصرية بشأن موضوع تلك الرسالة اذ قيل انهُ تعرض فيها لمسالة الخلافة وهو امر لم يخطر لهُ على بال ومن العبث ان يفتكر فيهِ عاقل وحاشا لمثل الشيخ بيرم وقد وصل لما وصل اليهِ من التعب المادي والمعنوي غيرة منهُ على بني جنسهِ وملتهِ ان يتصور حدوث زيادة الشقاق بينهم وزرع بذور الخلاف بمسألة استقرَّ القرار عليها منذ قرون واجمع المسلمون قاطبة في مشارق الارض ومغاربها عند عربها وتركها وزنجها بالاقرار فيها لبني عثمان منذ عهد السلطان سليم الاول ثم تعقبوهُ ايضاً فيما يكتب في جريدة الاعلام الى ان يسر الله بقدوم الغازي مختار باشا الى مصر وظهر لهُ بالعيان فساد تلك الوشايات

وفي اثناء سفره كاتبهُ العلامة المرحوم الشيخ عبد الهادي نجا الابياري من كبار علماء الجامع الازهر ومفتي المعيَّة السنية بهذا المكتوب

بسم الله والسلام عليكم ورحمة الله

ورد الكتاب على المحب المغرمِ ... فشفاهُ مِنْ وجد الغرام المؤلمِ
قد شمت منهُ مذ شممت اريجهُ ... بشرًا بصحة ذي السيادة بيرمِ
حيًّا فأحيا مهجة كانت بما ... قاساهُ تمسي في اشد تألمِ

وابيك ما ذاقت شراباً سائغاً من بعد فرقته وراحة نائم
الاَّ بان سرَّت سرائرنا بما ابداهُ من سريان برءِ محكم
لجناب مولانا الهمام فانهُ هو بهجة الدنيا ونور العـالم
جمع الاله لهُ الفضائل مثلما جمع الزهور الروض تحت المِرزم
ما بين اخلاق كازهار الربى ومحاسن تزهو بكل مُغيم
بجمالةٍ وجلالةٍ وفخـامة وسماحة موروثة عن حاتم
وسيادة وسعادةٍ ابديَّة وجميل تدبير برأي محكم
فالله يكمل صحة لجنابهِ ما غردت قمريَّة بترنم

استفتح ألوكتي هذه بلطائف تحيَّات تتدسك بها نسائم الاسحار فتتمسك. واستفتح كمائم رقائق تضرعاتي بقلب سليم الى ربهِ تنسك. مبتهلاً اليهِ تعالى ان ينعم البال ويشرح الصدر بكمال صحة مزاج حضرة نضرة وجه الايام. وغرة طلعة الزمان وقرة اعين الانام. شمامة الدنيا الّتي بها تتأرج. وشمس قلادة العلياء الّتي بها تتبرج. علامة العصر. الذي انست محاسنهُ محاسن ابناء سلافة العصر. فما هو الاَّ روح الارواح. ولوح الفضائل الّتي تتباج في المساء والصباح. وان شفاء جسمهِ لشفاءٌ لكل عليل. وروا ظما كل غليل. فمهما صح مزاجهُ الشريف صح مزاج الايام. ومهما لبس حلل العافية فعلى الدنيا السلام. هذا ورجائي ان تنعشوا روحي بتوالي اخبار صحتكم كلما وفد وافد. وتنعموا نفسي بورود اخبار صحتكم كلما ورد لهذا الطرف وارد. ثم سعادة الهمام فكري باشا يتحف حضرتكم بلطائف التحيَّات. احسن الله انا ولهُ ولحضرتكم النهايات

في ١٣ الحجة سنة ١٣٠٤ عبد الهادي نجا الابياري

وعلى ذكر هذا المكتوب والشيء بالشيء يذكر ننشر هنا بعضاً من محررات وردت على صاحب الترجمة عن لسان المغفور لهُ توفيق باشا دلالة على منزلته لديهِ وانموذجاً على معاملته له فمنها تلغراف جاءهُ جواباً على التهنئة الّتي قدّمها يوم تذكار الجلوس الخديوي في ٢٦ يونيه سنة ١٨٨٨

حضرة الاستاذ الفاضل السيد محمَّد بيرم بمصر

تلغراف حضرتكم الوارد بتهنئة الحضرة الخديويّة على اليوم السعيد بعرضهِ قد صارت الممنونيَّة لجنابهِ العالي من ذٰلك ولزم تبليغ الامر للمعلوميَّة

سر تشريفاتي خديوي

برأس التين

ومنها مكتوب ورد لهُ من محمَّد زكي باشا تشريفاتي اول خديوي اذذاك وهو

حضرة والدنا العزيز المحترم دام بالخير والنعم

تشرفنا بورود تذكرة حضرتكم ومتشكرين غاية التشكر وبوقتهِ قدمنا الامانة للاعتاب الكريمة فحصلت الممنونيَّة التامة وامرنا بتبليغ ذٰلك لسيادتكم افندم

الداعي

في ٦ شعبان سنة ١٣٠٦ محمَّد زكي

ولما كنا بصدد ذكر هذه المحررات فلنجعل خاتمتها مكتوباً ورد على المرحوم من صديقهِ الحميم . الملاذ العظيم . ذي القلب السليم . الاستاذ الابر مولانا الشيخ محمَّد ظافر دامت بركاتهُ اذ الغاية بيان ما كانت عليهِ صلات صاحب الترجمة بمعاصريهِ ومعارفهِ ومخاطباته مع محبيهِ ولص المكتوب

الحمد لله

الى حضرة الهمام الفاضل . والعمدة الكامل . جامع شتات الفضائل . وناظم فرائد محاسن الشمائل . ومنبع المعارف . ومجمع اللطائف . وقطب فلك السياسة ومركز دائرة ارباب الرئاسة . جناب الاعز الاكرم . مولانا الشيخ سيدي مُحَمَّد بيرم . ادام الله عزهُ واقبالهُ . وانالهُ مناهُ وآمالهُ . آمين

بعد اهداء تحيّات اطيب نفحا من روض الازهار . وألطف من انسيم الاسحار . فقد وصل كتابكم الكريم . المشتمل على الدر النظيم . الحري بالتبجيل والتعظيم . وقرت بهِ اعيننا سرورًا . وامتلأت بهِ قلوبنا بهجة وحبورًا . وما اعلنتموهُ من الفرح والجذل . بحصول نشاط محبكم مِن عارض المرض الذي حصل . فهو من علامات تمام الوداد . وخلوص محبتكم الاصيلة وكمال الاعتقاد . ولكم عندنا من ذلك الحظ الاوفر . والقسط الاكبر . وما عطفتم بهِ على ذلك من الذكر الجميل . والثناء والتبجيل . على المحب فهو من انطباع كمالاتكم الظاهرة . التي تجلت في مرآت ذاتي واصبحت في عالم الشهادة لكم ظاهرة . كما هو مصداق قولهِ صلى الله عليهِ وسلم المؤمن مرآة اخيهِ كما يشهد بذلك ذوق كل صديق وموقن وعلى كل فنحن معترفون بالقصور . ونسأل الله سبحانهُ وتعالى التوفيق في جميع الامور . وان يجعلنا ببركة دعاكم مظهرًا للخيرات . وواسطة لتوالي المبرات . وان يجعل العاقبة للمتقين . وينجز وعدهُ بنزول نص النصر على اعلام جيوش المؤمنين . ونخص بالسلام كامل من بحضرتكم وجناب اخينا الشيخ سيدي حمزه مسلم عليكم . وكذا كامل اولادنا مقبلين يديكم . وهذا ما لزم . ودام مجدكم والسلام

خادم الفقرا

مُحَمَّد ظافر المدني

١٣ شعبان سنة ١٢٩٤

وقد تفرغ صاحب الترجمة في الاوقات الّتي يتركها لهُ المرض لاتمام تأليف ابتدأهُ في استانبول سماهُ "تجريد السنان للرد على الخطيب رونان" وذلك ان العالم الفرنساوي المذكور وهو من مشاهير اهل بلاده تعرض في خطابة القاها بباريس تحت عنوان "الاسلام والعلم" الى ذكر الديانة الاسلاميَّة وانها تمنع العلوم من الانتشار بين ابنائها فأفسد صاحب الترجمة هذا الزعم برد مقنع اتى فيهِ على ذكر جميع العلوم والفنون الّتي استنبطها المسلمون او نقحوها ولهُ رسالة في صورة سؤال حرَّرها في جواز شراء اوراق الديون الّتي تصدرها الممالك الاسلاميَّة حتَّى تبقى اموال المسلمين في بلادهم ولا يحجبهم عنها اشتباه الرباء الذي لا ينطبق في هذه الحالة عليها وكتب تقريرًا مسهبًا في شأن التعليم بمصر ذهب فيهِ الى لزوم انتشاره باللغة العربيَّة لسهولة تناوله وتعميمهِ بين العموم مستندًا في ذلك على عمل العرب في صدر الاسلام وعلى عمل الاروباويين انفسهم فانهم لا يعلّمون الاَّ بلغاتهم وقد نجحوا اما مصر فلما اتبعت طريقة التعليم باللسان الاجنبي لم تنتشر فيها العلوم والفنون مع طول الزمن الذي مضى من حين تأسيس المدارس فيها ولهُ ايضاً عدة كتابات على جملة احاديث نبويَّة شريفة وهي الّتي كان يحتفل بختمها في تونس على حسب العادة الجارية هناك في المدرسة العنقيَّة الّتي كان شيخًا عليها وفي سراي المرسى عند جناب الامير الحالي وسننشر جميع هذه الرسائل والمنشآت والقصائد وغيرها من التحارير العلميَّة والسياسيَّة الّتي كتبها في مجموعة خاصة بحول الله تعالى ولم تتركهُ ايضاً في مصر دسائس بعض الفرنسيس وتهمهم الباطلة فمن ذلك ان جريدة لانترن

(المصباح) الباريسيَّة نشرت خبرًا عن مكاتبها في القاهرة في شهر أُغسطس سنة ١٨٨٩ مفادهُ ان الشيخ بيرم سافر متوجهًا الى الشيخ السنوسي للاتفاق معهُ على اهاجة نار الفتنة في السودان بواسطة المهدي والقصد من ذلك كلهِ معاكسة فرنسا وصادف نشر هذا الخبر خروج صاحب الترجمة حقيقة من القاهرة ولكن لاستنشاق الهواء البارد على شاطئ البحر في جهة رأس البر بدمياط وقد تجول المرحوم في كثير من انحاء القطر المصري وكان يكتب اثناء تجولهِ في ذهبيَّة بقيَّة صفوة الاعتبار فاتم الجزء الرابع واول الخامس ولم يمهلهُ الاجل لاتمامهِ فانهُ كان يقصد التوسع في الكتابة عن بلاد النمسا وسويسره والمانيا ورومانيا والبلغار والصرب واليونان وهي البلاد التي شاهدها ولكن ما كتبهُ اجمالاً عنها في الجزء الاول يمكن ان يغني القارئ عن التفصيل والاسهاب وكان ينوي كتابة خاتمة صفوة الاعتبار على نمط مقدمتي تاريخ ابن خلدون واقوم المسالك فلم تمكنهُ صحتهُ ولا اجلهُ من اخراجها من حيز الفكر الى قوة العمل ونحن نورد هنا بعض تعليقات كتبها ليوسع البحث فيها في هذا الموضوع عسى ان يقيض الله من يمشي على نمطها اذ المقصود هو نفع ملتنا وايقاظنا من غفلتنا وكفى بماجرى للامة في القرنين الماضيين من التقهقر والتلاشي والانحلال واعظًا في ديوان العبر واهم باب المبتدا والخبر لمن يروم الاستفادة بالماضي ليدفع بهِ غائلة المستقبل اما تعليقاتهُ فهي فيما ينبغي لنا اتخاذهُ وتدبير نفوسنا عليهِ وفيهِ فصول الاول في زيادة نشر العلم الثاني في كيفيَّة الحكم وانهُ ينبغي اتخاذ قول واحد من المذهبين (اي في تونس حيث الاحكام جارية بمقتضى المذهبين الحنفي والمالكي). الثالث في كيفيَّة ادارة

السياسة وما هو عمل الملك وما هو عمل كل وزير وما هو عمل مجلس النواب الذي حقهُ ان يتخذ من الاهالي وان لا تعطى الكلفة دفعة واحدة بل على قدر استطاعة الاهالي وقابليتهم وان ذلك يأتي في المسلمين من الملك وهو المربي لرعيتهِ والسبب في عدم اعطاء الحريَّة التامة في فرنسا كما هو جار في انكلترا ثم تعامل الدول مع دول الاسلام على خلاف التصرف في داخليتهم لضعفنا وعدم انصافهم فعلينا بالوسائل وحكم تذاكر البنوك شرعاً وليس هو من قبيل السفتجة . وعلاقة الدول والاحكام وفوائد الصحف وفوائد سكك الحديد والبريد والتكلم عليهِ وعدم تأخير المقصد في الكلام عند الزيارة لاثنين معاً . والنهي عن الغيبة بين الاخوان . اجتهاد اليهود في المال بكل بلاد واغلب الصناعات بأيديهم وعدم تعاطيهم الصنائع المجهدة . الطرق الموجبة للنفرة بالتفاضل . ابلاغ الشريعة الى الكفار واجب ولو بدون حرب . اجتهاد الاجانب في العمل حتى وصّلوا بين شاطىء اميركا والبحرين الاحمر والابيض وخرق المنسني والخرق تحت المنش . اسباب عدم استواء الدول الاجانب في التظلم ببلاد الاسلام على حسب مقاصدهم وقوتهم فامريكا مثلاً وان كانت رعيتها عند الترك قدر رعيَّة الانكليز فلا تجد منهم تظلماً ولا اقامة حجة مستمرة من سفيرهم . الوجوب على الحكومة والعلماء فيمن يتوجه الى الحج بتعليمهِ ما يجب عليهِ قبل السفر والاَّ فيمنع

وفي ١٢ جمادي الاولى سنة ١٣٠٦ (١٤ يناير سنة ١٨٨٩) عين صاحب الترجمة قاضياً في محكمة مصر الابتدائيَّة الاهليَّة في مدة وزارة رياض باشا الثانية وكان في وزارة نوبار باشا كُلف المرحوم بكتابة ما يراهُ

عن القوانين المعمول بها في المحاكم الاهليَّة من حيث مطابقتها للشريعة الغراء او القوانين الجارية في الدولة العثمانيَّة الشامل لها كتاب المجلة والدستور فرام اولاً التوسع في الموضوع بتقسيم القوانين المصريَّة باباً باباً ومقارنتها بالمجلة او الدستور واذا لم يجد نصاً مطابقاً لها فيهما فيطبقها بقدر الامكان على قول احد المجتهدين بدون تقيد بمذهب مخصوص غير ان عملاً مثل هذا يلزمهُ طول الوقت وكثرة العمال والزمن غير قاض بذلك فالتزم ان يصرف النظر عن هذا العمل وكتب عن القوانين ما نصهُ

" القوانين الاصول الَّتي عليها مدار الحقوق في الحكومة المصريَّة هي القانون المدني وقانون التجارة البري وقانون التجارة البحري وقانون العقوبات وهاتهِ القوانين الاربعة لنظر مطابقتها للقوانين العثمانيَّة اوللشريعة المطهرة على التفصيل الآتي

فاما قانون العقوبات وقانون التجارة البريَّة والبحريَّة فجميع ما يوجد من موادها في القوانين العثمانيَّة المماثلة لها هو مطابق مطابقة كاملة وهو ايضاً الاكثر من مواد القوانين المصريَّة لكن القليل جدًّا من مواد هاتهِ القوانين لا يوجد اصلاً في مثلها من القوانين العثمانيَّة . واما القانون المدني المصري فهو مخالف للمجلة العثمانيَّة الَّتي هي قائمة مقامهُ مخالفة كثيرة كليَّة غير ان القانون المدني المصري مع ذلك اكثرهُ مطابق للشريعة المطهرة على الاطلاق من غير نظر الى خصوص مذهب معين بل بالنظر الى اقوال الائمة المعمول باقوالهم في الديانة والقليل من هذا القانون المدني مخالف ايضاً لجميع تلك الاقوال غير ان تحويره بما يرجع بهِ الى مطابقة احدها مما يقتضيهِ الحال امر سهل يسير بفطنة حذاق اهل الخبرة والعلم "

وكذلك كلفهُ الباشا المشار اليهِ تقديم تقرير بما يراه لاصلاح حال الاوقاف وقد فعل وكان موجهاً همتهُ في مدة توظفه بالمحاكم للسعي وراء تطبيق قوانينها على الشريعة الغراء ولماقدم ولي عهد الانكليز الى مصر كان صاحب الترجمة من الافراد القليلين الذين اجتمعوا بهِ وفي تلك السنة انهى رياض باشا ترميم منزله بالحلمية فهنأهُ المرحوم بهذه الابيات

ان الوزير المصطفى في عصرهِ لا زال عوناً للمليك بازرهِ
ابدى من التدبير في الاصلاح ما قد حقق المعهود منهُ بقطرهِ
فلقد اتى في قصره ما يبتغي حسناً بهِ ومتانة مع وفرهِ
والقطر قصر واسع الارجاء قد ابدى له انموذجاً من قصرهِ
وكلاهما مستأهل بعيالهِ وادارة باصابة من فكرهِ
فكما نشاهد في الصغير اجادة فكذا الكبير نراهُ صار بامرهِ
اذ اتقن التحسين حتى ارَّخوا قصر رياض فيهِ جنة مصرهِ

(سنة ١٨٨٩)

وقد عُين عضوًا في اللجنة التي تشكلت للنظر في تعميم المحاكم الاهلية بالوجه القبلي وعضد هذا التعميم وكذلك انتُخب عضوًا في لجنة تشكلت في المحكمة بناء على طلب نظارة الحقانية لتقديم تقرير للنظارة بكل ما يرى لزوم تعديله في القوانين على حسب ما يلائم حالة البلاد وعُين عضوًا في لجنة بنظارة الداخلية لمراجعة الاحكام الصادرة من قومسيونات الاشقياء وانبنى على عمل هذه اللجنة الافراج عن عدد عظيم من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في طره وكان امضاؤه على تقرير هذه اللجنة آخر اعماله

الرسمية فتوجه الى مدينة حلوان لتغيير الهواء وهناك اشتد عليهِ المرض وبلغ بهِ الضعف غاية المنتهى وظهر في جهة جنبهِ الايسر خرّاجان بسبب الحقن بالمرفين اعقبهما بعد فتح الطبيب لهما تكوُّن المادة في الرئة وبعد ان لازم الفراش بالمرض المعروف بذات الجنب نحو الخمسة والعشرين يوماً فارق الحياة وذلك في الساعة الخامسة ونصف بعد ظهر يوم الاربعاء ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٠٧ (١٨ دسمبر سنة ١٨٨٩) وقد خلف ثلاثة بنين رزق بهم من بنت عمه التي تزوَّج بها في ١٤ ربيع الثاني سنة ١٢٧٧ وكان قبل ملازمته للفراش محتفلاً بالمولد النبوي الشريف هناك بحضر بعض الاصحاب وقد دخل الى الحرم من تلك الحفلة ولم يخرج حيًّا وفي مدة مرضه ورد عليهِ مكتوب من صديقهِ رياض باشا ونصهُ

"جناب الاستاذ

من صميم الفؤاد قد تكدرت من خبر ما طرأ على جنابكم من انحراف المزاج الذي لم اعلم بهِ الاَّ من منذ كم يوم وادعو المولى سبحانهُ وتعالى ان يمنَّ عليكم بالشفاء وكمال الصحة والعافية ونراكم معنا عن قريب وعلى اي حال اترجاكم ان لا تؤاخذوني والعذر عند كرام الناس مقبول

في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٠٧ محبكم المخلص

❋ رياض ❋

وقد حضر دولة الباشا المشار اليهِ الى حلوان وقصد عيادتهُ وارسل اليهِ نجله وكذلك كان المرحوم توفيق باشا كثير السؤال عنهُ يوميًّا بواسطة طبيبهِ عيسى باشا حمدي ولما توفى اظهر لابنائهِ جميل التلطف تغمدهُ الله

برحمتهِ وقد شيع رياض باشا جنازة صاحب الترجمة صبيحة يوم الجمعة وكانت مودَّتهما صافية خالصة ودفنهُ في التربة المخصوصة الَّتي شيدها بقرب ضريح الامام الشافعي رضي الله عنهُ وقد كُتب على قبرهِ هذه الابيات وهي من انشاء الشاعر البليغ حفني بك ناصف

يا قبر اضنانا البكاء وتبسمُ … ادريت ان الفضل فيك مخيمُ
أَعلمتَ انك قد حويت محمَّدًا … وتركت اكباد الورى تتضرَّمُ
هذا الذي كانت بدائع فكرهِ … تملي البيان على اليراع فينظمُ
من عترة ثوت العلوم بدارهم … فهم لطلاب الهداية انجمُ
اولاهُ مولاهُ مواهب فضلهِ … والله يعطي من يشاء ويرحمُ
واقام في دار النعيم فأَرخوا … في جنة الفردوس أُسكن بيرمُ

سنة ١٣٠٧

وقد رثاهُ جملة من احبابهِ وكتبت الجرائد تدميهِ ولنقتصر منها على ما قالتهُ " الوقائع المصريَّة " جريدة الحكومة المصريَّة الرسميَّة الصادرة في ٢١ دسمبر سنة ١٨٨٩ نمرة ١٤٥ " انا لله وانا اليه راجعون . في آخر ليلة الخميس الماضي انتقل من هذه الدار الفانية الى الدار الآخرة الباقية المرحوم الشيخ محمَّد بيرم احد قضاة المحكمة الابتدائيَّة الاهليَّة بمصر وصاحب جريدة الاعلام العربيَّة وكانت وفاتهُ رحمهُ الله بمدينة حلوان عقب اشتداد الداء العصبي الذي مني بهِ من عدة سنين ولم ينجع فيهِ علاج الاطباء

وفي صباح يوم الجمعة الماضي احتفل بنقل جسدهِ من حلوان احتفالاً يليق بمقامهِ وفضلهِ وانتظرهُ على محطة ميدان محمَّد علي العدد العديد من

رجال الحكومة السنيّة واكابرها وفي مقدمتهم صاحب الدولة رياض باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخليّة والماليّة وكثير من العلماء وقضاة المحاكم الاهليّة ومشاهير المحامين وذوي الفضل من الوجوه والاعيان . ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام ما كان من صاحب الدولة رياض باشا من العناية بأمر المرحوم والاهتمام بشأنهِ والمساعدة في اكرام تشييع جنازتهِ ودفنهِ وتعزية اولادهِ وتشجيعهم على تحمل المصاب الى غير ذلك من الاحتفال والاكرام ولما وصلت الجنازة الى المحطة شيعت في مشهد حافل مشى فيهِ دولة رئيس النظار ومن تقدم ذكرهم ومن حضروا من حلوان بغاية السكون والوقار وكان في مقدمة المشهد الذاكرون ومرتلو البردة وغيرها من الاحزاب والاوراد ثم المشيعون للجنازة فحملة السرير وكلهم آسفون لفراق هذا الرجل العظيم الشان وقد دفن رحمهُ الله في المدفن الذي بناهُ صاحب الدولة رياض باشا بقرافة الامام الشافعي عليهِ الرضوان وفرّقت الصدقات على الفقراء والمساكين ودعا الناس للمرحوم بالرحمة والغفران

اما الرجل رحمهُ الله فكان عالمًا فاضلاً فقيهًا كاملاً متضلعًا من العلوم الشرعيّة بأنواعها مطلعًا على احوال الامم ولهُ الباع الطولى في فنون التاريخ القديم والحديث وكان من ذوي الاقلام البليغة فيما يريد كتابتهُ من المواضيع وقد ألف رسائل كثيرة في الاحاديث والاصول والاحكام الشرعيّة والجغرافيا التاريخيّة والسياسيّة وغيرها وكلها تدل على غزارة مادتهِ وسعة تفننهِ في المعارف والعلوم وكان كثير الاستشهاد بأحوال الامم الغابرة والحاضرة في كتاباتهِ واقوالهِ ولهُ قوة حاضرة في اقامة الدليل والبرهان كما يشهد بذلك

المقامات الافتتاحيّة التي كان ينشرها في جريدة الاعلام رحمهُ الله رحمة واسعة وافرغ على آلهِ وذويهِ جميل الصبر . وعزاهم على مصابهم فيهِ اكمل العزاء واثابهم على الصبر عظيم الاجر آمين "

وهذا ما قالتهُ جريدة الحاضرة الصادرة بتونس في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٩ عدد ٧٤ " صباح يوم الخميس الفارط نشرت اخبار التلغراف من حلوان مصر القاهرة خبر وفاة العلامة النحرير صاحب الصيت الشهير المؤلف الشيخ السيد محمّد بيرم وبما انهُ من مفاخر البلاد التونسيّة تقوم الحاضرة بواجب رثائهِ وهي ادرى من غيرها بفضائل رجالها فقد ولد هذا العالم في بيت العلم البيرمي سنة ست وخمسين ومائتين والف وتربى في مهاد العلم والتعليم وقرأ على ابن عمهِ الشيخ احمد بيرم وعلى عم جدهِ الشيخ مصطفى بيرم وعلى شيخ الاسلام الشيخ محمّد معاوية وقرأ على الشيخ الطاهر بن عاشور والشيخ الشاذلي بن صالح والشيخ محمّد الشاهد والشيخ علي العفيف وغيرهم من فحول جامع الزيتونة الى ان حصل على مرتبة عالية ونقدم لخطتي التدريس وقرأ كتباً مهمة بجامع الزيتونة وولي مشيخة المدرسة العنقيّة بعد وفاة عمهِ شيخ الاسلام الرابع وختم بها الاختام المهمة وكان يعيدها كل سنة في بيت الحضرة العليّة وكان عالمًا فاضلاً عالي الهمة عزيز النفس رفيع الحسب منشئًا فصيح اللسان جميل المحاضرة صاحب اناة ووقار خبيرًا بالسياسات الشرعيّة والوقتيّة حسن التدبير واسع الادارة امتنع من قبول الخطط الشرعيّة عدة مرار متعللاً بضعف بدنهِ وكان عضوًا في عموم الجمعيّات التي انعقدت لوضع التراتيب العلميّة والتنظيميّة اول الوزارة

الخيريّة وهو الذي قام برئاسة جمعيّة الاوقاف عند تأسيسها فأسس اصولها بعد ان جمع شملها بما يقتضيهِ العلم والانصاف وولي نظارة المطبعة الرسميّة واعترتهُ امراض عصبيّة بمعدتهِ سافر بسببها عدة مرار لباريز وايطاليا وحنكتهُ الاسفار بما يزيدهُ في الاعتبار وباشارتهِ كان انشاء المستشفى الصادقي وباشر اقامتهُ على النمط الذي رآهُ بباريز ومن قلمهِ كان انشاء قانونهِ وشكرهُ الامير يوم فتحهِ في الموكب العمومي وولي عضوًا في مجلس الدولة الشوري على عهد وزارة ابن اسمعيل واشتد مرضهُ والحّ في طلب الإعفاء ولم تسعفهُ الدولة بذلك وخرج لبيت الله الحرام اواخر سنة ست وتسعين ومائتين وألف ورجع على طريق الشام ولما رأت الدولة انحلال وظائفهِ احالتها لغيرهِ في الثامن والعشرين من محرم سنة ١٢٩٧ وتنقل من الشام الى دار الخلافة العثمانيّة فنزل بمنزل التعظيم والتكريم وعرضت عليهِ نقابة الاشراف والفتوى بالشام فلم يقبل لضعف بدنهِ ثم انضمَّ اليهِ ابناؤهُ وعائلتهُ واجرت عليهِ الدولة جراية سلطانيّة وهنالك ألف رحلتهُ صفوة الاعتبار بمستودع الاقطار والامصار واودعها من الاصول السياسيّة والاصول العلميّة ما يدل على كمال تضلعهِ وقوة عارضتهِ واقام بالاستانة الى ان شق عليهِ مرضهُ العصبي واشار عليهِ الاطباء بالتنقل الى البلاد الحارة فتنقل بأهله وابنائهِ اول المحرم سنة اثنتين وثلاثمائة والف وتلقتهُ الديار المصريّة بالرحب والقبول وانزلهُ الجناب الخديوي منزلة التكريم واجرى عليهِ جراية تليق بأمثالهِ وفتح بها مطبعتهُ الاعلاميّة وافادت صحيفة "الاعلام" في سائر الجهات العربيّة الى ان ولي حاكمًا بالمحكمة الاهليّة وفي اثناء هاتهِ الاسفار كان مجدًا في الاعتناء بكرام

ابنائهِ في المدارس الى ان وصلوا الى قدم الكفاءة للمهات وترقى اولهم لخطة كاتب بمجلس النظار بالديار المصريَّة نسأل الله ان يجعل منهم خلفاً محمودًا وان يديم عليهِ في نعيم الجنان ظلاً ممدودا "

هذا وقد قيل ان قيمة المرء لا تقوم بمقدار مادحيهِ فقط بل بانضمام المنتقدين عليهِ ايضاً وعلى ذلك نقول انهُ من دون سائر الجرائد العربيَّة والافرنجيَّة قد انفردت احدى جرائد الاستانة العربيَّة بنشر ما يخالف امره عليهِ الصلاة والسلام " اذكروا موتاكم بخير "

ولم يكن ذلك ليؤثر على حسن صيته وشهرتهِ فقد قيل — كلام العدى ضرب من الهذيان — ومن تأمل في تاريخ حياة المغفور لهُ علم انهُ كلما خفض الاعداء والحساد من شأنهِ ذراعاً ارتفع ميلاً وكلما اشتدت بهِ ملمات الحوادث وكوارث الزمن زاد قدره اعتلاء فقد خرج المرحوم من دياره مغربًا مشردًا فما زالت بهِ همتهُ حتَّى بلغت بهِ الى شرف المقابلة بالحضرة الشاهانيَّة ونوال اقصى الرعاية السلطانيَّة وخسر امواله واملاكه فقام له فضله وعلمه بعدم الحاجة لاحد فعاش ميسورًا ومات ميسورًا واجتهد بعض ذوي التقصير في الحط من سيرتهِ والطعن في شهرتهِ فما زاده ذلك الاَّ اعتلاء في الصيت واحتراماً في النفوس وتوقيرًا في الصدور فقضى حياتهُ حميد السيرة وانتقل الى رحمة ربهِ طاهر السريرة وعلى كل حال فنسأل الله ان يجازي الجميع خيرًا ولا يريهم ضيرًا هذا وقد كتبت ما كتبتهُ والله يعلم اني لم اقصد بهِ فخرًا ولا حبًا في الظهور وانما هي حقائق مثبوتة بمستنداتها القيتها تحت نظر القارئ ليرى في حياة هذا المؤلف وما طرأ عليهِ من

نعيم وبؤس العبرة الّتي يتوخاها وقياماً بحقوق الابوة والتربية واجابة لما كان كلفني بهِ عند قدومهِ الى مصر ولكوني اعلم الناس بأحوالهِ رحمهُ الله رحمة الابرار

وكلما تذكرت على قبره محاسن افعاله في حياتهِ العموميّة وجميل اخلاقه وشهامة نفسهِ في حياتهِ الخصوصيّة اكاد انشد بيت المعرّي مخاطباً لقبر ابيهِ

لَأطْبقتَ اطباق المحارة فاحتفظ بلوءلوءة المجد الحقيقة بالخزن

٩ ذي الحجة سنة ١٣١١ ﴿ مُحمَّد بيرم ﴾

كتاب

صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار

وهو رحلة

الشيخ الجليل والعالم المحقق النبيل السيد محمد بيرم الخامس التونسي
رحمهُ الله وطيب ثراه

الجزء الاول — يشتمل على مقدمة وأقسام وفيها مباحث في احكام السفر شرعاً والاستدلال على قدرة الخالق والقول بتكوير الارض ودورانها والاستدلال على ذلك بأقوال الحكماء والفقهاء والصوفية وغير ذلك من المباحث الشرعية والعلمية الطبيعية وذكر ما ورد في السفر من كلام الحكماء والادباء وحكم السفر لغير ارض الاسلام واسباب سفر المؤلف وتقسيم احوال اهل الارض الآن مقسماً ذكرهم الى ٨٧ فصلاً اي على عدد الحكومات المستقلة مشروحة كل واحدة منها بالشرح الوافي وهو اتم كتاب في الجغرافية العمومية للكرة الارضية مطبوع باللغة العربية وفي هذا القسم كثير من الفوائد كدخول الاسلام الى الصين وذكر دولهم فيهِ والمملكة التي أنشأها السلطان سليمان وذكر استيلاء الانكليز على الهند والموكب الذي حصل لتلقيب ملكتهم بسلطانة الهند وسفر ولي عهدهم الى ذلك القطر وماجرى لهُ من الاحتفال وكذلك سفر شاه ايران الى اوربا والاستانة وما لاقاهُ فيها من اكرام السلطان عبد العزيز وتفصيل احوال مملكة مراكش واسباب تقدم اوربا ويلي هذا الكلام على القطر التونسي منشإ المؤلف ثم جدول عمومي عن احوال جميع ممالك الارض وبيان عدد سكانهم ودياناتهم وقواتهم الحربية والبحرية وايرادهم ومصروفهم وتجاراتهم وديونهم وطول السكك الحديدية فيها

الجزء الثاني — في بقية الكلام على القطر التونسي بالتفصيل عن ادارتهِ وسياستهِ واحكامهِ واخلاق اهاليهِ وجميع ما يتعلق بذلك من زمن الفتح الاسلامي الى حين دخول فرنسا فيهِ

الجزء الثالث — في الكلام على مملكتي ايطاليا وفرنسا بالاسهاب واسباب تقدمها وتاريخها القديم والحديث وحالتهما الادارية والسياسية وقواتهما الحربية والمالية وانتشار العلوم والمعارف فيهما ورسوخ الحرية في ابنائهما

الجزء الرابع — في الكلام على قطر الجزائر وتاريخهِ ودخول فرنسا فيهِ وما وقع في حربهِ مع الفرنسيس وبيان حالتهِ الآن كل ذلك بغاية البسط والشرح وكذلك الكلام على مملكة انكلترا وما رآهُ المؤلف فيها وذكر تاريخها واسباب تمدنها وتقدمها وانتشار مستعمراتها واحوالها بالتفصيل ثم ذكر جزيرة مالطه واستيلاء الانكليز عليها وحالتها قديماً وحديثاً

وفي هذا الجزء الكلام على القطر المصري وبيان احوالهِ الى سنة ١٣٠٣ هجرية اي حين وصول المرخصين العثماني والانكليزي اليهِ وذكر الديار المصرية وجغرافيتها وتاريخها وحكوماتها وسياستها وتفصيل الثورة العسكرية وفيهِ بحث عن افساد دعوى حرق المسلمين لمكتبة الاسكندرية

الجزء الخامس — في الكلام على الحجاز بالتفصيل والدولة العثمانية وتاريخها الى حين عقد معاهدة برلين واسماء سلاطينها وتاريخ ولايتهم مع بيان اعالم الشهيرة منظومة في قصيدة وفي جميع هذه الاجزاء مكاتبات لبعض الملوك والسلاطين والامراء ومعاهدات دولية كثيرة وفرمانات سلطانية متعددة في اغراض ومقاصد شتى ويلي هذا الجزء ترجمة المؤلف بغاية الشرح والبسط وما حصل لهُ في اسفارهِ وتنقلاتهِ ومخاطبات الامراء والوزراء والعلماء والشعراء لهُ وهي خاتمة الكتاب

فهرست

﴿ الجزء الخامس مِنْ صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار ﴾

صحيفة